دون ديليلو

رواية

ترجمة: يزن الحاج

ضوضاء بيضاء



التنوير

دون ديليلو

ضوضاء بيضاء

رواية

ترجمة يزن الحاج

الكتاب: ضوضاء بيضاء / رواية

تأليف: دون ديليلو

ترجمة: يزن الحاج

عدد الصفحات: 400 صفحة

الطبعة الأولى: 2016

الترقيم الدولي: 978-977-6483-75-0

رقم الإيداع: 2016/15733

Original English Title: WHITE NOISE

Published by arrangement with The Wallace Literary Agency, Inc.

دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة–وسط البلد–19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –الدور 8 – شقة 82

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الأول –

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

دون ديليلو

ضوضاء بيضاء

رواية

ترجمة يزن الحاج

التنوير

This book is published in collaboration with the Arabic Book Program (ABP) of the U.S. Embassy Cairo. ABP works with Egyptian publishers to translate and publish books that reflect U.S. culture and values.

ينشر هذا الكتاب بالتعاون مع برنامج الكتاب العربي بالسفارة الأمريكية في القاهرة، وهو برنامج يعمل مع دور نشر مصرية على ترجمة ونشر كتب تعبر عن الثقافة والقيم الأمريكية

إهداء المؤلّف

إلى سو بَكْ وإلى لُويس والاس

إهداء المترجم

إلى بشرى وسيليا

I

أمواج وإشعاعات

1

وصلت سيّارات الستايشن عند الظّهيرة، خطٌّ برّاقٌ طويلٌ اجتاز الحَرَم الغربيّ. في رتلٍ واحدٍ أبطأتْ مسيرها حول المنحوتة المعدنيّة التي على شكل حرفِ I وتحرّكت باتّجاه المهاجع. كانت أسقف سيّارات الستايشن مُحمَّلةً بحقائب مربوطة بحرص ومليئة بالملابس الخفيفة والثقيلة؛ وبصناديق بطّانيّات، وأبواط وأحذية، وقرطاسيّة وكتب، ووسائد، ولحف؛ وبُسُطٍ وأكياس نوم ملفوفة؛ ودرّاجات، وزلّاجــات، وحقائب ظهر، وأسرجة درّاجــات إنكليزيّة وغربيّة، وطوّافات منفوخة. مع إبطاء السيّارات وتوقّفها، اندفع الطلّاب خارجًا وهرعوا إلى الأبواب الخلفيّة وبدؤوا إفراغ الأغراض التي في الداخل؛ أجهزة ستيريو، وراديوهات، وكمبيوترات؛ وثلّاجات صغيرة وأفران طاولة؛ وكراتين أسطوانات الفونوغراف والكاسيتات؛ ومجفّفات الشّعر ومكاوي تصفيف الشّعر؛ ومضارب التنس، وكرات قدم، وعصيّ هوكي ولاكروس، وأقواس وسهام؛ وأدوية تُصرف بموافقة الطبيب، ومواد منع الحمل، من حبوبٍ وأجهزة؛ وطعام بلا قيمة غذائية لا يزال في الأكياس، شيبس بنكهة البصل والثوم، ورقائق ناتشوز، وفطائر كريما الفستق السودانيّ، ووافل وكابوم، وعلك بنكهة الفواكه وبوشار التوفي؛ ومصّاصات دَمْ-دَمْ، وأقراص النّعناع.

كنتُ أحضر هذا المشهد كلّ سبتمبر منذ إحدى وعشرين سنة. إنّه حَدَثٌ رائع، دومًا. يُحيّي الطلّاب بعضهم بعضًا بصيحات فكاهيّة وملامح

انهيارٍ أبله. كان صيفهم ضاجًّا بالمتع الإجراميّة، كالمعتاد. يقف الأهل دائخين في الشّمس قرب سيّاراتهم، يرون صورًا من أنفسهم حولهم. آثار الاسمرار المُعتنى بها. الوجوه متقنة الانطباعات والنّظرات الملتوية بازدراء. يغمرهم إحساسٌ بالتجدّد، وبالتّقدير الجمعيّ. النّساء نضرات ومتحفِّزات، بأناقة الحِمْية، يعرفنَ أسماء الناس. وأزواجهنّ قانعون بمراقبة الوقت، بعيدون ولكن دون تذمّر، أنجزوا مهمَّاتهم الأبوية، وثمة شيءٌ فيهم يوحي بغطاء تأمينٍ هائل. تجمُّع سيّارات الستايشن هذا، مثل أيّ شيءٍ آخر قد يفعلونه خلال السنة الدراسيّة، غير الطقوس الرسميّةً أو القوانين، يُنبئ الأهل أنّهم مجموعةٌ من المتماثلين فكريًا والمتشابهين روحيًا، شعبٌ، أمّةٌ.

تركتُ مكتبي ونزلت التلّ مشيًا باتجاه البلدة. ثمة منازل في البلدة من طابقين بواجهاتٍ بُرجيّةٍ وأروقة حيث يجلس الناس في ظلّ أشجار القيقب المُعمّرة. كنائس إحيائيّة يونانيّة وقوطيّة. مصحّ للمجانين برواقٍ مُعمَّدٍ طويلٍ، وشبابيك بارزة مزخرفة وسقفٍ بحافّةٍ شديدة الانحدار مُتوَّج بقمّة على شكل ثمرة أناناس. بابيت وأنا وأطفالنا من زيجاتٍ سابقة نعيش في نهاية شارع هادئ، في ما كانت في الماضي منطقة غابات ووديان عميقة. ثمة طريقٌ مختصرةٌ وراء الفناء الخلفيّ الآن، تحتنا تمامًا، وحينما نخلد ليلًا في أسرّتنا النحاسيّة، تكون حركة المرور طفيفةً، فيما تحفّنا همهماتٌ بعيدةٌ ومستمرةٌ في نومنا، كما لو كانت أرواح الموتى تُثرثر عند حافّة الحلم.

أنا رئيس قسم دراسات هتلر في الكليّة-على-التلّ. ابتكرتُ دراسات هتلر في أميركا الشماليّة في مارس 1968. كان نهارًا مشرقًا باردًا مع رياحٍ متقطّعةٍ قادمةٍ من الشّرق. عندما اقترحتُ على رئيس الجامعة أنّ نؤسّس قسمًا كاملًا مختصًّا بحياة هتلر وعمله، انتبه للاحتمالات بسرعة. كان نجاحًا صاعقًا ومباشرًا. تابع رئيس الجامعة حياته مستشارًا لنيكسون، وفورد، وكارتر قبل وفاته في مصعد تزلّج في النمسا.

عند تقاطع الشارع الرابع مع شارع إلم، تنعطف السيّارات يسارًا باتّجاه السوبرماركت. يراقب المنطقة شرطيٌّ رابضٌ في سيّارةٍ تشبه الصندوق، باحثًا عن السيّارات المركونة في مكان مخالِف، وعن انتهاكات العدّاد، وملصقات التّفتيش اللاغية. على كابينات الهاتف في كل أنحاء البلدة إعلاناتٌ بشأن كلاب وقطط ضائعة، تكون أحيانًا مكتوبةً بخطّ يد طفل.

2

بابيت طويلةٌ وممتلئة الجسم بعض الشّيء؛ الامتلاء في خصرها. شعرها أشقر كثيف غاضب، بتدرُّج لونيٍّ أغبر كان يُسمَّى الأشقر القذر. لو كانت امرأة منمنمة الجسم، لكانّ الشّعر سيبدو شديد اللطف والعَبَث. الحجم يمنح مظهرها الأشعث شيئًا من الجدّيّة. لا تخطّط النّساء ممتلئات الجسم لأشياء كهذه. إذ يفتقرن إلى المكر بشأن مؤامرات الجسد.

قلتُ لها: «كان ينبغي لك أن تكوني هناك».

- «أين؟»

- «إنّه يوم سيّارات الستايشن».

- «هل فاتني مرةً أخرى؟ كان من المفترَض أن تذكّرني».

- «اصطفّتْ السيارات على طول الطّريق وصولًا إلى مكتبة الموسيقا وحتّى الطّريق السّريع. زرقاء، وخضراء، ونبيذيّة، وبنّيّة. كانت تبرق في الشّمس مثل كاراڤان صحراويّ».

- «تعلمُ أنّني بحاجة إلى تذكيرٍ يا جاك».

بابيت، الشّعثاء، تمتلك الكرامة اللامبالية لشخصٍ شديد الانشغال بمسائل مهمّة، لدرجة أنه لا يعلم أو يكترث لمظهره. لم يكن ذلك لأنّها صاحبة موهبة في أمور عظيمة كما يظنّ الناس بخصوص أنفسهم

عمومًا. كانت تجمع الأطفال وتعتني بهم، تدرّس منهاجًا في برنامج تعليم الكبار، عضوةٌ في مجموعة متطوّعين يقرأون للكفيفين. كانت تقرأ مرةً أسبوعيًا لعجوزٍ اسمه تريدوِلْ يعيش عند طرف البلدة. كان يُعرَف باسم العجوز تريدول، كما لو كان مَعْلمًا شهيرًا، تشكيلًا صخريًا أو مستنقعًا كئيبًا. كانت تقرأ له من ناشيونال إنكوايرر، ناشيونال إكزامينر، ناشيونال إكسپرس، ذا غلوب، ذا وورلد، ذا ستار. كان العجوز يطالب بجرعته الأسبوعيّة من أسرار النِّحَل. لمَ عليّ إنكار هذا عليه؟ إذ إنّ بابيت، أيًا يكن ما تفعله، تدفعني للإحساس بأنّني رابحٌ على نحو لطيفٍ، مرتبطٌ بامرأةٍ دافئة الرّوح، عاشقٌ لضوء النّهار والحياة الكثيفة، ذلك الجو العائليّ المحتشد المتنوّع. أراقبها طوال الوقت وهي تقوم بالأشياء في ترتيبٍ مضبوط، وبمهارة، وبسهولةٍ واضحة، على عكس زوجاتي السّابقاتِ اللواتي أحسَسْنَ بميلٍ للابتعاد عن العالم الموضوعيّ، مستغرقات بالتّفكير، سريعات الغضب، مع صلاتٍ بعالم الاستخبارات.

– «ليست سيّارات الستيشن ما أردتُ رؤيتها. كيف هم الناس؟ هل ترتدي النّساء تنانير بمربّعاتٍ مرقّشة، وكنزات صوفيّة بزخرفات مضفورة؟ هل يرتدي الرجال سترات ضيّقة الخصر؟ ما السترة ضيّقة الخصر؟»

قلت: «لقد اطمأنوا لاستقرار أموالهم. يؤمنون حقًا بأنّهم يليقون بها. ويمنحهم هذا الاعتقاد نوعًا من المزاج الوقح. إذ يتوهّجون بعض الشيء».

قالت: «لديّ مشكلة في تخيُّل الموت مع مستوى الدّخل هذا».

– «ربما ليس ثمّة موتٌ كما نعرفه. بل مجرّد وثائق تبديل مُلكيّة».

– «ليس هذا لأنّنا لا نملك سيّارة ستايشن».

– «إنها صغيرة، لونها رمادي لامع، وثمة بابٌ صدئ بأكمله».

– «أين وايلدر؟» قالت بهلع روتينيّ، مناديةً على الصبيّ، أحد

أطفالها، الذي كان يجلس بلا حراك على درّاجته ثلاثيّة العجلات في الفناء الخلفيّ.

تدور أحاديثي مع بابيت في المطبخ. المطبخ وغرفة النوم هما الغرفتان الأساسيّتان هنا، مكانا الطاقة، المنبعان. نحن متشابهان في هذا، في أنّنا نعتبر بقيّة المنزل مكانًا لتخزين الأثاث، والألعاب، وكلّ الأغراض غير المستخدَمة من الزيجات السابقة ومجموعات الأطفال المختلفة، وهدايا الأقرباء البعيدين، والأشياء التي تُركت لنا، والنثريّات. أشياء. صناديق. لمَ يكون لهذه المقتنيات مثل هذه الوطأة المُحزنة؟ ثمّة ظلامٌ مرتبطٌ بها، نذير شؤم. إنها تجعلني متيقّظًا لا للإخفاق الشخصيّ والهزيمة بل لشيءٍ أكثر عموميّة، شيءٍ ذي مدى ومحتوى كبيرين.

دخلتْ مع وايلدر وأجلَسَتْهُ على كاونتر المطبخ. نزلت دينيز وستيفي وبدأنا التحدّث عن المستلزمات المدرسيّة التي تريدانها. وسرعان ما حلّ موعد الغداء. دخلنا فترةً من الفوضى والصّخب. تحرّكنا بهياجٍ، تشاجرنا قليلًا، أوقعنا الأواني. أخيرًا كنّا قد اكتفينا بما استطعنا اختلاسه من الخُزُن والثلّاجة أو سرقته من بعضنا بعضًا ثم بدأنا بهدوء بوضع الخردل أو المايونيز على طعامنا بألوانه البرّاقة. كان المزاج يبدو ترقّبًا شديد الجدّيّة، مكافأة استحقّيْنا ربحها. الطاولة مليئةٌ، وتبادلت بابيت ودينيز اللّكز بالمرفق مرّتين من دون أن تتكلّم إحداهما. وايلدر لا يزال على الكاونتر محاطًا بكراتين مفتوحة، وورق ألمنيوم مُكرمَشْ، وأكياس شيبس برّاقة، وآنية لمواد عجينيّة مغطّاة بغلاف بلاستيكيّ، وحلقات أغطية معدنيّة وربطات تغليف، وشرائح جبنة شيدر أحمر مغلّفة كلٍّ على حدة. دخل هاينرش، درس المشهد بحرص، هو ابني الوحيد، ثم خرج من الباب الخلفيّ واختفى.

قالت بابيت: «لم يكن هذا هو الغداء الذي خطّطته لنفسي. كنتُ أفكّر فعلًا بتناول الزّبادي وبذور القمح».

سألتها دينيز: «أين سمعنا هذا من قبل؟»

قالت ستيفي: «ربما هنا في المكان نفسه».

- «إنّها تصرّ على مواصلة شراء هذا الشيء».

قالت ستيفي: «ولكن من دون أن تأكله أبدًا».

- «لأنّها تظنّ أنّها لو واصلتْ شراءه ستضطر لأكله كي تتخلّص منه. يبدو الأمر كأنّها تخدع نفسها».

- «إنّه يشغل نصف المطبخ».

قالت دينيز: «ولكنّها ترميه قبل أن تأكله لأنّه يفسد. ثم تبدأ الأمر كله من جديد».

قالت ستيفي: «أينما تنظر، ستجده أمامك».

- «تشعر بالّذنب لو لم تشتره، وتشعر بالذّنب لو اشترته ولم تأكله، وتشعر بالذّنب حين تراه في الثلّاجة، وتشعر بالذّنب حين ترميه».

قالت ستيفي: «كما لو أنّها تدخّن ولكنّها لا تدخّن».

كانت دينيز طفلةً عنيدةً في الحادية عشرة من العمر. تُبدي الاحتجاج يوميًا بقدرٍ مختلفٍ حيال عادات أمها التي كانت تعتبرها تبذيرًا أو خطرًا. وكنتُ أدافع عن بابيت. كنتُ أخبرها أنّني أنا من يجب أن يُبدي الانضباط في مسائل الحِمية. وأذكّرها بمدى حبّي لمظهرها. أشرت إلى أنّ ثمة صدقًا متأصّلًا في ضخامة الجسد لو كانت بالمقدار الصحيح. فالناس يأملون بوجود قدرٍ معيَّن من الضخامة لدى الآخرين.

ولكنّها لم تكن راضيةً عن ردفيها وفخذيها، وتمشي بخطوةٍ سريعة، وتركض على مدرّجات الملعب في الثانويّة النيوكلاسيكيّة.

تقول إنّني أُصوّر عيوبها على أنّها فضائل لأنّ من طبيعتي حماية من أُحبّ من الحقيقة. من شيءٍ كامنٍ في الحقيقة، كما تقول.

رنَّ جهاز إنذار الحريق في بهو الطّابق العلويّ، إمّا ليُنبئنا أنّ البطّاريّة قد نفدت أو أنّ المنزل يحترق. أنهينا غداءنا بصمت.

3

يرتدي رؤساء الأقسام الرداء الأكاديميّ في الكليّة-على-التلّ. لا تلك الفخمة المنسدلة على طول الجسد إلى الأرض بل ذلك الرّداء الذي بلا كُمَّيْن المزموم عند الكتفين. أحبّ هذه الفكرة. أحبّ إخراج ذراعي من طيّات الرّداء كي أنظر إلى ساعتي. فعلُ معرفة الوقت البسيطُ يتحوَّل بفعل هذه الأناقة. تُضيف الحركات التزيينيّة رومانسيّةً إلى الحياة. قد يعتبر الطلّاب المتبطّلون الوقت بحدّ ذاته زينةً مُعقّدة، فعلًا رومانسيًا للوعي البشريّ، وهم يرون رئيس القسم يمشي عبر الحَرَم الجامعيّ، وذراعه المعقوفة بارزةٌ من ردائه القروسطيّ، والسّاعة الرقمية تبرق في غسق أواخر الصّيف. الرداء أسود، بالطبع، ويتماشى مع كلّ شيء.

لا يوجد بناءٌ مُكرَّس لقسم دراسات هتلر. نقيم في القاعة المئويّة، وهي بناءٌ قرميديٌّ داكنٌ نتشاركه مع قسم الثقافة الشعبيّة، المعروف رسميًا باسم البيئات الأميركيّة. مجموعة غريبة. يكاد يكون الكادر التدريسيّ بأكمله من مهاجري نيويورك حصريًا، الأذكياء، والسفّاحين، والمُولَعين بالسينما، والمُستشيطين غضبًا على أتفه الأمور. هم موجودون هنا لتفكيك اللغة الطبيعيّة للثقافة، ولطرح سياقٍ رسميٍّ للمسرّات الصّاخبة التي عايشوها في طفولتهم ذات الظّلال الأورو-أرسطويّةٌ من أغلفة العلكة والأغاني المُقفّاة الدّارجة. رئيس القسم هو ألفونس (فاست فود) ستومپاناتو، رجلٌ عريض المنكبين غاضب النّظرات يقيم معرضًا دائمًا في كوَّة جداريّةٍ لمجموعته من أغطية زجاجات الصودا التي كانت منتشرةً قبل الحرب. جميع أساتذة قسمه ذكور، يرتدون ثيابًا غير مكويّة، ويحتاجون إلى قصّ شعر، ويسعلون في أكمامهم. يبدون معًا وكأنّهم

فريقٌ من الموظّفين الرسميّين الموجودين للتعرّف على جثّة زميلٍ مشوَّهة. ذوو مظهرٍ مُوحَّدٍ من المرارة، والشكّ، والخداع.

الاستثناء من زمرة المذكورين هو مَرِيْ جيه سيسكِنْد، كاتبٌ سابقٌ في شؤون الرّياضة كان قد دعاني لتناول الغداء معه في غرفة الطّعام، حيث تُثير فيَّ الرائحةُ المؤسّساتيّةُ لطعام عصيٍّ على التخمين ذكرى غامضة وكئيبة. كان مَرِيْ وافدًا جديدًا على الكليّة، رجلٌ بكتفين محدودبتين ونظّارة مستديرة صغيرة ولحيةٍ غير محلوقة. كان مُحاضرًا زائرًا في المشاهير الأحياء. وبدا مُحرَجًا بما اكتشفه حتّى الآن عن زملائه في قسم الثّقافة الشعبيّة.

- «أتفهّم الموسيقا، أتفهّم الأفلام، بل وحتّى أفهم كيف يمكن للكتب الهزليّة أن تُنبئنا بأشياء. ولكنْ هناك أساتذة مُكرَّسون في هذا المكان لا يقرأون شيئًا عدا المكتوب على علب حبوب الإفطار».

- «إنّها الطّليعة الوحيدة التي لدينا».

- «أنا لا أتذمّر. أحبّ هذا المكان. أنا مفتونٌ بهذا المكان. مشهد البلدة الصّغيرة. أريد التحرّر من المدن والورطات الجنسيّة. الحرارة، هذا ما تعنيه المدن لي. تنزل من القطار وتخرج من المحطّة فتلطمك اللّفحة الهائلة. حرارة الهواء وحركة المرور والناس. حرارة الطعام والجنس. حرارة العمارات الشّاهقة. الحرارة التي تنبعث من المترو والأنفاق. دائمًا تكون الحرارة أعلى بخمس عشرة درجةً في المدن. تصعد الحرارة من الأرصفة وتهبط من السّماء المُسمَّمة. الحافلات تُطلق حرارة. تنسلّ الحرارة من حشود المتسوّقين والموظّفين. البنية التحتيّة بأسرها مُؤسَّسةٌ على الحرارة، وتستهلك الحرارة على نحو بائسٍ، فتولّد حرارةً أكبر. لقد بدأ بالفعل موت الكون النهائيّ بفعل الحرارة الذي يحبّ العلماء التحدّث عنه، وبإمكانك أن تشعر به يحدث في كلّ ما يحيط بك في جميع المدن الكبيرة والمتوسّطة. الحرارة والرّطوبة».

- «أين تسكن يا مري؟»

- «في نزل للغرف المفروشة. أنا مأسور ومسحورٌ بشدّة. إنّه منزل متداعٍ قديم رائع قرب مصحّ المجانين. سبعة نزلاء أو ثمانية، مقيمون دائمون إلى درجة ما، إلا أنا. امرأةٌ تُخفي سرًا رهيبًا. رجلٌ بملامح قلقة. رجل لا يخرج من غرفته على الإطلاق. امرأة تقف قرب صندوق الرسائل لساعات، تنتظر أمرًا لا يبدو أنّه سيصل أبدًا. رجلٌ بلا ماضٍ. امرأةٌ ذات ماضٍ. هناك عبق مأوى الحيوانات التّعيسة في الأفلام التي تستهويني».

قلت: «وأيّهم أنت؟»

- «أنا اليهوديّ. ما الذي يمكن أن أكون غير هذا؟»

ثمة ما هو آسرٌ حيال حقيقة أنّ مَري يرتدي القماش المُضلَّع المخمليّ على الدوام تقريبًا. انتابني إحساس أنّه كان قد ارتدى هذا النّسيج المتين، منذ سنّ الحادية عشرة في حيِّه الأسمنتيّ المزدحم، رابطًا إياه بتعليمٍ عالٍ في مكانٍ بعيدٍ إلى حدٍّ لا يُصدَّق، تحفّه الأشجار من كل جانب.

يقول: «ليس بإمكاني أن لا أكون سعيدًا في بلدة اسمها بلاكسْمِثْ. جئت إلى هنا كي أتجنّب المآزق. فالمدن تعجُّ بالمآزق، والناس ذوي المكر الجنسيّ. ثمة أجزاء في جسدي لم أعد أشجّع النساء على التعامل معها بحرّية. وقعت في مأزق مرةً مع امرأة في ديترويت. كانت بحاجة إلى سائلي المنويّ في قضيّة طلاق. المفارقة هي أنّني أعشق النساء. أنهار أمام السيقان الطويلة، التي تخطو برشاقةٍ، كنسيم مندفع عبر النهر، في أحد أيام العمل الأسبوعيّة، في اندفاع نور الصّباح. المفارقة الثانية هي أنّني لا أتشهّى أجساد النساء كليًا فحسب، بل عقولهنّ أيضًا. عقل المرأة. الدّفق أحاديّ الاتّجاه الهائل والمُقسَّم بدقّة، مثل تجربةٍ فيزيائيّة. يا لمتعة التحدّث إلى امرأة ذكيّةٍ ترتدي الجوارب الشفّافة مصالبةً ساقيها.

يمكن لصوت الاحتكاك الطّفيف لحفيف النايلون أن يغمرني بالسعادة على عدة مستويات. المفارقة الثالثة أيضًا هي أنّني أنجذب عادةً إلى أشدّ النساء تعقيدًا وعُصابيّةً وصعوبةً. أحب الرجال البسيطين والنّساء المُركَّبات».

كان شعر مَري كثيفًا ومتراصًّا. حاجباه كثيفان، وخصلات صغيرة من شعره تلتفّ عند جانبَيْ عنقه. لحيته الصغيرة القاسية غير المترافقة مع شاربٍ، تبدو مثل إضافةٍ اختياريّة، يمكن لصقها أو إزالتها كما تتطلّب الظروف.

- «ما طبيعة المحاضرات التي تخطّط لإلقائها؟»

رد: «هذا بالضبط ما أردتُ التحدّث إليك بشأنه. لقد حقّقتَ أمرًا رائعًا هنا مع هتلر. لقد ابتكرتَه، ونمّيتَه، وجعلته أمرًا خاصًا بك. ليس بوسع أيّ شخص في الحياة الأكاديميّة في أيّ كليّة أو جامعة في هذه البقعة من البلاد أن ينطق كلمة هتلر من دون أن يُومئ إليك، حرفيًا أو مجازيًا. هذا هو المركز، المصدر الذي لا خلاف عليه. إنه الآن هتلرك، هتلر الخاص بغلادني. لا بدّ أنّ الأمر مصدر رضا عميق لك. انطلقت شهرة الكليّة عالميًا كنتيجة لقسم دراسات هتلر. أصبحت للقسم هويّة، إحساس بالإنجاز. لقد خلقت منظومةً بأسرها حول هذه الشخصيّة، بنيةً ذات بنى فرعيّة وحقولًا دراسيّة متداخلةً لا حصر لها، تاريخًا ضمن تاريخ. أنا مذهولٌ حيال هذا الجهد. جهدٌ بارع، ماكرٌ يضجّ بروح المبادرة. هذا ما أودّ فعله مع إلفيس».

بعد عدة أيام سألني مَري عن مَعْلَم سياحيّ يُعرَف بكونه أكثر ما تم تصويره من حظائر في أميركا. قُدنا السيارة اثنين وعشرين ميلًا في الريف قرب فارمنغتن. كان ثمة مستنقعات وبساتين تفاح. أسيجة بيضاء تصطف على امتداد الحقول. وسرعان ما بدأت اللافتات

بالظهور. أكثر الحظائر تصويرًا في أميركا. أحصينا خمس لافتات قبل أن نصل المكان. كان يوجد أربعون سيارة وحافلة رحلات في موقف السيّارات الموقّت. مشينا عبر طريق أبقارٍ إلى البقعة المرتفعة قليلًا المُهيَّأة للنظر والتصوير. الجميع يحملون كاميرات؛ جلب بعضهم حوامل كاميرات ثلاثيّة القوائم، عدسات مُقرِّبة، معدّات فلترة. رجل داخل كشك يبيع بطاقات بريديّة وقصاصات، صور للحظيرة مُلتَقَطة من البقعة المرتفعة. وقفنا قرب مجموعة أشجار وراقبنا المُصوّرين. كان مَري غارقًا في صمتٍ طويل، يقطعه أحيانًا ليخربش عدة ملاحظات في دفتر صغير.

قال أخيرًا: «لا أحد يشاهد الحظيرة».

وتبعه صمت طويل.

«ما إنْ تشاهد اللافتات المتعلقة بالحظيرة، سيصبح من المستحيل مشاهدة الحظيرة».

صمتَ مجددًا. غادر الناس المكان بكاميراتهم، ليحل محلّهم آخرون مباشرةً.

«لسنا هنا لالتقاط صورة، بل للاحتفاظ بصورة. كلُّ صورةٍ تُعزّز الهالة. هل تحسّ بهذا يا جاك؟ تراكمٌ من طاقات لا اسم لها».

خيّم صمت أطول. الرجل في الكشك يبيع البطاقات والقصاصات.

«التواجد هنا أشبه باستسلام روحانيّ. لا نرى إلا ما يراه الآخرون. آلاف من كانوا هنا في الماضي، وأولئك الذين سيكونون في المستقبل. اتّفقنا على أن نكون جزءًا من إدراكٍ جمعيٍّ. وهذا يُشوّه رؤيتنا فعليًا. تجربة دينيّة بمعنى ما، مثل كلّ السياحة».

وخيّم صمت آخر.

قال: «إنّهم يلتقطون صورَ التقاطِ صور».

أوقف حديثه فترة. أنصتنا إلى الأصوات المتعاقبة لانغلاق العدسات، وحفيف دوران مستوى تقدّم الأفلام.

ثم تساءل: «ما كان شكل الحظيرة قبل تصويرها؟ كيف كان شكلها، ما اختلافها عن الحظائر الأخرى، ما مدى تشابهها مع الحظائر الأخرى؟ سنعجز عن إجابة هذه الأسئلة لأنّنا قرأنا اللافتات، وشاهدنا الناس يلتقطون الصور. نعجز عن التملّص من الهالة. إننا جزء من الهالة. إننا هنا، إننا الآن».

4

حينما تسوء الأمور، يشعر الناس بأنّهم مُرغَمون على الإفراط في الأكل. بلاكسمث ملأى بالبدينين، بالغين وأطفالًا، المترنّحين في خُطاهم، ببناطيلهم الواسعة وسيقانهم القصيرة. يُجاهدون في الخروج من السيّارات الضيّقة؛ يرتدون ملابس السباحة ويركضون في جماعات عبر الأفق؛ يمشون عبر الشوارع والأكل يملأ وجوههم؛ يأكلون في المتاجر، والسيارات، والمواقف، وطوابير الحافلات وطوابير القطارات، وتحت الأشجار الضخمة.

وحدهم العجائز يبدون مُستثنيين من حمّى الأكل. وحتى حين يكونون أحيانًا ذاهلين عن كلماتهم وإيماءاتهم، إلا أنّهم نحيلون وبصحّة جيّدة، النّساء مهندمات بحرص، والرجال أنيقون ومفعمون بالعزم، ينتقون عربات تسوّقهم من الصفّ خارج السوپرماركت.

عبرتُ مرج المدرسة الثانويّة ومشيتُ إلى العمارات المنتصبة متّجهًا إلى الملعب المفتوح الصغير. كانت بابيت تقفز صعودًا على درجات الملعب. جلست في الحقل في الصفّ الأول من المقاعد الحجريّة. السماء تغص بالسُّحب. عندما وصلتْ قمّة المدرج توقّفت ووضعت يديْها على السّياج العالي مستندةً إليه لترتاح مُميلةً جسدها.

ثم استدارت لتمشي نزولًا وثدياها يتراقصان. حرّكت الرياح ملابس الرياضة الواسعة. كانت تمشي ويداها على وركيها، فاردةً أصابعها. رفعت وجهها لتلتقط الهواء اللطيف، ولم ترَني. عندما وصلت الدّرجة الأخيرة استدارت لتواجه المقاعد وتبدأ تمارينَ لإراحة العنق. ثم بدأت الركض صعودًا على الدرجات.

صعدتها ثلاث مرات، تصعد ثم تعود بمشيةٍ بطيئة. ما من أحد هنا. كانت تتمرّن بجهد، شعرها يتطاير، وتحرِّك ساقاها وكتفاها. كلّما كانت تصل إلى القمة تستند إلى السّياج، خافضة رأسها، فيما القسم العلويّ من جسدها يلهث. بعد الصعود الأخير وافيتُها عند حافة الملعب وعانقتها، واضعًا كفّيّ داخل بنطالها القطنيّ الرماديّ. حلّقتْ طائرة صغيرة فوق الأشجار. كانت بابيت رطبةً ودافئة، تُهمهم بارتياح.

تركض، تجرف الثلج، تُصلح الحوض والمغسلة. تلعب ألعاب الكلمات مع وايلدر وتقرأ الكلاسيكيات الإيروتيكيّة بصوتٍ عالٍ في السرير ليلًا. ماذا أفعل أنا؟ أُخرج أكياس القمامة وأُحكم إغلاقها، وأسبح عدّة دورات في مسبح الكليّة. حينما أمشي، يقترب الراكضون خلفي دون صوت، ثم يظهرون بجانبي، فيجعلونني أقفز برعبٍ أحمق. تُحادث بابيت الكلاب والقطط. أرى بقعًا ملوّنةً عند طرف عيني اليمنى. تُخطّط لرحلات تزلّج لا ننفّذها على الإطلاق، ووجهها يتّقد حماسة. أمشي إلى أعلى التلّة، مُراقبًا الأحجار المطليّة بالأبيض التي تُؤطّر ممشى البيوت الجديدة.

مَن سيموت أولًا؟

يرد هذا السؤال بين حين وآخر، كما السؤال عن مكان مفاتيح السيارة. يُنهي جملةً، فيُطيل أحدنا النّظر إلى الآخر. أتساءل ما إذا كانت الفكرة بذاتها جزءًا من طبيعة الحب الجسديّ. داروينيّةً معكوسةً تَهِبُ الحزن والخوف لمن سيبقى. أم هو عنصرٌ خاملٌ في الهواء الذي نتنفّس،

أمرٌ نادرٌ مثل غاز النيون، بدرجة انصهار، ووزنٍ ذريٍّ؟ أحتضنها بين ذراعيّ على المضمار الرماديّ. يأتي الأطفال راكضين باتّجاهنا، ثلاثون فتاةً بشورتات برّاقة، حشدٌ صاخب إلى درجةٍ غير محتملة. التنفّس المتحمِّس، الإيقاعات المتداخلة لوقع أقدامهن. أفكّر أحيانًا أنّ حبّنا لم يُختبَر. فيصبح السؤال عن الموت تذكيرًا حكيمًا. يُعالجنا من براءة نظرتنا عن المستقبل. الأشياء البسيطة محتومة، أم أنّ هذه خُرافة؟ راقبنا الفتيات وهنّ عائدات مجددًا. كنَّ منتشياتٍ الآن، بوجوه ومشية خاصة، بحيث يكدن يبدين بلا وزن في توقهنّ، قادرات على الهبوط بخفّة.

مطار ماريوت، ومركز ترافيلودج، وحانة الشيراتون، ومركز المؤتمرات. في طريق عودتنا قلت، «تودّ بي زيارتنا في الكرسماس. يمكننا وضعها مع ستيفي».

- «هل تعرف إحداهنّ الأخرى؟»

- «تقابلتا في ديزني وورلد. سيكون الأمر على ما يرام».

- «متى كنتَ في لوس أنجلوس؟»

- «تعنين أناهايم؟»

- «متى كنتَ في أناهايم؟»

- «تعنين أورلاندو. منذ ثلاث سنوات تقريبًا».

قالت: «وأين كنتُ أنا؟»

ابنتي بي، من زواجي من تويدي براونر، كانت قد أصبحت للتو في الصفّ السابع في إحدى ضواحي واشنطن وتعاني من مشكلات في إعادة التأقلم في أميركا بعد عامين عاشتهما في كوريا الجنوبيّة. كانت تستقل التاكسي إلى المدرسة، وتُهاتف أصدقاءها في سيؤول وطوكيو. في الخارج كانت ترغب بأكل سندويش الكتشب مع أصابع حبوب الإفطار تريكس. أما الآن فهي تطبخ وجبات دسمة ثقيلة من الكرّاث

والقريدس الصغير، مُحتكرةً مكوّنات الطعام عالية الجودة التي تملكها أمها.

تلك الليلة، الجمعة، طلبنا طعامًا صينيًا وشاهدنا التلفزيون معًا، نحن الستّة. كانت بابيت قد قرّرت أن نقوم بذلك كل جمعة. بدت وكأنّها تظنّ أنّ الأطفال لو شاهدوا التلفزيون ليلةً في الأسبوع مع الوالدين أو أزواج الوالدين، سيؤدّي وجودهم إلى التقليل من سحر الجهاز في أعينهم، فيصبح رياضةً عائليّةً كاملة. وبذا سينخفض تدريجًا تأثير دفقه الإدمان وقوّته المرعبة على امتصاص العقول. بالكاد بدا الأمر كذلك عبر هذا التفكير. فقد كانت الأمسية فعليًا شكلًا لطيفًا من العقاب لنا جميعًا. انشغل هاينرش بتناول لفافات البيض بصمت. وكانت ستيفي تحسّ بالانزعاج كلّما بدا أنّ ثمة ما يدعو إلى الخجل أو العار سيحدث لشخص على الشاشة. كانت تمتلك قدرةً رهيبةً على الإحساس بالإحراج عوضًا عن الآخرين. وغالبًا ما كانت تغادر الغرفة إلى أن تُعْلمها دينيز أنّ المشهد قد انتهى. وكانت دينيز تستغل هذه المناسبات كي تعظ أختها الصغرى بشأن القسوة، والحاجة إلى أن يكون المرء وضيعًا في هذا العالم، متبلّد الإحساس.

كان من عادتي كلّ جمعة، بعد قضاء الأمسية أمام التلفزيون، أن أتعمّق في القراءة عن هتلر حتى حلول الليل.

في إحدى تلك الليالي استلقيت في السرير قرب بابيت وأخبرتها كيف أنّ رئيس الجامعة كان قد نصحني، عام 1968، بفعل شيء بخصوص اسمي ومظهري، لو أردتُ أن أُعامَل بجديةٍ كرائدٍ في مجال هتلر. لن ينفع اسم جاك غلادني، كما قال، وسألني عن الأسماء الأخرى المتوافرة لديّ. واتّفقنا أخيرًا أنّ عليّ ابتكار حرفٍ استهلاليّ إضافيّ وأُطلق على نفسي اسم ج. أ. ك. غلادني، وهو لقب كنتُ أرتديه كبزّة مستعارة.

وقد حذّرني رئيس الجامعة ممّا سمّاها نزعتي للظهور بمظهر ضعيف. وشدّد كثيرًا على ضرورة اكتسابي عدة كيلوغرامات. أراد منّي أن «أتضخّم» لأليق بهتلر. كان هو طويلًا، ضخم الكرش، متورِّدًا، عريض الفكّ، كبير القدمين، بليدًا. مزيجٌ مرعب. أما أنا فكانت لديّ امتيازات الوزن المعقول، الكفّين الضخمتين، القدمين الكبيرتين، ولكن ببنيةٍ سيئة، أو هذا ما كان يظنه، مجالًا من الضّخامة غير الصحيّة، الزيادة والإفراط، والتعملق الهائل. لو كان بإمكاني أن أبدو أكثر قبحًا، بدا وكأنه يقترح هذا، سيُسهم هذا في إنماء مهنتي بشدّة.

منحني هتلر إذًا شيئًا أنمو وأتطوّر باتّجاهه، متردِّدًا -كما كنتُ أحيانًا- في هذا الجهد. كانت النظارة بإطارها الأسود الثقيل والعدسات الغامقة من ابتكاري، بديلًا عن اللحية الكثّة التي لم ترغب زوجتي آنذاك بأن أُطيلها. قالت بابيت إنّها أحبّت تسلسل الأحرف ج. أ. ك. ولم تعتقد أنّها للفت الانتباه بطريقةٍ رخيصة. مثّلت بالنسبة إليها كرامةً، وأهميّةً، ومكانةً.

أنا الشخصيّة الزائفة التي تلاحق الاسم.

5

فلنستمتع بهذه الأيام العبثيّة قدر استطاعتنا، قلت لنفسي، خائفًا من نوعٍ ما من التّسارع العجول.

عند الإفطار، كانت بابيت تقرأ كلّ الأبراج بصوت عالٍ، مستخدمةً صوتها الخاص بقصّ الحكايا. حاولتُ ألّا أنصت حين وصلَت إلى برجي، مع أنّني ظننتُ أنّي أرغب بالإنصات، أعتقد أنّني أردتُ بعض الإشارات.

بعد العشاء، أثناء صعودي إلى الطابق العلويّ، سمعتُ التلفزيون: «فلنجلس شبه حالمين ونفكّر بعمودنا الفقريّ».

تلك الليلة، بعد ثوانٍ من خلودي للنوم، بدا وكأنّني أقع داخل نفسي،

غطسٌ ضحلٌ يوقف القلب. استيقظت منزعجًا، حدّقتُ عبر الظلام، مُدرِكًا أنّني اختبرتُ التقلّص العضليّ الطبيعيّ إلى درجة ما، المعروف بالارتعاش القلبيّ. هل هو كذلك، حادٌّ، صارم؟ ألا ينبغي للموت، كما كنتُ أظنّ، أن يكون مثل غطسة إوزّة، رقيقة، ناعمة بأجنحة بيضاء، تبتعد عن السطح دون إزعاج؟

جينز أزرق يتقلّب في نشّافة الغسيل.

صادفنا مَري جيه سيسكند في السوپرماركت. كانت سلّته تضمّ أطعمة وعصائر عضويّة، وأغراضًا من دون ماركات في أغلفةٍ بيضاء عاديّة بلصاقات أسماء بسيطة. ثمة علبة بيضاء بلصاقة كُتب عليها دُرّاق مُعلَّب. علبة بيضاء تحوي لحم خنزير، من دون قطعة بلاستيكيّة شفّافة تظهر جزءًا من قطعة اللحم. مرطبان من المكسرات المُحمَّصة بغلاف أبيض كُتب عليه فستق غير متناسق الحجم. تابع مَري الإيماء برأسه لبابيت حين عرّفتُ أحدهما إلى الآخر.

قال: «هذا هو التقشّف الجديد. تغليف لا تنوّع فيه. يروق لي. أحسّ أنّني لا أوفّر المال فحسب بل أسهم كذلك في نوعٍ من التّناغم الروحانيّ. يبدو مثل الحرب العالميّة الثالثة. كلّ شيء أبيضُ. سينتزعون ألواننا البرّاقة منّا ليستخدموها في المجهود الحربيّ».

كان يحدّق في عينيّ بابيت، وهو يرفع أغراضًا من سلّتنا ويشتَمُّها.

«اشتريتُ هذا الفستق من قبل. حبّاته دائريّة، مكعّبة، عجراء، مُشقَّقة. فستق مُكسَّر. كثير من الغبار أسفل المرطبان. ولكنّها لذيذة. في الواقع أنا أحب الأغلفة بذاتها. كنتَ على حق يا جاك. هذه هي الطّليعة الأخيرة. أشكال جديدة جريئة. قوة إحداث الصّدمة».

وقعتْ امرأةٌ على حامل الكتب عند واجهة المتجر. اندفع رجلٌ بدينٌ من الكشك المنتصب في الركن البعيد وهرع بسرعةٍ باتجاهها مادًا رأسه ليرى بوضوح أكبر. سألته إحدى الفتيات العاملات، «ليون،

البقدونس».. فأجاب مع اقترابه من المرأة التي وقعت، «تسعة وسبعون». كان جيبه العلويّ محشوًا بأقلام ذات رؤوس طرية.

قالت بابيت: «إذًا أنت تطبخ في النّزل».

«غرفتي تصلح تمامًا لطبخ طبقٍ ساخن. أنا سعيد هناك. أقرأ قوائم برامج التلفزيون، وأقرأ الإعلانات في يوفولوجست توداي. أودّ إغراق نفسي في السحر والرعب الأميركيين. السيمينار يجري على نحو جيّد. الطلّاب أذكياء ومتفاعلون. يطرحون أسئلةً وأجيب عنها. يدوّنون ملاحظات أثناء حديثي. ويا لها من مفاجأة في حياتي».

التقط زجاجة مسكّن الآلام بالغ التأثير من سلّتنا وبدأ يتنشّق عبر الغطاء المحكم. تنشّق البطّيخ العسليّ، وزجاجات الصودا وبيرة الزنجبيل. اتّجهت بابيتِ إلى قسم الأطعمة المُجمَّدة، وهي البقعة التي نصحني طبيبي بالابتعاد عنها.

«شَعر زوجتك أعجوبةٌ حيّة» قال مَري، وهو يتمعّن في وجهي كما لو أنّه كان يوصل احترامًا عميقًا لي بناءً على هذه المعلومة الجديدة.

قلت: «أجل، إنه كذلك»

- «شَعرها مهم».
- «أظنّ أنّني أدرك ما تعنيه».
- «آمل أنّك تقدّر هذه المرأة».
- «بالتأكيد».
- «لأنّك لن تجد امرأةً مثلها متى شئت».
- «أعلم هذا».
- «لا بدّ أنّها تجيد التعامل مع الأطفال. بل وأكثر من هذا، أراهن أنّ من العظيم أن تجدها بجوارك في مأساة عائليّة. هي من النوع الذي يتحكّم بزمام الأمور، يُظهر القوة والعزم».

- «في الواقع هي تميل إلى أن تنهار. انهارت عندما ماتت أمها».
- «ومنْ ذا الذي لا ينهار؟»
- «انهارت عندما اتّصلت ستيفي من المُخيَّم بعد أن كسرتْ عظمةً في ذراعها. كان علينا قيادة السيارة طوال الليل. وجدتُ نفسي مع رفيق رحلةٍ بمثابة عبء آخر. بابيت تبكي».
- «ابنتها، بعيدة، بين غرباء، وتعاني ألمًا. من ذا الذي لن ينهار؟»
- «ليست ابنتها. إنها ابنتي».
- «وليست ابنتها أيضًا!».
- «لا».
- «مذهل. هذا يُرغمني على حبّ ما فعلتْ».

غادرنا معًا نحن الثلاثة، محاولين المناورة بعربات التسوّق بين كومات الكتب المعروضة عشوائيًا على طول المدخل. دفع مَري إحدى عرباتنا إلى موقف السيارات ثم ساعدنا في حمل ووضع جميع مُشترياتنا الموضوعة في أكياس مزدوجة في القسم الخلفيّ من سيّارتنا الستايشن. كانت السيّارات تدخل بصخب. الشرطيّة بقبّعتها الصغيرة ذات السحّاب تراقب المنطقة باحثة عن الأعلام الحمراء المرفوعة على عدّادات الوقوف. أضفنا كيس مَري الوحيد الخفيف الذي يضمّ أغراضه البيضاء إلى حِملنا واندفعنا عبر شارع إِلْم باتّجاه النُّزل. بدا لي أنّني وبابيت، عبر ضخامة وتنوّع مشترياتنا، عبر الوفرة المطلقة التي تدلّ عليها أكياسنا، الوزن والحجم والعدد، وتصاميم الرّزم المألوفة وأحرف الماركات البرّاقة، والأحجام الضخمة، وصناديق عروض الأسعار الخاصة بالعائلة مع ملصقات التوفير، وإحساس الامتلاء الذي نشعر به، وإحساس الازدهار، والأمان والرضا الذي تجلبه تلك المُنتجات لحيِّزٍ حميميٍّ داخل أرواحنا، بدا أنّنا حقّقنا اكتمالًا في الكينونة لا يعرفه الناس الذين يحتاجون إلى ما هو أقل، ويتوقّعون ما هو أقل، الذين يخطّطون لحياتهم داخل جدران وحيدة في المساء.

صافح مَري بابيت عند مغادرتنا.

«سأطلب منكِ زيارة غرفتي ولكنّها صغيرةٌ جدًا على شخصين ما لم يكونا مُهيَّأيْن للحميميّة».

مَري قادرٌ على إظهار نظرةٍ ماكرةٍ وصريحةٍ في آن. إنها نظرة تُعطي لمحةً متساويةً من الكارثة والنجاح الداعر. يقول إنّه في أيام ورطاته المدينيّة الخوالي كان يظنّ أنّ ثمة وسيلةً واحدةً لإغواء امرأة، وذلك عبر الرغبة الصريحة الواضحة. كان يحتمل الآلام لتجنّب الانتقاص من قيمة ذاته، والسخرية الذاتيّة، والالتباس، والمفارقة، والرقّة، والهشاشة، والسأم من العالم المتحضّر والإحساس التراجيديّ بالتاريخ، الأشياء ذاتها، كما يقول، التي تبدو شديدة الطبيعيّة بالنسبة له. من بينها، لم يسمح إلا بعنصر وحيد، الهشاشة، كي تُدخل نفسها تدريجًا في برنامجه الخاص بالشّبق الصريح. إنه يحاول تطوير هشاشةٍ تجدها النساء مُغويةً. يعمل عليها على نحو واعٍ، مثل رجلٍ في نادٍ رياضيٍّ مع الأوزان الحديديّة والمرآة. ولكنّ مساعيه لَم تُثمر، حتى الآن، أكثر من هذه النظرة نصف الماكرة، الناعسة المتملِّقة.

شكرَنا على التوصيلة. وراقبناه يمشي إلى الرّواق المؤطَّر بجذوع الأشجار المقطوعة، المُدعَّم بأحجار بركانيّة، حيث كان هناك رجلٌ في كرسيٍّ هزّاز يحدّق في الفضاء.

6

بدأ حدّ شَعر هاينرش بالتراجع. أفكّر في هذا الأمر. هل تناولت أمه عقارًا جينيًا قويًا عندما كانت حاملاً؟ هل أنا السبب بشكل ما؟ هل ربّيته، على نحو أخرق، قرب موقع نفايات كيميائيّة، أو في طريق تيارات هوائيّة تحمل نفايات صناعيّة قادرة على التسبّب بتشوّهات في فروة الرأس، وأوقات غروب ساحرة؟ (يقول الناس إنّ أوقات الغروب هنا لم تكن

بهذا السحر منذ ثلاثين أو أربعين عامًا.) تعقَّدَ ذنب الإنسان في التاريخ وفي تدفّقات دمه بفعل التكنولوجيا، الموت الذي يتسلّل يوميًا بقسوة.

الفتى في الرابعة عشرة، وغالبًا ما يكون متملّصًا ومزاجيًا، وفي أحيانٍ أخرى مُذعنًا إلى درجةٍ مزعجة. لديّ إحساس أنّ خضوعه الجاهز لرغباتنا وطلباتنا سلاح تأنيبٍ من نوع خاص. تخشى بابيت أنّ الأمر سينتهي به متمترسًا في غرفةٍ، يُطلق مئات الرصاصات من سلاح أوتوماتيكيّ عبر مجمّع تجاري فارغ قبل أن توافيه فرق الاقتحام بأسلحتهم الثقيلة، وخوذاتهم، ودروعهم.

- «ستمطر الليلة».

قلت: «إنها تمطر الآن».

- «قال الراديو الليلة».

كنت أوصله بالسيّارة في يوم عودته الأول بعد التهاب حنجرة وحمّى. ثمة امرأة بمعطفٍ أصفر واقٍ من المطر توقف السّير كي يقطع الأطفال الطريق. تخيّلتُها في إعلانٍ تجاريّ تخلع قبّعتها الواقية من المطر وهي تدخل مطبخها المُبهج حيث يقف زوجها عند قِدْرٍ من حساء اللوبستر المُدخَّن، رجلٌ ضئيل الجسد تبقّت لديه ستة أسابيع قبل أن يموت.

- «انظر إلى الواجهة الزجاجيّة أمامك». قلت. «هل هذا مطر أم لا؟»

- «أنا أُخبرك بما قالوه فقط».

- «لا يمكن أن نعلّق ثقتنا في ما تدركه حواسّنا لمجرّد أن أمرًا ما ذُكر في الراديو».

- «حواسّنا؟ غالبًا ما تكون حواسّنا على خطأ لا على حق. هذا ما تُثبته التجارب. ألا تعرف كلّ تلك المُبرهَنات التي تقول إنّ الأشياء

ليست كما تبدو عليه؟ ليس ثمة ماضٍ، أو حاضر، أو مستقبل خارج ذهننا. ما تُسمّى قوانين الحركة ليست سوى خدعة كبيرة. حتى الصوت بمقدوره خداع الذهن. مجرّد عدم سماعك لصوتٍ ما لا يعني عدم وجوده. بإمكان الكلاب سماعه. بالإضافة إلى حيوانات أخرى. وأنا واثق أنّ هناك أصواتًا تعجز حتى الكلاب عن سماعها. ولكنّها موجودة في الهواء، في الأمواج. وربما هي لا تتوقّف أبدًا. بطبقةٍ عالية، عالية، عالية. تنبع من مكانٍ ما».

قلت: «هل تمطر أم لا؟»

- «لستُ مرغَمًا على الإجابة».

- «وماذا لو صوَّبَ أحدهم مسدّسًا إلى رأسك؟»

- «من، أنت؟»

- «أحدهم. رجل بمعطف مطريٍّ ونظّارةٍ سوداء. يصوّب مسدسًا إلى رأسك ويقول، هل تمطر أم لا؟ كلّ ما عليك هو قول الحقيقة كي أُزيح مسدّسي عنك وأتابع طريقي».

- «ما الحقيقة التي يريدها؟ هل يريد حقيقة شخص يُسافر بسرعةٍ تُقارب سرعة الضوء في مجرّة أخرى؟ هل يريد حقيقة شخصٍ يطوف حول نجمٍ نيوترونيّ؟ ربما لو كان بإمكان هؤلاء الناس رؤيتنا عبر تلسكوب قد نبدو أنّنا بطول قدمين وبوصتين. وربما كانت تمطر البارحة وليس اليوم».

- «إنّه يصوّب المسدّس إلى رأسك **أنت**. إنه يريد حقيقتك».

- «ما نفع حقيقتي؟ حقيقتي لا تعني شيئًا. ماذا لو كان هذا الرجل ذو المسدس قادمًا من كوكب في منظومةٍ شمسيّة مختلفةٍ كليًا؟ وما نسمّيه مطرًا يسمّيه هو صابونًا. وما نسمّيه تفّاحًا يسمّيه هو مطرًا. ما الذي يُفترّض بي إخباره إذًا؟»

- «اسمه فرانك ج. سمولي، وهو من سانت لويس».

- «يريد معرفة ما إذا كانت تمطر **الآن**، في هذه اللحظة بالذات؟»

- «هنا والآن. هذا صحيح».

- «هل هناك شيء اسمه الآن؟ ´الآن` يأتي ويذهب حالما تلفظ أحرفه. كيف يمكن لي القول إنها تمطر الآن إن كان ´الآن` المزعوم الذي يخصّك سيصبح ´آنذاك` حالما ألفظه؟»

- «قلتَ إنّه لا يوجد ماضٍ، أو حاضر، أو مستقبل».

- «في أفعالنا النحويّة فقط. هذا هو المكان الوحيد الذي نجدها فيه».

- «المطر اسم. هل هناك مطر الآن، في هذا المكان بالتحديد، في أيّ زمن خلال الدقيقتين التاليتين اللتين ستختارهما كي تجيب عن السؤال؟»

- «لو أردت التحدّث عن هذا المكان بالتحديد بينما أنت داخل مركبةٍ من الواضح أنها تتحرَّك، فهذا إذًا ما أعتبره مشكلة هذا النقاش».

- «أجبني فقط، أوكي، هاينرش؟»

- «أفضل ما يمكنني فعله هو التخمين».

- «إما أنها تمطر أو لا تمطر».

- «تمامًا. هذا ما أعنيه. أنت ستخمّن. ستة أجزاء من عنصر، وستة من الآخر».

- «ولكنّك ترى أنها تُمطر».

- «ترى الشمس تتحرك عبر السماء. ولكن هل الشمس هي من تعبر السماء أم أن الأرض تدور؟»

- «لا أقبل هذا التشبيه».

- «أنت شديد الثقة أنها تمطر. كيف لك أن تعرف أنه ليس حمض كبريت ينبعث من مصانع عبر النهر؟ كيف لك أن تعرف أنه ليس نتيجةً لحرب في الصين؟ تريد إجابة هنا والآن. هل لك أن تبرهن، هنا والآن، أن هذا الشيء مطر؟ كيف لي أن أعلم أنّ ما تسمّيه مطرًا هو مطر فعلًا؟ ما المطر بالمناسبة؟»

- «إنّه الشيء الذي يهطل من السماء ويتسبّب لك بما يُسمّى البلل».

- «لستُ مبتلًّا، ماذا عنك؟»

- «حسنًا. حسنًا».

- «لا، بجدّ. هل أنت مبتلّ؟»

- «ممتاز. انتصار للتردّد، والعشوائيّة، والفوضى. ساعة العلم الأخيرة».

- «تابع سخريتك».

- «يتشارك السفسطائيّون والمُماحكون أروع ساعاتهم».

- «تابع. كن ساخرًا. لا أكترث».

تعيش أم هاينرش في مُعتزَل دينيّ الآن. اتّخذتْ اسم الأم ديڤي وتُدير بزنس نهاية العالم. يقع المُعتزَل في ضواحي بلدة تَبْ، مونتانا التي كانت موقعًا لصهر النحاس في ما سبق، وتُسمّى الآن دارامسالاپور. تدور الشائعات المعتادة عن الحريّة الجنسيّة، والعبوديّة الجنسيّة، والمخدرات، والعريّ، وغسل الدماغ، والنظام الصحّي السيئ، والتهرّب من الضرائب، وعبادة القرود، والتعذيب، والموت المُشتَهى الشنيع.

راقبته يمشي عبر الطريق المُفضية إلى مدخل المدرسة. كان يخطو ببطءٍ متعمَّد، يخلع قبّعته قبل عشر ياردات من المدخل. في لحظاتٍ كهذه أدرك أنّني أحبّه بتوقٍ حيوانيّ، حاجةٍ إلى ضمّه تحت معطفي وهرسه في صدري، أُبقيه هناك، أحميه. يبدو أنّه يجلب الخطر لنفسه.

يتجمّع في الهواء، ويلاحقه من غرفةٍ إلى أخرى. تخبز بابيت كعكته المفضّلة. نراقبه جالسًا إلى مكتبه، وهي طاولة غير مطليّة ملأى بالكتب والمجلات. يعمل بجدّ حتى الليل، يُخطّط لحركات شطرنج في لعبةٍ يلعبها عبر البريد مع قاتلٍ مُدان في الإصلاحيّة.

كان الطقس دافئًا ومشرقًا في اليوم التالي فجلس طلاب الكليّة على المروج وفي فُسحات الحرم، يُنصتون إلى أشرطتهم الموسيقيّة، ويستمتعون بالشمس. كان الهواء استغراقًا حالمًا في الأمور الصيفيّة الكئيبة، آخر أيام التراخي، فرصة للعودة إلى تعرية الجسد مرةً أخرى، عبق البرسيم المسحوق. اتّجهتُ إلى مبنى الفنون بطابقيه، بنائنا الجديد، عمارة ببابَيْن على طرفيها وواجهةٍ مكسوةٍ بالألومنيوم، الأخضر- البحريّ، العاكس للسُّحب كمرآة. في الطابق السفليّ تجد صالة السينما، بستائرها الثقيلة الغامقة ومقاعدها المئتين على الأدراج المنحدرة. جلست في الضوء الشحيح في نهاية الصف الأول من المقاعد وانتظرتُ قدوم طلّابي.

كانت مادة اختصاصهم الأساسيّة هي دراسات هتلر، وهم أفراد الصف الوحيد الذي لا أزال أدرّسه، النازيّة المُعمَّقة، ثلاث ساعات في الأسبوع، مقتصرة على طلاب السنة الأخيرة المختصّين، وهو منهاج دراسيّ مُصمَّمٌ لتناول وجهة النظر التاريخيّة، والدقّة النظريّة الصارمة والتأمّل العميق في الميل الجماهيريّ المتواصل للطغيان الفاشيّ، مع تركيز خاص على الاستعراضات العسكريّة، والتجمهرات، والملابس الموحّدة، وهي مادة ذات ثلاث وحدات دراسية، وتقارير كتابيّة.

في كل فصل دراسيّ كنتُ أجهّز عرضًا لصورٍ تظهر في الخلفيّة. يتكوّن العرض من الأفلام الدعائيّة، ومشاهد من مؤتمرات حزبيّة، ولقطات خارجيّة من أفلام ملحميّة روحانيّة تُصوِّر لاعبي جمباز ومتسلّقي جبال، وهي مجموعة كنتُ قد أدخلتُها في مونتاج شريطٍ

تسجيليّ انطباعيّ بطول ثمانين دقيقة. كانت مشاهد الحشود طاغيةً. ولقطات مقرَّبة لتزاحم آلاف الناس خارج استاد رياضيّ بعد خطاب لغوبلز، الناس يتدافعون، يحتشدون، ويقتحمون حركة المرور. قاعات يُعلَّق فيها الصليب المعقوف، وأكاليل جنائزيّة وأوسمة شرفٍ تُمنَح بعد الوفاة. آلافٌ من حاملي الأعلام يصطفّون أمام أعمدةٍ من الضوء المُثبَّت، ومئة وثلاثون مصباحًا كاشفًا للطائرات مُصوَّبةٌ إلى السماء، مشهد يُمثّل توقًا هندسيًا، بمثابة ترميزٍ رسميٍّ لرغبة جماهيريّة طاغية. ليس ثمة صوتٌ ساردٌ. بل فقط أناشيد، وأغانٍ، وأنغام، وخطابات، وصيحات، وهتافات، واتّهامات، وزعيق.

وقفتُ ثم اتّخذت موقعي في مقدّمة المسرح، أمام الممر الأوسط المواجه للمدخل.

دخلوا قادمين من الشمس في شورتاتهم القطنيّة السميكة وتيشيرتاتهم المنقوش عليها اسم الكليّة، بملابسهم البسيطة الأقرب إلى ملابس البولو وخطوط ملابس الرغبي المُقلَّمة. راقبتهم يتّخذون مواقعهم، ملاحظًا الجو المنقبض التوقيريّ، الترقّب المتردّد. لدى بعضهم دفاتر ملاحظات وأقلام رصاص؛ وجلب آخرون أوراقًا دراسيّة في حافظات أوراق برّاقة. ثمّة همسات، وحفيف تقليب أوراق، وصوت صرير المقاعد أثناء جلوس الطلاب واحدًا إثر آخر. استندتُ إلى طرف المسرح منتظرًا دخول آخر من تبقّى منهم، كي يُغلق أحدهم الأبواب في وجه يومنا الصيفيّ البهيج.

وسرعان ما خيّم الصمت. حان وقت إلقائي الملاحظات التمهيديّة. تركتُ الصمت يزداد لحظة، ثم أخرجت ذراعيّ من طيّات الثوب الأكاديميّ كي أتمكّن من تحريكهما بحرّية.

عندما انتهى العرض، سأل أحدهم عن مؤامرة قتل هتلر. تحوّل النقاش إلى الحبكات بشكل عام. ووجدتُ نفسي أقول للرؤوس

المتجمّعة، «تميل جميع الحبكات إلى المضيّ باتجاه الموت. هذه طبيعة الحبكات. الحبكات السياسيّة، الحبكات الإرهابيّة، حبكات العشّاق، الحبكات السرديّة، الحبكات التي تكون جزءًا من ألعاب الأطفال. ندنو من الموت كلّما دخلنا في حبكة. يبدو الأمر مثل عَقْدٍ لا بدّ لنا جميعًا من التوقيع عليه، راسمو الحبكة علاوةً على أهداف الحبكة».

هل هذا صحيح؟ لمَ قلتُ هذا؟ ما المغزى؟

7

مرتين أسبوعيًا تذهب بابيت إلى الكنيسة الأبرشيّة في الطرف المقابل من البلدة وتُحاضِر البالغين في القبو عن وضعيّات الوقوف والجلوس الصحيحة. هي تعلّمهم عمومًا كيفيّة الوقوف، والجلوس، والمشي. معظم طلّابها مسنّون. لا أستوعب سبب رغبتهم في تحسين وضعيّاتهم. يبدو أنّنا نؤمن أنّ من الممكن دفع الموت عنّا عبر اتّباع قواعد العناية الجيّدة. أرافق زوجتي أحيانًا إلى قبو الكنيسة لأراقبها وهي تقف، وتستدير، وتتّخذ وضعيّات بطوليّة متنوّعة، وتُومئ برشاقة. تُحيل حركاتها إلى اليوغا، والكيندو، والمشي المنتشي. تتحدّث عن الدراويش الصوفيّين، ومتسلّقي الجبال من جماعة شيربا. يُومئ المسنّون برؤوسهم ويُنصتون. ليس ثمة ما هو غريب، وليس ثمة ما هو بعيد عن التطبيق. أُفاجأ دومًا بتقبّلهم وثقتهم، وبعذوبة إيمانهم. ليس ثمة ما هو بعيدٌ عن متناولهم كي يستخدموه في سعيهم إلى تخليص أجسادهم من حياةٍ بأكملها من الوضعيّات الخاطئة. إنّها نهاية نزعة الشك.

مشينا إلى المنزل في ضوء القمر البرتقاليّ. بدا منزلنا قديمًا وكامدًا في نهاية الشارع، ضوء الرواق يسقط على درّاجة هوائية بلاستيكيّة مستعملة ثلاثيّة العجلات، وكومةٍ من النّشارة والجذوع الشمعيّة المتّقدة، يبدو لونها وكأنها قد اشتعلت مدة ثلاث ساعات. كانت دينيز

تكتب واجبها المنزليّ في المطبخ، من دون أن تغفل عن وايلدر الذي كان يتّجه إلى الطابق السفليّ ليجلس على الأرض ويُحدّق عبر واجهة الفرن الزجاجية. يُطْبق الصمت على الممرات وتتراقص الظلال على المرج المنحدر. أغلقنا الباب وخلعنا ثيابنا. كان السرير في فوضى. مجلات، وعصيّ ستائر، وجورب طفل. همهمت بابيت عبارةً من عرضٍ في برودواي، وهي تُزيح العصيّ إلى زاوية الغرفة. تعانقنا، وتقلّبنا بين طرفي السرير بطريقةٍ منضبطة، ثم أعدنا ضبط وضعيّتنا، وكلٌّ منا يستحمّ في جسد الآخر، محاولين ركل الملاءات لنزيحها عن قدمينا. كان في جسدها عددٌ من الوديان الطويلة، أماكن قد تتوقف اليد عندها لتجول فيها في الظلام، أماكن بإيقاع بطيء.

كنا نؤمن أنّ هناك ما يعيش في الأسفل.

سألتْ: «ما الذي تريد فعله؟»

- «ما تريدين فعله».

- «أريد أن أفعل كلّ ما يسعدك».

- «ما يُسعدني هو أن أُسعدكِ».

- «أريد أن أُسعدكَ يا جاك».

- «أحسّ بالسعادة حين أُسعدكِ».

- «لا أريد أن أفعل إلا ما تفعله».

- «أريد أن أفعل ما يُسعدكِ».

- «ولكنّكَ تُسعدني حين تُتيح لي إسعادك».

- «لكوني الشريك المذكّر أظنّ أنّ الإسعادَ مسؤوليّتي».

- «لست واثقةً ما إذا كانت هذه بادرةً حنونةً أم ملاحظةً متحيّزةً جنسيًا».

- «هل من الخطأ أن يُراعي الرجل شريكته؟»

- «أكون شريكتك حين نلعب التنس، وهذا ما علينا معاودة فعله بالمناسبة. وفي باقي الأمور أنا زوجتك. هل تريد أن أقرأ لك؟»

- «بالتأكيد».

- «أعلم أنّك تحب أن أقرأ الأشياء الجنسية».

- «ظننتُ أنكِ أيضًا تحبّين هذا».

- «أليس الأمر عمومًا أنّ الشخص الذي يُقرأ له هو من يحوز المنفعة والرضا؟ أقرأ للعجوز تريدوِلْ مع أنّي لا أستمتع بقراءة صفحات التابلويد».

- «تريدوِلْ أعمى، أنا لست كذلك. ظننتُ أنّكِ تحبّين قراءة المقاطع الإيروتيكيّة».

- «بما أنّه يُسعدكَ، أحبّ فعله إذًا».

- «ولكن ينبغي أن يُسعدكِ أنت كذلك يا بابا. وإلا كيف لي أن أشعر؟»

- «يُسعدني أنّك تستمتع بقراءتي».

- «يبدو الأمر وكأنّ عبئًا يُنقَل جيئةً وذهابًا. عبء أن تكون الشخص الذي ينبغي إسعاده».

- «أريد أن أقرأ يا جاك. بصدق».

- «هل أنتِ واثقةٌ تمامًا وكليًا؟ لأنكِ لو لم تكوني كذلك، لن نقوم بهذا أبدًا».

أشعل أحدٌ ما التلفزيون في نهاية الصالون، فاندفع صوت امرأة: «لو تفتّتَ إلى قطع بسهولة، يُسمّى طينًا متصلّبًا. وحين يكون رطبًا، تفوح منه رائحة الصلصال».

أنصتنا لتيّار حركة المرور الليليّة المندفع بهدوء.

قلت: «اختاري القِرن. هل تريدين أن تقرئي عن جواري الحضارة

الإتروسكانيّة، أو عاهرات الحقبة الجورجيّة [في بريطانيا]؟ أظنّ أنّ لدينا أدبيّاتٍ عن مواخير الجلد بالسّياط. ماذا عن العصور الوسطى؟ لدينا شياطين الجنس إنكوبوس وشيطاناته سوكوبوس. ومصادر عديدة عن الراهبات».

- «ما يسعدك».

- «أريدكِ أن تختاري. سيكون الأمر مثيرًا أكثر».

- «شخص يختار، والآخر يقرأ. ألا نريد توازنًا، نوعًا من الأخذ والعطاء؟ أليس هذا ما يجعل الأمر مثيرًا؟»

- «إثارة، تشويق. ممتاز. سأختار».

- «وأنا أقرأ. ولكنّني لا أريد أن تختار أيّ شيء فيه رجال داخل نساء، أو نساء داخل رجال. ´دخلتُها`. ´دخلتْني`. لسنا بهوًا أو مصعدًا. ´أردتُه داخلي`، وكأنّ بإمكانه الانسلال إلى الداخل تمامًا، يوقّع السجل، وينام، ويأكل، وما إلى ذلك. هل يمكن أن نتفق على هذا؟ لا أكترث بما يفعله هؤلاء الناس طالما أنّهم لا يدخلون أو يُدخَلون».

- «اتفقنا».

- «´دخلتُها وبدأتُ شقّ طريقي`».

- «اتفقنا تمامًا».

- «´ادخلني، ادخلني، أيوه، أيوه`».

- «استخدام سخيف، أكيد».

- «´أدخِلْ نفسكَ يا ركس. أريدكَ داخلي، تدخل بقوّة، تدخل بعمق، أيوه، الآن، أوه`».

بدأتُ أحسّ ببداية انتصاب. يا للغباء والحماقة. كانت بابيت تضحك على كلماتها. ويقول التلفزيون: «إلى أن زرع جرّاحو فلوريدا يدًا صناعيّة».

بابيت وأنا يبوح كلٌّ منا للآخر بكل شيء. لقد أخبرتها كل شيء، كما حدث آنذاك مع كلّ من زوجاتي. ثمة كلام أكثر للبوح، بالطبع، كلّما تراكمت الزيجات. ولكن حين أقول إنني أؤمن بالانكشاف التام لا أعني هذا بابتذال، كرياضةٍ حكائيّة أو فضفضةٍ ضحلة. إنّه نوعٌ من تجدّد الذات وإيماءةٌ إلى ثقة الرعاية. يساعدنا الحب على تطوير هويّة آمنةٍ بما يكفي كي تُتيح لنفسها مكانًا ضمن نطاق رعاية الآخر وحمايته. عهد كلٌّ منا حياته لرعاية الآخر الحنونة، عهدناها تحت ضوء القمر في أكفّنا الشاحبة، تحدّثنا خلال الليالي عن الآباء، والأمهات، والطفولة، والصداقات، واليقظات، وعلاقات الحب القديمة، والمخاوف القديمة (باستثناء الخوف من الموت). لا ينبغي ترك أيّ تفصيل، ولو كان عن كلبٍ مصابٍ بالقُراد أو ابن الجيران الذي أكل حشرةً في أحد التحدّيات. عبقَ غرف المؤونة، مشاعر الظهيرات المتبطّلة، الإحساس بالأشياء وهي تهطل على جلودنا، أشياء كالحقائق والأهواء، وشعور الألم، والفقدان، والخيبة، والبهجة الصاخبة. في تلك الجلسات الليليّة نخلق حيّزًا بين الأشياء كما أحسسنا بها آنذاك وكما نتحدّث عنها الآن. هذا هو الحيّز المخصَّص للسخرية، والتعاطف، والدهشة الحميميّة. الوسيلة التي ننقذ بها أنفسنا من الماضي.

قرّرتُ أن يكون موضوع القراءة هو القرن العشرين. ارتديتُ الروب واتّجهت عبر البهو إلى غرفة هاينرش لأبحث عن مجلة سخيفة لعل بابيت تقرأ منها، ذلك النوع الذي يضمّ رسائل من القرّاء يفصّلون فيها تجاربهم الجنسيّة. بدا لي هذا واحدًا من الأمور القليلة التي ساهم فيها الخيال الحديث في تاريخ الممارسات الإيروتيكيّة. ثمة خيالٌ مزدوجٌ ينشط في مثل هذه الرسائل. يدوّن الناس مواقف متخيَّلة ثم يرونها منشورةً في مجلة على مستوى البلد. أيّهما يتسبّب بالإثارة الأكبر؟

كان وايلدر هناك يراقب هاينرش يُجري تجربةً فيزيائيّة بكراتٍ معدنيّة ووعاء سلطة. وكان هاينرش يرتدي روبًا قماشيًا وَبَريًا، ومنشفةً حول عنقه، ومنشفة أخرى فوق رأسه. طلب مني أن أبحث في الطابق السفليّ.

داخل كومةٍ من الأغراض المتناثرة وجدت عدة ألبومات صور عائليّة، واحدٌ أو اثنان منها يعود إلى خمسين عامًا على الأقل. أخذتها معي إلى غرفة النوم. قضينا ساعاتٍ نقلّب فيها، ونحن جالسان في السرير. أطفال يُجفلون من الشمس، نساء بقبّعات شمسيّة، رجال يظلّلون عيونهم من الوهج كما لو أنّ الضوء في الماضي كان يتّسم بميزات لم تعد موجودة الآن، وهج يوم أحد أرغم الناس، الذين ارتدوا أفضل ملابسهم كأنهم ذاهبون إلى الكنيسة، على أن يقبضوا وجوههم ويقفوا مميلين أجسادهم بمواجهة المستقبل، وكأنّهم يتفادونه بدرجةٍ ما كما يبدو، راسمين ابتساماتٍ مضبوطةٍ جامدةٍ، شاكّين بأمرٍ ما في طبيعة صندوق الكاميرا.

من سيموت أولًا؟

8

بدأ صراعي مع اللغة الألمانيّة منتصف أكتوبر واستمرّ تقريبًا طوال السنة الأكاديمية. باعتباري أهمّ شخصيّة في دراسات هتلر في أميركا الشمالية، لطالما حاولتُ إخفاء حقيقة أنّني لا أعرف الألمانيّة. كنتُ عاجزًا عن التحدّث بها أو قراءتها، وعاجزًا عن فهم الحديث بها أو حتى الشروع بكتابة أبسط جملة على الورق. كان أقل زملائي في دراسات هتلر يعرفون بعض الألمانيّة؛ فيما كان آخرون طليقين في اللغة أو متحدّثين بها على نحو معقول. لا يمكن لأحد أن يختار تخصصه الأساسيّ في دراسات هتلر في الكلية-على-التل إذا لم يكن قد درس الألمانيّة سنةً

واحدةً على الأقل. باختصار، كنتُ أعيش على حافّة الإحساس بعارٍ هائل.

اللغة الألمانيّة. بدينة، مُربِكة، لفظها يسبّب اندفاع البصاق، لاذعة، قاسية. وعلى المرء مواجهة الأمر في نهاية المطاف. ألم يكن كفاح هتلر في التعبير عن نفسه بالألمانيّة هو المعنى الضمنيّ الجوهريّ في سيرته الذاتيّة المتشدّقة الضخمة، التي كتبها في سجن في الهضاب الباڤاريّة؟ القواعد والنّحو. ربّما أحسّ الرجل بأنّه سجين بأكثر من طريقة واحدة.

كنت قد قمتُ بمحاولات عديدة لتعلّم الألمانيّة، بسبرٍ جديٍّ في الأصول، والبُنى، والجذور. تلمّستُ القوّة القاتلة للغة. أردتُ التحدّث بها على نحو جيّد، واستخدامها كتعويذة، أداة حماية. وكلّما أحجمتُ عن تعلّم الكلمات الفعليّة، والقواعد واللفظ، بدا لي أنّ من المهمّ المضيّ قُدُمًا. فما نكون متردّدين في لمسه غالبًا ما يبدو جوهر نسيج خلاصنا. ولكنّ الأصوات الأساسيّة هزمتْني، التفجّر الشماليّ القاهر للكلمات والمقاطع، بلوغ نقطة التحكّم. كان ثمة ما يحدث بين نهاية لساني وسقف حلقي أشبه باستهزاء من محاولاتي لنطق الكلمات الألمانيّة.

كنتُ عازمًا على إعادة المحاولة.

ولأنّني حقّقتُ مكانةً أكاديميّةً رفيعة لأنّ محاضراتي تُتابَع جيدًا ومقالاتي تُنشر في الدوريّات البارزة، ولأنّني كنتُ أرتدي ثوبًا أكاديميًا ونظّارةً داكنة نهارًا وليلًا كلما تواجدتُ في الجامعة، ولأنّني كنتُ أحمل مئتين وثلاثين رطلًا على بنيةٍ بارتفاع ستّة أقدام وثلاث بوصات، بكفّين وقدمين ضخمتين، كنتُ أدرك أنّ دروسي الألمانيّة ينبغي أن تكون سرّيةً.

اتّصلتُ برجلٍ لا يعرف الكليّة، أخبرني مَري ج. سيسكند عنه. كانا زميلين في النزل المُؤطّر بالخضرة في مدلبروك. الرجل في الخمسينات،

متثاقل الخطوة قليلًا. شعره خفيف، ووجهه رقيق ويشمّر كُمّي قميصه عن ساعديه، كاشفًا عن قميص داخليّ قطني تحته.

كانت بشرته من نوع أودّ تسميته لحميّ اللون. اسمه هوارد دنلوپ. قال إنّه كان معالجًا فيزيائيًا ولم يُفصح عن سبب توقّفه عن العمل، كما لم يقل متى تعلّم الألمانيّة، أو سبب هذا، وثمة أمرٌ في طريقة كلامه كبحني عن الاستفسار.

جلسنا في غرفته المظلمة المُكتظّة في النُّزل. لوح كَوْي ينتصب غير مطويٍّ عند النافذة. وهناك أوانٍ صغيرة مطليّة بالمينا، وصَوانٍ من أدوات الطعام في خزانة صغيرة. الأثاث غريبٌ مثل لقيط لا يُعرَف أصله. في زوايا الغرفة الأغراض الأساسيّة. أنابيب تدفئة مركزيّة مكشوفة، وسرير مُغطًّى ببطانيّة عسكريّة. جلس دنلوپ على طرف كرسيّ عاديّ، شارحًا أساسيات القواعد. عندما انتقل من الإنكليزيّة إلى الألمانيّة، بدا وكأنّ وترًا قد التوى في حنجرته. عاطفةٌ مُباغتةٌ احتلّت صوته، صريرٌ وغرغرةٌ بدتا مثل تهييج لرغبةٍ حيوانيّة. حدّق بي وأومأ، نَعَقَ، وصل إلى حافّة الاختناق. فاضت الأصوات من نهاية لسانه، ضوضاء وحشيّة مشوبةٌ بالعاطفة. كان يُبيّن نماذج لفظيّة أساسيّة فحسب ولكنّ تغيُّر ملامح وجهه وصوته جعلني أظنّ أنّه كان يُشيّد ممرًا بين مستويات الوجود.

جلستُ أدوّن ملاحظات.

مضت الساعة بسرعة. رفع دنلوپ كتفيه بلا مبالاة حين طلبتُ منه أن لا يناقش مسألة الدروس مع أيّ شخص. خطر لي أنّه الرجل الذي كان مَري قد وصفه في ملخّصه عن النّزلاء الآخرين بكونه الرجل الذي لا يغادر غرفته.

مررتُ بغرفة مَري ودعوته إلى مرافقتي لتناول العشاء في المنزل. وضع نسخته من مجلة **أميركان ترانسفستايت** ودسّ جسده في الجاكيت

القطنيّ السميك. توقّفنا في الرّواق بما يكفي كي يُعْلِم مَري صاحبَ النُزل، الذي كان جالسًا هناك، عن صنبورٍ تالفٍ في حمّام الطابق الثاني. كان صاحب النُّزل ضخمًا متورِّد البشرة ذا صحّة متفجّرة بدا وكأنّه يعاني أزمةً قلبيّة فور النظر إليه.

«سيصلحه» قال مَري ونحن نمشي باتّجاه شارع إلم. «يُصلح كل شيء في نهاية المطاف. إنه بارع جدًا في جميع هذه الأدوات والأجهزة الصغيرة التي لا يعرف سكّان المدن أسماءها. لا تُعرَف أسماء هذه الأشياء إلا في الضواحي، والبلدات الصغيرة، والمناطق الريفيّة. من المؤسف أنّه شديد التعصّب».

- «كيف عرفت أنّه متعصب؟»

- «الناس البارعون في إصلاح هذه الأشياء متعصّبون عادةً».

- «ماذا تعني؟»

- «تذكّرْ جميع الأشخاص الذين جاؤوا إلى بيتك ليصلحوا شيئًا ما. جميعهم متعصّبون، أليس كذلك؟»

- «لا أعرف».

- «يقودون شاحنات صغيرة، صح؟ مع سلّم إضافيّ على السقف وتعويذةٍ پلاستيكيّة مُعلّقة بالمرآة الأماميّة».

- «لا أعرف يا مَري».

- «الأمر واضح».

سألني لمَ اخترتُ هذه السنة تحديدًا لتعلّم الألمانيّة، بعد سنوات كثيرة من النجاح في التملّص. أخبرته أنّ هناك مؤتمرًا عن هتلر سيُعقَد الربيع القادم في الكليّة-على-التل. ثلاثة أيام من المحاضرات وورشات العمل والجلسات. باحثون مختصّون في هتلر من سبع عشرة ولاية وتسع دول أجنبيّة. سيحضر ألمان كذلك.

في المنزل وضعت دينيز كيس قمامة رطب في كابسة القمامة في المطبخ. وشغّلت الآلة. سقط المكبس إلى أسفل الآلة بصريرٍ مزعج، أثار إحساسًا بالرعب. اندفع الأطفال راكضين من وإلى المطبخ، اندفعت المياه في المغسلة، وهدرت الغسّالة في المدخل. بدا مَري منهمكًا في الضوضاء المُباغتة. صرير معدن، وتكسّر زجاج، وتهشّم بلاستيك. أنصتت دينيز بحذر متأكّدةً من أنّ الجلبة المخيّمة تتضمّن العناصر الصوتيّة الصحيحة، ما يعني أنّ الآلة تعمل بشكل صحيح.

قال هاينرش لشخص على الهاتف: «تقوم الحيوانات بزنا المحارم طوال الوقت. كيف يكون الأمر غير طبيعيّ إذًا؟»

عادت بابيت بعدما ركضت وثيابها ترشح عرقًا. مشى مَري عبر المطبخ ليصافحها. رمت بجسدها في كرسيّ، وتجوّلت بنظراتها في المكان بحثًا عن وايلدر. راقبتُ دينيز وهي تُجري مقارنةً ذهنيّةً بين ملابس أمها الرياضيّة والكيس الرطب الذي وضعته في الآلة. كنتُ أرى هذا في عينيها، رَبطٌ تهكّميّ. كانت هذه المستويات الثانويّة من الحياة، هذه اللقطات وراء الحسيّة وفوارق الوجود الضئيلة، هذه المواقف الحميميّة التي تحدث فجأةً، هي ما تدفعني إلى الإيمان بأنّنا أعاجيب، بالغين وأطفالًا، نتشارك أمورًا لا حصر لها.

قالت ستيفي: «علينا غلي مائنا».

- «لماذا؟»

- «هذا ما قيل على الراديو».

- «دائمًا يقولون اغلوا الماء». ردّت بابيت. «هذه هي الصرعة الجديدة، مثل ما قالوا أديروا عجلة القيادة إلى الجانب الذي تنزلق السيارة نحوه. ها قد جاء وايلدر. أظنّ أنّ بإمكاننا تناول الطعام الآن».

تحرّك الطفل بخطواتٍ متعثّرة، هازًا رأسه، فيما كان وجه أمه يتلوّن بالسعادة والبهجة والنّشوة مع اقترابه.

قال هاينرش عبر الهاتف: «يدخل النيوترينو في الأرض مباشرةً».

قالت بابيت: «أيوا، أيوا، أيوا».

9

كان عليهم إخلاء المدرسة الابتدائيّة يوم الثلاثاء. أصيب الأطفال بصداعٍ وتهيّج في العين، وأحسّوا بطعمٍ معدنيٍّ في أفواههم. تقلّبت معلّمةٌ على الأرض وبدأت التحدث بلغةٍ غريبة. لم يعلم أحدٌ سبب ما حدث. قال المحقّقون إنّه قد يكون نظام التهوية، الطّلاء أو الورنيش، تعقيم المياه، عزل الكهرباء، طعام الكافيتريا، الأشعّة المنبعثة من أجهزة الكمبيوتر الصغيرة، الأسبستوس المستخدم في المباني لمقاومة النيران، اللاصق المستخدم في حاويات الشحن البحريّ، أبخرة مياه المسبح المعالجة بالكلور، أو ربما أمر آخر أخطر، متشرَّبٌ أكثر، جزءٌ من الحالة الطبيعيّة للأشياء.

بقيت دينيز وستيفي في المنزل ذلك الأسبوع فيما كان الرجال ببزّات شركة مايلكس والأقنعة الواقية يستخرجون عيّنات من البناء بمعدّات كشفٍ وقياس بالأشعة تحت الحمراء. وبما أنّ شركة مايلكس أحد المُشتبَه بهم أيضًا، بدت النتائج غامضة ولذا تم تحديد جولةٍ أخرى من الفحوصات الأكثر دقة.

ذهبنا، الفتاتان وبابيت ووايلدر وأنا، إلى السوپرماركت. بعد دقائق من دخولنا، التقينا مَري. كانت تلك رابع أو خامس مرة أُصادفه في السوپرماركت، وهو تقريبًا عدد المرات التي صادفته في الجامعة. أمسك ببابيت من جانب عنقها الأيسر ومشى جانبيًا حولها، حيث بدا وكأنّه يتنشّق شعرها.

- «عشاء رائع». قال وهو يقف خلفها مباشرةً. «أحبّ أن أطبخ بنفسي، ما يضاعف تقديري للشخص الذي يطبخ ببراعة».

قالت وهي تستدير في محاولةٍ لإيجاده: «أهلًا بك في أي وقت».

اتجهنا معًا إلى الأقسام الداخليّة المبرَّدة. وايلدر في عربة التسوّق يحاول التقاط الأغراض من على الرفوف أثناء مشينا. خطر لي أنّه أكبر وأضخم من أن يجلس في عربة التسوّق. كما تساءلت عن سبب تجمّد عدد ما ينطقه من كلمات عند خمس وعشرين.

قال مَري: «أنا سعيد بوجودي هنا».

- «في بلاكسمث؟»

- «في بلاكسمث، في السوپرماركت، في النُّزل، على التل. أحسّ أنّني أتعلم أمورًا مهمة كل يوم. الموت، والمرض، والحياة الآخرة، والفضاء الخارجيّ. جميعها أكثر صفاءً هنا. بإمكاني التفكير والرؤية».

اتّجهنا إلى قسم الأطعمة العضويّة وتوقّف مَري بسلّته البلاستيكيّة ليقلّب بين العلب والمرطبانات البيضاء. لم أكن واثقًا من أنّني فهمت ما قاله. ما الذي عناه بأنّ الأمور أكثر صفاءً هنا؟ ما الذي بإمكاني التفكير به ورؤيته؟

أمسكت ستيفي بيدي ومشينا قرب صناديق الفاكهة، وهي منطقة تمتد إلى ما يقارب خمسًا وأربعين ياردةً على طول الجدار. كانت الصناديق مُرتَّبةً على نحو مائل، وتحيط بها مرايا يرتطم بها الناس عن غير قصد حين يحاولون الوصول إلى الفاكهة في الصف العلويّ من الصناديق. صوتٌ على الميكروفون يصدح: «كلينكس سوفتيك، شاحنتك تسدّ المدخل». حبّتان أو ثلاث من التفاح والليمون تتساقط على الأرض كلما حاول شخص أخذ الفاكهة من زاويةٍ محددة من الصناديق. هناك ستة أنواع من التفاح، وبطيخ غريب بألوان عديدة. بدا وكأنّ كلّ شيء في موسمه، مرشوشًا، ممسوحًا، برّاقًا. يمزّق الناس الأكياس الشفّافة من على الرفوف محاولين اكتشاف مكان فتحتها. أدركتُ أنّ المكان غارقٌ في الصخب. أنظمة الصوت، وصرير واحتكاك العربات، والميكروفون

وآلات القهوة، وصياح الأطفال. وفوق هذا كله، أو تحته، هديرٌ غريبٌ مجهول المصدر، يبدو منبعثًا من شكلٍ ما من الحياة المُكتظّة التي تقع خارج نطاق الاستيعاب البشريّ.

– «هل اعتذرتِ من دينيز؟»

قالت ستيفي: «بعدين، ذكِّرني».

– «إنها فتاة لطيفة وتريد أن تكون أختك الكبرى وصديقتك أيضًا لو سمحتِ لها».

– «لستُ متأكدة بشأن الصداقة. هي متسلِّطة قليلًا، ألا ترين هذا؟»

– «بعيدًا عن الاعتذار لها، تأكّدي من إعادة الدليل الطبيّ إليها».

– «هي تقرأ فيه طوال الوقت. ألا تعتقد أنّ هذا غريب؟»

– «على الأقل هي تقرأ شيئًا».

– «أكيد، لوائح أدوية وعقاقير. تريد معرفة السبب؟»

– «لماذا؟»

– «لأنّها تريد معرفة الآثار الجانبيّة للشيء الذي تتعاطاه بابا».

– «وما الذي تتعاطاه بابا؟»

– «لا تسألني. اسأل دينيز».

«وكيف تعرفين أنّها تتعاطى شيئًا؟»

«اسأل دينيز».

«لمَ لا أسأل بابا؟»

قالت: «اسأل بابا».

خرج مَري من أحد الممرات ومشى بجوار بابيت، أمامنا مباشرةً. أخذ لفافتين من مناديل التواليت من عربتها وبدأ يشمّها. كانت دينيز قد وجدت عدة أصدقاء ومضوا معًا ليتصفّحوا الكتب على الرفوف

النحيلة، الكتب ذات الأغلفة المعدنيّة البراقة، وحروف العناوين النافرة، والرسومات الزاهية لروايات العنف والحبّ العاصف. كانت دينيز ترتدي قناعًا أخضر. سمعت بابيت تقول لمَري إنها ترتديه أربع عشرة ساعةً كل يوم منذ ثلاثة أسابيع. لم تكن تخرج من دونه، بل حتى لا تغادر غرفتها من دونه. ترتديه في المدرسة، حين كانت تذهب إلى المدرسة، ترتديه في التواليت، في كرسيّ طبيب الأسنان، على طاولة العشاء. بدا وكأنّ شيئًا ما في القناع يتحدّث إليها، يمنحها اكتمالًا وهويّةً.

قال مَري: «إنه بوّابة تفاعلها مع العالم».

ساعد بابيت في دفع عربتها المليئة. سمعته يقول لها: «يؤمن سكّان التيبت أنّ ثمة حالةً انتقاليّةً بين الموت والبعث. الموت فترة انتظار، أساسًا. وسرعان ما سيتلقّى رحمٌ جديدٌ الروحَ. وفي هذه الأثناء تستعيد الروح بعضًا من الألوهيّة التي فقدتها عند الولادة». درس وجهها كما لو أنّه يبحث عن ردّ فعل. «هذا ما أفكّر به كلّما جئت إلى هنا. هذا المكان يشحننا روحيًا، يُهيّئنا، إنه بوّابة أو ممر. انظري إلى إشراقه. إنه مليء بالبيانات النفسيّة».

ابتسمت زوجتي له.

«كلّ شيء كامنٌ في الرمزيّة، يتخفّى خلف أحجبةٍ من الغموض وطبقات من الماديّة الثقافيّة. ولكنّها معطيات نفسيّة بكل تأكيد. تنفتح الأبواب المنزلقة الضخمة، وتنغلق من دون تدخّل. أمواج طاقة، إشعاعات متدفّقة. جميع الأحرف والأرقام هنا، جميع ألوان الطيف، جميع الأصوات البشريّة وغير البشريّة، جميع الكلمات الكوديّة والعبارات الشعائريّة. إنها مسألة فكّ شفرة فقط، إعادة ترتيب، تقشير طبقات ما هو عصيّ على الوصف. ولا يكون هذا لأننا نودّ ذلك، أو لأنّ ثمة نفعًا سيُمنَح بالنتيجة. إننا لسنا في التيبت. بل حتى التيبت لم تعد التيبت».

عاود تأمّلها. وضعت علبة زبادي في عربتها.

«يحاول التيبتيّون رؤية الموت كما هو عليه. إنه نهاية الارتباط مع الأشياء. هذه الحقيقة السهلة لكن صعبة الفهم. ولكن حالما نتوقّف عن إنكار الموت، سنتمكّن من المضيّ بهدوء إلى الموت ثم نتابع لنُعايش البعث الرحميّ أو الحياة الآخرة اليهود-مسيحيّة، أو التجربة خارج الجسد، أو الرحلة على متن طبق طائر، أو أيًا تكن التسمية التي نشاء. بإمكاننا فعل هذا برؤيا صافية، بلا رهبة أو رعب. ليس علينا التشبّث بالحياة بتكلّف، أو حتى بالموت. بل نمشي ببساطة نحو الأبواب المنزلقة. أمواج وإشعاعات. انظري إلى مدى بريق كلّ شيء. المكان مُحكَم الإغلاق، مكتفٍ بذاته. لا زمن فيه. وهذا سبب آخر يدفعني للتفكير بالتيبت. الموت فنٌّ في التيبت. يدخل راهب، يجلس، يطلب من الأقارب الباكين الخروج كي يُغلق الغرفة. الأبواب والنوافذ مغلقة. أمامه عمل جاد ينهمك فيه. تراتيل، وعلم أرقام، وأبراج، وتلاوة. هنا لا نموت، بل نتسوّق. ولكنّ الاختلاف أصغر مما تعتقدين».

يكاد يتحدّث هامسًا الآن، فحاولتُ الاقتراب محاذرًا صدم عربتي بعربة بابيت. أردتُ سماع كلّ شيء.

«السوپرماركت التي تكون بهذه الضخامة والنظافة والحداثة مصدر إلهام لي. قضيت حياتي في مطاعم صغيرة للأطعمة الجاهزة تعبق بالدخان، بواجهات عرض مائلة تضمّ صوانٍ فيها مواد هشّة رطبة ناعمة بألوان باهتة. واجهات عاليةٌ جدًا بحيث تضطرين للوقوف على رؤوس الأصابع كي تُملي طلبك. صراخ، ولهجات. في المدن لا أحد ينتبه إلى احتضارٍ بعينه. الاحتضار كالجو المحيط. إنه في كل مكان وفي لا مكان. يصيح الناس حين يموتون، كي ينتبه إليهم الآخرون، كي يتم تذكّرهم لثانيةٍ أو اثنتين. الموت في شقّة بدلًا من بيت يصيب الروح باكتئاب، كما أتصوّر، لحيواتٍ قادمة. في البلدة ثمة بيوت، ونباتات عند إطار النافذة.

ينتبه الناس إلى الموت على نحو أفضل. للموتى وجوه، وسيّارات. لو لم تعرفي اسم الميت، لا بدّ أن تعرفي اسم الشارع، اسم الكلب. ´كان يقود مازدا برتقاليّة`. تعرفين شيئًا أو اثنين من الأمور التافهة عن شخص، ستصبح لاحقًا وقائع جوهريّة للتّعريف به وتحديد هويّته حين يموت فجأة، بعد مرضٍ قصير، في سريره، على وسائد مريحة متماثلة، في ظهيرة يوم أربعاء ماطرة، مصابًا بالحمّى، مع انقباضٍ بسيط في الأوردة والصدر، وهو يفكّر بتنظيف ملابسه».

قالت بابيت: «أين وايلدر؟» والتفتت تحدّق بي بطريقةٍ أوحت لي أنّها رأته آخر مرة منذ عشر دقائق. نظرات أخرى، أقل حزنًا وأقل ذنبًا، تُشير إلى انقضاء فترة أطول، بحار شرودٍ أكثر عمقًا. مثل: «لم أكن أعرف أنّ الحيتان من الثدييات». كلّما طالت الفترة الزمنيّة، تزايد خواء النظرة، وتعاظمَ خطر الموقف. بدا وكأنّ الذنب كان ترفًا لا تسمح لنفسها بامتلاكه إلا حين يكون الخطر في أدناه.

– «كيف له أن يخرج من العربة من دون أن تلاحظي؟»

وقف كلٌّ من البالغين الثلاثة أمام ممر يراقب حركة العربات والأجساد المندفعة. ثم جرّبنا ثلاثة ممرات أخرى، الرؤوس ممتدّةٌ إلى الأمام، تميل قليلًا كلّما غيّرنا اتّجاه النظر. كنتُ أرى بقعًا ملوّنةً عند أقصى اليمين ولكن حين ألتفت لا أرى شيئًا. كنت أرى بقعًا ملوّنةً لسنوات ولكن ليس بهذه الكثرة، وهذه الحيويّة. رأى مري وايلدر في عربة امرأة أخرى. لوّحت المرأة لبابيت وتوجّهت نحونا. هي تسكن في شارعنا مع ابنةٍ مراهقة وطفل آسيويّ، تشون دوك. كان الجميع يتحدَّث عن الطفل ذاكرين اسمه، بنبرةٍ تكاد تبدو كأنّها نبرة مُلكيّة فخورة، ولكن لم يكن أحد يعرف والدي تشون، أو المكان الذي جاء أو جاءت منه.

– «كلينكس سوفتيك، كلينكس سوفتيك».

كانت ستيفي تمسك يدي بطريقةٍ سأدرك لاحقًا، بعد فترةٍ من الزمن،

بأنها لا تعني التملّك الحنون، كما ظننتُ في البداية، بل الطمأنينة. كنت مذهولًا قليلًا. قبضةٌ قويّةٌ تساعدني على استعادة الثقة بنفسي، وتُبعدني عن الاستسلام إلى أيّ مزاج اكتئابيّ تظنّ أنّها التقطته يحوم حولي.

قبل أن يتّجه مَري إلى خط القطار دعانا إلى العشاء، بعد السبت بأسبوع.

- «بإمكانكم إعلامي قبل مجيئكم مباشرةً».

قالت بابيت: «سنكون هناك».

- «لن أحضّر طبقًا كبيرًا، لذا اتّصلوا فقط في حال طرأ أمرٌ ما. لستم مضطرين حتى للاتصال. لو لم تأتوا، سأعلم أنّ أمرًا طرأ ولم تتمكّنوا من إعلامي».

- «مَري، سنأتي».

- «أحضروا الأطفال».

- «لا».

- «عظيم. ولكن لو قرّرتم إحضارهم، فلا مشكلة. لا أريد أن تشعروا أنّني أُلزمكم بأيّ شيء. لا تشعروا أنّكم تؤدّون التزامًا صارمًا. تأتون أو لا تأتون. سآكل في جميع الأحوال، لذا لن تكون هناك كارثة لو طرأ أمر ما واضطررتم للإلغاء. كلّ ما أريد هو إعلامكم أنّني سأكون موجودًا لو قرّرتم المجيء، مع الأطفال أو من دونهم. لدينا وقتٌ حتى مايو أو يونيو القادم كي نقوم بهذا المشروع لذا ليس هناك شيءٌ مقدّسٌ بشأن ما بعد السبت بأسبوع».

سألته: «هل ستعود الفصل القادم؟»

- «يريدون مني تدريس صفٍّ عن سينما حوادث السيارات».

- «افعل ذلك».

- «سأفعل».

التصقتُ ببابيت في طابور الحساب. دفعت جسدها إليّ فطوّقتها ووضعت يديّ على نهديها. قلبت شفتيها فنفخت على شعرها وتمتمتُ: «شقراء قذرة». كان الناس يكتبون الشيكات، وفتية طوال القامة يضعون المشتريات في أكياس. لم يكن الجميع يتحدث الإنكليزيّة هناك، أو قرب صناديق الفاكهة، أو بين السيّارات في الموقف. ورويدًا رويدًا بتُّ أسمع لغاتٍ أعجز عن فهم شيء منها، مع أنّ الفتية الطوال مولودون في أميركا، وكذا كانت الفتيات العاملات، القصيرات، ممتلئات الأجساد في أرديتهنّ الزرقاء، وبناطيلهنّ الضيقة الملتصقة بهن، وأحذيتهنّ الخفيفة البيضاء الصغيرة. حاولتُ وضع يديّ داخل تنّورة بابيت، فوق بطنها، مع اقتراب الطابور البطيء من آخر طاولة بيع، حيث معطّرات الفم وبخّاخات الأنف.

بعد أن وصلنا إلى الموقف سمعنا أولى الشائعات عن رجلٍ مات خلال عمليّة فحص المدرسة الابتدائيّة، أحد رجال شركة مايلكس ببزّاتهم الواقية وأحذيتهم الثقيلة الضخمة. وقع ومات، هكذا قالت القصة التي انتشرت، في أحد صفوف الطابق الثاني.

10

الرسوم الجامعيّة في الكلية-على-التل هي أربعة عشر ألف دولار، متضمّنةً وجبة البْرَنش يوم الأحد. أحسّ أنّ هناك صلةً بين هذا الرقم الكبير والطريقة التي يرتّب الطلاب أجسادهم بها في قاعات القراءة في المكتبة. يجلسون على مقاعد وثيرة عريضة بتنويعات مختلفة من الوضعيّات الصعبة، المحسوبة بدقّة بحيث تُصبح العلامات المميِّزة لجماعة عائليّة أو منظمة سرّيّة. وضعيّات جنينيّة، مستلقية، بركبتين ملتصقتين، مقوَّسة، متربّعين، وأحيانًا تكاد تكون رأسًا على عقب. الوضعيّات مدروسةٌ بعناية بحيث تليق بعرض إيماء كلاسيكيّ. ثمة

عنصر من فرط النقاء والتناسل الداخليّ. أحسّ أحيانًا أنّني دخلت في حلم شرق آسيويّ، عصيٍّ على التأويل. ولكنّها ليست سوى لغة الطبقة الاقتصاديّة التي يتحدّثون بها، في إحدى صيغها الظاهريّة المسموح بها، مثل تجمّع سيّارات الستايشن بداية العام.

راقبت دينيز أمها تفك شريط السيلوفان الصغير الموجود على علبة مجانيّة تحوي ستّ عشرة علكة، كل منها مغلّفةٍ على حدة. ضيّقت عينيها وهي تلتفت إلى دفتر العناوين على طاولة المطبخ أمامها. كان وجه ابنة الحادية عشرة قناعًا بارعًا من السّخط المكبوت.

انتظرتْ هنيهةً طويلة ثم قالت بهدوء: «هذا الصنف تسبّب بسرطان في حيوانات التجارب لو لم تكوني تعرفين».

- «أنتِ التي أردتِ أن أختار العلكة الخالية من السكّر يا دينيز. كانت فكرتك».

- «لم يكن هناك تحذير على العلبة آنذاك. إنهم يضعون تحذيرًا، وسألاقي صعوبةً كبيرة في تصديق أنّكِ لم تريه».

كانت تنقل الأسماء وأرقام الهواتف من دفتر قديم إلى واحد جديد. لم تكن هناك عناوين. ليس لدى أصدقائها سوى أرقام هاتف فقط، عِرْقٌ بشريٌّ ذوي وعيٍ تناظريٍّ من سبعة أعداد.

«سعيدة بفعل أيّ من الأمرين». قالت بابيت. «الأمر كله متعلق بك. سواء كانت العلكة بسكر وملوّنات صناعية أو علكة خالية من السكر والملونات التي تؤذي الجرذان».

أغلقت ستيفي السماعة، وقالت: «لا تتناولي العلكة أبدًا. هل فكرت بهذا؟»

كانت بابيت تكسر البيض في زبدية خشبية. صوّبت إليّ نظرة تتساءل كيف تمكّنت الفتاة من سماعنا والتحدّث على الهاتف في وقت واحد. كنت أريد القول: لأنّها تجدنا مثيرين للاهتمام.

قالت بابيت للفتاتين، «اسمعا، إمّا العلكة أو أعود إلى التدخين. لو أردتما أن أعود إلى التدخين، خذا العلكة وبخّاخ النّعناع».

- «لم عليك فعل أمر من الاثنين؟» سألتها ستيفي «لم لا تقلعين عن الاثنين؟»

- «ولم لا تفعل الأمرين معًا؟» ردت دينيز ووجهها يتخلّى عن الملامح بحرص. «هذا ما تريدين أليس كذلك؟ جميعنا نفعل ما يحلو لنا، صح؟ إلا إذا أردنا الذهاب إلى المدرسة غدًا وهذا ما لا نستطيع فعله لأنهم يطهّرون المدرسة.. أو أيًا يكن».

رن الهاتف؛ فردت ستيفي.

قالت بابيت: «لست مجرمة. كل ما أريد فعله هو مضغ علكة صغيرة مقرفة لا طعم لها بين حين وآخر».

ردت دينيز: «الأمر ليس بتلك البساطة».

- «ليس الأمر جريمة. أمضغ قطعتين من هذه العلكة الصغيرة يوميًا».

- «ليس بعد اليوم».

- «بل بإمكاني هذا يا دينيز. أريد هذا. العلكة تريحني. أنت تضخّمين القصة».

تمكنت ستيفي من لفت انتباهنا بفعل القوة الهائلة لنظرتها التي تصوبها إلينا. كانت يدها على السماعة. لم تكن تتحدث بل تحرِّك شفتيها بالكلمات بصمت.

يريد آل ستوفر القدوم.

سألت بابيت: «الكبار أم الصغار؟»

رفعت ابنتي كتفيها.

قالت بابيت: «لا نريدهم».

قالت دينيز: «أبعديهم».

ماذا عليَّ قوله؟

- «كما تريدين».

- «أبعديهم فحسب».

- «إنهم مملّون».

- «اطلبي منهم البقاء في البيت».

عادت ستيفي إلى الهاتف، وبدت كأنها تحميه بجسدها، وعيناها مليئتان بالخوف والإثارة.

قالت بابيت: «لا يمكن لعلكة صغيرة أن تؤذي».

- «أظن أنهم على حق. لا تكترثي. مجرد تحذير على العلبة».

أنهت ستيفي المكالمة. وقالت: «مجرد خطر على صحتك».

- «على الجرذان فقط». ردَّت دينيز. «أظن أنك على حق. لا تهتمي».

- «ربما تظن أن الجرذان ماتت وهي نائمة».

- «مجرد قوارض لا نفع لها، ما الفارق؟»

قالت ستيفي: «ما الفارق، ما المشكلة؟»

- «عدا عن أنني أود تصديق أنها تمضغ علكتين يوميًا فقط، كما تنسى كل الأشياء».

سألتها بابيت: «ما الذي أنساه؟»

ردت دينيز: «ولا يهمك. لا شيء».

- «ما الذي أنساه؟»

- «خذي العلكة. لا تهتمي بالتحذير. لا أكترث».

أنزلتُ وايلدر عن الكرسي وقبّلتُه بصوت عالٍ في أذنه فأرجع جسده

فرحًا. ثمّ وضعته على الكاونتر وصعدت إلى الطابق العلوي أبحث عن هاينرش. كان في غرفته يدرس انتشار قطع الشطرنج البلاستيكية.

- «أما زلت تلعب مع صديقك في السجن؟ ما الوضع؟»

- «جيد جدًّا. أظن أنّني أُثير اهتمامه».

- «ما الذي تعرفه عن هذا الرجل؟ كنت أريد أن أسألك عنه».

- «تسأل عن مَن قتل؟ هذا هو محور الاهتمام اليوم. الاهتمام بالضحية».

- «أنت تلعب الشطرنج مع هذا الرجل منذ أشهر. ما الذي تعرفه عنه عدا أنه محكوم مدى الحياة، بتهمة القتل؟ هل هو شاب، عجوز، أسود، أبيض؟ هل تتواصلان بأي شيء عدا الشطرنج؟»

- «نتبادل الرسائل أحيانًا».

- «من قتَل؟»

- «كان تحت ضغط».

- «وماذا حدث؟»

- «تزايد الضغط أكثر فأكثر».

- «لذا اندفع لإطلاق الرصاص على شخص ما. من هذا الشخص؟»

- «عدة أشخاص في آيرن ستي».

- «ما عددهم؟»

- «خمسة».

- «خمسة أشخاص».

- «عدا عن الشرطي الجوّال، ولكن كان هذا لاحقًا».

- «ستة أشخاص. هل كان مهتمًّا بالأسلحة؟ هل كان يخبئ ترسانة في غرفته الصغيرة المجاورة لموقف سيّارات من ستة طوابق؟»

- «عدة مسدسات وبندقية بمنظار».

- «يا له من مشهد. هل أطلق النار من ناصية طريق رئيسي؟ من غرفة مستأجرة؟ هل دخل حانة، أو مكان عمله السابق وبدأ بإطلاق الرصاص عشوائيًا؟ يصاب الناس بهلع، ويختبئون تحت الطاولات. الناس في الشارع يظنّون أنّهم سمعوا ألعابًا نارية. «كنت أنتظر الباص حين سمعت صوت فرقعة مثل ألعابٍ نارية».

- «صعد إلى سطح».

- «قناص أسطح. هل كتب في دفتر يوميّاته قبل أن يتّجه إلى السطح؟ هل كان يسجّل أشرطة لصوته، يرتاد السينما، يقرأ كتبًا عن سفاحين لينعش ذاكرته؟»

- «يسجّل أشرطة».

- «يسجّل أشرطة. وما الذي كان يفعل بها؟»

- «يرسلها إلى الناس الذين أحبّهم، طالبًا منهم الغفران».

- «´كنت عاجزًا عن كبح نفسي يا جماعة`. هل قتل غرباء؟ هل قتل للانتقام؟ هل طُرد من عمله؟ هل كان يسمع أصواتًا؟»

- «غرباء».

- «هل كان يسمع أصواتًا؟»

- «في التلفزيون».

- «تتحدّث إليه وحده؟ تصطفيه؟»

- «تطلب منه دخول التاريخ. كان في السابعة والعشرين، عاطلًا عن العمل، مطلّقًا، وسيّارته بيعت في مزاد علنيّ. كان الوقت ينفد».

- «أصوات ضغط قاهرة. كيف تعامل مع وسائل الإعلام؟ أجرى مقابلات كثيرة، كتب رسائل إلى محرر الجريدة المحلية، حاول الحصول على عقد لتأليف كتاب».

- «ليس هناك وسائل إعلام في آيرن سيتي. لم يفكر بهذا إلى أن فات الأوان. قال إنّه لو أعاد الكرّة، لن يجعلها جريمة قتل عاديّة، بل سينفذّها كاغتيال».

- «سيختار بحرص أكبر، يقتل أحد المشاهير، فينتبه إليه الناس، ويعلق في الذاكرة».

- «يدرك الآن أنّه لن يدخل التاريخ».

- «ولا أنا».

- «أنت لديك هتلر».

- «صحيح، أليس كذلك؟»

- «ولكن ما الذي لدى تومي روي فوستر؟»

- «حسنًا، لقد باح لك بكلّ شيء في الرسائل التي أرسلها إليك. وماذا كانت ردودك؟»

- «إنني أصاب بالصلع».

نظرت إليه، كان يرتدي بيجاما رياضيّة، ومنشفة حول عنقه، ورباطًا حول كلّ معصم.

- «أنت تعلم ما الذي ستقوله أمّك بشأن علاقات لعب الشطرنج بالمراسلة».

- «أعلم ما ستقوله أنت. أنت تقوله الآن».

- «كيف هي أمّك؟ هل سمعت منها أخبارًا جديدة؟»

- «تريد مني الالتحاق بالمُعتَزَل(*) هذا الصيف».

- «هل تريد الذهاب؟»

- «من يعلم ما أريد فعله! من يعلم ما يريد أيّ شخص فعله! كيف

(*) Ashram مكان منعزل يستخدم للتعبد في الديانات الهندية.

بوسعك أن تكون واثقًا بشأن شيء كهذا؟ أليست كلّها مسألة كيمياء دماغ، إشارات تأتي وتذهب، طاقة كهربائيّة في قشرة المخ؟ كيف لك أن تعلم ما إذا كان هذا هو ما تريده حقًّا أم هو مجرد تدافع عصبيّ في الدماغ؟ نشاط صغير ثانوي يحدث في بقعة ما في هذا المكان التافه في أحد نصفَيْ الدماغ بحيث أرغب فجأة بالتوجّه إلى مونتانا أو أتغاضى عن ذلك. كيف أعرف ما إذا كنت أرغب حقًّا بالذهاب وكأنّ الأمر ليس مجرد عمل عصبي أو ما إلى ذلك؟ ربّما كان مجرّد تحريض مفاجئ في نسيج الدماغ لأجد نفسي فجأة في مونتانا، وأكتشف أنّني لم أرغب بالذهاب أصلًا. أعجز عن التحكّم بما يحدث في دماغي، لذا كيف لي أن أكون واثقًا بما أريد فعله بعد عشر ثوانٍ، دع عنك الذهاب إلى مونتانا الصيف القادم؟ كلّه مرتبط بهذا النشاط في الدماغ بحيث تعجز عن معرفة ماهيتك كإنسان أو معرفة مدى قابليّة خليّة عصبيّة محدّدة للتحرّض أم لا. أليس هذا سبب قتل تومي روي لأولئك الناس؟»

في الصباح اتّجهت إلى البنك. ذهبت إلى الآلة الأوتوماتيكيّة الناطقة لتفقّد حسابي. دسست بطاقتي، وأدخلتُ رقمي السرّي، واخترت طلبي. توافق الرّقم على الشاشة مع توقّعاتي تقريبًا، حيث ظهر أخيرًا بغد عمليّة بحث طويلة في السجلات، وعمليات حسابيّة مرهقة. غمرتني أمواج راحة وامتنان. لقد بارك النظام حياتي. أحسست بدعمه وموافقته. معدّات النظام، الإطار المركزيّ القابع في غرفة مقفلة في مدينة بعيدة. يا له من تفاعل مبهج؛ أحسست بما يشبه قيمة شخصيّة عميقة، لم تكن المال على الإطلاق، قد تمّ تأكيدها والمصادقة عليها. شخص مخبول أُخرج من البنك بمرافقة حارسين مسلّحَيْن. كان النظام خفيًّا، ما جعل الأمر برمّته أكثر إذهالًا، وأكثر إغراءً للتعامل. ولكنّنا كنّا على وفاق، الآن على الأقل. الشبكات، الدارات، التدفّقات، التناغمات.

11

أعمل داخل قبضة عَرَق قاتل. عاجزًا في مواجهة مخاوفي المرهقة. فترة توقف في مركز كينونتي. افتقرت إلى الإرادة والقوّة الجسديّة للنهوض من السرير والتجوّل في المنزل المظلم، متلمّسًا الجدران وإطار الدرج. كي أشقّ طريقي، وإعادة تأهيل جسديّ، ومعاودة دخول العالم. يسيل العرق عبر ضلوعي. الأرقام الإلكترونيّة على ساعة الراديو تشير إلى 3:51. دائمًا تكون الأعداد فرديّة في أوقات كهذه، ما الذي يعنيه هذا؟ هل الموت ذو أعداد فرديّة؟ هل هناك أعداد تخصّ حيويّة الحياة، وأخرى مرتبطة بالوعيد. تمتمت بابيت في نومها فاقتربت منها، أتنفّس حرارتها.

أخيرًا غرقتُ في النوم، لأستيقظ بفعل رائحة توست محروق. لا بدّ أنّها ستيفي. تحرق التوست معظم الأحيان، في أيّ وقت، عمدًا. تحبّ الرائحة، إنّها مدمنة؛ تلك هي رائحتها الكنز. تشبع رغبتها على نحو يعجز عنه دخان الخشب، أو الشمع المنطفئ، أو رائحة البارود المحترق المتسلّلة من الشارع بفعل الألعاب الناريّة في الرابع من مايو. تطوّرت عبر مستويات التفضيل. خبز الجاودار المحروق، الخبز الأبيض المحروق، إلى آخره.

ارتديت الروب ونزلت. دائمًا أرتدي الروب حين أتّجه إلى مكان ما لأتحدّث بأمر جدّيّ مع أحد الأطفال. كانت بابيت معها في المطبخ، فاجأني هذا. ظننت أنّها لا تزال نائمة.

سألتني ستيفي: «تريد بعض التوست؟»

– «سأبلغ الحادية والخمسين الأسبوع القادم».

– «هذا ليس سنّ شيخوخة، أليس كذلك؟»

– «لطالما انتابني الشعور ذاته طوال خمسة وعشرين عامًا».

- «هذا سيئ. كم عمر أمّي؟»

- «لا تزال شابّة. كانت في العشرين حين تزوّجنا أوّل مرّة».

- «هل هي أصغر من بابا؟»

- «العمر نفسه تقريبًا كي لا تظنّي أنّني أحد أولئك الرجال الذين يقضون حياتهم في البحث عن نساء أصغر عمرًا».

لم أكن واثقًا ما إذا كانت ردودي موجّهة لستيفي أم بابيت. يحدث هذا في المطبخ، حيث مستويات البيانات متعدّدة وعميقة، كما كان مري سيقول.

سألتني ستيفي: «هل لا تزال تعمل في السي آي إيه؟»

- «لا يفترض بنا التحدّث عن هذا. إنّها عميلة بعقدٍ مؤقّتٍ على أيّ حال».

- «ماذا يعني هذا؟»

- «هذا ما يفعله الناس حاليًّا من أجل دخل ثانٍ».

سألتني بابيت: «ما الذي تفعله تحديدًا؟»

- «تتلقّى اتّصالًا من البرازيل، هذا ينشّطها».

- «ثمّ ماذا؟»

- «تحمل مالًا في حقيبة وتقطع أميركا اللاتينيّة طولًا وعرضًا».

- «هذا كلّ شيء؟ أنا قادرة على هذا».

- «أحيانًا يرسلون إليها كتبًا لتكتب مراجعة عنها».

سألتني بابيت: «هل التقيتُ بها؟»

- «لا».

- «هل أعرف اسمها؟»

- «دانا بريدلڤ».

تحرّكت شفتا ستيفي بالأحرف وأنا أنطقها.

خاطبتها: «لا تنوين أكل هذا، أليس كذلك؟»

- «آكل توستي دائمًا».

رنّ الهاتف فأخذته. انطلق صوت امرأة بتحيّة ذات أداء عالٍ. قالت إنّها صوت كمبيوتر، جزء من استبيان تسويقيّ يحاول تحديد المستويات الحاليّة من رغبة المستهلك. قالت إنّها ستطرح أسئلة جدّيّة، متوقّفة بعد كلّ سؤال لتعطيني فرصة الردّ.

أعطيت السمّاعة لستيفي. وعندما أصبح من الواضح أنّها انشغلت كلّيًّا بذلك الصوت الآليّ. تحدّثت إلى بابيت بصوت خفيض.

- «كانت تحبّ الورطات».

- «من؟»

- «دانا. كانت تحبّ إيقاعي في ورطات».

- «ورطات من أيّ نوع؟»

- «شقاقات. تحرّض أصدقاء ضد أصدقاء آخرين. مؤامرات منزليّة، مؤامرات في الكلّيّة».

- «تبدو أمورًا معتادة».

- «كانت تتحدّث بالإنكليزيَة، والإسبانيّة والبرتغاليّة على الهاتف».

استدارت ستيفي، واستخدمت يدها الحرّة لتبعد كنزتها عن جسدها كي تتمكّن من قراءة اسم الماركة.

قالت عبر الهاتف: «ڤيرجن أكرِليك».

تفقّدت بابيت الماركة على كنزتها. بدأ مطر خفيف يهطل.

قالت: «ما شعور الاقتراب من الحادية والخمسين؟»

- «لا يختلف عن الخمسين».

نبهتني: «باستثناء أنّ أحدهما زوجيّ، والآخر فرديّ».

تلك الليلة، في غرفة مري ذات الحوائط البيضاء، بعد وجبة رائعة من دجاجة كورنِشْ على شكل ضفدع، محضّرة على طبق سُخّن على مصدرَيْ حرارة، انتقلنا من كراسينا المعدنيّة القابلة للطيّ إلى السرير الملتصق بالجدار لشرب القهوة.

قال مري: «حين كنت محرّرًا للأخبار الرياضيّة، كنت دائم الترحال، وأعيش في الطائرات والفنادق وضجيج الملاعب، من دون أن أشعر بأنّني في المنزل حتّى وأنا في شقتي. الآن لديّ مكان».

– «قمتَ بمعجزات». ردت بابيت، ونظرتها تجول بيأس في أنحاء الغرفة.

– «إنّها صغيرة، ومظلمة، بسيطة». قال بطريقة شديدة الرضا». مكان مغلق للتفكير».

أشرت باتّجاه البناء القديم ذي الطوابق الأربعة على بعد عدّة فدادين من الطريق». هل تصلك أيّ ضوضاء من مصحّ المجانين؟»

– «تعني الضرب والزعيق؟ من المثير أنّ الناس لا تزال تسمّيه مصحًّا للمجانين. لا بدّ أنّ هذا بفعل العمارة الصادمة، السقف العالي شديد الانحدار، المداخن الطويلة، الأعمدة، والتنويعات الصغيرة هنا وهناك التي هي إمّا غريبة أو مشؤومة – أعجز عن ضبط أفكاري. لا يبدو مقرّ استراحة أو مؤسّسة للعلاج النفسيّ. يبدو مصحّ مجانين».

كان بنطاله لامعًا عند الركبتين.

«آسف لأنّكم لم تحضروا الأولاد. أودّ التعرّف على الأطفال الصغار. هذا مجتمع الأطفال. أقول لطلابي إنّهم قد شاخوا بما يكفي كي يعجزوا عن المشاركة الفعّالة في بناء المجتمع. دقيقة إثر أخرى يبدأون بالتباعد فيما بينهم. ´حتى ونحن جالسون هنا`، أقول، ´أنتم تبتعدون عن المحور، تتضاءل إمكانيّة تمييزكم كجماعة، وتتضاءل فرصة استهدافكم

من المعلنين ومنتجي الثقافة الجماهيريّة. الأطفال عنصر شامل حقًّا، ولكنّكم تجاوزتم هذا فعليًّا، وقد بدأتم بالابتعاد أساسًا، بالإحساس بأنّكم غرباء عن المنتجات التي تستهلكونها، لمن هي مصمّمة؟ ما موقعكم في المخطّط التسويقيَ؟ حالما تنهون دراستكم، لن يمر وقت طويل قبل أن تقاسوا الوحدة القاتلة وسخط المستهلكين الذين فقدوا هويّتهم كجماعة`. ثمّ أقرع الطاولة بقلم الرصاص لأشير إلى مرور الزمن على شكل وعيد».

وبسبب جلوسنا على السرير، كانَ على مري الانحناء كثيرًا إلى الأمام، متجاوزًا فنجان القهوة في يدي، كي يخاطب بابيت.

- «كم عدد أطفالكما، العدد الكليّ؟»

بدت وكأنّها متردّدة.

- «هناك وايلدر، طبعًا. ودينيز».

ارتشف مري من فنجانه، محاولًا النظر إليها جانبيًا، حيث الفنجان على شفته السفلى.

- «هناك يوجين، الذي يعيش مع أبيه هذا العام غرب أستراليا. يوجين في الثامنة. يجري أبوه أبحاثًا في قِفار أستراليا غير المأهولة. أبوه هو أبو وايلدر أيضًا».

تدخّلتُ: «الولد يكبر من دون تلفزيون، ما قد يجعله أهلًا لتبادل الحديث، يا مري. مثل ابن البراري، بدائيًّا اقتُلع من الغابة. هو ذكي ومتعلّم ولكن محروم من الشفرات والرسائل الضمنيّة التي تسم نوعه المتفرّد».

قال مري: «لا يكون التلفزيون مشكلة إلا إذا نسيت كيفيّة النظر والإنصات. أناقش هذا مع طلابي طوال الوقت. بدأوا يشعرون أنّ عليهم الانقلاب على هذا الجهاز، تمامًا كما انقلب جيل قبله على آبائهم وبلدهم. أخبرهم أنّ عليهم تعلّم النظر مثل الأطفال مجدّدًا. ونبش

المضمون. إيجاد الشفرات والرسائل، لو استخدمتُ عبارتك يا جاك».

- «وبم يردّون؟»

- «التلفزيون مجرّد اسم آخر للبريد التافه. ولكنّني أصارحهم بعدم قبولي هذا. أخبرهم أنّني عشت في هذه الغرفة أكثر من شهرين، أشاهد التلفزيون حتّى الفجر، منصتًا بحرص، مدوّنًا ملاحظاتي. تجربة عظيمة ترغمك على التواضع، كما أقول لك. أمر قريب من التصوّف».

- «ما الذي تريد قوله؟»

صالب ساقَيْه ووضع الفنجان في حضنه، مبتسمًا.

قال: «أمواج وإشعاعات. توصّلتُ إلى فهم أنّ جهاز التلفزيون قوّة أساسيّة في البيت الأميركي. محكم الإغلاق، خالٍ من الزمن، ذاتيّ الاكتفاء، ذاتيّ الإحالة. يبدو مثل أسطورة تولد هناك في غرفة المعيشة، مثل شيء نعرفه بطريقة أشبه بالحلم وفي مرحلة قبل الوعي. أنا شديد الحماسة يا جاك».

نظر إليّ، محافظًا على ابتسامة بشيء من المكر.

«عليك تعلّم كيفيّة النظر. عليك الانفتاح على البيانات. يقدّم التلفزيون كمّيّات هائلة من البيانات النفسيّة. إنّه يفتح ذكريات عتيقة عن ولادة العالم، يرحّب بنا في الشبكة، شبكة النقاط الصغيرة الطنّانة التي تشكّل نموذج الصورة. هناك ضوء، وهناك صوت. أسأل طلابي، 'ما الذي تريدون أكثر؟' انظر إلى ثروة البيانات المخفيّة في الشبكة، في التغليف البرّاق، في الأغاني المقفّاة، الإعلانات التي تستهدف شريحة حياتيّة، المنتجات المنبثقة من الظلمة، الرسائل الشفريّة والتكرارت اللانهائيّة، مثل لازمة الأغاني، 'إنّها الكولا، إنّها الكولا، إنّها الكولا'. يتدفّق الجهاز بمعادلات مقدّسة لو أن بإمكاننا تذكّر كيفيّة الاستجابة ببراءة، وتجاوز تردّدنا، وقلقنا، وقرفنا».

- «ولكن طلابك لا يوافقونك الرأي».

- «إنه أسوأ من البريد التافه. التلفزيون هو ألم احتضار الوعي البشريّ، بالنسبة إليهم. يشعرون بالعار بسبب ماضيهم التلفزيونيّ. يريدون التحدّث عن الأفلام».

نهض وأعاد ملء فناجيننا.

سألته بابيت: «كيف تعرف كلّ هذا؟»

- «أنا من نيويورك».

- «كلّما تزايد حديثك، تزايدت لمحة المكر في نبرتك، كما لو أنّك تحاول فرض شيء علينا».

- «أفضل الكلام هو الإغواء».

سألتْه: «هل سبق لك الزواج؟»

- «مرّة فقط، كنت أغطّي أخبار أندية الجتس والمتس والنتس. كم أبدو شخصيّة غريبة لكم الآن، مغرور منعزل يحبس نفسه مع جهاز تلفزيون وعشرات أكوام الكتب الهزليّة بأغلفتها المغبّرة. لا تظنّوا أنّني لن أقدّر حدوث زيارة دراماتيكيّة بين الثانية والثالثة فجرًا، من امرأة ذكيّة بحذاء بكعب عالٍ مدبّب وتنورة قصيرة ضيّقة، وإكسسوارات قاتلة».

كان ثمّة رذاذ مطر أثناء عودتنا إلى المنزل، ويدي تطوّق خصرها. كانت الشوارع خاوية. على طول شارع إلم كانت المتاجر مظلمة، فيما البنكان بإضاءة خافتة، وأضواء النيون في واجهة متجر البصريّات تشعّ ضوءًا متراقصًا على الرصيف.

داكرون، أورلون، ليكرا سپاندكس.

قالت: «أعلم أنّني أنسى الأشياء، ولكنّني لم أدرك أنّ الأمر شديد الوضوح».

- «ليس كذلك».

- «هل سمعت دينيز؟ متى كان هذا، الأسبوع الماضي؟»

- «دينيز ذكيّة وقاسية. لم يلاحظ أحد غيرها ذلك».

- «أطلب رقمًا على الهاتف وأنسى من كنت أحادثه. أذهب إلى المتجر وأنسى ما أريد شراءه. يخبرني أحدهم شيئًا فأنسى ما كان، فيقولونه مجدّدًا، لأنساه، فيقولونه مجدّدًا بابتسامة مضحكة».

قلت: «جميعنا ننسى».

- «أنسى الأسماء، والوجوه، وأرقام الهاتف، والعناوين، والمواعيد، والإرشادات، والاتجاهات».

- «هذا ما يحدث للجميع، بدرجة أو أخرى».

- «أنسى أن ستيفي لا تحبّ أن تُنادى ستيفاني. أناديها دينيز أحيانًا. أنسى أين ركنت السيّارة ثمّ أنسى شكل السيّارة مدة طويلة».

- «تسلّل النسيان في الهواء والماء. لقد دخل السلسلة الغذائيّة».

- «ربما كانت العلكة هي السبب. أليس هذا معقولًا؟»

- «ربما كان أمرًا آخر».

- «ماذا تعني؟»

- «ربما كنت تتناولين شيئًا عدا العلكة».

- «من أين راودتك هذه الفكرة؟»

- «سمعتها نقلًا عن ستيفي».

- «ومن أين راودتْ ستيفي؟»

- «من دينيز».

صمتتْ مُسلِّمةً باحتمالية أنّه لو كانت دينيز هي مصدر الإشاعة أو النظريّة، فهي صحيحة بقدر كبير.

- «ما الذي تقول دينيز إنّني أتناوله؟»

- «أردت أن أسألكِ قبل أن أسألها».

- «على حد علمي يا جاك، لا أتعاطى شيئًا يمكن أن يفسّر مشكلات ذاكرتي. من جانب آخر لست مسنّة، ولم أعان من إصابة في الرأس وليس هناك شيء في تاريخ عائلتي بخلاف انقلاب الرحم».

- «تعنين أنّ دينيز قد تكون محقّة».

- «لا يمكنك الجزم بمجرّد هذا».

- «تقولين ربما إنّك تتعاطين شيئًا أحد آثاره الجانبيّة ضعف الذاكرة».

- «إمّا أنّني أتعاطى شيئًا أعجز عن تذكّره أو أنّني لا أتعاطى شيئًا وأفقد ذاكرتي. حياتي هي إمّا/ أو. إمّا أن أمضغ علكة عاديّة أو علكة خالية من السكر. إمّا أن أمضغ العلكة أو أدخّن. إمّا أن أدخّن أو يزيد وزني. إمّا أن يزيد وزني أو أركض على درجات الملعب».

- «تبدو حياة مملّة».

- «أتمنّى أن تستمرّ إلى الأبد».

سرعان ما امتلأت الشوارع بأوراق الشجر. كانت الأوراق ترتعش وتتساقط من حواف أسطح الأبنية. ثمّة أوقات تهبّ فيها رياح قويّة يوميًا، محرّكة الأشجار، وتجد الرجال المتقاعدين في الفناءات الخلفيّة، على الفسحات العشبيّة الأماميّة، حاملين مقشّة معدنيّة ذات أسنان معقوفة، وتصطفّ الأكياس السوداء عند أحجار الناصية بصفوف منتظمة.

جماعة أطفال خائفين يظهرون عند بابنا من أجل حلوى الهالووين.

12

كنت أذهب إلى دروس الألمانية مرّتين أسبوعيًا، مساءً، حيث تخيِّم الظلمة مبكرًا كل يوم عن ما قبله. كانت قاعدة هوارد دنلوپ في التعليم أن نجلس متقابلين طول وقت الدرس. أراد منّي الانتباه إلى وضعيّات

لسانه حين يبيّن لفظ الأحرف الساكنة، والأحرف المركّبة، والأحرف الصوتيّة الطويلة والقصيرة، كما سيتمكّن بدوره من التمعّن بفمي وأنا أحاول إعادة لفظ الأحرف التعيسة.

كان وجهه لطيفًا وهادئًا، بيضاويًّا بلا أيّ علامة مميّزة إلى أن يبدأ روتين الأحرف الصوتيّة. فيبدأ التواء ملامحه. كنت أشهد أمرًا غريبًا، آسرًا على نحو شنيع، كما حين تشهد حدوث نوبة عصبيّة في وقت طبيعيّ. كان يكبس رأسه على عنقه، ويضيّق عينيه، ويرسم حركات مضحكة بقسمات وجهه. وحين يحين دوري لتكرار الأصوات كنت أفعل مثله، ولو حتّى لإرضاء المعلّم، لاويًا فمي، مغلقًا عينيّ كليًّا، مدركًا حدوث لفظ مبالغ به يبدو أنّ وقعه شديد التعذيب مثل كسر مفاجئ لقانون طبيعيّ، كأن تجد حجرًا أو شجرًا يجاهد كي ينطق. وحين أفتح عينيَّ أجده على بعد إنشات قليلة من فمي، منحنيًا ليرى. وكنت أتساءل عمّ رآه هناك.

كان الصمت يطبق قبل وبعد كلّ درس. كنت أحاول ابتكار حديث صغير، لأدفعه لمناقشة سنوات عمله كمعالج فيزيائيّ، حياته قبل اللغة الألمانيّة. كان ينظر إلى منتصف المسافة بيننا، من دون إبداء غضب أو ملل أو مراوغة، بل بدا منعزلًا فحسب، متحرّرًا من ارتباط الأحداث. وحين كان يتكلّم، عن النزلاء الآخرين أو صاحب النزل، تتبدّى درجة من الشكوى في صوته، نبرة تذمّر خفيّة. بدا مهمًّا بالنسبة إليه أن يؤمن بأنّه قضى حياته بين أناس كانوا يسيئون الفهم على الدوام.

- «كم كان عدد طلّابك؟»

- «طلاب الألمانيّة؟»

- «نعم».

- «أنت طالب الألمانيّة الوحيد. كان لديّ آخرون. انحدرت اللغة الألمانيّة. تمرّ هذه الأمور في دورات، مثل أيّ شيء آخر».

- «ماذا تدرّس أيضًا؟»

- «اليونانيّة، اللاتينيّة، والإبحار».

- «يأتي الناس إلى هنا ليتعلّموا الإبحار؟»

- «ليس كثيرًا حاليًّا».

سألته: «من المذهل عدد من يدرّسون هذه الأيّام. ثمّة معلّم لكل شخص. كل من أعرفه إمّا معلّم أو طالب. ماذا يعني هذا برأيك؟»

أبعدَ نظراته إلى باب خزانة.

سألت: «هل تدرّس شيئًا آخر؟»

- «الأرصاد الجويّة».

- «الأرصاد الجويّة! وكيف نشأ هذا؟»

- «كان لوفاة أمّي أثر رهيب عليَّ. انهرت كلّيًا، فقدت إيماني بالله. كنت عصيًّا على المؤاساة، وتقوقعت على نفسي كلّيًّا. ثمّ يومًا ما رأيت بالمصادفة تقريرًا عن الطقس على التلفزيون. شابّ ديناميكيّ مع عصا تأشير برّاقة يقف أمام صورة أقمار صناعيّة متعدِّدة الألوان، يتنبّأ بطقس الأيّام الخمسة التالية. جلست متسمّرًا بفعل ثقته العالية بالنفس وبراعته. بدا وكأنّ رسالة تُنقل من قمر الأرصاد الجويّة عبر هذا الشابّ إليَّ في الكرسيّ القماشيّ. انتقلت إلى الأرصاد الجويّة كي أريح نفسي. قرأت خرائط الطقس، جمعت كتبًا عن الطقس، حضرت تجارب إطلاق مناطيد رصد الطقس. أدركت أنّ الطقس كان أمرًا أبحث عنه طوال حياتي. أمدّني بإحساس من السلام والأمان لم أكن قد عشته من قبل. الندى، والصقيع، والضباب. ندف الثلج. تفجّر الجداول. أؤمن أنّ ثمّة بهاء في تفجّر الجداول. بدأت الخروج من قوقعتي، لأحادث الناس في الشارع. ´يوم جميل`. ´يبدو أنّها ستمطر`. ´شديد الحرارة بالنسبة إليك؟` الجميع يلاحظ الطقس. أوّل ما تفعله عند الاستيقاظ، التوجّه إلى النافذة، ورؤية

الطقس. أنت تفعلها وأنا أفعلها. دوّنت لائحة أهداف أتمنّى تحقيقها في علم الأرصاد. دخلت دورة تعليميّة بالمراسلة، حصلت على شهادة تؤهّلني لتدريس المادّة في مبانٍ لا يزيد عدد سكّانها على مئة. درّست الأرصاد في أقبية كنائس، في حدائق مليئة بالمقطورات، في أوكار الناس وغرف معيشتهم. كانوا يأتون للإنصات إليَّ في ميلرز كريك، ولمبرڤيل، ووترتاون. عمّال مصانع، وربّات بيوت، وتجّار، ورجال شرطة وإطفاء. كنت ألمح شيئًا في عيونهم. جوعًا، حاجة قاهرة».

كانت هناك ثقوب صغيرة في كُمَّي قميصه الداخليّ القطنيّ. كنّا نقف في منتصف الغرفة. انتظرت أن يكمل حديثه. كان هذا هو الوقت من العام، الوقت من اليوم، كي ينفذ حزن صغير عنيد إلى نسيج الأشياء. الغسق، والصمت، والبرد القارس. شيء متوحّد في العظام.

حين وصلت إلى البيت، كان بوب پاردي في المطبخ يتمرّن على ضربات الغولف. بوب هو أبو دينيز. قال إنّه كان يعبر البلدة في طريقه إلى غلاسبورو لتقديم عرضٍ ما، وفكّر بأخذنا جميعًا لتناول العشاء.

حرّك كفّيه المغلقتين بحركة بطيئة فوق كتفه الأيسر، متابعًا الحركة بسلاسة. لمحته دينيز من على كرسيّ معدنيّ قرب النافذة. كان يرتدي سترة كارديغان أقرب للخشونة غطّت ردنَيّ قميصه.

سألتْه: «ما نوع العرض؟»

- «أوه، تعرفين. مخطّطات، وأسهم. رشق عدّة ألوان على الجدار. إنّه أداة خداع أساسيّة يا حبيبتي».

- «هل غيّرت عملك مجدّدًا؟»

- «أنا أجمع تبرعات. والأكثر أنّي مشغول جدًّا، تخيلي!»

- «مثل ماذا؟»

- «كل ما قد يأتيني، هل تعرفين؟ يريد الناس التبرّع بكوبونات طعام، أختام، أي شيء! عظيم... لا يهمّني!»

كان منحنيًا لتنفيذ ضربة. استندت بابيت على باب الثلّاجة عاقدة ذراعيها. تراقبه. في الأعلى كان ثمّة صوت بريطانيّ: «هناك أشكال من الدوخة لا تشمل الدوار».

سألته دينيز: «لم تجمع تبرعات؟»

- «هناك أمر صغير ربّما سمعت به، اسمه مؤسّسة الجاهزيّة للحوادث النوويّة. مؤسّسة دفاع قانونيّ عن الصناعة النوويّة. في حال حدث خطأ ما».

- «في حال ماذا؟»

- «في حال دختُ من الجوع! هيّا نتناول بعض الأضلاع، ها؟ جهّزوا سيقانكم يا رجال، جهّزوا قلوبكم يا شباب. بابيت، ما رأيك؟ أنا شبه جاهز للذبح يا حيواني الصغير».

- «ما عدد الوظائف في هذا الشيء على أيّ حال؟»

- «لا تزعجيني يا دينيز».

- «لا تشغل بالك، لا يهمّني، افعل ما يحلو لك».

أخذ بوب الأولاد الثلاثة الكبار إلى مطعم واغن ويل، وأوصلتُ بابيت إلى البيت عند طرف النهر حيث تقرأ للسيّد تريدوِل. الكفيف الذي كان يعيش هناك مع أخته. جلس وايلدر بيننا، يعبث بكاتالوغات السوبرماركت التي يفضّلها تريدوِل كمادّة للقراءة. كقارئة متطوّعة للكفيفين، كان لدى بابيت بعض التحفّظات بشأن تفضيل المسنّين لما هو سيّئ وعصيّ على الوصف، مؤمنة أنّ المعاقين مرتبطون أخلاقيًّا بأنماط الترفيه الراقية. إن لم نعتبرهم تجسيدًا لانتصارات الروح البشريّة، من سنعتبره إذًا؟ كان أمامهم مثال يجدر بهم تجسيده كما تفعل هي كقارئة

ومباهية برفعة الأخلاق. ولكنّها كانت حِرفيّة في عملها، تقرأ له بجدّيّة بالغة، كما لو كان طفلًا، عن الموتى الذين يتركون رسائل على الأنسر ماشين.

انتظرت مع وايلدر في السيّارة. كانت الخطّة أنّ ثلاثتنا سنوافي جماعة واغن ويل بعد انتهاء القراءة إلى دنكي دونَتْ، حيث نتناول الحلويات والعشاء. أحضرت معي نسخة من كتاب كفاحي لذلك الجزء من المساء.

كان بيت تريدول بناء على الطراز القديم بجدران شبكيّة بالية على طول الرواق. بعد أقلّ من خمس دقائق من دخولها خرجت بابيت، ومشت محتارةً إلى الطرف القصيّ من الرواق ونظرت إلى الفناء المعتم. ثمّ اتّجهت ببطء إلى السيّارة.

- «كان الباب مفتوحًا. دخلت، لا أحد. بحثت هنا وهناك، لا شيء، لا أحد. صعدت إلى الطابق العلويّ، لا إشارة إلى وجود حياة. لا يبدو أنّ ثمّة ما هو مفقود».

- «ما الذي تعرفينه عن أخته؟»

- «هي أكبر منه وربما كانت معتلَّة أكثر منه، لو تجاهلنا أنّه أعمى وهي مبصرة».

كان أقرب بيتين لنا مظلمين، ومعروضَيْن للبيع، كما لم يعرف أحد في البيوت الأربعة الأخرى في المنطقة شيئًا عن تحرّكات آل تريدول خلال الأيّام القليلة الماضية. اتّجهنا إلى مركز الشرطة الجوّالة وتحدّثتُ إلى موظّفة خلف طاولة عليها كمبيوتر. أخبرتنا أنّ هناك حالة اختفاء كلّ إحدى عشرة ثانية، وسجّلتْ كلّ ما قلناه.

في دنكي دونت، خارج البلدة، جلس بوب پاردي بهدوء فيما كان أفراد العائلة يأكلون ويتحدّثون. كان وجه لاعب الغولف المتورّد الناعم قد بدأ يتدلّى من جمجمته. بدا أنّ لحمه قد ارتخى عمومًا، مانحًا إيّاه

مظهر كلب، مثل شخص واقع تحت ضغط أوامر صارمة لإنقاص وزنه. كان شعره مقصوصًا ومصفّفًا عند حلّاق باهظ. حيث أُدْخل قَدْر من اللون فيه، وقَدْر آخر من التكنولوجيا ليرفع من شأنه، ولكنّه بدا بحاجة إلى رأس أكثر ديناميكيّة. انتبهت إلى أنّ بابيت تنظر إليه بحرص، محاولة فهم معنى السنوات الشاقّة الأربع التي قضياها كزوج وزوجة. المذبحة الشاملة. كان يشرب، ويقامر، ويصدم سيّارته بالحواجز الترابيّة، ويُطرد من عمله، ويستقيل، ويتقاعد، ويسافر متخفّيًا إلى كولتاون حيث يدفع مالًا لامرأة كي تتحدّث السويديّة حين يتضاجعان. كانت مسألة السويديّة هي ما أحنق بابيت، هذه أو حاجته إلى الاعتراف بها، وضربتْه بسبب هذا - ضربتْه بقفا يدها، بمرفقَيْها ومعصمَيْها. علاقات الحبّ القديمة، المخاوف القديمة. هي تراقبه الآن بشفقة حنون، تأمّلٌ بدا عميقًا وعطوفًا وسخيًّا بما يكفي لاحتواء جميع التعويذات المضادّة لتدفّقه الحالي بالأسى، مع أنّني أعلم، طبعًا، وأنا أعود لقراءة كتابي، أنه مجرّد شعور عابر، إحدى مبادرات الحنان تلك التي لا يفهمها أحد.

بحلول ظهيرة اليوم التالي كانوا يبحثون في النهر عن غرقى.

13

يميل الطلّاب إلى الالتصاق بالسكن الجامعيّ. ليس ثمّة ما يفعلونه في بلاكسمث، لا مصدر إغراء أو جذب في الطبيعة. لديهم طعامهم، وأفلامهم، وموسيقاهم، ومسرحهم، ورياضاتهم، وأحاديثهم، ومضاجعاتهم. هذه بلدة مصابغ الألبسة ومحلّات البصريّات. صور لبيوت فكتوريّة الطراز تزيّن واجهات الشركات العقاريّة. لم تتغيّر هذه الصور طوال سنوات. بيعت هذه البيوت أو هُدمتْ أو أنّها موجودة في بلدات أخرى في ولايات أخرى. هذه بلدة تكثر فيها مزادات الأشياء المستعملة. توضع في أفنية المنازل حيث يقوم الأطفال ببيعها.

اتّصلت بابيت بي في مكتبي في القاعدة المئوية. قالت إنّ هاينرش قد اتّجه إلى النهر، مرتديًا قبّعته المموّهة وحاملًا كاميرته الإنستاماتك(*) ليشاهدهم وهم يبحثون عن الغرقى، وعندما صار هناك انتشر خبر أنّ آل تريدول على قيد الحياة ولكنّهما في حالة صدمة في كشك حلويّات مهجور في مول مد- ڤيلج، وهو مركز تسوّق كبير عند الحدود الفاصلة بين الولايتين. من الواضح أنّهما كانا يجولان المول مدة يومين، تائهَيْن، مضطربَيْن، خائفين قبل أن يلتجئا إلى الكشك المهجور. وأمضيا يومين آخرين في الكشك، حيث كانت الأخت المسنّة الواهنة تبحث عن فتات طعام في سلال القمامة البلاستيكيّة ذات الفتحات المتأرجحة. ومن حسن حظهما أنّ بقاءهما في المول تزامن مع طقس رائع، ولم يعرف أحد حتّى الآن لم لمْ يطلبا المساعدة. من المحتمل أنّ اتّساع وغرابة المكان علاوةً على شيخوختهما قد أشعرتهما بالعجز والضياع في بقعة مليئة بالأشخاص الغرباء المهدِّدين بالخطر. لم يقل آل تريدول الكثير. في الواقع لم يعرف أحد كيف تمكّنا من دخول المول. ربّما أوصلتهما حفيدتهما إلى هناك بسيّارتها ونسيت إعادتهما. ولم يتمكّن أحد من الاتصال بالحفيدة لتردّ.

في اليوم الذي سبق الاكتشاف السعيد، كانت الشرطة قد استعانت بوسيطة روحانيّة لتحدّد مكان ومصير آل تريدول. ملأ الخبر بتفاصيله الجريدة المحليّة. كانت الوسيطة امرأة تعيش في منزل متنقّل في منطقة غابات خارج البلدة. وطلبت أن تُعرَّف باسم أديل ت. فقط. وبحسب الجريدة جلست هي وقائد الشرطة، هوليس رايت، في المنزل المتنقّل وراحت تقلّب صور آل تريدول وتشتمّ أغراضًا من خزانة ثيابهم. ثمّ طلبت من الضابط تركها لوحدها مدة ساعة. أجرت تمارينًا، وأكلت أرزًّا وعدسًا، ثمّ تابعت التقليب. خلال هذا الوقت، كما نقلت الجريدة،

(*) Instamatic كاميرا شهيرة وواسعة الانتشار وغير معقدة، أنتجتها شركة كوداك أول مرة سنة 1963.

حاولت وضع جهاز تعقّب بيانات لكلّ نظام جسديّ بعيد تودّ إيجاده، وهما العجوز تريدول وأخته في هذه الحالة، وعندما عاد القائد رايت إلى المقطورة، طلبت منه أديل أن ينسى النهر ويركّز على الأراضي الجافّة التي تبدو وكأنّها مُضاءةً بالقمر، في دائرة حول بيت آل تريدول نصف قطرها خمسة عشر ميلًا. فاتّجهت الشرطة مباشرة إلى مصنع لمعالجة الجبْس على بعد عشرة أميال بمحاذاة النهر، حيث وجدوا حقيبة شركة طيران فيها مسدّس وكيلوغرامان من الهيروين.

استشارت الشرطة أديل ت. في عدّة مناسبات وكانت قد أرشدتهم إلى جثّتين لشخصين ضُربا بالهراوة حتّى الموت، وإلى رجل سوريّ مختبئ في سيّارة شحن، ومبالغ ماليّة مُعلَّمة بلغت ستمئة ألف دولار مع أنّ الشرطة بحسب ما قيل في التقرير، كانت تبحث عن شيء آخر دومًا.

وتعمّق اللغز الأميركي.

14

احتشدنا أمام النافذة في غرفة ستيفي الصغيرة نشاهد الغروب المذهل. وحده هاينرش لم يفعل، إمّا لأنّه لا يثق بالمُتع الجماعيّة بأسرها أو لأنّه يؤمن بأنّ ثمّة ما يُنذِر بالشّؤم في الغروب الحديث.

جلست في سريري لاحقًا أدرس الألمانيّة، كنت أتمتم الكلمات لنفسي وأتساءل ما إذا كنت قادرًا على قصر نطقي الألمانيّة في مؤتمر الربيع على الملاحظات الافتتاحيّة القصيرة، أم إذا كان المشاركون الآخرون يتوقّعون أنّ اللغة ستستخدم طوال المحاضرات، وأثناء الوجبات، وفي الأحاديث الجانبيّة كعلامة على جدّيتنا، على تفرّدنا في البحث العلميّ عالميًّا.

قال التلفزيون: «نزعات أخرى يمكن أن توثّر دراماتيكيًّا على سنداتك».

دخلت دينيز وجلست عند قائمة السرير، مسندة رأسها على ذراعيها المطويّتين، موجّهة نظرها بعيدًا عنّي. ما عدد الشيفرات، والشيفرات المضادّة، والتواريخ الاجتماعيّة المتضمَّنة في وضعية الجسد هذه؟ مرّت دقيقة كاملة.

قالت: «ما الذي ستفعله بشأن بابا؟»

- «ماذا تعنين؟»

- «تعجز عن تذكّر أيّ شيء».

- «هل سألتكِ ما إذا كانت تتعاطى أدوية؟»

- «لا».

- «لا تتعاطى أم لم تسأل؟»

- «لم تسأل».

قلت: «كان من المفروض أن تفعل».

- «ولكنّها لم تفعل».

- «كيف تعرفين أنّها تتناول شيئًا؟»

- «رأيت الزجاجة مدفونة في القمامة أسفل المجلى. زجاجة دواء كان عليها اسمها واسم الدواء».

- «ما اسم الدواء؟»

- «ديلار. حبّة كلّ ثلاثة أيّام. يبدو أنّه خطير أو يسبّب الإدمان أو أيًّا يكن».

- «وما الذي يقوله دليلك الطبّيّ عن ديلار؟»

- «ليس موجودًا هناك. قضيت ساعات. هناك أربعة فهارس».

- «لا بدّ أنّه أُدرج مؤخّرًا. هل تريدين منّي أن أتأكّد من الدليل؟»

- «لقد بحثت. بحثت بالفعل».

- «بإمكاننا دومًا الاتّصال بطبيبها. ولكنّني لا أريد تكبير الموضوع. الجميع يتعاطون دواءً ما، والجميع ينسون الأشياء أحيانًا».

- «ليس كأمّي».

- «أنا أنسى الأشياء طوال الوقت».

- «وما الذي تتعاطاه؟»

«حبوب ضغط دم، حبوب ضغط نفسيّ، حبوب حساسيّة، قطرة عينين، أسپرين. هذا اعتياديّ».

- «بحثت في خزانة الأدوية في غرفة نومكما».

- «لم تجدي ديلار؟»

- «ظننت أنّني سأجد زجاجة جديدة».

- «وصف الطبيب ثلاثين حبَة. هذا كلّ شيء. هذا اعتياديّ. الجميع يتناولون دواءً ما».

قالت: «لكني مصرّة أن أعرف».

طوال هذا الوقت كانت تدير ظهرها إليّ. ثمّة احتماليّات لحبكات في هذا الموقف، فرص للناس كي يحيكوا مؤامرات شرّيرة، خططًا سرّيّة. ولكنّها غيّرت وضعيتها الآن، حيث استخدمت مرفقها لتسند الجزء العلويّ من جسدها وبدأت تتأمّلني من عند قائمة السرير.

- «هل يمكن أن أسألك شيئًا؟»

- «طبعًا».

- «لن تغضب؟»

- «تعرفين ما هو موجود في خزانة أدويتي. ماذا بقيَ من أسرار؟»

- «لم سمَّيتَ هاينرش هاينرش؟»

- «سؤال محقّ».

- «لستَ مضطرًّا للإجابة».

- «سؤال جيّد. ليس هناك سبب كي لا تطرحيه».

- «إذًا لم سمَّيته؟»

- «ظننت أنّه اسم ذو وقع كبير، اسم قويّ. فيه شيء من السلطة».

- «هل سمَّيته تيمّنًا بأحد؟»

- «لا. وُلد بعد وقت قصير من افتتاحي القسم، وأظنّ أنّني أردت الامتنان لحظّي السعيد. أردت فعل أمر ألمانيّ. أحسست أنّ ثمّة واجبًا تجب تأديته».

- «هاينرش غرهارت غلادني».

- «ظننت أنّ فيه سلطة قد تلتصق به. ظننت أنّ فيه قوّة وتأثيرًا ولا أزال على ظنّي. أردت حمايته، جعله عصيًّا على الخوف. كان الناس يسمّون أولادهم كِمْ، كيلي، تريسي».

خيّم صمت طويل. تابعتْ تأمّلي. كانت قسماتها، المحتشدة بدرجة ما في مركز وجهها تمنح لحظات تركيزها مظهرًا صلصاليًا شبه عدائيّ.

- «هل تظنّين أنّني أخطأت التقدير؟»

- «الأمر لا يخصّني».

- «ثمّة ما يسم الأسماء الألمانيّة، اللغة الألمانيّة، الأشياء الألمانيّة، لا أعلم ما هو بالتحديد. إنّه موجود فحسب. ووسطها جميعًا ستجدين هتلر، طبعًا».

- «كان مستيقظًا ليلة أمس».

- «هو مستيقظ دائمًا. لم نكن لنشتري تلفزيونًا لولاه».

سألتني: «لقد خسروا الحرب. كيف يمكن أن يكونوا عظيمين؟»

- «نقطة صحيحة. ولكنّها ليست مسألة عَظَمة. ليست مسألة خير

وشرّ. لا أعلم ما هي. تأمّليها على هذا النحو. يرتدي البعض لونًا مفضّلًا على الدوام. يحمل البعض مسدّسًا. يرتدي البعض بزّة رسميّة ويحسّ أنّه أعظم، أقوى، أأمن. يتركّز هوسي على هذه المسألة».

دخلت ستيفي مرتدية قناع دينيز الأخضر. لم أفهم معنى هذا. صعدت إلى السرير وبدأنا ثلاثتنا نقلّب القاموس الألمانيّ-الإنكليزيّ، نبحث عن كلمات لها اللفظ ذاته في اللغتين، مثل shoe وorgy.

اندفع هاينرش راكضًا عبر البهو واقتحم الغرفة. «هيّا، أسرعوا، صور تحطّم طائرة». ثمّ خرج من الغرفة، ونزلت الفتاتان عن السرير، ليركض الثلاثة على طول البهو نحو التلفزيون.

جلستُ على السرير أحسّ بشيء من الذهول. سرعة وصخب رحيلهم وضع الغرفة في حالة من الهياج الجزيئيّ. في حطام المادّة اللامرئيّة بدا أنّ السؤال هو: ما الذي يحدث هنا؟ حين وصلتُ إلى الغرفة في نهاية البهو، لم أجد سوى نفثة دخان عند حافّة الشاشة. ولكن أُعيد عرض التحطّم مرّتين، إحداهما بالسرعة البطيئة، فيما كان محلّل يحاول تفسير سبب الحادث. مدرّب طيران في استعراض جويّ في نيوزلندا.

لدينا بابا خزانة يفتحان وحدهما.

تلك الليلة، الجمعة، تجمّعنا أمام التلفزيون، كما تنصّ العادة والقاعدة، مع طعام صينيّ. كان ثمّة طوفانات، زلازل، انزلاقات طينيّة، براكين متفجّرة. لم نكن أشدّ التزامًا بهذا الواجب من قبل أبدًا، أعني اجتماعنا يوم الجمعة. لم يكن هاينرش متجهّمًا، لم أكن سئمًا. ستيفي، التي أوشكت على البكاء بسبب زوج يدافع عن زوجته في مسلسل كوميديّ، بدت مأخوذةً تمامًا بهذه المشاهد التسجيليّة للخراب والموت. حاولت بابيت قلب القناة إلى مسلسل كوميديّ آخر، عن جماعة من الأطفال متعدّدي الأعراق يبنون قمرًا صناعيًّا للاتّصالات. ولكنّها أجفلتْ بفعل قوّة رفضنا. وفي ما عدا ذلك بقينا صامتين، نراقب

انزلاق البيوت نحو المحيط، وقرى بأكملها تتحطّم وتتلاشى في جحيم لاقا يقترب، كانت تدفعنا كلّ كارثة إلى الرغبة بالمزيد، بشيء أكبر، أعظم، أشدّ هولًا.

دخلت إلى مكتبي يوم الاثنين لأجد مري جالسًا على الكرسيّ المواجه للمكتب، مثل من ينتظر وصول ممرّضة تحمل جهاز قياس ضغط الدم. كان يواجه مشكلة، كما قال، في تأسيس مادّة دراسيّة عن إلڤيس پريسلي في قسم البيئات الأميركيّة. بدا أنّ رئيس القسم، ألفونس ستومپاناتو، يحسّ أنّ أحد المدرّسين الآخرين، وهو حارس شخصيّ سابق لمغنّي الروك أند رول يبلغ وزنه ثلاثمئة رطل اسمه ديميتريوس كوتساكيس، له الأولويّة في حقّ التأسيس لكونه سافر بالطائرة إلى ممفيس حين مات الملك، وقابل عددًا من أعضاء فرقة الملك وعائلته، كما كان ضيفًا بنفسه في مقابلات على التلفزيون المحلّيّ بوصفه مُؤوِّلًا للظاهرة.

هذا أكبر من كونه انقلابًا عاديًّا، استنتج مري. أشرت أنّ بإمكاني الذهاب إليه في محاضرته القادمة، بشكل غير رسميّ، ومن دون إعلام مسبق، وذلك ببساطة كي أدفع الأمور قليلًا، كي أمنحه مكسب كلّ التأثير والمكانة التي يملكها منصبي، واختصاصي، ومكانتي الشخصيّة. أومأ برأسه ببطء، مداعبًا طرف لحيته بأصابعه.

لاحقًا في وقت الغداء، لم ألمح سوى كرسيّ واحد شاغر، حول الطاولة التي يحتلّها مهاجرو نيويورك. كان ألفونس يجلس على رأس الطاولة، مبرهنًا على حضوره حتّى في قاعة طعام الجامعة. كان ضخم الجثّة، ساخرًا، بنظرات حادّة، وحاجبين كثّين ولحية مخيفة يخطّها الشيب. كانت هي اللحية ذاتها التي كان عليّ إطلاقها عام 1969 لو لم تجادلني جانيت ساڤوري، زوجتي الثانية، أمّ هاينرش، كي لا أفعلها.

«دعهم يروا هذا الامتداد اللطيف». قالت بصوتها الحاد الخافت. «إنّه أكثر فعاليّة ممّا تظنّ».

استثمر ألفونس كلّ شيء فعله بتصميم تامّ. كان يتقن أربع لغات، ويمتلك ذاكرة فوتوغرافيّة، ويجري عمليّات حسابيّة معقّدة في عقله. كان قد أخبرني مرّة أن فنّ التقدّم في نيويورك يعتمد على تعلّم كيفيّة إبداء السخط بطريقة مُلفتة. كان الجو يضجّ بالغضب والتذمُّر. لم يكن لدى الناس أيّ تسامح بشأن مصاعبك الخاصّة ما لم تتقن كيفيّة تسليتهم بها. ألفونس بذاته كان مسليًا أحيانًا بطريقة مدمِّرة. لديه طريقته التي مكّنته من استيعاب وتدمير كلّ الآراء التي تخالف رأيه. حين كان يتحدّث عن الثقافة الشعبيّة، كان يمارس المنطق المغلق لمتعصّب دينيّ، ذاك الذي قد يقتل من أجل معتقداته. كانت أنفاسه تتثاقل، وتفقد الإيقاع المعتاد، ويكاد حاجباه ينقفلان. وبدا أنّ المهاجرين الآخرين قد وجدوا في تحدّياته واستفزازاته سياقًا ملائمًا لتطلّعاتهم، كانوا يستخدمون مكتبه كمكان للعب، لرمي السنتات نحو الجدار(*).

سألته: «ما السبب، يا ألفونس، في أنّ الناس المهذّبين العاقلين المسؤولين يجدون أنفسهم منجذبين إلى الكوارث حين يشاهدونها على التلفزيون؟»

أخبرته عن اللاقا التي شاهدناها تلك الأمسية، والطمي والمياه الثائرة التي وجدناها، أنا والأطفال، شديدة الإمتاع.

«أردتُ المزيد، المزيد».

ردّ بإيماءة موافقة: «هذا عاديّ، هذا طبيعيّ. هذا يحدث للجميع».

- «لماذا؟»

- «لأنّ أدمغتنا تخبو. نحتاج إلى كارثة بين حين وآخر كي توقف وابل تدفّق المعلومات».

(*) لعبة شهيرة، يحاول اللاعبون رمي عملة معدنية نحو جدار، والفائز من تكون عملته أقرب إلى الجدار.

- «هذا واضح». قال لاشر. وهو رجل نحيل بوجه متحفّز وشعر أسود أملس.

تابع ألفونس: «التدفُّق متواصل. كلمات، وصور، وأرقام، ووقائع، ورسومات، وإحصائيّات، ومخطّطات، وأمواج، وجزيئات، وذرّات. وحدها الكوارث هي التي تجذب انتباهنا. نحن نريدها، بحاجة إليها، نعتمد عليها. طالما أنّها تحدث في مكان آخر. وهنا تدخل كاليفورنيا الصورة. انزلاقات طينيّة، وحرائق غابات، وحتّ وتعرية عند السواحل، وزلازل، وجرائم قتل جماعيّة، إلى آخره. بإمكاننا أن نرتاح ونستمتع بهذه الكوارث لأنّنا نظنّ في قرارة أنفسنا أنّ كاليفورنيا تستحقّ ما يحدث فيها. ابتكر الكاليفورنيّون مفهوم «أسلوب الحياة»(*). وهذا وحده كفيل بجلب نهايتهم المحتومة».

سحق كوتساكيس علبة بيبسي دايت وطوّح بها إلى سلّة قمامة.

وتابع ألفونس: «اليابان مكان جيّد لتصوير الكوارث. ولا تزال الهند من دون منافس إلى حدّ كبير. لديهم أفضليّة هائلة بمجاعاتهم، ورياحهم الموسميّة، ونزاعاتهم الدينيّة، وحوادث قطاراتهم، وغرق قواربهم، وما إلى ذلك. ولكن لا يتمّ تسجيل كوارثهم. مجرّد ثلاثة أسطر في الجريدة. من دون تصوير، أو صور أقمار صناعيّة. وهذا سبب أهمّيّة كاليفورنيا البالغة. إذ نحن لا نكتفي بمتعة مشاهدتهم يُعاقَبون على أسلوب حياتهم المرفَّه وأفكارهم الاجتماعيّة التقدّميّة فحسب، بل نعلم أنّنا لا نُضيع شيئًا. الكاميرات هناك. على وضعيّة الاستعداد. لن يتملّص أيّ تفصيل رهيب من مراقبتها الدقيقة».

- «أنت تقول إنّ الأمر كونيٌّ بهذه الدرجة أو تلك، أعني الانجذاب إلى الكوارث التلفزيونيّة».

- «بالنسبة إلى معظم الناس هناك مكانان في العالم فقط. المكان

(*) life-style مجموعة الاهتمامات والآراء والتصرفات السائدة وسط مجموعة معينة من الناس.

الذي يعيشون فيه وتلفزيونهم. لو حدث أمر على التلفزيون، لدينا كامل الحقّ في اعتباره ممتعًا، بصرف النظر عن ماهيته».

- «لا أعلم إذا كان عليّ أن أحسّ بالراحة أم الأسف لكون الآخرين يشاركونني تجربتي على نحو واسع».

ردّ: «اشعر بالأسف».

قال لاشر: «هذا واضح. جميعنا نشعر بالأسف. ولكن بوسعنا الاستمتاع بالأمر».

قال مري: «هذا ما ينتج عن نوع التنبّه الخاطئ. يصيب الخبو أدمغة الناس. وهذا لأنّهم نسوا كيفيّة الإنصات والنظر كالأطفال. نسوا كيفيّة تجميع البيانات. بالمعنى النفسيّ، حريق غابات على التلفزيون له مستوى تأثير أقلّ من بقعة تحتاج غسّالة الصحون عشر ثوانٍ لتنظيفها. للإعلانات التجاريّة أمواج أعمق، وفيض أعمق. ولكنّنا عكسنا المغزى النسبيّ لهذه الأمور. ولهذا باتت عيون الناس، وآذانهم، وأدمغتهم، وأجهزتهم العصبيّة أكثر مللًا. هذه حالة بسيطة من حالات إساءة الاستخدام».

كان غْرابا يتسلّى بقذف فتات خبز ملفوف بالزبدة على لاشر، فيصيبه في كتفه. كان غْرابا بدينًا بوجه طفوليّ شاحب، وكان ذلك محاولة لجذب انتباه لاشر.

تساءل غْرابا: «هل سبق لكم تنظيف أسنانكم بأصابعكم؟»

- «نظّفت أسناني بإصبعي حين نمت للمرّة الأولى في منزل أهل زوجتي قبل أن نتزوّج، حين كان أهلها يقضون العطلة في آسبري پارك. كان كل أفراد العائلة يفضّلون معجون الأسنان آيپانا».

قال كوتساكيس: «نسيان فرشاة أسناني طقس فيتشيّ دائم عندي.

نظّفت أسناني بإصبعي في وودستوك(*)، ألتامونت(**)، مونتري(***)، وأحداث شهيرة أخرى».

نظر غْراپا إلى مري.

قال مري: «نظّفت أسناني بإصبعي بعد مباراة محمد علي كلاي وفورمان في زائير. تلك أقصى نقطة في الجنوب نظّفت أسناني بإصبعي فيها».

نظر لاشر إلى غْراپا.

- «هل سبق أن تبرّزت في تواليت بلا كرسيّ؟»

كانت إجابة غْراپا شبه شعريّة: «في غرفة رجل عظيم ورائع في محطّة سوكوني موبل قديمة في طريق بوسطن بوست، عندما استقل أبي السيّارة خارج المدينة أول مرة. المحطّة التي فيها الحصان الأحمر الطائر. تريد معرفة المزيد عن السيّارة؟ بإمكاني إعطاءك أدقّ تفاصيل السيّارة حتّى أصغر برغيّ فيها».

قال لاشر: «تلك هي الأشياء التي لا تُدرَّس. تواليت بلا كراسي. التبوّل في المغسلة. ثقافة المراحيض العامّة. كلّ تلك المطاعم الصغيرة العظيمة، ودور السينما، ومحطّات البنزين. روح الطريق بأسرها. تبوّلت في مغاسل على امتداد الغرب الأميركيّ. ذهبت على طول الحدود لأتبوّل في مغاسل في مانيتوبا وألبرتا. هذا مغزى الأشياء كلّها. السماوات الغربيّة العظيمة. أفضل الموتيلات الغربيّة. المطاعم الصغيرة واستراحات الطريق. شعريّة الطريق، والطائرات، والصحراء. المراحيض المقرفة القذرة. تبوّلت في مغسلة في يوتا حين كانت درجة

(*) Woodstock احتفال موسيقي ضخم، اشترك فيه كثير من الفرق الموسيقية الشهيرة، عُقد في ولاية نيويورك، في الفترة من 15 إلى 17 أغسطس 1969، ويُعد حتى اليوم من أهم الأحداث الموسيقية في القرن العشرين.

(**) Altamont احتفال موسيقي عُقد في كاليفورنيا، في 6 ديسمبر 1969.

(***) Monterey احتفال موسيقي عُقد في كاليفورنيا، في الفترة من 16 إلى 18 يونيو 1967.

الحرارة اثنتين وعشرين تحت الصفر. ذلك كان أبرد طقس أتبوّل فيه في مغسلة».

نظر ألفونس ستومباناتو بصرامة إلى لاشر.

قال بنبرة وعيد: «أين كنت حين مات جيمس دين؟»

- «في منزل أهل زوجتي قبل أن نتزوّج، أستمع إلى أغنية «وقت رقص مُتخيَّل» على مشغّل أسطوانات إمرسن قديم. كان مشغّل الموتورولا المضيء قد أصبح من الماضي آنذاك».

قال ألفونس: «قضيتَ وقتًا كبيرًا في منزل أهل زوجتك، كما يبدو، مشغولًا بالمضاجعة».

- «كنّا أطفالًا حينها. في السياق الثقافي، كان الوقت مبكّرًا جدًّا للمضاجعة الفعلية».

- «ماذا كنتما تفعلان؟»

- «إنّها زوجتي يا ألفونس. تريد منّي البوح أمام طاولة محتشدة؟»

- «جيمس دين مات وأنت تتلمّس طريقك في جسد فتاة في الثانية عشرة».

نظر ألفونس إلى ديمتريوس كوتساكيس.

- «أين كنت حين مات جيمس دين؟»

- «في القسم الخلفيّ من مطعم عمّي في أستوريا، كوينز، أنظّف الأرض بمكنسة هوڤر».

نظر ألفونس إلى غْرابا.

- «أين كنت بحقّ الجحيم؟» قال، كما لو أنّه قد خطر له للتو أنّ موت الممثّل لن يكتمل من دون تسجيل إحداثيّات مكان غْرابا.

- «أعلم بالتحديد أين كنت يا ألفونس. دعني أفكّر لدقيقة».

– «أين كنت يا ابن العاهرة؟»

– «أتذكّر هذه الأمور بأدقّ تفاصيلها دومًا. ولكنّني كنت مراهقًا حالمًا. لديّ هذه الفجوات في حياتي».

– «كنت مشغولًا بالاستمناء. هل هذا ما تعنيه؟»

– «اسألني عن جون كروفورد».

– «الثلاثون من سبتمبر، ألف وتسعمئة وخمسة وخمسون. مات جيمس دين. أين نيكولاس غْرابا وماذا كان يفعل؟»

– «اسألني عن غابل، اسألني عن مونرو».

– «البورش الفضّيّة تقترب من تقاطع، مثل شعاع. لا وقت كي تضغط الفوردِ مكابحها. تهشّم الزجاج، صرير معدن. يجلس جيمي دين في مقعد السائق بعنق مكسورة، وكسور وجروح متعددة. الساعة الخامسة وخمس وأربعون مساءً، بتوقيت ساحل المحيط الهادئ. أين هو نيكولاس غْرابا ملك الاستمناء في البرونكس؟»

– «اسألني عن جف تشاندلر».

– «أنت رجل في منتصف العمر يا نيكي، يتخبّط في طفولته. لديك التزام للإنتاج».

– «اسألني عن جون غارفيلد، اسألني عن مونتي كليفت».

كان كوتساكيس جلمودًا بلحم سميك الطبقات. كان حارس لتل رتشارد الشخصيّ عدا عن إشرافه على مسائل أمنيّة في حفلات روك قبل انضمامه إلى الكليّة.

رماه إليوت لاشر بقطعة جزر، ثمّ سأله: «هل سبق أن كنت مع امرأة تقشّر جلد ظهركِ المحترق بعد عدّة أيّام على الشاطئ؟»

– «شاطئ كوكوا، فلوريدا. كان أمرًا هائلًا. ثاني أو ثالث أعظم تجربة في حياتي».

سأله لاشر: «هل كانت عارية؟»

قال كوتساكيس: «حتّى الخصر».

سأل لاشر: «من الأعلى أم الأسفل؟»

راقبت غْرابا يرمي قطعة بسكويت نحو مري. رماها بظهر يده مثل صحن طائر.

15

ارتديت نظّارتي الداكنة، ضبطت قسمات وجهي ودخلت إلى الغرفة. كان هناك خمسة وعشرون أو ثلاثون فتى وفتاة، يرتدي كثير منهم ألوان الخريف، جالسين في كنبات وصوفايات وعلى بساط الأرض البيج. كان مري يمشي بينهم، يتحدّث، ويده اليمنى ترتعش بانتظام. حين رآني، ابتسم بارتباك، وقفت عند الجدار، محاولًا إظهار نفسي، عاقدًا ذراعيّ تحت الرداء الأسود. كان مري في منتصف مونولوج فكريّ.

«هل كانت أمّه تعلم أنّ إلڤيس سيموت شابًّا؟ كانت تتحدّث عن الاغتيال. تتحدّث عن الحياة. حياة نجم من هذا النوع وبهذه العظمة. أليست الحياة مصمَّمة بحيث تخيّبك باكرًا؟ هذا هو المغزى، أليس كذلك؟ هناك قواعد، إرشادات. لو لم تمتلك نعمة وذكاء الموت باكرًا، سترغَم على الاختفاء، أن تختبئ كما لو أنّك تشعر بالعار والندم. كانت قلقة بشأن سرنمته. ظنّت أنّه سيقفز من إحدى النوافذ. لي رأيي بشأن الأمّهات، الأمّهات يعرفن حقًّا. الحكايا الفولكلوريّة على حقّ».

قلت: «كان هتلر يقدّس أمّه». موجة انتباه، صامتة، لا يمكن تمييزها إلّا في لحظات صمت بعينها، توتّر داخليّ. تابع مري تجواله بالطبع، ولكن بدرجة من التعمّد، منتقيًا طريقه بين الكراسي، والناس الجالسين على الأرض. وقفت على الجدار، عاقدًا ذراعيّ.

قال: «كان إلڤيس وغلاديس يحبّان التربيت والملاطفة. كانا ينامان في السرير نفسه إلى أن وصل مرحلة البلوغ الجسديّ. كانا يتحدّثان كالأطفال طوال الوقت».

– «كان هتلر ولدًا كسولًا. تقريره المدرسيّ مليء بالإخفاقات. ولكن كارلا أحبّته، غنّجته. ومنحته الرعاية التي أخفق والده في منحه إيّاها. كانت امرأة هادئة، ومتواضعة، ومتديّنة، وطبّاخة وربّة بيت جيّدة».

– «كانت غلاديس توصِّل إلڤيس من وإلى المدرسة كلّ يوم. تدافع عنه في شجارات الشارع الصغيرة، وتضرب كلّ طفل يحاول التنمّر عليه».

– «كان هتلر حالمًا. تلقّى دروسًا في البيانو، ورسم متاحف وڤيلات. كان يقضي وقته قريبًا من المنزل معظم الأحيان. وكانت كارلا تحتمل هذا. كان أوّل أطفالها الذين ينجون من الوفاة وهم رضّع. كان ثلاثة آخرون قد ماتوا».

– «كان إلڤيس يثق بغلاديس. كان يجلب عشيقاته لتتعرّف إليهنّ».

– «كتب هتلر قصيدة لأمّه. كانت أمّه وابنة أخيه أكثر امرأتين تشغلان تفكيره».

– «عندما ذهب إلڤيس إلى الجيش، مرضت غلاديس وأصيبت باكتئاب. أحسّت بأمر ما، ربّما كان عنها بقدر ما كان عنه. كان جهازها النفسيّ يومض بجميع الإشارات الخاطئة. الهجس والغمّ».

– «ليس ثمّة شكّ كبير في أنّ هتلر كان ما نسمّيه مدلَّل أمّه».

تمتم شابّ يدوّن الملاحظات بشرود بالألمانيّة، «Muttersöhnchen». نظرت إليه بحذر. ثمّ، فجأة، هجرت وقفتي عند الجدار وبدأت أذرع الغرفة مثل مري، متوقّفًا أحيانًا للإيماء، للإنصات، للتحديق من النافذة أو التحديق بالسقف.

- «بالكاد كان إلڤيس يحتمل ترك غلاديس بعيدة عن ناظريه حين بدأ وضعها الصحّيّ يسوء. كان يبقى مستيقظًا طوال الليل في المشفى».

- «عندما اشتدّ مرض أمّه، أحضر هتلر سريرًا إلى المطبخ ليكون أقرب إليها. كان يطبخ وينظّف».

- «انهار إلڤيس من الحزن عندما ماتت غلاديس. كان يداعبها ويربّت على وجهها في التابوت. بقيَ يتحدّث إليها كالأطفال إلى أن دفنوها».

- «كلّفت جنازة كلارا ثلاثمئة وسبعين كرونًا. بكى هتلر عند القبر وغرق في فترة اكتئاب ورثاء على حاله. أحسّ بوحدة قاتلة. لم يفقد أمّه الحبيبة فقط بل أيضًا إحساسه بدفء المنزل والمدفأة».

- «يبدو بحكم المؤكّد أنّ وفاة غلاديس تسبّبت بتغيير جوهريّ في نظرة الملك تجاه العالم. كانت مرساته، إحساسه بالأمان. بدأ الانسحاب من عالم الواقع ليدخل مرحلة احتضاره».

- «في ما تبقّى من حياته، لم يطق هتلر أن يكون قريبًا من زينة الكريسماس لأنّ أمّه فارقت الحياة قرب شجرة الكريسماس».

- «أطلق إلڤيس تهديدات بالقتل، وتلقّى تهديدات بالقتل. أجرى رحلات في أماكن الدفن وأصبح مهتمًّا بالصحون الطائرة. بدأ دراسة Bardo Thödol المعروف باسم كتاب الموتى التيبتيّ. وهو دليل عن الموت والبعث».

- «بعد سنوات، حين أصبح بين أسطرة الذات والعزلة الشديدة، كان هتلر يحتفظ بصورة لأمّه في الحيّ الإسبارطيّ في أوبرسالزبرغ. بدأ يسمع طنينًا في أذنه اليسرى».

تقاطع مروري مع مري قرب مركز الغرفة، بحيث كدنا نرتطم. دخل ألفونس ستومپاناتو، وتبعه عدّة طلّاب، انجذبوا ربما بفعل موجة مغناطيسيّة من الإثارة التي انتشرت في الجوّ. أجلس جسده الضخم على

كرسيّ، فيما كنت ومري يدور كلّ منّا حول الآخر باتّجاهين متعاكسين، متجنّبين تلاقي النظرات.

- «نفّذ إلقيس بنود العقد كاملة. الإفراط، والتدهور، وتدمير الذات، والسلوك الغرائبيّ، وبدانة جسديّة وعدد من الإهانات للدماغ، تسبّب بها بنفسه. مكانه كأسطورة محفوظ. صدّق شكوكه بشأن الموت المبكّر، على نحو شنيع غير ضروريّ. ليس بوسع أحد إنكار هذا الآن. ربّما كانت أمّه قد رأت هذا كلّه، كما لو كان معروضًا على شاشة بقياس تسعة عشر إنشًا، قبل سنوات من موتها».

مري، محيلًا دفّة الكلام إليَّ بسرور، ذهب إلى زاوية الغرفة وجلس على الأرض. تركني أتحرّك وأومئ وحيدًا، مدرَّعًا بهالتي الحرفيّة من السلطة والجنون والموت.

- «أطلق هتلر على نفسه اسم المتجوِّل الوحيد القادم من العدم. كان مدمنًا على مصّ قطع الكراميل، ويتحدّث إلى الناس بمونولوجات لا نهاية لها بتداعٍ حرٍّ من الأفكار، كما لو أنّ اللغة تنبثق من فسحة هائلة خارج حدود العالم، فيما كان هو مجرّد أداة إلهام. من المثير أن نتساءل ما إذا كان قد استعاد - وهو في وكر الذئب(*)، تحت المدينة المحترقة - أيّام سلطته الأولى. هل فكّر بمجموعات السيّاح الصغيرة التي كانت تزور المستوطنة الصغيرة حيث وُلدت أمّه، وحيث أمضى فصول الصيف مع أبناء أخواله في عربات تجرّها الثيران، وصَنَعَ طائرات ورقيّة؟ أتوا ليحتفوا بالمكان، مسقط رأس كلارا. دخلوا البيت الريفيّ، وتجوّلوا في أرجائه بفضول. يتسلّق المراهقون السطح. في ذلك الوقت بدأت الأعداد بالتزايد. التقطوا صورًا، ودسّوا أغراضًا صغيرة في جيوبهم. ثمّ جاءت الحشود، قطعان من الناس اجتاحت الفناء صادحة بأغانٍ وطنيّة،

(*) Fu"hrerbunker مخبأ هتلر السري، كان يدير منه المعارك أثناء الحرب العالمية الثانية، بدءًا من عام 1941.

راسمة الصليب النازيّ على الجدران، وعلى أجساد حيوانات المزرعة. جاءت حشود إلى قصره على الجبل، عدد ضخم من الناس أرغمه على البقاء في الداخل. التقطوا أشياء تافهة حيث مشى، وأخذوها إلى منازلهم كتذكار. جاءت حشود تنصت إلى حديثه، حشود مشحونة إيروتيكيًّا، الجماهير التي سمَّاها في إحدى المرات عروسه الوحيدة. أغلق عينيه، وشدّ قبضتيه وهو يتحدّث، حرّك جسده الغارق في العرق، وجعل صوته سلاح إثارة. سمّى أحدهم هذه الخطابات: «جرائم قتل جنسيّة» جاءت الحشود لتنوَّم مغناطيسيًّا بفعل صوته، وأناشيد الحزب، والاستعراضات العسكريّة بأضوائها التي تخطف الأبصار».

نظرت إلى السجّادة وعددْت بصمت إلى سبعة.

«ولكن مهلًا، كم يبدو كلّ هذا مألوفًا، كم يبدو قريبًا ممّا هو معتاد. تجيء الحشود، تُحرَّض، المس والضغط- الناس توّاقون للانتشاء. أليس هذا معتادًا؟ نعرف كل هذا. لا بدّ أنّ ثمّة ما هو مختلف بشأن تلك الحشود؟ ما هو؟ دعوني أهمس. الكلمة الرهيبة، من الإنكليزيّة القديمة، من الألمانيّة القديمة، من النُّوردية القديمة(*). **الموت**. كان كثير من تلك الحشود تتجمّع باسم الموت. كانت هناك لتقدّم إجلالها للموتى. كانت هنالك لترى طقوس حرق الجثمان والعجلات المشتعلة، آلاف الأعلام المنكّسة كتحيّة. آلاف الغارقين في الحداد بملابسهم الموحّدة. كان ثمّة أرتال وسرايا، وستائر مسرح متقنة، وأعلام مدمّاة، وملابس موحّدة سوداء. تجيء الحشود لتشكّل درعًا ضدّ موتها. أن تصبح حشدًا يعني إبعاد الموت. أمّا الانفصال عن الحشد فيعني المجازفة بالموت كفرد، أن تواجه الموت وحيدًا. تأتي الحشود لهذا السبب قبل جميع الأسباب الأخرى. كانوا هناك ليصبحوا حشدًا».

جلس مري في طرف الغرفة الآخر. أبدت عيناه امتنانًا عميقًا.

(*) Old Norse لغة قديمة انتشرت من القرن التاسع وحتى الرابع عشر في شمال أوربا.

كنت سخيًّا في القوّة والجنون اللذين في متناولي، مُتيحًا لاختصاصي الدراسيّ أن يرتبط بشخصيّة أدنى قدرًا بكثير، زميل يجلس في كراسٍ من القماش ويدمن مشاهدة التلفزيون. لم تكن مسألة تافهة. لدينا جميعًا هالة نصونها، وحين أشارك هالتي مع صديق سأجازف بالأمور ذاتها التي جعلتني عصيًّا على المساس.

تجمّع الناس حولنا. طلّاب وكادر تدريسيّ، وفي زحمة الملاحظات والأصوات المتداخلة نصف المسموعة أدركتُ أنّنا الآن حشد. لا أعني أنّني لست بحاجة إلى حشد حولي الآن، فهذا آخر ما أفكّر به الآن. كان الموت مسألة مهنيّة الآن. كنت مرتاحًا حيال هذا، كنت في القمّة. شقّ مري طريقه إلى جانبي ورافقني لنخرج من الغرفة، مبعدًا الحشد بيده المرتعشة.

16

كان هذا هو اليوم الذي بدأ فيه وايلدر البكاء منذ الثانية ظهرًا. عند السادسة كان لا يزال يبكي، يجلس على أرض المطبخ ينظر عبر باب الفرن الزجاجيّ، وقد تناولنا العشاء بسرعة، متنقّلين حوله أو واطئينه لنصل إلى البوتوغاز أو الثلّاجة. كانت بابيت تراقبه أثناء طعامها. لديها درس تعطيه في الوضعيات، الوقوف والمشي. سيبدأ بعد ساعة ونصف. نظرت إليّ بحنان وتوسّل. كانت تتحدّث إليه بلطف، تداعبه وتلاعبه، تفحّصتْ أسنانه، حمّمتْه، تفحّصت جسده، دغدغته، أطعمته، حاولت جعله يحبو في لعبة النفق النايلونيّة. طلّابها المسنّون بانتظارها في قبو الكنيسة.

كان بكاءً إيقاعيًّا، حالة منتظمة من النوبات القصيرة السريعة. بدا أحيانًا أنّه سيتوقّف إثر أنين، أو تذمّر حيوانيّ، غريب ومُرْهَق، ولكنّ الإيقاع مستمرّ، الدفقة المتسارعة، الأسى الورديّ الذي يغرق وجهه.

قلت: «سنأخذه إلى الطبيب، ثمّ أوصِّلك إلى الكنيسة».

- «هل سيفحص الطبيب طفلًا يبكي؟ ثم إنّ، طبيبه ليس في العيادة الآن».

- «ماذا عن طبيبك؟»

- «أظنّ أنّه موجود. ولكنّه طفل يبكي يا جاك. ما الذي سأقوله للرجل؟ طفل يبكي؟»

- «هل هناك وصف أوضح من هذا؟»

لم تكن ثمّة إشارة إلى وجود أزمة حتّى الآن. مجرّد سخط ويأس. ولكن حالما قرّرنا الذهاب إلى الطبيب، بدأنا نسرع، ونندفع. بحثنا عن جاكيت وايلدر وحذائه، حاولنا تذكّر ما أكله في الأربع والعشرين ساعة الماضية، توقّعنا أسئلة سيطرحها الطبيب وراجعنا إجاباتنا بحرص. بدا أنّه من المهمّ أن نتّفق على الإجابات حتّى لو لم نكن واثقين من صحّتها. يفقد الأطبّاء الاهتمام بالناس الذين تتناقض إجاباتهم. لطالما سكنني هذا الخوف في علاقتي مع الأطبّاء، أن يفقدوا الاهتمام بي، أن يطلبوا من موظّفاتهم استدعاء أسماء قبلي، أن يطرحوا موتي كخيار.

انتظرت في السيّارة فيما اتّجهت بابيت ووايلدر إلى المبنى الطبّيّ نهاية شارع إلم. تصيبني عيادات الأطبّاء باكتئاب أشدَّ من المشافي، بسبب جو الترقّب السلبيّ وبسبب المريض الذي يغادر أحيانًا مرتاحًا للأخبار السارّة، مصافحًا كفّ الطبيب المعقّمة صادحًا بضحكاته، يضحك على كلّ ما يقوله الطبيب، ينفجر بالضحك، بسلطة فظّة، مبديًا تجاهله للمرضى الآخرين وهو يعبر غرفة الانتظار مواصلًا ضحكه. لقد تخلّص منهم، لم يعد مرتبطًا ببؤسهم، باحتضارهم التافه. أفضّل الذهاب إلى غرفة الطوارئ، أحد آبار الاضطراب المدينيّة، حيث يأتي الناس مصابين برصاص، مطعونين، بعيون نعسة بتأثير مزيج الأفيون، بإبر

مكسورة في أذرعهم. ليس لهذه الأمور صلة بموتي الطارئ، الهادئ، العابر، المراعي لمشاعر الآخرين.

خرجوا من البهو الصغير المضيء إلى الشارع. كان الطقس باردًا، مقفرًا، مظلمًا. مشى الولد بجانب أمّه، ممسكًا يدها، مواصلًا بكاءه، وبديا صورة عن ذلك الحزن والبؤس غير العابر بحيث كدت أضحك. لا على الحزن بل على الصورة التي كانا عليها، على التباين بين أساهما ومظهرهما. تلاشت مشاعر تعاطفي وشفقتي حيت رأيتهما يقطعان الرصيف بملابسهما المتنافرة، والطفل مصرّ على البكاء، فيما أمّه تخفض رأسها بأسى وهي تمشي، بشعرها الأشعث، شخصان بائسان يبعثان على الشفقة. لم يكونا ملائمين للأسى الواضح، والكرب الصريح العظيم. هل يفسّر هذا وجود الندّابين المتخصّصين؟ يحافظون على إيقاعهم من الرحيل حتّى الرثاء الهزليّ.

- «ما الذي قاله الطبيب؟»

- «أعطه أسپرين ونوّميه».

- «هذا ما قالته دينيز».

- «أخبرته بهذا فقال، ´ولم لم تفعلوا هذا؟`»

- «لم لم نفعلها؟»

- «هي طفلة، وليست طبيبة - لهذا السبب».

- «هل قلتِ له هذا؟»

- «لا أعرف ما قلته له. لا أتحكّم بما أقوله للأطبّاء، ولا بما يقولونه لي. هناك نوع من الارتباك في الجوّ».

- «أفهم ما تعنينه تمامًا».

- «يبدو الأمر مثل التحدّث خلال المشي في الفضاء، معلّقًا في تلك البزّات الثقيلة».

- «كل شيء ينزلق ويطوف».

- «أكذب على الأطبّاء دائمًا».

- «وكذلك أنا».

سألتني: «ولكن لماذا؟»

حين شغّلت السيّارة انتبهت إلى أنّ بكاءه قد تغيّرت درجته ونوعه. فتح الإيقاع السريع الطريق لصوت ثابت، حزين، غامض. هو في مرحلة العويل الآن. تلك تعبيرات عن لوعة أواسط شرق أميركا، عن أسى شديد السلاسة بحيث يطغى على كلّ ما يتسبّب به مباشرة. كان ثمّة ما هو دائم وموجع في بكائه. كان صوت حزن فطريّ.

- «ماذا نفعل؟»

قالت: «فكّر بشيء ما».

- «لا تزال هناك خمس عشرة دقيقة قبل موعد درسك. لنأخذه إلى المشفى، إلى قسم الطوارئ. لنرى ما يقولونه فقط».

- «لا يمكنك أخذ طفل إلى قسم الطوارئ لأنّه يبكي فقط. لو كان هناك ما هو ليس طوارئ، فهو هذا».

قلت: «سأنتظر في السيّارة».

- «ماذا أقول لهم؟ ´ابني يبكي`. هل لديهم قسم طوارئ أصلًا؟»

- «ألا تتذكّرين؟ أخذنا آل ستوفر الصيف الماضي».

- «لماذا؟»

- «كانت سيّارتهم في الإصلاح».

- «انس الموضوع».

- «استنشقوا رذاذًا من مزيل بقع».

قالت: «خذني إلى درسي».

أخذتِ الوضعيّة المناسبة. حين توقّفت أمام الكنيسة، كان بعض طلّابها ينزلون الدرج إلى مدخل القبو. نظرت بابيت إلى ابنها – نظرة حائرة، مترجّية، يائسة. كان في ساعته السادسة من البكاء. ركضتْ على طول الرصيف باتجاه المبنى.

فكّرت في أخذه إلى المشفى. ولكن لو كان الطبيب الذي فحص الطفل فحصًا شاملًا في عيادته المريحة بلوحاتها المعلّقة على الجدار في إطاراتها المنقوشة الملوّنة عجز عن اكتشاف أيّ علّة، ما الذي يمكن لموظّفي الطوارئ أن يفعلوا، وهم أشخاص دُرّبوا على الوثب على الصدور وضرب القلوب المتوقّفة؟

رفعته ووضعته بمواجهة عجلة القيادة، مواجهًا لي، وقدماه على فخذي. استمرّت اللوعة الكبيرة، موجة إثر أخرى. كان صوتًا شديد القوّة والصفاء بحيث كدت أنصت إليه، محاولًا إدراكه ذهنيًّا، كما يشغّل المرء تسجيلًا ذهنيًّا لما يحدث في قاعة حفلة موسيقيّة أو مسرح. لم يكن يشرق بمخاطه أو يدمع. كان يصيح، ينطق كلمات لا اسم لها بطريقة مسّتني بعمقها وغناها. كان ترنيمًا جنائزيًّا عتيقًا ذا تأثير طاغٍ بفعل رتابته العنيدة. عويل. رفعت جسده بذراعيّ تحت إبطيه. مع تواصل البكاء، تنامَى تحوُّل غامض في تفكيري. اكتشفت أنّني لا أتمنّى توقّفه بالضرورة. فكّرت أنّني ربما لن أكون شديد الفظاعة لو جلست وأنصتُّ إلى هذا العويل فترة أطول. تبادلنا النظرات. وراء رباطة الجأش البليدة هذه، انطلق ذكاء مركّب. حملته بيد واحدة مستخدمًا الأخرى لعدّ أصابعه داخل قفّازه، بصوت عال، بالألمانيّة. تواصل البكاء العصيّ على المواساة. تركته ينهمر عليّ، مثل مطر على ملاءات معلّقة. دخلت في البكاء، بمعنى ما. تركته يهطل ويندلق على وجهي وصدري. بدأت أفكّر أنّه اختفى داخل صخب العويل هذا وبأنّه لو كان بإمكاني الانضمام إليه في مكانه التائه المعلّق قد نحقّق معًا معجزة وضوح صارخة. تركته

ينسلّ داخل جسدي. ربّما لن أكون شرّيرًا لو جلست هنا أربع ساعات أخرى، مشغّلًا المحرّك والتدفئة، منصتًا إلى هذا العويل الرتيب. قد يكون أمرًا جيّدًا، قد يكون مهدّئًا على نحو غريب. دخلت في العويل، سقطت عليه، تاركًا إيّاه يحيط بي ويغطّيني. كان يبكي بعينين مفتوحتين، بعينين مغمضتين، واضعًا يديه في جيبه، مرتديًا قفّازيه أو خالعهما. جلست هناك أومئ برأسي بهدوء. فجأة أدرْتُه، أجلسته على حضني، وشغّلت السيّارة تاركًا وايلدر يحرّك العجلة. لقد فعلناها من قبل، مسافة عشرين ياردة، في مساء يوم أحد، في أغسطس، حين كان شارعنا غارقًا في فيءٍ يسبّب الحذر. استجاب مجدّدًا، باكيًا وهو يحرّك العجلة، ونحن ننعطف، وأنا أوقف السيّارة خلف الكنيسة الأبرشيّة. وضعته على ساقي اليسرى، وذراعي تطوّقه، جاذبًا جسده نحوي، تاركًا ذهني يغرق في ما يشبه النعاس. تزايدت الفترة الفاصلة بين كلّ نشيج وآخر. تمرّ سيّارة بين لحظة وأخرى. استندت إلى الباب، بالكاد أحسّ بتنفّسه على إبهامي. بعد برهة كانت بابيت تقرع النافذة ووايلدر يحبو عبر المقعد ليرفع لها الرتاج. دخلتْ، عدّلتْ قبّعتها، والتقطت منديلًا مكرمشًا على الأرض.

كنّا في منتصف الطريق إلى المنزل حين توقّف البكاء. توقّف فجأة، من دون تبدّل في النبرة أو الحدّة. لم تقل بابيت شيئًا، وأبقيت عينيّ على الطريق. كان يجلس بيننا، ينظر إلى الراديو. انتظرتُ أن تنظر إليّ بابيت من وراء ظهره، فوق رأسه، لتبدي ارتياحًا، سعادة، ترقّبًا متفائلًا. لم أكن أعلم بم ينبغي أن أشعر وأردتُ إشارة ما، ولكنّها أبقت نظرها إلى الأمام كما لو كانت تخشى أن أيّ تغيير في النسيج الحسّاس للصوت، أوالحركة، أو التعبير، سيتسبّب بانفجار البكاء مجدّدًا.

في البيت لم ينطق أحد بكلمة. كانوا جميعًا يتحرّكون بهدوء من غرفة إلى أخرى، يراقبونه عن بعد، بنظرات مختلسة ممتنّة. حين طلب حليبًا، ركضت دينيز بسرعة إلى المطبخ، حافية، ببيجامتها، وكأنّها

أحسّت أنّ تقشّفها في الحركة وخفّة خطواتها لن يعكّر صفو الجو الخطير والدراماتيكيّ الذي أحدثه في المنزل. شرب الحليب دفعة واحدة، وهو ما يزال مرتديًا كلّ ثيابه، وأحد قفّازيه معلّق بكمّه.

راقبوه بشيء من الرهبة. قرابة سبع ساعات من البكاء الفعليّ. بدا وكأنّه قد عاد للتو من فترة تجوال في مكان مقدّس بعيد، في رمال قاحلة، أو سنوح مثلجة - مكان حيث تُقال الأشياء، وتُرى المناظر، وتُبْلَغ المسافات التي لا نتمكّن بجهدنا العادي إلّا من تأمّلها بمزيج من التوقير والدهشة نحتفظ به لمآثر المظاهر الأشدّ سموًّا وتعقيدًا.

17

قالت لي بابيت في السرير في إحدى الليالي: «أليس عظيمًا أنّ لدينا كلّ هؤلاء الأولاد؟»

- «سيكون هناك واحد آخر قريبًا».

- «من؟»

- «بي قادمة خلال أيّام».

- «جيّد. ومن غيرها؟»

في اليوم التالي قرّرت دينيز مواجهة أمّها مباشرة بشأن الدواء الذي تتعاطاه أو لا تتعاطاه، آملةً أن تجرّ بابيت إلى الاعتراف، إقرار تامّ أو أيّ نوع من الردّ المرتبك. لم يكن هذا تكتيكًا كنت قد اتّفقت مع دينيز عليه، ولكنّني عجزت عن كبح إعجابي بذكاء اختبارها لتلك اللحظة. كنّا نحن الستّة محشورين في السيّارة في طريقنا إلى مول مد-ڤيلج فانتظرتْ دينيز توقّفًا طبيعيًّا عن الحديث لتوجّه أسئلتها وراء رأس بابيت، بصوت يرشح بالاستنتاج.

- «ما الذي تعرفينه عن ديلار؟»

- «هل هي الفتاة التي تقيم عند آل ستوفر؟»

قالت ستيفي: «تلك داكار».

ردت دينيز: «داكار ليس اسمها. هذا بلد عند ساحل العاج في أفريقيا».

قالت بابيت: «العاصمة هي لاغوس. أعرف هذا بسبب فيلم إبحار كنت قد شاهدته يجولون فيه في جميع أنحاء العالم».

قال هاينرش: «الموجة المثلى. شاهدته في التلفزيون».

سألت ستيفي: «ولكن ما اسم الفتاة؟»

ردّت بابيت: «لا أعرف. ولكن لم يكن عنوان الفيلم **الموجة المثلى**. الموجة المثلى هي ما كانوا يبحثون عنه».

قالت دينيز لستيفي: «يذهبون إلى هاواي. وينتظرون أمواج المدّ والجزر تلك القادمة من اليابان. تُسمّى أوريغامي».

قالت أمّها: «وكان عنوان الفيلم الصيف الحارّ الطويل».

ردّ هاينرش: «**الصيف الحارّ الطويل** عنوان مسرحيّة لتينيسي إيرني وليامز».

ردّت بابيت: «لا يهمّ. لأنّك لا تستطيع ادّعاء حقوق ملكيّة للعناوين على أيّ حال».

قالت ستيفي: «لو كانت أفريقيّة، أتساءل ما إذا كانت قد ركبت جملًا من قبل».

- «جرّبي أودي توربو».

- «جرّبي تويوتا سوپرا».

سألت بابيت: «ما الذي تختزنه الجِمال في سنامها؟ الطعام أم الماء؟ أعجز عن تذكّر هذا».

ردّ هاينرش: «هناك جِمال بسنام واحد وأخرى بسنامين. يعتمد الأمر على النوع الذي تقصدين».

- «هل تقول إنّ الجمل بسنامين يخزّن الطعام في سنام والماء في الآخر؟»

ردّ: «الشيء المهمّ بشأن الجِمال هو أنّ لحمها طعام مترف».

قالت دينيز: «ظننت أنّ المترف هو لحم التمساح الأميركي».

سألت بابيت: «من جلب الجمل إلى أميركا؟ أحضروها إلى الغرب لفترة ما كي تحمل المؤونة إلى العمّال الذين كانوا يبنون السكك الحديديّة الكبيرة التي تتلاقى في أوغدن، يوتا. أتذكّر امتحانات التاريخ».

سألها هاينرش: «هل أنت واثقة بأنّك لا تقصدين اللاما؟»

قالت دينيز: «بقيت اللاما في البيرو. في البيرو تجد اللاما والڤيكيونا وحيوان آخر أيضًا. في بوليڤيا تجد القصدير. وفي تشيلي النحاس والحديد».

قال هاينرش: «سأعطي خمسة دولارات لأيّ شخص في هذه السيّارة يتمكّن من معرفة اسم سكّان بوليڤيا».

قالت ابنتي: «بوليڤيّون».

العائلة هي مهد المعلومات الخاطئة. لا بدّ من وجود أمر في الحياة العائليّة يولّد القابليّة على فعل الأخطاء. القرب الشديد، صخب وحرارة الكينونة. ولعلّه أمر أعمق، مثل الحاجة إلى البقاء. يقول مري إنّنا مخلوقات هشّة محاطون بعالم من الوقائع العدائيّة. تهدّد الوقائع سعادتنا وأمننا. وكلّما تعمّقنا في طبيعة الأشياء، تزايدت احتماليّة تفكّك بُنْيتنا. تعمل العمليّة العائليّة على إحكام إغلاق العالم. تتنامى الأخطاء الصغيرة، وتتوالد التخيّلات. أقول لمري إنّ الجهل والخلط لا يمكن أن يكونا القوى الدافعة الكامنة وراء التضامن العائليّ. يا لها من فكرة،

يا له من تخريب. يسألني لمَ توجد الوحدات العائليّة الأقوى في أقلّ المجتمعات تطوّرًا. عدم المعرفة سلاح نجاة، كما يقول. يُعزّز السحر والخرافة بوصفهما العقيدة الأقوى للعصبة. تكون العائلة أقوى حيث تتزايد احتماليّة إساءة تأويل الواقع الموضوعيّ. يا لها من نظريّة قاسية، أقول. ولكن مري يصرّ على صحّتها.

في متجر أدوات ضخم في المول رأيت إريك ماسنغيل، مهندس عمل سابقًا في بيع الرقاقات الإلكترونية الصغيرة وغيّر حياته حين جاء إلى هنا لينضمّ إلى الكادر التدريسيّ في مركز الكمبيوتر في الجامعة. كان نحيلًا وشاحبًا، بابتسامة خطيرة.

- «إنك لا ترتدي نظّارة داكنة يا جاك!»

- «أرتديها في الجامعة فقط».

- «فهمتك».

وذهب كلّ منّا في طريقه داخل المتجر. جلبة ذات صدى هائل، مثل تلك الخاصّة بانقراض نوع من الوحوش، ملأت المكان الضخم. كان الناس يشترون سلالم بطول اثنين وعشرين قدمًا، وستّة أنواع من الورق الرمليّ، ومناشير كهربائيّة يمكن أن تقصّ أشجارًا. كانت الممرّات طويلة ومضاءة، مليئة بمكانس ضخمة. وأكياس كبيرة من الفحم والروث، وعلب قمامة مطّاطيّة عملاقة. ثمّة حبل معلّق مثل فاكهة استوائيّة، مضفور بدقّة وجمال، سميك، بنّيّ، قويّ. يا لروعة مشاهدة حبل ملتفّ، والإحساس به. اشتريت خمسين قدمًا من خيوط قنّب مانيلا لمجرّد أن تكون موجودة لديّ، وأريها لابني، وأتحدّث عن المكان الذي جاءت منه، وكيفيّة صناعتها. كان الناس يتحدّثون الإنكليزيّة، والهنديّة، والڤيتناميّة، ولغات ذات صلة.

صادفتُ ماسنغيل مجدّدًا عند طاولة المحاسب.

- «لم أرك خارج الجامعة من قبل يا جاك. تبدو مختلفًا من دون

نظّارتك وردائك. من أين اشتريت هذه الكنزة؟ هل هي كنزة عسكريّة تركيّة؟ طلبتَها بالبريد، صحيح؟»

تأمّلني بنظراته، تلمّس مادّة الجاكيت المقاوم للماء الذي كنت أحمله مطويًّا تحت ذراعي. ثمّ تراجع قليلًا، مغيّرًا اتّجاه نظراته، أومأ قليلًا، وبدأت ابتسامته تأخذ مظهر رضا ذاتيّ، مقلّبًا فكرة ما في ذهنه.

قال: «أعتقد أنّني أعرف هذا الحذاء».

ما الذي عناه بأنّه يعرف هذا الحذاء؟

- «أنت شخص مختلف كلّيًّا».

- «مختلف بأيّ معنى يا إريك؟»

- «لن تعتبرها إهانة؟» سأل، فيما اتّسعت ابتسامته الداعرة، مختزنة معنًى خفيًّا.

- «بالطبع لا. لم سأفعل؟»

- «عدني أنّك لن تعتبرها إهانة».

- «لن أعتبرها إهانة».

- «تبدو ضعيفًا يا جاك. ذلك النوع الباهت، الضخم، المسنّ، الضعيف من الناس».

قلت: «لمَ قد أعتبرها إهانة؟» ودفعت ثمن الحبل وهرعت خارجًا من الباب.

وضعني القدر في مزاج للتسوّق. وجدتُ الآخرين ومشينا عبر موقفين للسيّارات إلى البناء الرئيسيّ في مول مد-ڤيلج، بناء بعشرة طوابق محاط بعدد من الشلّالات، والمتنزّهات والحدائق. تبعتني بابيت والأولاد إلى المصعد، إلى المتاجر المصطفّة على طول البناء، عبر المحلّات والمخازن الضخمة، مختارين ولكن متحمّسين برغبتي بالتسوّق. وعندما تحيّرتُ ولم أتمكن من اختيار أحد قميصين، شجّعوني

على شراء كليهما. وعندما قلت إنّني جائع، أطعموني بسكويتًا مملّحًا وبيرة وشيش كباب. سارت الفتاتان في المقدمة تمسحان المكان، تشيران إلى الأشياء التي ظنّتا أنّني بحاجة إليها، مندفعتين ركضًا إليّ، تمسكان ذراعي. تحثّانني كي ألحقهما. كانتا دليليّ إلى السعادة اللامحدودة. كان الناس يتزاحمون عند البوتيكات ومتاجر الطعام. موسيقا أرغن تنساب من الملعب الضخم. تنشّقنا روائح شوكولا، وبوشار، وكولونيا؛ وبسُطًا وأنواع فرو، ولحم سلامي معلّقًا وروائح نايلون قاتلة. شعرت عائلتي بالسعادة في هذا الحدث. أخيرًا كنت واحدًا منهم، أتسوّق. نصحوني وتحدّثوا مع الموظّفين نيابة عنّي. بقيت أرى نفسي منعكسًا في واجهات المتاجر الزجاجيّة. تنقّلنا من متجر إلى آخر، من دون أن نكتفي برفض أغراض من محلات بعينها فحسب، ولا محلات بأكملها فحسب، بل إن مخازن كبرى، وشركات هائلة،لم تَرُقْ لنا لسبب أو لآخر. كان ثمّة مخزن آخر دومًا، ثلاثة طوابق، ثمانية طوابق، قبو مليء بخُزُن جبنة وسكاكين تقشير. تسوّقت بغفلة هوجاء. تسوّقت حاجاتٍ ضروريّة وأغراضًا نافلة. تسوّقت من أجل التسوّق بذاته، ناظرًا أو متلمّسًا، متفحّصًا سلعًا لم تكن لديّ أدنى نيّة لشرائها، ثمّ أشتريها. أرسلت الموظّفين إلى كاتالوغات أنواع القماش والموديلات لأبحث عن تصاميم محيِّرة. بدأت قيمتي وثقتي بنفسي تتزايد. شَغَلْتُ نفسي كلّيًّا، اكتشفت جوانبَ جديدة داخلي، وجدت شخصًا كنت قد نسيت وجوده. كان البريق يحفّني من كلّ زاوية. انتقلنا من الأثاث إلى الألبسة الرجاليّة، مارّين بأدوات التجميل. كانت صورنا تتلاحق على أعمدة المرايا، في الزجاج والكروم. على شاشات التلفزيون في غرف المراقبة. قايضتُ المال ببضائع. وكلّما تزايد إنفاقي، تضاءلت أهمّيته لديّ. كنت أكبرَ من هذه المبالغ. تدفّقت هذه المبالغ من جلدي كالمطر. في الواقع عادت إليّ هذه المبالغ بشكل رصيدٍ وجوديٍّ. شعرت بالتضخّم، ميّالًا إلى السخاء المفرط، وطلبت من الأولاد اختيار هدايا الكريسماس هنا والآن. أومأت لهم بما بدا لي طريقة مترفة.

بإمكاني إدراك أنّهم كانوا منبهرين. انتشروا في المنطقة، وقد بات كلّ منهم فجأة ميّالًا إلى الخصوصيّة، الغموض بل السرّيّة. بين لحظة وأخرى يعود أحدهم ليسجّل اسم غرض ما عند بابيت، حريصًا على أن لا يعرف الآخرون ما هو. ولم تزعجني أبدًا تلك التفاصيل الدقيقة - كنت الشخص الخيّر، الشخص الذي يمنح الهدايا، والعلاوات، والرشاوى، والبقشيش. وأدرك الأولاد أنّ من طبيعة هذه الأشياء أن لا يتوقّعوا منّي الانخراط في نقاشات تفصيليّة بشأن الهدايا بذاتها. تناولنا وجبة أخرى. عزفت فرقة ما موسيقا مول شائعة. ملأت الأصوات الطوابق العشرة من الحدائق والمتنزّهات، صخب اندفع صداه وتسلّل عبر الغاليري الضخم، ممتزجًا مع ضوضاء المتاجر، ومع وقع الأقدام ورنين الأجراس، وأزيز المصاعد، وأصوات الناس وهم يأكلون، الضوضاء البشريّة لتعاملات تجاريّة مبهجة وحيويّة.

قدنا السيّارة إلى البيت بصمت. ذهب كلّ منّا إلى غرفته، آملًا أن يبقى وحيدًا. بعد برهة شاهدت ستيفي أمام التلفزيون. كانت تحرّك شفتيها، محاولةً ملاحقة الكلمات وهي تُنطَق.

18

من طبيعة وبهجة سكّان البلدات عدم إبداء ثقة بالمدن. جميع المبادئ الإرشاديّة التي قد تتدفّق من مركز أفكار وطاقات ثقافيّة ستُعتَبر فاسدة، أو نوعًا من البورنوغرافيا. تلك هي الحال في البلدات.

ولكن بلاكسمث لا تجاور أيّ مدينة كبيرة. لا نشعر بالتهديد أو الظلم كما هو حال البلدات الأخرى. لسنا على صدام مع التاريخ وشوائبه. لو كان لتذمّراتنا نقطة تركيز، فستكون حيث جهاز التلفزيون، حيث يكمن مصدر الإزعاج الخارجيّ، متسبّبًا بالخوف والرغبات الخفيّة. وبالتأكيد لا يشوب العلاقة مع الكلّيّة-على-التلّ إلّا مقدار ضئيل، أو لا شيء

على الإطلاق، من البغض كرمز للتأثير المدمّر. وتحتلّ الكليّة زاوية قصيّة هادئة في البلدة، شبه منفصلة، جميلة إلى حد ما، معلّقة في الهدوء السياسيّ. ليست مكانًا يحرّض شكوكًا خطرة.

في ثلج خفيف انطلقت بالسيّارة إلى المطار خارج آيرن سيتي، وهي بلدة كبيرة غارقة في الارتباك، مركز هجران وأحلام مكسورة بدلًا من أن تكون مكانًا يتبدّى فيه الخراب المدينيّ. كان يُفترض بابنتي بي، التي هي في الثانية عشرة من العمر، أن تصل في الرحلة المنطلقة من واشنطن، مع محطّتَيْ توقّف، وتبديل واحد للطائرة. ولكن أمّها، تويدي براونر، هي التي كانت من قسم الواصلين. وهو مكان عالمثالثيّ مترب صغير يبدو أنّ عمليّات ترميمه قد توقّفت. للحظة ظننت أنّ بي قد ماتت وأنّ تويدي جاءت لتنقل الخبر وجهًا لوجه.

- «أين بي؟»

- «ستصل في رحلة أخرى لاحقًا اليوم. ولهذا أنا هنا. لأقضي مزيدًا من الوقت معها. عليّ الذهاب إلى بوسطن غدًا. مسألة عائليّة».

- «ولكن أين هي؟»

- «مع أبيها».

- «أنا أبوها يا تويدي».

- «مالكوم هَنْت يا أحمق. زوجي».

- «هو زوجك، ليس أباها».

- «ألا تزال تحبّني يا تَكْ؟»

كانت تدعوني تَكْ، وهو الاسم الذي اعتادت أمّها مناداة أبيها به. كلّ ذكور آل براونر اسمهم تَكْ. وعندما بدأ الخيط يبهت، منتجًا مجموعة من الرجال المهلهلين وغير الكفئين، باتوا يمنحون الاسم لأيّ رجل يتزوّج فتاة من العائلة في حال حقّق مرادهم. كنت أوّل هؤلاء.

بقيت أترقّب سماع نبرة سخرية مبطّنة في أصواتهم حين كانوا ينادونني بهذا الاسم. كنت أظنّ أنّه حين تصبح العادة شديدة المرونة، ستدخل السخرية إلى الكلام. شخرة الأنف، التهكّم، السخرية من الذات، وما إلى ذلك. سيعاقبونني عبر الاستهزاء بأنفسهم. ولكنّهم كانوا سلسين حيال هذا، وصادقين كلّيًّا. بل ممتنّين لأنّني تماشيت معهم في هذا الأمر.

كانت ترتدي كنزة صوفيّة، وتنّورة صوفيّة خشنة، وجوارب تصل إلى الركبتين وحذاءً بسيطًا. ثمّة مسحة من العطب البروتستانتي في مظهرها، هالة متهالكة كان جسدها يكافح للحفاظ عليها. الوجه المشرق النحيل، العينان الجاحظتان قليلًا، إشارات المزاج والتذمّر التي تبديها حول الفم والعينين، النبض عند الصدغ، الأوردة البارزة في الكفّين والعنق. كان رماد السجائر عالقًا على الدرزات المهلهلة في كنزتها.

- «للمرّة الثالثة. أين هي؟»

- «إندونيسيا، تقريبًا. مالكوم يعمل متخفّيًا، حيث يموّل حركة إحياء للشيوعيّة. هذا جزء من مخطّط دقيق للإطاحة بكاسترو. لنخرج من هنا يا تَكْ، قبل أن يهجم الأطفال للتسوّل».

- «هل ستأتي لوحدها؟»

- «ولم لا؟»

- «ليس الأمر بهذه البساطة حين نتحدّث عن رحلة من الشرق الأقصى إلى آيرن ستي».

- «بي سريعة التأقلم حين يتطلّب الأمر. تريد أن تصبح كاتبة رحلات في الحقيقة. قادرة على تدبّر أمورها جيّدًا».

أخذت مجّة عميقة من سيجارتها ونفثت الدخان بدفعات سريعة بارعة من الأنف والفم، وهي عادة تفعلها حين تريد التعبير عن سخطها من محيطها المباشر. لم تكن هناك بارات أو مطاعم في المطار- بل مجرّد كشك لبيع السندويشات المُعدَّة مسبقًا. يشرف عليه رجل يمتلئ وجهه

بعلاماتِ عصابةٍ ما. أخذنا أمتعة تويدي وخرجنا إلى السيّارة وانطلقنا عبر آيرن ستي، مارّين بمصانع مهجورة، على طرق رئيسيّة مقفرة، مدينة من التلال، شوارع شبه مرصوفة، بيوت قديمة جميلة هنا وهناك، حيث أكاليل الكريسماس معلّقة على النوافذ.

- «تَكْ، أنا لست سعيدة».

- «لم لا؟»

- «ظننت أنّك ستحبّني إلى الأبد، بصراحة. أعتمد عليك في هذا. مالكوم بعيد عنّي كثيرًا».

- «لقد تطلّقنا، أخذتِ كلّ مالي، تزوّجتِ دبلوماسيًّا ثريًّا، ذا صلات قويّة، أنيقًا يدير عملاء سرّيّين في مناطق حسّاسة ووعرة».

- «لطالما كان مالكوم منجذبًا إلى مناطق الأدغال».

كنّا ننطلق بموازاة سكّة حديد. كانت الأعشاب مليئة بفناجين ورقيّة، مقذوفة من نوافذ القطار أو حملتها الرياح من المحطّة.

قلت: «ذهبت جانيت إلى مونتانا، إلى معتزل».

- «جانيت ساڤوري؟ يا إلهي، ولماذا؟»

- «اسمها الأمّ ديڤي الآن. تدير البزنس في المعتزل. استثمارات، عقارات، تهرّبات ضريبيّة. لطالما كان هذا ما تريده جانيت. راحة بال ضمن سياق ربحيّ».

- «بنيتها العَظْميّة مذهلة.. جانيت».

- «لديها موهبة الانسلال».

- «تقول هذا بلؤم. لم أعلم أنّ لديك هذا اللؤم يا تَكْ».

- «حماقة وليست لؤمًا».

- «ما الذي تعنيه بالانسلال؟ هل كانت متخفّية مثل مالكوم؟»

- «لم تكن تخبرني بمقدار المال الذي تجنيه. أظنّ أنّها كانت تقرأ بريدي. بعد ولادة هاينرش مباشرة، ورّطتني في مخطّط استثماريّ معقّد مع عدد من المتحدّثين بلغات عديدة. قالت إنّ لديها معلومات».

- «ولكنّها كانت مخطئة فخسرت مبالغ هائلة».

- «جنينا مبالغ هائلة. كنت متورّطًا، واقعًا في فخّ. كانت تناور دائمًا. كان أمني مهدّدًا. رؤيتي لحياة مديدة هادئة. أرادت إشراكنا. كانت تأتينا مكالمات من ليشتنشتاين، جزر هبريدس. أماكن وهميّة، أدوات مؤامرات».

- «هذا لا يشبه جانيت ساڤوري التي قضيتُ نصف ساعة مبهجة معها. جانيت ذات عظمتيّ الخدّ العاليتين والصوت الظريف».

- «لدى جميعكنّ عظام خدّ عالية. كلّ واحدة منكنّ، بنية عَظْميّة مذهلة. شكرًا لله على بابيت ووجهها الممتلئ الطويل».

قالت تويدي: «أليس هناك مكان يمكن أن نتناول فيه وجبة حضاريّة؟ مكان بمفارش طاولة وقوالب زبدة جامدة. تناولنا، أنا ومالكوم، الشاي مرّة مع العقيد القذافي. رجل جذّاب وقاس، أحد الإرهابيّين القلائل من الذين التقينا بهم الذي يطابق ما يُقال عنه».

كان الثلج قد توقّف عن الهطول. قدنا السيّارة عبر منطقة مستودعات، وشوارع أكثر قفرًا، انكشاف وامتداد مجهول ينطبع في الذهن كتَوْق غامض إلى شيء عصيٍّ على العودة. كانت ثمّة مقاهٍ منعزلة، وطريق مقفرة أخرى، حيث كانت سيّارات شحن مركونة على الناصية. كانت السجائر الطويلة لتويدي المدخّنة الشرهة تطلق سحبًا من نفثات الدخان في جميع الاتّجاهات.

- «يا إلهي، يا تَكْ، كنّا رائعَيْن معًا».

- «رائعين في ماذا؟»

– «أحمق. كان من المفترض أن تنظر إليّ بطريقة حنونة نوستالجيّة، مبتسمًا بلطف».

– «كنت ترتدين القفازات في السرير».

– «ولا أزال».

– «قفّازات، وعصابات للعينين، وجوارب».

– «تعرف عيوبي. لطالما عرفتَها. أنا مفرطة الحساسيَة لأمور كثيرة».

– «ضوء الشمس، والهواء، والطعام، والماء، والجنس».

– «تسبّب السرطان. كلّ واحدة منها».

– «ما المسألة العائليّة في بوسطن؟»

– «عليّ أن أعيد طمأنة أمّي أنّ مالكوم لم يمت. هي تميل إليه، لسبب ما».

– «لم تظنّ أنّه مات؟»

– «حين يكون مالكوم في مهمّة تقتضي تخفّيًا شديدًا، يبدو الأمر وكأنّه اختفى من الوجود. لا يتلاشى هنا والآن فقط بل حتّى من الماضي. لا يبقى أيّ أثر للرجل. أتساءل أحيانًا ما إذا كان الرجل الذي تزوّجته هو مالكوم هَنْت حقًّا أم هو شخص آخر كلّيًّا منخرط في عمليّة تخفٍّ شديدة. هذا مقلق بصراحة. لا أعرف النصف الحقيقيّ من حياة مالكوم، أو النصف الاستخباراتيّ. آمل أن تساعدني بي في كشف أمر ما».

تراقصت إشارات المرور المعلّقة بكابلات فجأة. كان هذا هو الطريق الرئيسيّ في المدينة، مجموعة من المتاجر بتنزيلاتها، وكوى سحب نقود، مخازن بيع بالجملة. صالة سينما مورسكيّة قديمة شاهقة، أصبحت مسجدًا الآن. مبانٍ فارغة بأسماء مبنى المحطّة، مبنى البضائع، المبنى التجاريّ. يا لقرب هذا المشهد من صورة كلاسيكيّة للندم.

قلت: «يوم كئيب في آيرن سيتي. بإمكاننا العودة إلى المطار».

- «كيف هو هتلر؟»

- «رائع، ومستقرّ، وجدير بالثقة».

- «تبدو على ما يرام يا تَكْ».

- «لا أشعر بأنني على ما يرام».

- «لم تشعر بهذا يومًا. أنت تَكْ القديم. لطالما كنت تَكْ القديم. أحبَّ كلّ منّا الآخر، صحيح؟ كان كلّ منّا يبوح للآخر بكلّ شيء، ضمن حدود فَهْم كلّ منّا للأخلاق واللباقة. لا يبوح لي مالكوم بأيّ شيء. من هو؟ ما عمله؟»

جلست دافنة ساقيها تحتها بمواجهتي، ناثرة رماد السجائر على حذائها المستند على البساط المطّاطيّ.

- «أليس من الرائع أن تنشأ منتصب القامة، بين مخصيين ومخنّثين، مع أب يرتدي سترة خفيفة زرقاء وبنطالًا رماديًّا أنيقًا؟»

- «لا تسأليني».

- «كانت أمّي تقف تحت العريشة مع حزمة من الأزهار المقطوفة. تقف هناك فحسب، لتكون هي هي».

في المطار انتظرنا وسط سحابة من غبار الجصّ، بين أسلاك مكشوفة، رزم مطّاط. قبل نصف ساعة من وصول بي المفترض، بدأ ركّاب رحلة أخرى بالتوافد عبر نفق شفّاف إلى صالة الواصلين. كانوا شاحبين ومصعوقين، سيطر عليهم القلق والصدمة، جارّين أمتعتهم الشخصيّة على الأرض. عشرون، ثلاثون، أربعون شخصًا خرج، من دون كلمة أو نظرة، مثبّتين أعينهم بالأرض. بعضهم يعرج، وبعضهم يبكي. عَبَر عدد آخر النفق، بالغون مع أطفال باكين، مسنّون يرتعشون، قسّ أسود بياقة متجعّدة، وفردة حذاء ناقصة. ساعدت تويدي امرأة مع طفلين صغيرين. دنوت من شابّ قصير بكرش بارز وقبّعة ساعي بريد،

يرتدي سترة داخليّة، وقد نظر إليّ كما لو أنّني لا أنتمي إلى بعده الزمكانيّ بل ظهرت أمامه فجأة، متدخّلًا بوقاحة. أرغمْته على التوقّف لمواجهتي، وسألته عمّا حدث هناك. مع استمرار الناس بالتوافد، زفر باضطراب. ثمّ أومأ، مثبّتًا عينيه عليّ، مفعمًا بعزم رقيق.

كانت الطائرة قد فقدت التحكّم بمحرّكاتها الثلاثة، وسقطت من ارتفاع أربعة وثلاثين ألف قدم إلى اثني عشر قدمًا. على مسافة تقارب أربعة أميال. وحين بدأ الانحدار المضطرب، طار الناس، وسقطوا، وانزلقوا من مقاعدهم. ثمّ بدأ الصراخ والأنين الصادح. ومباشرة تقريبًا سُمع صوت من قمرة القيادة عبر الميكروفون الداخليّ: «إنّنا نسقط من السماء! إنّنا آلة موت فضّيّة برّاقة!» بدا هذا التصريح للركّاب انهيارًا كلّيًّا وشاملًا للسلطة، والقدرة، والتحكّم، وأطلق جولة من العويل الحارق اليائس.

كانت الأغراض تتساقط من الرفوف، والممرّ يمتلئ بالكؤوس، وأدوات الطعام، والمعاطف، والبطّانيّات. حاولت مضيفة ملتصقة بجسم الطائرة بفعل زاوية الانزلاق الحادّة العثور على المقطع الملائم في كتيّب بعنوان «دليل الكوارث». ثمّ صدح صوت ذكوريّ آخر من قمرة القيادة، ولكن كان هادئًا ودقيقًا كلّيًّا، مرغمًا الركّاب على الإيمان أنّ ثمّة من هو أهلٌ للمسؤوليّة في نهاية المطاف، عنصر أمل. «من أميركان اثنان-واحد-ثلاثة إلى جهاز تسجيل قمرة القيادة. نعلم الآن ماهية الأمر. إنّه أسوأ ممّا كنّا نتخيّل على الإطلاق. لم يهيّئونا لهذا في مُحاكي الموت في دنڤر. خوفنا صافٍ، وخالٍ تمامًا من الإلهاءات والضغوط بحيث يبدو نوعًا من التأمّل المتعالي. خلال أقلّ من ثلاث دقائق سنلمس الأرض، لو جاز القول. أحبّكِ، لانس». هذه المرّة كان ثمّة برهة صمت قبل أن يتواصل العويل الجماعيّ. لانس؟ ما نوع الناس المسؤولين عن هذه الطائرة؟ اكتسب البكاء نبرة مرارة وذهول.

حينما كان الرجل ذو السترة يروي قصّته، بدأ الركّاب الوافدون من النفق يتجمّعون حولنا. لم ينطق أحد، أو يقاطع، أو يحاول التدخّل في القصّة.

في الطائرة المنزلقة، زحفت مضيفة نزولًا في الممرّ، فوق الأجساد والأمتعة، طالبة من الناس في كلّ صفّ خلع أحذيتهم، وإخراج الآلات الحادّة من جيوبهم، والتكوّر بوضع جنينيّ. في النهاية الأخرى من الطائرة، كان ثمّة من يتصارع مع جهاز الإقلاع. كان عدّة أعضاء من الطاقم قد قرّروا التصرّف لا على أساس أنّ هذا تحطّم بل هبوط تحطم(*) بعد ثوانٍ. في نهاية المطاف، الفارق بين الأمرين كلمة واحدة فقط. ألا يشير هذا إلى أنّ صيغتَيْ إنهاء التحليق متماثلتان بهذه الدرجة أو تلك؟ ما مقدار الأثر الذي تتركه كلمة واحدة؟ سؤال تفاؤليّ ضمن تلك الظروف. لو لم نتمعّن التفكير فيه، عدا عن أنّه ليس ثمّة وقت للتفكير الآن. بدا أنّ الفارق بين التحطّم وهبوط التحطّم هو أنّ بإمكانك التهيّؤ لهبوط التحطّم، وهذا بالضبط ما كانوا يحاولون فعله. انتشر الخبر في أرجاء الطائرة، وبدأ تكرار المصطلح صفًّا إثر آخر. «هبوط تحطم، هبوط تحطم». أدركوا مدى سهولة الأمر، بمجرّد إضافة كلمة واحدة، لإبقاء قبضة على المستقبل، لإطالته في الوعي إن لم تكن في الواقع الفعليّ. جهّزوا أنفسهم لما سيأتي، وتكوّروا في وضع جنينيّ في مقاعدهم.

عندما وصل الراوي إلى هذه النقطة، كان أناس كثيرون قد انتشروا حولنا، لا من الناس الوافدين من النفق فحسب بل أيضًا من الذين كانوا أوّل الخارجين. عادوا للإنصات. لم يكونوا مستعدّين للتفرّق بعد، لإعادة ضبط أجسادهم الأرضيّة، بل أرادوا التسكّع مع هلعهم، إبقاءه منفصلًا وسليمًا لوقت أطول. انجذب أناس أكثر إلينا، احتشدوا، كاد العدد يقارب عدد الركّاب الإجماليّ. كانوا راضين بترك الرجل ذي

(*) crash landing الترجمة الأفضل: هبوط اضطراري، وتم استخدام الترجمة الواردة أعلاه لتحقيق التلاعب اللغوي الذي قصده المؤلف. (الناشر).

السترة والقبّعة يتكلّم نيابة عنهم. لم يجادل أحد روايته أو يحاول إضافة شهادة شخصيّة. بدا الأمر وكأنّهم يشهدون حدثًا لم يعايشوه بأنفسهم. كانوا مهتمّين بما يقول، بل يشعرون بفضول، ولكنّهم نأوا بأنفسهم كلّيًّا. وضعوا ثقتهم به كي يخبرهم بما قالوه وأحسّوا به.

في لحظة الهدوء هذه، حينما انتشر مصطلح «هبوط تحطم» في أرجاء الطائرة، مع تشديد لفظيّ على الكلمة الأولى، بدأ ركّاب الدرجة الأولى التشبّث والتعلّق بالستائر، شاقّين طريقهم بالتسلّق حرفيًّا إلى الدرجة السياحيّة كي يتجنّبوا أن يكونوا أوّل من يصطدم بالأرض. وثمّة أناس في الدرجة السياحيّة أحسّوا بوجوب العودة إلى الخلف. ولم يُعبَّر عن هذا الإحساس بالكلمات والأفعال بقدر ما عُبِّر عنه بأصوات رهيبة غير مفهومة، مثل ضوضاء القطيع. تراجع عاجل اضطراريّ. وفجأة عادت المحرّكات إلى العمل. بهذه البساطة. السلطة، الاستقرار، التحكّم. الركّاب الذين كانوا قد تهيّأوا للاصطدام، كانوا بطيئين في التأقلم مع موجة المعلومات الجديدة. أصوات جديدة، مسار طيران مختلف. إحساس بأنّك محبوس في أنبوب صلب لا في غلاف من البولي يوريتان. اشتعلت إشارة التدخين، يد عالميّة مع سيجارة. جاءت المضيفات بمناشف معطّرة لتنظيف الدم والقيء. تخلّى الناس تدريجًا عن وضعيّة الجنين، وأرجعوا أجسادهم باضطراب. أربعة أميال رعب في مشاهد تُعرَض وقت الذّروة. لم يعلم أحد ما يقول. أن تكون حيًّا يعني غنى في الإحساس. عشرات الأشياء، مئات الأشياء. مشى الطيّار الأول عبر الممرّ، يبتسم ويدردش على نحو مبهج متبطّل خالٍ من الهموم. كان في وجهه تلك المسحة المتورّدة الواثقة المألوفة في المسؤولين عن طائرات الركّاب الكبيرة. نظروا إليه وتعجّبوا من أنّهم كانوا خائفين.

كنت أُدفع بعيدًا عن الراوي بفعل احتشاد الناس الذين يودّون الإنصات. كانوا قرابة مئة، يجرّون حقائب الكتف وحقائب الملابس

على الأرض المتربة. وحالما أدركت أنّني قد أصبحت خارج نطاق السمع، رأيت بي تقف بجانبي، وجهها ناعم أبيض وسط شعر مجعَّد كثيف. قفزت تحتضنني، تحفّها رائحة إرهاق الطيران.

سألتني: «أين وسائل الإعلام؟»

- «ليس هناك وسائل إعلام في آيرن سيتي».

- «قاسَوْا تلك المعاناة بلا طائل؟»

وجدنا تويدي وخرجنا إلى السيّارة. كان هناك ازدحام مروريّ عند أطراف المدينة فاضطررنا إلى الوقوف عند طريق يجاور منشأةً مهجورةً لسبك المعادن. ألف نافذة مكسورة، إشارات مرور مُكسَّرة، الظلام يخيّم. جلست بي في المقعد الخلفيّ بوضعيّة اللوتس. بدت مرتاحة تمامًا بعد رحلة قطعت فيها مناطق رطبة، وأراضٍ شاسعة، ومسافات هائلة فوق المحيط، وأيّامًا وليالٍ في طائرات كبيرة وصغيرة، صيفًا وشتاء، من سواربايا إلى آيرن سيتي. والآن نجلس منتظرين في الظلام كي يقطروا سيّارة أو يغلقوا جسرًا متحرّكًا. لم تعتقد بي أنّ هذه السخرية المألوفة من السفر الحديث تستحقّ التعليق. اكتفت بالجلوس هناك منصتة لتويدي وهي تحاول أن تفسّر لي لمَ لا ينبغي على الوالدين أن يقلقوا حين يسافر أولادهم لوحدهم في رحلات كهذه. الطائرات والمحطّات هي أكثر الأماكن أمانًا للصغار والمسنّين. إذ يُعتنى بهم، ويُقابَلون بابتسامة، ويُحترَمون لعزمهم وشجاعتهم. يطرح الناس أسئلة ودودة، ويقدّمون إليهم بطّانيّات وحلوى.

تقول تويدي: «ينبغي على كلّ طفل الحصول على فرصة السفر آلاف الأميال وحيدًا من أجل تعزيز ثقته بنفسه واستقلاليّة ذهنه، مع ملابس وأدوات شخصيّة من اختياره. وكلّما أسرعنا في إرساله إلى الجوّ، كان هذا أفضل له. مثل السباحة والتزلّج. عليك أن تبدأ في سنّ مبكّرة. هذا أحد الأشياء التي أحسّ فيها بفخر شديد لأنّني حقّقتها مع بي. أرسلتها

إلى بوسطن حين كانت في التاسعة. شدّدت على الجدّة براوني كي لا تنتظرها في المطار. لا تقلّ أهمّيّة الخروج من المطارات عن الطيران الفعليّ. يتجاهل كثير من الأهل هذا الجانب من تطوّر الطفل. بي متمرّسة في ساحلَيْ الولايات المتحدة الآن. طارت أولى رحلاتها في طائرة جامبو حين كانت في العاشرة، غيّرت الطائرة في أوهير، وكادت تتخلّف عن رحلتها في لوس أنجلس. بعد أسبوعين طارت بالكونكورد إلى لندن. كان مالكوم بانتظارها مع كأس شامپانيا مخفّفة بالماء».

تراقصت الأضواء الخلفيّة للسيّارات في الأفق، بدأ صفّ السيّارات بالتحرّك.

تابعتْ تويدي: باستثناء الأعطال الميكانيكيّة، والطقس المضطرب، والعمليات الإرهابيّة، ربّما سيكون السفر بالطائرة بسرعة الصوت آخر ملاذ للحياة الكريمة والتصرّفات المتحضّرة قد يعرفه الإنسان.

19

جعلَتْنا بي نعي ذاتنا أحيانًا، وهو عقاب يفرضه الزوّار دونما قصد على مضيفيهم المجاملين. بدا وكأنّ حضورها يسلّط ضوءً جراحيًّا. بدأنا نرى أنفسنا كجماعة نتصرّف دون تخطيط، نتجنّب اتّخاذ قرار، نتّخذ مواقف غبيّة وغير مستقرّة عاطفيًّا، نترك مناشف مبلّلة في كلّ مكان، نتوه عن عضو العائلة الأصغر. كلّ ما كنّا نفعله بدا فجأة أمرًا بحاجة إلى تفسير. كانت زوجتي مرتبكة على نحو خاصّ، لو كانت دينيز هي المفوّض الحزبيّ بمقياس صغير، الذي يدفعنا إلى جرعة ضمير أعلى، فإنّ بي هي الشاهد الصامت الذي يضع جوهر معنى حياتنا موضع التشكيك. راقبتُ بابيت وهي تحدّق بكفّيها المتعانقتين بذهول.

صوت الصرير هذا ليس إلّا شوفاج التدفئة المركزيّة.

كانت بي تزدري بصمت الملاحظات البارعة والاستهزاء وأمورًا

عائليّة أخرى. كانت أكبر من دينيز بعام واحد، أطول، أنحف، أكثر شحوبًا، أرضيّة وسماويّة في آن، كما لو أنّها في قرارة نفسها ليست كاتبة رحلات على الإطلاق، كما تودّ أمّها أن تكون، بل مجرّد رحّالة، بالصيغة الأنقى، شخص يلتقط الانطباعات، وتناقضات المشاعر الحادّة، من دون أن يعبأ بتدوينها.

كانت هادئة ومن النوع الذي يشغل نفسه بالآخرين، أحضرت لنا هدايا مصنوعة يدويًّا من الغابات. كانت تستقلّ التكسي إلى المدرسة ودروس الرقص، وتتحدّث الصينيّة قليلًا، كما أرسلتْ مرّة مالًا لصديقة تقطَّعت بها السبيل. كنت أحترمها عن بعد وارتباك، شاعرًا بتهديد غامض، كما لو أنّها لم تكن ابنتي بل الصديقة الواعية المعتمدة على نفسها لأحد أولادي. هل كان مري على حقّ؟ هل نحن وحدة هشّة محاطة بوقائع سيّئة؟ هل كنت أنشر الجهل، والانحياز، والخرافة لكي أحمي عائلتي من العالم؟

في يوم الكريسماس، جلست بي عند الموقد في غرفة المعيشة التي نادرًا ما نستخدمها، مراقبة اللهب التركوازيّ. كانت ترتدي ثوبًا كاكيًّا فضفاضًا طويلًا بدا باهظًا. جلست على الكنبة وفي حضني ثلاث أو أربع هدايا، مزيّنة ومغلّفة بورق ملوّن. كانت نسختي من كفاحي المطويّة الصفحات على الأرض قرب الكنبة. كان هناك أناس آخرون في المطبخ يعدّون الطعام، وآخرون صعدوا إلى أعلى ليتفحّصوا هداياهم على انفراد. قال التلفزيون: «هذا الكائن طوَّر معدةً مركَّبة تتماشى مع حميته الغذائيّة النباتيّة».

قالت بي بصوت شارد: «لا أحبّ هذا الوضع مع أمّي. تبدو منغلقة على الدوام. كما لو أنّها قلقة بفعل أمر ليست واثقة من ماهيته، إنّه مالكوم، بالطبع. لديه أدغاله. ما الذي لديها هي؟ مطبخ مُهوّى ضخم بفرن ينتمي إلى مطعم بثلاث نجوم في الضواحي. تفرغ كلّ طاقتها في

هذا المطبخ، ولكن لماذا؟ المشكلة ليست في المطبخ أبدًا. إنّها حياتها، منتصف العمر. يمكن لبابا أن تستمتع بمطبخ كهذا. سيكون مطبخًا بالنسبة إليها. أمّا بالنسبة إلى أمّي فهو رمز غريب لاجتياز أزمة، ما عدا أنّها لم تجتزها».

- «أمّك ليست واثقة تمامًا مَنْ يكون زوجها».

- «ليست هذه هي المشكلة الأساسيّة. المشكلة الأساسيّة هي أنّها لا تعرف مَنْ تكون هي. مالكوم في الجبال يعيش على شجرة يصدح ويزحف. هذا هو مالكوم. هو بحاجة إلى الحرارة والرطوبة. لديه شهادات لا تحصَى في الشؤون الخارجيّة والاقتصاد ولكن كلّ ما يريده هو الاختباء تحت شجرة ومراقبة أفراد القبائل وهم يمسحون الطين عن أجسادهم. مراقبتهم ممتعة. ما الأمر الممتع الذي تفعله أمّي؟»

كانت قسمات وجه بي صغيرة باستثناء عينيها اللتين تبدوان وكأنّهما تضمّان صيغتين للحياة، المسألة الأساسيّة وتضميناتها الخفيّة. تحدّثتْ عن مهارات بابيت العبثيّة في ضبط عمل الأشياء، البيت، الأطفال، دفق الحياة اليوميّة، بحيث بدت تشبهني قليلًا، ولكن مع وجود بحر حياة ضمنيّ يتحرّك عميقًا في بؤبؤ عينها. ما الذي كانت تعنيه، ما الذي كانت تقوله حقًّا، لمَ بدت وكأنّها توقّعت منّي استجابة مشابهة؟ كانت تريد التواصل بهذه الطريقة الفرعيّة، عبر التدفّقات البصريّة. كانت تريد تأكيد شكوكها، اكتشاف رأيي. ولكن ما الشكوك التي لديها وما الذي تريد اكتشافه؟ بدأت أقلق. وما إن ملأت رائحة التوست المحروق المنزل، حاولت دفعها إلى التحدّث عن الحياة في الصفّ السابع.

- «هل المطبخ يحترق؟»

- «هذه ستيفي تحرق التوست. هو أمر تفعله بين حين وآخر».

- «كان يمكن أن أُعدّ نوعًا من طبق الكيمشي».

- «شيء من الفترة التي أمضيتِها في كوريا».

- «إنّه ملفوف يُخلَّل مع فليفلة حمراء وعدّة أشياء أخرى. طعمه شديد الحدّيّة. ولكنّني لا أعرف بشأن المقادير. من الصعب إيجادها في واشنطن».

- «على الأغلب أنّنا سنقدّم شيئًا عدا التوست».

تسبّب لها التصريح اللطيف بالسعادة. كانت أكثر ما تحبّني عندما أكون جافًا، ساخرًا، قاطعًا. وهي موهبة طبيعيّة كانت تظنّ أنّني اكتسبتها بفعل الوجود الطويل مع الأطفال.

قال التلفزيون: «والآن سنضع المجسّات الصغيرة على الفراشة».

في السرير بعد ليلتين سمعت أصواتًا، فارتديت الروب ونزلت إلى البهو لأرى ما يحدث. كانت دينيز تقف عند باب الحمّام.

- «ستيفي تأخذ أحد حمّاماتها».

قلت: «الوقت متأخر».

- «هي تجلس فحسب في كلّ تلك المياه القذرة».

قالت ستيفي من خلف الباب: «هذه قذارتي»

- «إنّها قذارة في النهاية».

- «إنّها قذارتي ولا أكترث».

- «إنّها قذارة».

- «إنّها قذارتي».

- «القذارة قذارة».

- «ليست كذلك حين تكون قذارتي».

ظهرت بي عند نهاية البهو ترتدي كيمونو فضّيًا وأحمر. اكتفت بالوقوف هناك، بعيدة وشاحبة. كان ثمّة لحظة يبدو فيها بأنّ مركز تفاهتنا

وعارنا سيمتدّ، كاريكاتير لوعينا بذاتنا. تمتمت دينيز بكلمة عنيفة لستيفي عبر شقّ الباب، ثمّ مضت بهدوء إلى غرفتها.

في الصباح أوصلت بي بالسيّارة إلى المطار. القيادة إلى المطار تجعلني هادئًا ومكتئبًا. استمعنا إلى آخر الأخبار على الراديو، تقارير مثيرة غريبة عن رجال إطفاء يخرجون صوفا محترقة من شقّة في ووترتاون، أُذيعت على خلفيّة من ضوضاء آلة تسجيل. انتبهت إلى أنّ بي تراقبني بحرص، بدقّة. جلست مسندة ظهرها إلى الباب، رافعة ركبتيها، ملصقة إيّاهما بشدّة، تلفّ ذراعيها حولهما. كانت نظرة حنوّ هادئ. كانت نظرة لم أثق بها بالضرورة، ظانًّا أن لا صلة لها بالشفقة أو الحبّ أو الحزن. أدركت في الواقع أنّها أمر مختلف كلّيًّا. أقصى أشكال الشموخ المتعاطف عند الفتاة المراهقة.

في طريق عودتي من المطار، اتّجهت بمحاذاة القطار عند طريق النهر وركنت السيّارة عند حافّة الغابة. مشيتُ إلى درب وعرة. ثمّة سياج أوتاد خشبيّة قديم عليه لافتة.

المقبرة القديمة

قرية بلاكسمث

كانت أحجار الأسماء على القبور صغيرة، مائلة، مبقّعة بالفطور والطحالب مثل حبّات الجدري، والأسماء والتواريخ بالكاد واضحة. الأرض صلبة مع بقع من الجليد. مشيتُ بين الأحجار، خالعًا قفّازي لألمس الرخام الصلب. في التراب أمام أحد الأحجار ثمّة مزهريّة ضيّقة مدفونة تضمّ ثلاثة أعلام أميركيّة، وهي الإشارة الوحيدة إلى أنّ هناك من سبقني إلى هذا المكان هذا القرن. تمكّنتُ من قراءة بعض الأسماء، أسماء صغيرة قويّة عظيمة، تدلّ على صرامة أخلاقيّة. وقفتُ وأنصتُّ.

كنت بعيدًا عن مجال ضوضاء المرور، والهدير المتقطّع للمصانع عبر النهر. إذًا، في هذا على الأقلّ، كانوا محقّين، في وضع المقبرة هنا، حيث صان الصمت نفسه. ثمّة لسعة برد في الجوّ. كنت أتنفّس بصعوبة، وبقيت في بقعة واحدة، منتظرًا أن أحسّ بالسكينة التي يُفترض أن تخيّم على الموتى. منتظرًا رؤية النور الذي يحفّ حقول رثاء الطبيعة.

وقفت هناك، أنصت. كانت الريح تنفث الثلج عن الأغصان. يهبّ الثلج من الغابة في دوّامات وعصفات قويّة. رفعتُ ياقتي، وارتديت قفّازيّ. وحين سكن الهواء مجدّدًا، مشيتُ بين الأحجار، محاولًا قراءة الأسماء والتواريخ، معدّلًا وضعيّة الأعلام لترفرف بحرّيّة. ثمّ وقفت وأنصتُّ.

تكمن سطوة الموتى في أنّنا نظنّ أنّهم يروننا على الدوام. للموتى حضور. هل ثمّة مقدار طاقة يشعّ من الموتى فحسب؟ إنّهم في الأرض كذلك، بالطبع، نائمون مُفَتَّتون. ربّما كنّا نحن موضوع أحلامهم.

فلتكن الأيّام دون هدف. فلتتلاحق الفصول. لا تُقْدِمْ على الفعل وفقًا لخطّة.

20

ماتت أخت السيّد تريدول. كان اسمها غلاديس. قال الطبيب إنّها ماتت بسبب رعب بقي لديها نتيجة الأيّام الأربعة بلياليها التي قضتها مع أخيها في مول مد-ڤيلج، تائهَيْن مضطربين.

توفّي رجل في غلاسبورو عندما انفصلت العجلة الخلفيّة لسيّارته عن محورها. خلل في تصنيع تلك الماركة.

توفّي نائب حاكم الولاية لأسباب طبيعيّة لم يُعلن عنها، بعد مرض عضال. جميعنا نعلم معنى هذا.

توفّي رجل من ميكانيسڤيل خارج طوكيو بسبب حصار المطار من عشرة آلاف طالب يرتدون خوذات.

حين أقرأ أخبار النعي أنتبه دومًا إلى عمر المتوفّى. وأقارن هذا الرقم أوتوماتيكيًّا بعمري. بقيت أربع سنوات، أفكّر. تسع سنوات أخرى. سنتان وأموت. تتبدّى سلطة الأرقام في أقصاها حين نستخدمها لتخمين تاريخ موتنا. أحيانًا أعقد صفقات مع نفسي. هل سأكون مستعدًّا لقبول خمسة وستّين، وهو عمر جنكيزخان عند وفاته؟ وصل سليمان العظيم إلى السادسة والسبعين. يبدو هذا جيّدًا، خاصّة في الوضع الذي أنا عليه الآن، ولكن كيف سيبدو الأمر حين أصبح في الثالثة والسبعين؟

من الصعب تخيّل أنّ هؤلاء الناس شعروا بالحزن حيال الموت. مات أتيلا في سنّ مبكّرة. كان لا يزال في أربعيناته. هل شعر بالأسف لنفسه، استسلم للاكتئاب والشفقة الذاتية؟ كان ملك الهون، غازي أوروبا، سوط الله. أودّ أن أصدّق أنّه استلقى في خيمته، ملفوفًا بفرو الحيوانات، كما في ملحمة سينمائيّة دوليّة التمويل، ونطق بكلمات قاسية شجاعة لمساعديه وتابعيه. لا وهن في الروح. لا إحساس بسخرية الوجود البشريّ، بأنّنا أرقى أشكال الحياة على الأرض ولكن يحتلّنا الحزن برغم هذا لأنّنا نعلم ما لا يعلمه حيوان آخر، أنّنا سنموت

لا محالة. لم ينظر أتيلا من فتحة خيمته ليتأمّل كلبًا صغيرًا يقف عند النار منتظرًا أن يحنّ عليه أحد بقطعة لحم. لم يقل، «هذا الحيوان المقرف المليء بالبراغيث أفضل من أعظم حكّام البشر. لا يعلم ما نعلم. لا يحسّ بما نحسّ، لا يمكن أن يحزن كما نحزن».

أودّ أن أظنّ أنّه لم يخف. تقبّلَ الموت كتجربة تنبع من الحياة على نحو طبيعيّ، مغامرة جامحة عبر الغابة، وهذا يلائم شخصًا عُرف بكونه سوط الله. هكذا انقضى أمره، خدمه ينكشون شعرهم ويمزّقون وجوههم كبادرة إجلال همجيّة، فيما تنسحب الكاميرا من الخيمة وتدور عبر السماء الليليّة في القرن الخامس الميلاديّ، صافية لا سحب فيها، تبرق حوافّها بعوالم متلألئة.

نظرت بابيت من فوق صحن البيض والبطاطس المفرومة المقلية وقالت لي بصرامة هادئة: «الحياة جميلة يا جاك».

- «ما الذي خطر ببالك؟»

- «أظنّ فقط أنّ هذا يجدر قوله».

- «أتشعرين بتحسّن بعد أن قلته؟»

- «أرى أحلامًا مزعجة».

من سيموت أوّلًا؟ تقول إنّها تريد أن تموت أوّلًا لأنّها ستحسّ بوحدة وحزن قاتلين من دوني، خاصّة لو كان الأولاد قد كبروا وانتقلوا للعيش في مكان آخر. هي متصلّبة حيال هذا. كما تظنّ أنّ شيئًا لن يحدث طالما أنّ هناك أطفالًا معتمدين علينا في المنزل. الأطفال ضمانة لبقائنا الطويل النسبيّ. إنّنا بأمان طالما أنّهم موجودون حولنا. ولكن ما إن يكبروا ويتفرّقوا، تودُّ أن تكون أوّل من يموت. بل تكاد تبدو متحمّسة لهذا. تخشى أن أموت فجأة، بطريقة منسلّة مختلسة في الليل. ليس هذا لأنّها لا تقدّر الحياة؛ بل إنّ تركها وحيدة هو ما يُرعبها. الخواء، الإحساس بالظلمة الكونيّة.

ماستر كارد، ڤيزا، أميركان إكسپرس.

أُخبرها أنّني أريد أن أموت أوّلًا. اعتدتُ على وجودها إلى حدٍّ سأشعر فيه بأنّني ناقص على نحو بائس. إنّنا رؤيتان للشخص ذاته. سأقضي ما تبقّى من حياتي ملتفتًا أتحدّث إليها. لا أحد هناك، فجوة في المكان والزمان. تدّعي أنّ موتي سيترك فجوة أكبر في حياتها من ما سيتركه موتها في حياتي. هذا مستوى خطابنا. الحجم النسبيّ للفجوات، والهاوية، والفراغات. نخوض جدالات جادّة على هذا المستوى. تقول لو كان موتها قادرًا على ترك فجوة كبيرة في حياتي، فإنّ موتي سيخلّف هاوية في حياتها، غور عميق هائل. أواجه بعمق كبير أو بصمت. ويمضي الأمر على هذا النحو طوال الليل. لا تبدو هذه الجدالات حمقاء في وقتها. تلك هي القوّة التبجيليّة لموضوعنا.

ترتدي معطفًا مبطّنًا فضفاضًا طويلًا - يبدو مقسَّمًا، صلبًا، مصمّمًا لقعر المحيط - وتخرج لتعطي درسها في الوضعيّات. تتحرّك ستيفي بصمت في المنزل حاملة أكياس بلاستيكيّة صغيرة تستخدمها لتبطين السلال المضفورة المبعثرة. تقوم بهذا مرّة أو اثنتين أسبوعيًّا بتلك الطريقة الهادئة العازمة لشخص لا يريد أن يكون صاحب مفخرة في إنقاذ الأرواح. جاء مري ليتحدّث إلى الفتاتين ووايلدر، وهو أمر كان يفعله بين حين وآخر كجزء من استقصائه لما سمّاه مجتمع الأطفال. تحدَّث عن الثرثرات الأخرويّة للعائلة الأميركيّة. يبدو أنّه يعتبرنا جماعة رؤيويّة، منفتحة على أشكال خاصّة من الوعي. كانت ثمّة مقادير ضخمة من البيانات تتدفّق في أرجاء المنزل، تنتظر تحليلها.

صعد إلى الطابق العلويّ مع الأطفال الثلاثة ليشاهدوا التلفزيون. دخل هاينرش إلى المطبخ، جلس إلى الطاولة وأمسك بشوكة بقوّة في كلّ يد. ارتجّت الثلّاجة بقوّة. أدرت مفتاحًا، وفي مكان ما تحت المغسلة قامت آليّة طحن باختزال القُشارات، واللحاء، والشحوم

الحيوانيّة إلى شذرات صغيرة قابلة للتصريف، باندفاع شديد أرغمني على التراجع خطوتين. انتزعت الشوكتين من يدَي ابني ووضعتهما في غسّالة الصحون.

- «هل تشرب القهوة؟»

ردَّ: «لا».

- «تحبّ بابا فنجانًا حين تعود من الصفّ».

- «أعدّ لها شايًا بدل القهوة».

- «لا تحبّ الشاي».

- «بإمكانها التعلّم، أليس كذلك؟»

- «نكهتان مختلفتان كليًّا».

- «العادة عادة».

- «عليك اكتسابها أوّلًا كي تصبح عادة».

- «هذا ما أقوله. أعدّ لها شايًا».

- «صفّها شديد التطلّب أكثر ممّا يبدو عليه للوهلة الأولى. القهوة تريحها».

- «ولهذا تُعتَبر خطيرة».

- «ليست خطيرة».

- «كل ما يُريحك هو خطير. إن لم تكن تعرف هذا قد أبدو وكأنّني أحادث الجدار».

- «مري يحبّ القهوة أيضًا». قلت، منتبهًا إلى نبرة خفيفة من الانتصار في صوتي.

- «هل رأيتَ ما فعلتَه للتوّ؟ لقد أخذت علبة القهوة معك إلى الكاونتر».

- «يعني؟»

- «لم تكن مضطرًّا. كان بإمكانك تركها عند البوتوغاز حيث كنت تقف ثمّ تذهب إلى الكاونتر لإحضار الملعقة».

- «تقول إنّني حملت علبة القهوة بلا داعٍ».

- «حملتها بيدك اليمنى طوال الطريق إلى الكاونتر. وضعتها لتفتح الدرج، وهذا ما لم تشأ فعله بيدك اليسرى، ثمّ أخرجت الملعقة بيدك اليمنى، نقلتها إلى يدك اليسرى، حملت علبة القهوة بيدك اليمنى وعدت إلى البوتوغاز، حيث وضعتها مجدّدًا».

- «هذا ما يفعله الناس».

- «هذه حركة مهدِرة. يهدر الناس مقادير هائلة من الحركة. عليك مراقبة بابا وهي تعدّ السلطة لاحقًا».

- «لا يُعنى الناس بكلّ حركة أو إيماءة صغيرة. إهدار صغير لن يضرّ».

- «ولكن طوال الحياة؟»

- «ما الذي ستوفّره لو لم تفرّط؟»

- «طوال الحياة؟ نوفّر مقدارًا هائلًا من الوقت والطاقة».

- «وما الذي ستفعله به؟»

- «تستخدمه لتعيش فترة أطول».

في الحقيقة أنا لا أريد الموت أوّلًا. لو خُيّرتُ بين الوحدة والموت، سيستغرق منّي الأمر جزءًا من الثانية لاتّخاذ قرار. ولكنّني لا أريد أن أبقى وحيدًا أيضًا. كلّ ما أقوله لبابيت عن الفجوات والفراغات صحيح. موتها سيجعلني مبعثرًا، أتحدّث إلى الكراسي والوسائد. لا تتركينا نموت، أودّ الصراخ لسماء القرن الخامس البرّاقة بالغموض والنور اللولبي. اجعلي كلينا نحيا إلى الأبد، في المرض والصحّة، أحمقَيْن، خرفَيْن، بلا أسنان،

ببقع على الجلد، شحيحَيْ البصر، مهلوسَيْن. من يقرّر هذه الأمور؟ ما الذي هناك؟ من أنت؟

راقبت القهوة تبقبق عبر الأنبوب المركزيّ وثقوب المصفاة إلى الكرة الشاحبة الصغيرة. اختراع رائع وحزين، شديد الاستدارة، بارع، وإنسانيّ. يبدو مثل محاججة فلسفيّة تُطرح بمصطلحات أشياء العالم – الماء، المعدن، الحبوب البنيّة. لم أنظر إلى القهوة من قبل.

– «حين يحترق الأثاث البلاستيكيّ، ستصاب بتسمّم السيانيد». قال هاينرش، قارعًا غلاف الطاولة الفورميكا.

أكل درّاقة. وصببتُ فنجان قهوة لمري وصعدنا، هاينرش وأنا، إلى غرفة دينيز، وهي الموقع الحاليّ لجهاز التلفزيون. كان الصوت مضبوطًا على درجة خفيضة جدًّا، فيما انهمكت الفتاتان بحوار حماسيّ مع ضيفهما. بدا مري سعيدًا بوجوده هناك. جلس على الأرض في منتصف الغرفة يدوّن ملاحظات، ومعطفه ذو القطعتين وقبّعة التزلّج على البساط. كانت الغرفة حوله ملأى بالشيفرات والرسائل، أركيولوجيا الطفولة، أغراض حملتها دينيز معها منذ عمر الثالثة، من الساعات الكرتونيّة إلى پوسترات المستذئبين. كانت من أولئك الأطفال الذين يحسّون بحماية حنون حيال بداياتهم. هذا جزء من استراتيجيتها في عالم من الارتحالات. أن يكون كلّ جهدها منصبًّا على التخزين والحفظ، إبقاء الأشياء معًا لصون قيمتها كتذكارات، وسيلة لتثبيت نفسها بالحياة.

لا تقترف أيّ خطأ. آخذ هؤلاء الأطفال على محمل الجدّ. ليس ممكنًا أن تنفذ بنظرك بشدّة فيهم، أن تفرط في تسخير موهبتك لدراسة الشخصيّة. كل شيء في متناولك، بقوّته القصوى، أمواج مشحونة من الهويّة والكينونة. ليس ثمّة هواة في عالم الأطفال.

وقف هاينرش في إحدى زوايا الغرفة، متّخذًا وضعيته الخاصّة

بالمراقب الدقيق. أعطيت مري قهوته وكنت على وشك المغادرة عندما رمقتُ شاشة التلفزيون أثناء المشي. توقّفت عند الباب، ونظرت مطوّلًا هذه المرّة. كان هذا صحيحًا، كان هناك. هسهست للآخرين كي يصمتوا فأداروا رؤوسهم باتّجاهي، بدهشة وانزعاج. ثمّ تتبّعوا نظرتي إلى التلفزيون في نهاية السرير.

كان الوجه في الشاشة وجه بابيت. من أفواهنا انطلق صوت قلق وعميق مثل هرير حيوان. الاضطراب، والخوف، والدهشة، اندلقت من وجوهنا. ماذا يعني هذا؟ ما الذي تفعله هناك، بالأبيض والأسود، ضمن إطارَيْ الشاشة؟ هل كانت ميتة، تائهة، متحرِّرة من جسدها؟ هل كانت هذه روحها، ذاتها السرّيّة، صورة ببُعدين ولّدتها قوّة التكنولوجيا، وحرّرتها لتطوف عبر الأمواج، عبر مستويات الطاقة. متوقّفة لتقول لنا وداعًا عبر الشاشة المضيئة؟

احتلّني شعور غريب، إحساس بالتيه النفسيّ. كانت هي حقًّا، الوجه، الشعر، طريقة رمشها مرّتين سريعتين أو ثلاثًا. لقد رأيتها منذ ساعة، تأكل البيض، ولكن مظهرها على الشاشة دفعني لاعتبارها شخصًا بعيدًا من الماضي، زوجة سابقة وأمًّا مفقودة، تسير في ضباب الموتى. لو لم تكن ميتة، فهل أنا ميت؟ صيحة طفوليّة من مقطعين، با - با، انطلقت من أعمق أعماق روحي.

انضغط كلّ هذا في ثوان، بدا وكأنّ الزمن قد تقدّم، طوّع نفسه، ثمّ أعاد إلينا إحساسًا بما يحيط بنا، الغرفة، والبيت، والواقع الذي ينتصب فيه جهاز التلفزيون - حينها فحسب فهمنا ما يحدث.

كانت بابيت تعطي درسها في قبو الكنيسة وقد نُقل تلفزيونيًّا على محطّة الكابل المحليّة. إمّا أنّها لم تكن تعلم بشأن التصوير أو أنّها فضّلت عدم إخبارنا، بدافع الإحراج، أو الحبّ، أو الخرافة، أو أيًّا يكن ذاك الذي يدفع الشخص لتمنّي إبعاد صورته عن الناس الذين يعرفونه. مع هذا

الصوت الخفيض لم نتمكّن من سماع ما كانت تقول. ولكن لم يكلّف أحد نفسه عناء رفع الصوت. كانت الصورة هي ما يهمّ، الوجه بالأسود والأبيض، مجسّدًا ولكن مسطّحًا أيضًا، بعيدًا، مغلقًا، لا زمن له. كانت هي ولم تكن. مجدّدًا بدأت أفكّر أنّ مري قد يكون على حقّ. أمواج وإشعاعات. شيء ينسلّ عبر خيوط الشبكة. كانت تشعّ نورًا علينا، كانت تولد، تُشكَّل ويعاد تشكيلها بلا نهاية كلّما تحرّكت عضلات وجهها في الابتسام الحديث، كلّما احتشدت النقاط الإلكترونيّة.

كنّا مخترَقين من بابيت. كانت صورتها مسلّطة على أجسادنا. تسبح فينا وعبرنا. بابيت من إلكترونات وفوتونات، أو أيًّا تكن تلك القوى التي ولَّدت هذا الضوء الرماديّ الذي نعتبره وجهها.

كان الأولاد مفعمين بالإثارة ولكنّني شعرت بقلق. حاولت إخبار نفسي أنّ هذا تلفزيون فحسب. أيًّا تكن ماهيته، وأيًّا تكن كيفيّة عمله - وليست رحلة تنطلق من الحياة أو الموت، ليس انفصالًا غامضًا. نظر مري إليّ مبتسمًا بخبث.

وحده وايلدر بقي هادئًا. كان يراقب أمّه، يتحدّث إليها بأنصاف كلمات، بشذرات حسّيّة-صوتيّة ابتكرها للتوّ. وحينما انسحبت الكاميرا لتتيح لبابيت لتُظهر لحظة من الوقوف أو المشي الجميل، اقترب وايلدر من الجهاز ولمس جسدها، مخلّفًا أثرَ كفّه على سطح الشاشة المغبرّة.

ثمّ زحفت دينيز إلى الجهاز وأدارت مفتاح الصوت. لم يحدث شيء. لم يكن ثمّة صوت آليّ، أو بشريّ، لا شيء. استدارت تنظر إليّ، لتخيّم لحظة من الاضطراب المستعاد. تقدّم هاينرش، عبث بالمفتاح، أدخل يده خلف الجهاز ليضبط الوصلات المتداخلة. وحين غيّر إلى قناة أخرى، اندلع الصوت بقوّة، مزعجًا مشوّشًا. وحين عاد إلى قناة الكابل، عجز عن رفع الصوت ولو درجة، وحينما كنّا نشاهد بابيت تنهي الدرس

كان ينتابنا شكّ غريب. ولكن ما إن انتهى البرنامج، عادت الإثارة لتغمر الفتاتين فنزلتا إلى الطابق السفليّ كي تنتظرا بابيت عند الباب وتفاجئاها بما شاهدتا.

بقي الولد الصغير عند التلفاز، على بعد إنشات من الشاشة المظلمة، يبكي بهدوء، بارتباك، وبشهقات وزفرات خفيضة، فيما كان مري يدوّن ملاحظاته.

II

الحدث السامّ الهوائيّ

21

بعد ليلة من هطول الثلج استعاد الهواء سكونه وصفاءه. ثمّة زرقة صافية في ضوء يناير، قوّة وثقة. صوت الأحذية على الثلج المتراكم، بخار الطائرات متَّسمٌ بنقاء في أعالي السماء. كان الطقس هو المغزى بذاته، مع أنّني لم أدرك هذا في البداية.

التفتُّ إلى شارعنا ومشيتُ بين الناس المنحنين على مجارفهم أمام بيوتهم ينفثون بخارًا. تحرّك سنجاب على طول غصن بحركة متأرجحة، بمسار متواصل بحيث بدا وكأنّه قانونه الفيزيائيّ المعتاد، المختلف عن القوانين التي تعلّمنا أن نثق بها. عندما كنت في منتصف طريقي في الشارع رأيت هاينرش رابضًا على إفريز صغير خارج نافذة علّيتنا. كان يرتدي معطفه وقبّعته المموّهين، وهما لباس يحمل معنى مركّبًا بالنسبة إليه، وهو في الرابعة عشر، يكافح كي يكبر وكي يهرب من الأنظار في آن، بينما أسراره مكشوفة لنا جميعًا. كان ينظر إلى الشرق عبر المنظار.

عدت أدراجي إلى المطبخ. في المدخل كانت الغسّالة والنشّافة تهتزّان على نحو رائع. بإمكاني الإدراك من صوت بابيت أنّ الشخص الذي كانت تحادثه على الهاتف هو أبوها. تململ ممتزج بذنب وخشية. وقفت خلفها، وضعت كفّيّ الباردتين على خدّيها. مزحة أحبّ فعلها. أنهت المكالمة.

- «لم هو على السطح؟»

- «هاينرش؟ أمر بخصوص فناء محطّة القطار. كان الخبر على الراديو».

- «ألا ينبغي أن أُنزله؟»

- «لماذا؟»

- «قد يقع».

- «لا تقل له هذا».

- «لماذا؟»

- «يظنّ أنّك تقلّل من شأنه».

- «هو على إفريز. لا بدّ من وجود شيء أفعله».

- «كلّما تزايد إظهار قلقك، سيقترب أكثر من الحافّة».

- «أعلم هذا، ولكن مع هذا يجب أن أُنزله».

- «أَغْرِه بالدخول. كن حسّاسًا وعطوفًا. اجعله يتحدّث عن نفسه. ولا تقم بحركات مفاجئة».

حين وصلت إلى العلّية كان قد عاد إلى الداخل، واقفًا عند النافذة المفتوحة، ولا يزال يراقب عبر منظاره. كانت الأغراض المهجورة في كلّ مكان، تدفع إلى الهوس والاضطراب، خالقةً جوًّا بذاتها بين العوارض والأعمدة المكشوفة، وألواح الزجاج العازل.

- «ماذا حدث؟»

- «قال الراديو إنّ صهريج قطار خرج عن مساره. ولكنّني لا أظنّ أنّه خرج عن مساره بحسب ما رأيت. أعتقد أنّه أُصيب وأحدثَ شيءٌ ما فجوةً فيه. هناك دخان كثيف لا أحبّ منظره».

- «كيف يبدو؟»

أعطاني المنظار وتنحّى جانبًا. من دون التسلّق على الإفريز كنت

عاجزًا عن رؤية فناء المحطّة والصهريج أو الصهاريج التي يتحدّثون عنها. ولكنّ الدخان شديد الوضوح، سحابة كثيفة سوداء معلّقة في الجو وراء النهر. لا شكل واضحًا لها.

- «هل رأيت سيّارات إطفاء؟»

- «إنّها تملأ المكان. ولكن يبدو لي وكأنّها عاجزة عن الاقتراب كثيرًا. لا بدّ أنّ المادّة شديدة السمّيّة أو سريعة الانفجار، أو كلتاهما».

- «ليس الأمر كذلك».

- «كيف تعرف؟»

- «ليس كذلك وكفى. المهمّ هو أنّه لا يجوز أن تقف على الأفاريز الزلقة. هذا يقلق بابا».

- «تظنّ أنّك لو أخبرتني أنّ هذا يقلقها سأشعر بالذنب ولن أفعلها مجدّدًا. ولكن لو قلت لي إنّ هذا يقلقك أنت، سأفعلها دائمًا».

- «أغلق النافذة». قلت له.

نزلنا إلى المطبخ. كانت ستيفي تنبش البريد بألوانه البرّاقة بحثًا عن كوبونات، وسحوبات، ومسابقات. كان هذا آخر أيّام العطلة الموقّتة للمدرستين الابتدائيّة والثانويّة. وستعود الدروس في الكلّيّة خلال أسبوع. أرسلت هاينرش إلى الخارج ليزيل الثلج عن الممشى. راقبته يقف هناك، ساكنًا، صامتًا، ثمّ يدير رأسه قليلًا، لألمح تنبّهًا شديدًا في وقفته. استغرق الأمر منّي برهة لأدرك أنّه كان ينصت إلى أصوات سيّارات الإطفاء خلف النهر.

بعد ساعة عاد إلى العلّيّة، حاملًا هذه المرّة راديو وخريطة للطريق الرئيسيّ. صعدت الدرجات الضيّقة، استعرت المنظار منه، ثمّ نظرت مجدّدًا. كانت لا تزال هناك، بتراكم أكبر قليلًا، بل كتلةً أشبه ببرج في الواقع، وربّما بات سوادها أخفّ الآن.

قال: «سمّوها على الراديو ريشة كثّة. ولكنّها لا تبدو ريشة».

- «ما هي؟»

- «مثل شيء يتضخّم لا شكل له. شيء أسود مظلم ينفث دخانًا، لم اعتبروها ريشة؟»

- «وقت البثّ الإذاعيّ ثمين. لا يمكن الدخول في تفاصيل طويلة مرهقة. هل قالوا ما نوع المادّة الكيميائيّة؟»

- «تسمّى مشتقّ نيودين أو نيودين دي. ذُكرت في فيلم شاهدناه في المدرسة عن النفايات السامّة. حيث صوّروا جرذانًا».

- «ماذا تُسبّب؟»

- «لم يكن الفيلم واثقًا بشأن تأثيراتها على البشر. عمومًا ظهرت أورام في أجساد الجرذان».

- «هذا ما قاله الفيلم. ماذا قال الراديو؟»

- «في البداية، كما قالوا، تسبّب هياجًا جلديًّا وراحة يد متعرّقة. ولكنّهم يقولون الآن غثيان، تقيّؤ، ضيق تنفّس».

- «نتحدّث عن غثيان بشريّ. ليس عند الجرذان».

- «ليس عند الجرذان».

أعدت إليه المنظار.

- «لن يتجه إلينا».

- «كيف تعرف هذا؟»

- «أعرف وكفى. الجو هادئ وساكن كلّيًّا اليوم. وحين تكون هناك رياح في هذا الوقت من السنة، فإنّها تهبّ في ذلك الاتّجاه، وليس إلى هنا».

- «وماذا لو هبّت في اتجاهنا؟»

- «لن تهبّ».

- «ستهبّ هذه المرّة فقط».

- «لن تهبّ. لمَ ينبغي عليها هذا؟»

صمت قليلًا ثمّ قال بنبرة خفيضة: «أغلقوا للتو جزءًا من الحدود بين الولايتين».

- «سيفعلون هذا طبعًا».

- «لماذا؟»

- «سيفعلون وكفى. إجراء وقائيّ مطلوب. وسيلة لتسهيل حركة آليّات الخدمة وما شابه، أي عدد من الأسباب التي لا علاقة لها بالرياح أو باتّجاه الرياح».

برز رأس بابيت عند أوّل الدرج. قالت إنّ أحد الجيران أخبرها أنّ ما اندلق من الصهريج كان خمسةً وثلاثين ألف غالون، وقد أُعلم الناس بوجوب الابتعاد عن المنطقة. ريشة كثّة تخيّم على المدينة. كما قالت إنّ الفتاتين تشكوان من راحة يد متعرّقة.

قال هاينرش: «هناك تصحيح. أخبريهما أنّ المفروض أنّهما كانتا تتقيّآن الآن».

حلّقت حوّامة فوقنا، باتّجاه موقع الحادث. قال الصوت في الراديو: «متوفّر لفترة محدودة فقط مع قرص صلب بسعة 1 ميغابايت».

غاب رأس بابيت عن النظر. راقبت هاينرش يحدّد نقطتين على الخريطة. ثمّ نزلت إلى المطبخ لدفع عدّة فواتير، منتبهًا إلى البقع الملوّنة المتراقصة في زاوية ما على يميني وورائي.

قالت ستيفي: «هل بإمكاننا رؤية الريشة الكثّة من نافذة العلّيّة؟»

- «ليست ريشة».

- «ولكن هل سنضطرّ لمغادرة منازلنا؟»

- «لا بالطبع».

- «كيف تعرف؟»

- «أعرف وكفى».

- «تتذكر كيف لم نتمكّن من الذهاب إلى المدرسة؟»

- «كان ذلك في الداخل. هذا في الخارج».

سمعنا صفّارات سيّارات الشرطة. راقبتُ شفتيّ ستيفي تشكّل التسلسل: وو وو وو وو. ابتسمتْ حينما رأتني أراقبها بطريقة محدّدة، كما لو أنّها أجفلتْ من لذّة ذاهلة.

دخلت دينيز، وهي تفرك يديها ببنطالها الجينز.

قالت: «إنّهم يستخدمون نافثات الثلج لينفثوا مادّةً على الشيء الذي اندلق».

- «ما نوع المادّة؟»

- «لا أعرف ولكن من المفترض أنّها تبطل مفعول ذلك الشيء، ولكن هذا لا يفسّر ما الذي يفعلونه بشأن الريشة الفعليّة».

قلت: «يوقفون تضخّمها أكثر. متى سنأكل؟»

- «لا أعرف ولكن لو تضخّمتْ ستصل إلى هنا برياح أو بلا رياح».

- «لن تصل إلى هنا».

- «كيف تعرف هذا؟»

- «لأنّها لن تصل».

نظرتْ إلى راحتيها واتّجهت إلى الطابق العلويّ. رنّ الهاتف. دخلت بابيت إلى المطبخ ورفعت السمّاعة، نظرت إليّ وهي تنصت. كتبتُ شيكين، وأنا أنظر بين لحظة وأخرى لأرى ما إذا كانت لا تزال تنظر إليّ. بدت وكأنّها تتفحّص وجهي بحثًا عن المعنى الخفيّ للرسالة

التي كانت تتلقّاها. قعّرت شفتيّ بطريقة أعرف أنّها لا تحبّها.

قالت: «كانوا آل ستوڤر. تحدّثوا مباشرة مع مركز الأرصاد خارج غلاسبورو. لم يعد يُطلق عليها اسم الريشة الكثّة من الآن فصاعدًا».

– «ما الذي يدعونها؟»

– «سحابة متموّجة سوداء».

– «هذا أدقّ بقليل، ما يعني أنّهم يسيطرون على هذا الشيء. جيّد».

قالت: «هناك المزيد. يُتوقَّع أنّ ثمّة نوعًا من الكتلة الهوائية قد تتحرّك نزولًا من كندا».

– «هناك دومًا كتلة هوائية تتحرّك نزولًا من كندا».

– «هذا صحيح. بالتأكيد ليس ثمّة ما هو جديد في هذا. وبما أنّ كندا في الشمال، لو تحرّكت السحابة المتموّجة إلى الجنوب، ستكون بعيدة عنّا بهامش مريح».

قلت: «متى سنأكل؟»

سمعنا الصفّارات مجدّدًا، مجموعة مختلفة هذه المرّة، صوت أكبر – ليس الشرطة، أو الإطفاء، أو الإسعاف. كانت صفّارات إنذار من القصف الجويّ، كما أدركت، وبدت بأنها انطلقت في سوايرڤيل، وهي بلدة صغيرة في الشمال الشرقيّ.

غسلت ستيفي يديها في مغسلة المطبخ وصعدت إلى الأعلى. بدأت بابيت تُخرج الأغراض من الثلاجة. أمسكتها من داخل فخذها حينما عبرت الطاولة. ابتسمتْ بلذّة، وكانت علبة ذرة مجمّدة في يدها.

قالت: «ربّما يجدر بنا أن نكون قلقين أكثر بشأن السحابة المتموّجة. بسبب الأطفال نواصل القول إنّ شيئًا لن يحدث. لا نريد إخافتهم».

– «لن يحدث شيء».

- «أعلم أنّ شيئًا لن يحدث، أنت تعلم أنّ شيئًا لن يحدث. ولكن في لحظة ما علينا أن نفكّر بالأمر على أيّ حال، للاحتياط فقط».

- «تحدث هذه الأمور للناس الفقراء الذين يسكنون في مناطق مكشوفة. المجتمع مصمَّمٌ بطريقة تجعل الفقراء وغير المتعلّمين هم من يعانون من الأثر الأكبر للكوارث الطبيعيّة والبشريّة. الناس في المناطق المنخفضة يكون نصيبهم الفيضانات، الناس في الأكواخ نصيبهم الأعاصير والزوابع. أنا أستاذ جامعيّ. هل سبق أن رأيتِ أستاذًا جامعيًّا يجذّف قاربًا في شارعه في أحد طوفانات التلفزيون؟ نعيش في بلدة جميلة ومحترمة قرب كلّيّة ذات اسم مرموق. لا تحدث هذه الأمور في أماكن مثل بلاكسمث».

كانت تجلس في حضني الآن. الشيكات، والفواتير، واستمارات المسابقات، والكوبونات كانت مبعثرة على طول الطاولة.

قالت بهمس مثير: «لم تريد تناول العشاء باكرًا جدًّا؟»

- «فاتني الغداء».

- «هل أعدّ بعض الدجاج المقليّ الحارّ؟»

- «ممتاز».

- «أين وايلدر؟» قالت بصوت لاهث، حين مددت يدي إلى نهديها، محاولًا فكّ قفل حمّالة الصدر بأسناني عبر البلوزة.

- «لا أعرف. ربّما سرقه مري».

- «كويتُ رداءك».

- «عظيم، عظيم».

- «هل دفعت فاتورة الهاتف؟»

- «عجزت عن إيجادها».

كان كلانا يلهث الآن. مرّرت ذراعيها عبر ذراعيّ بطريقة أصبحتُ

عبرها قادرًا على قراءة اقتراحات التقديم على علبة الذرة في يدها اليسرى.

- «فلنفكّر بالسحابة المتموّجة. قليلًا فقط، أوكي؟ قد تكون خطيرة».

- «كلّ شيء في الصهاريج خطير. ولكنّ الآثار بعيدة المدى بدرجة كبيرة وكلّ ما علينا فعله هو الابتعاد عن طريقها».

- «فلنتأكّد فقط من إبقاء هذا في ذهننا». قالت، ونهضت لتضرب صينيّة قوالب ثلج عدّة مرّات على حافّة المغسلة، مفرّقة المكعّبات في مجموعات من اثنين وثلاثة.

زممتُ شفتيّ نحوها. ثمّ صعدت إلى العلّيّة مرّة أخرى. كان وايلدر في الأعلى مع هاينرش الذي رمقني بنظرة سريعة كانت تحمل اتّهامًا جاهزًا سلفًا.

- «ما عادوا يطلقون عليها اسم الريشة الكثّة بعد الآن». قال، دون أن تتلاقى نظراتنا، كما لو أنّه يوفّر على نفسه ألم إحراجي.

- «علمت هذا».

- «إنّهم يدعونها السحابة المتموّجة السوداء».

- «جيّد».

- «ولم هذا جيّد؟»

- «هذا يعني أنّهم يدرسون هذا الشيء بتمعّن. هم يسيطرون على الوضع».

وبحركة حازمة سئمة، فتحت النافذة، أخذت المنظار وتسلّقت الإفريز. كنت أرتدي كنزة صوفيّة سميكة وشعرت براحة كافية في هذا الهواء البارد ولكن بعد أن تأكّدت من إبقاء وزني مائلًا باتجاه المبنى، ويدا ابني ممدودة تقبض على حزامي. أحسست بدعمه في مهمّتي

الصغيرة، بل اقتناعه الآمل بأنّني قد أكون قادرًا على إضافة القيمة المتوازنة لحكم ناضج ومتروٍّ إلى ملاحظاته المحضة. هذا واجب الأب في نهاية المطاف.

وضعت المنظار على وجهي وحدّقت عبر الظلام المتجمّع. تحت سحابة الموادّ الكيميائيّة المتصاعدة، كان المشهد فوضى عاجلة وأوبراليّة. الأضواء الكاشفة تتحرّك في أرجاء فناء محطّة القطار - هيلوكوبترات الجيش تحوم في نقاط عديدة، مسلّطة أضواء إضافيّة على المشهد. الأضواء الملوّنة المنبعثة من سيّارات الشرطة تتقاطع مع أعمدة المصابيح تلك. الصهريج يربض بسكون على السكّة، والدخان يتصاعد من ما بدت فجوة في نهايته. وبدا واضحًا أنّ جهاز الربط في عربة أخرى قد ثقب الصهريج. سيّارات الإطفاء منتشرة على مسافة، وسيّارات الإسعاف وحافلات الشرطة على مسافة أبعد. كنت قادرًا على سماع السرينات، الأصوات الصادحة عبر مكبّرات الصوت اليدويّة، طبقة من أمواج الراديو الستاتيكيّة تتسبّب بتشويش في الهواء الصقيعيّ. رجال يهرعون من سيّارة إلى أخرى، يخرجون معدّات، ويحملون نقّالات إسعافيّة يدويّة فارغة. ورجال آخرون ببزّات شركة مايلكس الصفراء البرّاقة وأقنعة واقية يتحرّكون ببطء عبر الضباب المتوهّج، حاملين أدوات قياس مدى الضرر. نافثات الثلج تطلق مادّة ورديّة باتّجاه الصهريج وما يحيط به. تقوَّسَ هذا الضباب الكثيف في السماء مثل مزيج هائل في حفلة موسيقا وطنيّة. كانت نافثات الثلج من النوع الذي يُستخدَم في مدرج المطار، وحافلات الشرطة من النوع الذي ينقل إصابات حوادث الشغب. انتقل الدخان من أعمدة ضوء حمراء إلى الظلمة ثمّ عاد ليولّد طوفانات بيضاء مذهلة. كان الرجال ببزّات مايلكس يتحرّكون بحذرٍ كما لو أنّهم على القمر. كانت كلّ خطوة تجسيدًا لقلقٍ تنوء بحمله الغريزة وحدها. لم تكن النيران والانفجار مصدرا الخطر الكامن هنا. فهذا الموت سيخترق، سيتسلّل إلى الجينات، ليُظهر نفسه

في الأجساد التي لم تولد بعد. كانوا يتحرّكون كما لو أنّهم يطأون بقعةً من رمال القمر متعثّرين مرتعشين. كما لو أنّهم عالقون في فكرة طبيعة الزمن.

حبوت عائدًا إلى الداخل بشيء من الصعوبة.

قال: «ما رأيك؟»

- «لا تزال موجودة هناك. تبدو متجذّرة في المكان».

- «إذًا أنت تقول إنّك لا تظنّ أنّها ستأتي بهذا الاتّجاه».

- «بإمكاني التمييز من صوتك أنّك تعرف شيئًا لا أعرفه».

- «هل تظنّ أنّها ستأتي بهذا الاتّجاه أم لا؟»

- «تريد منّي أن أقول إنّها لن تأتي بهذا الاتّجاه ولو بعد مليون سنة. ثمّ ستهاجمني بحفنة المعلومات التي تمتلكها. هيّا، أخبرني بما قالوه على الراديو حين كنت معلّقًا هناك».

- «إنّها لا تسبّب الغثيان، والتقيؤ، وضيق التنفّس كما قالوا من قبل».

- «ما الذي تسبّبه؟»

- «خفقان سريع في القلب وإحساس ديجا ڤو».

- «ديجا ڤو؟»

- «إنّها تؤثّر على القسم الزائف من الذاكرة البشريّة، أو شيء من هذا القبيل. ليس هذا كلّ شيء. لم يعد اسمها السحابة المتموّجة السوداء من الآن فصاعدًا».

- «ما الذي يدعونها؟»

نظر إليّ بحذر.

- «الحدث السامّ الهوائيّ».

نطق هذه الكلمات بطريقة مقطّعة متوجّسة، مقطعًا إثر آخر، كما لو

أنّه أحسّ بالخطر بفعل المصطلحات التي سكّتها الحكومة. تابع مراقبتي بحذر، باحثًا في وجهي عن تطمين ما في مواجهة احتمال وجود خطر فعليّ - تطمين سيرفضه مباشرة بوصفه خداعًا. وهي حيلته المفضّلة.

- «هذه الأمور ليست مهمّة. الأمر المهمّ هو المكان. إنّها هناك، ونحن هنا».

قال مباشرة: «كتلة هوائية ضخمة تتحرّك نزولًا من كندا».

- «أعلم هذا مسبقًا».

- «هذا لا يعني أنّ الأمر ليس مهمًّا».

- «ربّما يكون، وربّما لا يكون. هذا يعتمد».

- «الطقس على وشك التغيّر». صاح فعليًّا بي بصوت مشحونٍ بالنبض الحزين لوقته الخاصّ في هذه الحياة.

- «أنا لست مجرّد أستاذ جامعيّ. أنا رئيس قسم. لا أرى نفسي هاربًا من حدث سامّ هوائيّ. هذا يليق بالناس الذين يعيشون في بيوت متنقّلة في الأجزاء الحقيرة من المقاطعة، حيث تكون مفارخ السمك».

راقبنا وايلدر ينزل درجات العلّيّة مديرًا جسده، وقد كانت أعلى من جميع الدرجات في البيت. على العشاء كانت دينيز تنهض دومًا وتندفع بخطوات سريعة واثبة إلى المرحاض في البهو، ويدها تغطّي فمها. نصمت لحظات غريبة بينما كنا نمضغ أو نرشّ الملح لنسمعها تحاول التقيّؤ عبثًا. كانت فترة من النظرات والتحديقات، تفاعلات محتشدة، جزءًا من الشعاع البصريّ الذي يبهجني عادة. الحرارة، والضوضاء، والأضـواء، والنظرات، والكلمات، والإيماءات، والشخصيّات، والتطبيقات. كثافة دارجة تجعل من الحياة العائليّة الوسيلة الوحيدة للمعلومات الحسّيّة حيث تكون دهشة القلب محتواة على الدوام.

راقبت الفتاتين تتواصلان بنظرات مستترة.

قالت دينيز: «ألا نأكل مبكّرين قليلًا اليوم؟»

قالت أمّها: «حدّدي معنى كلمة مبكّرين»

نظرت دينيز إلى ستيفي.

قالت: «هل هذا لأنّنا ننوي الابتعاد؟»

- «لمَ نريد الابتعاد؟»

قالت ستيفي: «في حال حدث أمر».

قالت بابيت: «ما الذي يمكن أن يحدث؟»

تبادلت الفتاتان النظرات مجدّدًا، تبادل صامت توّاق يدلّ على وجود شكّ مظلم تمّ تأكيده. انطلقت صفّارات الإنذار الجويّة مرّة أخرى، ولكن كانت شديدة القرب منّا هذه المرّة بحيث تأثّرنا سلبيًّا، وهزّتنا إلى درجة تجنّب فيها كلّ منا ارتظام نظرته بنظرات الآخرين كوسيلة لإنكار أنّ ثمّة أمرًا غير اعتياديّ يحدث. انطلق الصوت من مركز الإطفاء الأحمر القرميديّ في شارعنا، صفّارات لم تُجرَّب من قبل طوال عقد كامل أو أكثر. تسبّبتْ بصخب مثل صراخ قبائليّ من العصر الوسيط. ببغاء لاحم جناحاه بامتداد جناحَيْ طائرة من نوع DC-9. يا لخشونة العدوان الوحشيّ الذي ملأ المنزل، فجعله يبدو كما لو أنّ الجدران ستتطاير. شديد القرب منّا. شديد التأكيد بأنّه مصوَّب نحونا. من المذهل التفكير بأنّ هذا الوحش الصوتيّ كان رابضًا بالقرب منّا طوال سنوات.

تابعنا الأكل، بهدوء وصمت، مقلّلين حجم قضماتنا، طالبين بتهذيب تمرير الأشياء على الطاولة. بتنا مهذّبين ومفرطي العناية بالتفاصيل، قلّصنا مجال حركاتنا، مسحنا الزبدة على الخبز كما يفعل فنيّو ترميم اللوحات الجداريّة. ومع ذلك تواصل الزعيق المرعب. واصلنا تجنّب تلاقي النظرات، محاذرين قرقعة أدوات الطعام. أظنّ أنّنا غُمرنا بأقصى درجة من الأمل الساذج بأنّنا بهذه الطريقة سنغدو خارج إطار الوجود. بدا وكأنّ صفّارات الإنذار أنذرت بحضور آليّة

تحكّم بعينها - أمر سنفعل حسنًا إن لم ننشره بجدالاتنا وطعامنا المسكوب.

وما إن تناهت إلينا ضوضاء أخرى تسلّلت إلى أسماعنا من بين زعيق صفّارات الإنذار القويّة حتّى اندفعنا إلى تأكيد توقّفنا عن لحظاتنا الصغيرة من الهستيريا المهذّبة. هرع هاينرش إلى الباب الأماميّ وفتحه. انسلّت أصوات الليل المتداخلة طازجةً مباشرة. للمرّة الأولى منذ دقائق تبادلنا النظرات، موقنين أنّ الصخب الجديد صوت بشريّ مُضخَّم من دون أن نكون واثقين تمامًا ممّا يقول. عاد هاينرش، ماشيًا بخطوات محسوبة هادئة، كما لو أنّه يتسلّل خلسة. بدا معنى هذا أنّ ثمّة ما أخرسه.

قال دون أن ينظر إلينا: «يريدون منّا أن نخلي البيت».

قالت بابيت: «هل فهمت منهم أنّهم يطرحون اقتراحًا فحسب أم الأمر إلزاميّ قليلًا كما تظنّ؟»

- «كانت سيّارة ضابط في مركز الإطفاء مع مضخّم صوت، كانت السيّارة تنطلق بسرعة».

قلت: «بمعنى آخر لم تُتح لك الفرصة لتبيّن مقدار ارتفاع نبرة الصوت».

- «كان الصوت يصرخ».

قالت بابيت بشيء من الترجّي: «بسبب صفّارات الإنذار».

- «قال شيئًا مثل ´أخلوا أماكن الإقامة كلّها. سحابة من الموادّ الكيميائيّة القاتلة، سحابة من الموادّ الكيميائيّة القاتلة`».

كنّا جالسين نتناول الكعك الإسفنجيّ والدرّاق المعلّب.

ردّت بابيت: «أنا واثقة بأنّ ثمّة ما يكفي من الوقت، وإلا كانوا سيشدّدون في إخبارنا على وجوب التعجّل. أتساءل ما سرعة تحرّك الكتل الهوائيّة».

كانت ستيفي تقرأ كوبون بيبي لكس، وهي تبكي بهدوء. أعاد هذا المشهد دينيز إلى الحياة. هرعت إلى الطابق العلويّ لتوضيب بعض الأغراض لنا جميعًا. قفز هاينرش إلى العلّيّة درجتين درجتين إلى منظاره وخريطته والراديو. ذهبت بابيت إلى خزانة المؤن وبدأت تجمع العلب والمرطبانات ذات الماركات المعروفة.

ساعدتني ستيفي في إفراغ الطاولة.

بعد عشرين دقيقة صرنا في السيّارة. قال الصوت في الراديو إنّ على سكّان الجانب الغربيّ من البلدة التوجّه إلى مخيّم الكشّافة المهجور، حيث سيقدّم متطوّعو الصليب الأحمر العصير والقهوة. وعلى سكّان الجانب الشرقيّ أخذ طريق الحديقة العامّة إلى منطقة الخدمة الرابعة، حيث يتابعون إلى مطعم اسمه كونغ فو پالاس، وهو بناء بعدّة أجنحة فيه هياكل عبادة وبرك زنبق مائيّ، وغزلان حيّة.

كنّا ممّن وصلوا متأخّرين من أفراد الجماعة الأولى. ودخلنا في حركة المرور المتّجهة إلى الطريق الرئيسيّة المفضية إلى خارج البلدة، حيث تقاطع السكك الحديديّة ومتاجر السيّارات المستعملة، والأطعمة السريعة، وخصومات الأدوية، وصالات سينما صغيرة. وأثناء انتظار دورنا للوصول إلى الطريق ذات المسارب الأربعة سمعنا الصوت عبر مكبّر الصوت أمامنا وخلفنا يصيح بمنازل مظلمة في شارع تحفّه أشجار الجمّيز وأسوار شجيرات عالية.

«أخلوا جميع المنازل. الآن. الآن. حدث سامّ، سحابة موادّ كيميائيّة».

كان الصوت يعلو، ثمّ يبهت، ثمّ يعلو مجدّدًا مع تحرّك السيّارة من وإلى الشوارع الفرعيّة. حدث سامّ، سحابة موادّ كيميائيّة. وعندما بهتت الكلمات، بقي الإيقاع ذاته قابلًا للسمع، بتسلسل متواصل من بعيد. يبدو أنّ الخطر يفرض على الأصوات الرسميّة مسؤوليّة إيقاع محدّد

كما لو أنّ ثمّة تناغمًا بالوحدات القياسيّة يمكن لنا استخدامه لموازنة أيّ أحداث قاسية وسريعة على وشك الاندفاع حول رؤوسنا.

وصلنا إلى الطريق مع بدء هطول الثلج. لم يكن لدينا الكثير ممّا نقوله في ما بيننا، إذ لم تتكيّف أذهاننا بعد مع حقيقة الوضع، واقعة الإخلاء العبثيّة. كنّا نكتفي في الغالب بالنظر إلى الناس في السيّارات الأخرى، محاولين اكتشاف درجة الرعب التي ينبغي أن نكون عليها قياسًا بمعالم وجوههم. كانت حركة المرور أشبه بالحبو ولكنّنا اعتقدنا أنّ السرعة ستزداد بعد عدّة أميال آخر الطريق حيث يتلاشى حاجز منتصف الطريق ليُمكّن تدفّقنا باتّجاه الغرب من احتلال المسارب الأربعة. كان مسربا الجهة المعاكسة مقفرين تمامًا، ما يعني أنّ الشرطة كانت قد أوقفت حركة المرور بهذا الاتّجاه. إشارة مشجّعة. أشدّ ما يخشاه الناس مباشرة في لحظات التهجير هو أن يكون أصحاب المناصب في السلطة قد هربوا منذ وقت طويل، تاركين إيّانا لنتحمّل مسؤوليّة فوضانا.

تزايد سقوط الثلج، وتحرّكت السيّارات على نحو متقطّع. كانت هناك تصفيات في شركة أثاث منزليّ. رجال ونساء مفعمون بالحيويّة وقفوا عند الواجهة الضخمة ينظرون إلينا متسائلين. جعلنا هذا نبدو مثل الحمقى، مثل سيّاح يقترفون كلّ الأفعال الخاطئة. لمَ كانوا راضين بتسوّق الأثاث فيما كنّا نجلس هلعين في حركة مرور بطيئةٍ وسط عاصفةٍ ثلجيّة؟ كانوا يعرفون أمرًا لا نعرفه. في الأزمة تكون الوقائع الفعليّة هي ما يقول الناس الآخرون إنّها كذلك بالفعل. ليس ثمّة معرفة ضحلة أكثر من معرفتك.

كانت صفّارات الإنذار الجويّة لا تزال تزعق في بلدتين أو أكثر. ما الذي يمكن أن يعرفه هؤلاء المتسوّقون بحيث يبقون هناك فيما خطّ السلامة الواضح بهذه الدرجة أو تلك موجود أمامنا جميعًا؟ بدأت أقلّب محطّات الراديو. في محطّة غلاسبورو عرفنا أنّ ثمّة معلومة جديدة

ومهمّة. طُلب من الناس الذين لا يزالون داخل بيوتهم البقاء في الداخل. وتُرك لنا تخمين معنى هذا. هل كانت حركة المرور شديدة بحيث أغلقت الطرقات؟ هل كانت تثلج نيودين دي؟

واصلتُ ضغط أزرار الراديو، على أمل إيجاد شخص عنده معلومات جيّدة. بدأت امرأة عرّفوها بكونها محرّرة شؤون الاستهلاك نقاشًا عن المشكلات الطبيّة التي قد تنتج من جراء التعامل الشخصيّ مع الحدث السامّ الهوائيّ. تبادلت وبابيت نظرة قلقة. سارعتْ مباشرة بالتحدّث إلى الفتاتين فيما أخفضتُ الصوت بحيث أجنّبهم معرفة ما قد يتخيّلون مواجهته.

قال الصوت الخبير المرح: «اختلاجات، غيبوبة، إجهاض».

مررنا قرب موتيل بثلاثة طوابق. كانت جميع الغرف مضاءة، وجميع النوافذ تعجّ بأشخاص يحدّقون بنا. كنّا استعراضًا من الحمقى، معرّضين لا لآثار الانهمار الكيميائيّ فحسب، بل كذلك لأحكام الناس الآخرين الازدرائيّة. لمَ هم ليسوا هنا، يجلسون بمعاطفهم السميكة خلف مسّاحات الزجاج الأماميّ وسط ثلج صامت؟ بدا واجبًا الآن الإسراع بالوصول إلى مخيّم الكشّافة، والتدافع وصولًا إلى المبنى الرئيسيّ، إغلاق الأبواب، والجلوس على أسرّة المخيّم مع عصيرنا وقهوتنا، وانتظار انقشاع كلّ شيء.

بدأت السيّارات بالتحرّك في الحافّة المعشبة عند حافّة الطريق، مشكّلة رتلًا ثالثًا من الازدحام الخانق. ماشين في ما كان سابقًا المسرب الأيمن، لم يكن لدينا أيّ خيار سوى مشاهدة هذه السيّارات تعبرنا على نحو أسرع قليلًا بتلهّف متهوّر، مبتعدة عن باقي السيّارات.

اقتربنا ببطء من جسر، حيث رأينا الناس تمشي فوقنا. كانوا يحملون صناديق وحقائب، وأغراضًا ملفوفة ببطّانيّات، خطّ طويل من الناس المنحنين بمواجهة الثلج العاصف. أناس يحملون حيوانات

وأطفالًا صغارًا، مسنٌّ يلفّ بطّانيّة فوق بيجامته، امرأتان تحملان سجّادة ملفوفة على كتفيهما. أناس على درّاجات، أطفال يُجرّون على زلاجات وعربات. أناس بعربات سوبرماركت، أناس متسربلون بالثياب السميكة على أنواعها وينظرون من تحت قلنسواتهم. كانت ثمّة عائلة ملفوفة كلّيًّا بالبلاستيك، صحيفة واحدة ضخمة من البولي إيثيلين الشفّاف. كانوا يمشون تحت درعهم بخطوة موحّدة، الرجل والمرأة كلٌّ على طرف، وثلاثة أطفال بينهم، وجميعهم ملفوفون كذلك بمعاطف مطريّة برّاقة. بدا الأمر بأسره بمظهر هيِّء على نحو جيّد سلفًا مع مسحة من الرضا الذاتيّ، كما لو أنّ الناس كانوا ينتظرون لشهور كي يتبختروا بأغراضهم. واصل الناس تحرّكهم من وراء سور عالٍ بخطى منهكة على الجسر، أكتافهم غارقة في الثلج، مئات من الناس الذين يتحرّكون بنوع من العزم المحتوم. بدأت جولة أخرى من زعيق الصافرات. لم يتعجّل الناس الماشون بخطواتهم، ولم ينظروا باتّجاهنا أو إلى السماء الليليّة بحثًا عن أثر لسحابة حرّكتها الرياح. بل تابعوا تحرّكهم عبر الجسر قاطعين رقعًا من الضوء الذي يعصف بالثلج المنهمر في المدى المفتوح، مُبقين أطفالهم قربهم، حاملين كلّ ما استطاعوا حمْله، بدوْا جزءًا من مصير عتيق، يُنذر بدمار وخراب تاريخ بأسره من الناس الذين يخطون عبر بقاع مُضاعة. ثمّة مسحة ملحميّة بشأنهم جعلتني أتساءل للمرّة الأولى عن مدى محنتنا.

قال الراديو: «إنّ رمز قوس قزح هو الذي يمنح هذه البطاقة المصرفيّة هذا الخداع التسويقيّ».

تحرّكنا ببطء تحت الجسر، وسط مزيج من زمامير السيّارات والعويل الصارخ لسيّارة إسعاف عالقة في ازدحام المرور. على بعد خمسين ياردة أصبحت حركة المرور في خطّ واحد وسرعان ما عرفنا السبب. انزلقت إحدى السيّارات عند حافّة الطريق واصطدمت بسيّارة

في مسربنا. كانت الزمامير تتصاعد من كلّ مكان. هليكوبتر تحوم فوقنا، مسلّطة عمودًا من الضوء على كتلة المعادن الخربة. جلس أشخاص مذهولين على العشب مع اثنين من المسعفين الملتحين. كان الدم يغرق شخصين. وثمّة دم على النافذة المحطّمة. وتسرّب الدم في الثلج الذي سقط للتوّ. قطرات دم تبقّع حقيبة يد جلديّة. مشهد الناس المصابين، والإسعافات، والدخان المتصاعد من الحديد، مغسولًا بضوء قويّ مُبهر. اكتسب فصاحة فبركة رسميّة للوضع. عبرنا بصمت، نحسّ بتوقير غريب، بل مُثارين بمشهد السيّارات الملتحمة والناس المتساقطين.

واصل هاينرش المشاهدة عبر النافذة الخلفيّة، مستخدمًا منظاره بعد أن ابتعد المشهد عن النظر. كان يصفه لنا مفصِّلًا عدد ووضعيّة الأجساد، وآثار انزلاق السيّارة، والضرر اللاحق بالسيّارتين. وعندما اختفى مشهد الحادث تمامًا، بدأ يروي كلّ ما حدث منذ انطلاق صفّارات الإنذار الجويّة عند العشاء. كان يتحدّث بحماسة، مع إحساس بالتقدير لكلّ ما هو حيويّ وغير متوقّع. ظننت أنّنا نعاني جميعًا من الحالة العقليّة ذاتها، خاضعين، وقلقين، ومضطربين. لم يخطر لي أبدًا أنّ أحدًا منّا قد يجد في هذه الأمور مثل هذا التحفيز المتّقد للكلام. نظرت إليه عبر المرآة. كان يجلس بترهّل بجاكيته المموّه وعلامة ڤيلكرو على السحّاب، منحدرًا ببهجة في الكارثة. تحدّث عن الثلج، المرور، الناس الماشين بتثاقل. بدأ تخمين مقدار بعدنا عن المخيّم المهجور، ونوع الإقامة البدائيّة التي قد تكون متوافرة هناك. لم أسمعه من قبل منهمكًا في الكلام عن أمر بهذه المتعة الحماسيّة. كان ثملًا عمليًّا. لا بدّ أنّه علم بأنّنا قد نكون مقبلين على الموت. هل كان هذا نوعًا من جذل اقتراب نهاية العالم؟ هل كان يسعى إلى أن يلهي نفسه عن مآسيه الصغيرة في مثل هذا الحدث العنيف والطاغي؟ كان صوته يبدي تشهيًّا للأمور الرهيبة.

قالت ستيفي: «هل هذا شتاء لطيف أم شتاء قارس؟»

قالت دينيز: «مقارنة بماذا؟»

- «لا أعلم».

ظننت أنّني رأيت بابيت تضع شيئًا في فمها. أبعدت عيني لحظة عن الطريق وراقبتها بحرص. كانت تنظر إلى الأمام. تظاهرت بأنّني أعدت تركيزي على الطريق ولكنّني التفتّ بسرعة مرّة أخرى، ممسكًا بها وقد بدت كأنّها تبلع ذلك الشيء الذي وضعته في فمها.

قلت: «ما هذا؟»

- «قُد السيّارة يا جاك».

- «رأيت حنجرتك تتحرّك. لقد بلعتِ شيئًا».

- «مجرّد قطعة كراميل أتلهّى بها. قد السيّارة لو سمحت».

- «تضعين قطعة كراميل في فمك وتبتلعين من دون فترة امتصاص؟»

- «بلعت ماذا؟ لا تزال في فمي».

أدارت وجهها نحوي، مستخدمة لسانها لتشكّل انتفاخًا صغيرًا في خدّها. خدعة صبيانيّة واضحة.

- «ولكنّك ابتلعتِ شيئًا. رأيتك».

- «كان ذلك لعابًا لم أعرف ما أفعل به. قد السيّارة لو سمحت».

أحسست أنّ دينيز قد انتبهت لما يحدث فقرّرت عدم المضيّ في الأمر. لم يكن هذا الوقت الملائم لاستجواب أمّها بشأن تعاطي الأدوية، والآثار الجانبيّة، وما إلى ذلك. كان وايلدر نائمًا، منحنيًا على ذراع بابيت. كانت مسّاحات الزجاج الأماميّ ترسم أقواسًا زلقة. علمتُ من الراديو أنّ كلابًا مدرّبة على شمّ نيودن دي قد أُرسلت إلى المنطقة من مركز رصد كيميائيّ في جزء بعيد من نيومكسيكو.

قالت دينيز: «هل فكّروا أساسًا بما سيحدث للكلاب حين تقترب بما يكفي كي تشتمّ هذه المادّة؟»

قالت بابيت: «لن يحدث شيء للكلاب».

- «كيف تعرفين؟»

- «لأنّها تؤثّر على البشر والجرذان فقط».

- «لا أصدّقك».

- «اسألي جاك».

قلت: «اسألي هاينرش».

قال وهو يكذب بوضوح: «قد يكون هذا صحيحًا. يستخدمون الجرذان لاختبار أشياء يمكن للبشر التقاط تأثيرها، وهذا يعني أنّنا نصاب بالأمراض ذاتها، الجرذان والبشر، وكذلك، لن يستخدموا الكلاب لو كانوا يظنّون أنّها ستتأذّى».

- «لن تتأذّى؟»

- «الكلب من الثدييات».

قالت دينيز: «وكذلك الجرذ».

قالت بابيت: «الجرذ من الحيوانات الضارّة».

وقال هاينرش: «في الغالب الجرذ ما هو إلا أحد القوارض».

- «وهو حيوان ضارّ كذلك».

قالت ستيفي: «الصرصار حيوان ضارّ».

- «الصرصار حشرة. لو عددتِ الأرجل ستعرفين الفرق».

- «وهو حيوان ضارّ أيضًا».

وقالت دينيز: «هل يصاب الصرصار بالسرطان؟ لا. ولا بدّ أنّ هذا يعني أنّ الجرذ أقرب للإنسان منه للصرصار، حتّى لو كان كلاهما حيوانين ضارّين، بما أنّ احتماليّة إصابة الجرذ والإنسان بالسرطان موجودة على عكس الصرصار».

قال هاينرش: «بمعنى آخر، هي تقول إنّ الكائنَيْن اللذَين من الثديّيات يمتلكان سمات مشتركة أكثر من الكائنين اللذين ليسا سوى حيوانات ضارّة».

قالت بابيت: «هل تقصدون يا جماعة أنّ الجرذ ليس مجرّد حيوان ضارّ وأحد القوارض بل هو من الثديّيات أيضًا؟»

تحوّل الثلج إلى بَرَد، والبَرَد إلى مطر.

وصلنا إلى النقطة التي ينفتح فيها الحاجز الإسمنتيّ على قطعة أرض في المنتصف بطول عشرين ياردة، ليست أعلى من حجارة الرصيف. ولكن بدلًا من أن نجد شرطيًّا جوّالًا يوجّه المرور إلى مسربين إضافيّين، رأينا رجلًا ببزّة مايلكس يلوّح لنا للابتعاد عن الفتحة. وخلفه تمامًا كانت سيارة لوينباغو وسيّارة إزالة الثلج. كان الحطام الكبير المتناثر ينفث دخانًا صدئًا. وثمّة أدوات مائدة ملوّنة برّاقة تتناثر على مسافة أخرى. لم يكن ثمّة إشارة إلى وجود ضحايا أو دم جديد، ما دفعنا للاعتقاد أنّ وقتًا قد مضى منذ بدأت كاسحة الثلوج بالعمل، على الأرجح في لحظة كانت فيها الانتهازيّة إخفاقًا شديد الدفاعيّة نظرًا للوضع. يبدو أنّ الثلج المبهر جعل السائق يقتحم تلك الأرض المكشوفة دون أن يلاحظ وجود شيء ما على الجانب الآخر.

قالت ستيفي: «رأيت كلّ هذا من قبل».

قلت: «ما الذي تعنينه؟»

- «حدث هذا من قبل. الرجل بالبزّة الصفراء والقناع الواقي. الحطام الكبير الرابض في الثلج. كان المشهد مثل هذا بالضبط. كنّا جميعًا هنا في السيّارة. والمطر يحدث ثقوبًا صغيرة في الثلج. كلّ شيء».

كان هاينرش من أخبرني أنّ التعرّض للنفايات الكيميائيّة قد يسبّب للإنسان معايشة لحالة ديجا ڤو. لم تكن ستيفي موجودة حين قال هذا، ولكن ربّما كانت قد سمعت هذا من راديو المطبخ، حيث علمت هي

ودينيز بشأن تعرّق راحة اليد والتقيؤ قبل أن يعايشا هذه الأعراض بنفسيهما. لم أكن أظنّ أنّ ستيفي تعلم ما تعنيه ديجا ڤو، ولكن من الممكن أنّ بابيت أخبرتها بشأنها. ولكن ديجا ڤو، على أيّ حال، لم يعد عرضًا فعليًّا لتسمّم النيودين. إذ استُبدل بالغيبوبة، والاختلاجات، والإجهاض. لو كانت ستيفي قد عرفت بشأن ديجا ڤو من الراديو ولكن فاتها التحديث اللاحق بشأن الأعراض الأشدّ فتكًا، قد يعني هذا أنّها كانت في وضع يمكن فيه لجسدها أن يخدعها بأعراض زائفة. هي ودينيز كانتا متأخّرتين طوال المساء. تأخّرتا في تعرّق راحة اليد، تأخّرتا في الغثيان، تأخّرتا مجدّدًا في ديجا ڤو. ماذا يعني كلّ هذا؟ هل كانت ستيفي تتخيّل حقًّا أنّها رأت الحطام من قبل أم أنّها تتخيّل أنّها تخيّلت ذلك؟ هل من الممكن امتلاك إدراك زائف حيال وهم؟ هل هناك ديجا ڤو حقيقيّة وأخرى زائفة؟ تساءلت ما إذا كانت راحتا يديها متعرّقتين أو ما إذا كانت قد تخيّلت إحساسًا بالبلل فقط. وهل كانت شديدة القابليّة للإيحاء أنّها ستتقدّم في تطوّر الأعراض كما أعلنوا عنها؟

أشعر بالحزن حيال الناس والجزء الغرائبيّ الذي نلعبه في كوارثنا.

ولكن ماذا لو أنّها لم تسمع الراديو، ولم تكن تعرف معنى ديجا ڤو؟ ماذا لو كانت تعاني أعراضًا حقيقيّة لأسباب طبيعيّة؟ ربّما كان العلماء محقّين بداية، في إعلانهم الأول، قبل أن يعدّلوه لاحقًا. أيّهما أسوأ، الوضع الحقيقيّ أم الوضع الذي تختلقه الذات، وهل هذا مهمّ؟ طرحت هذه الأسئلة وأخرى غيرها. ومع مواصلتي القيادة وجدت نفسي أجري اختبارًا شفهيًّا مستندًا إلى مراوغات النقاط الدقيقة التي قامت بتسلية المتبطّلين القروسطيّين قرونًا عديدة. هل يمكن لطفلة في التاسعة أن تعاني من إجهاض بفعل قوّة الإيحاء؟ ألا ينبغي أن تكون حاملاً أوّلًا؟ هل يمكن أن تكون قوّة الإيحاء شديدة إلى درجة عملها ارتجاعيًّا في هذه الحالة، من الإجهاض إلى الحمل إلى الطمث إلى الإباضة؟ هل

نتحدّث عن مجرّد أعراض أم شروط شديدة الرسوخ؟ هل العَرَض علامة أم شيء؟ ما هو الشيء وكيف نعرف أنّه ليس شيئًا آخر؟

أطفأت الراديو لا لأساعد نفسي على التفكير بل لكبح جماح تفكيري. كانت السيّارات تترنّح وتنزلق. رمى أحدهم قطعة علك من نافذة جانبيّة وبدأت بابيت تلقي خطابًا عن الناس الطائشين الذين يوسّخون الطرق الرئيسيّة والريف.

قال هاينرش: «سأخبرك أمرًا آخر حدث من قبل، سينفد منّا البنزين».

كان المؤشّر عند خرف E.

قالت بابيت: «هناك بنزين إضافيّ دائمًا».

- «كيف يمكن أن يكون هناك بنزين إضافيّ دائمًا؟»

- «صُمّمت المركبة بهذه الطريقة. بحيث لا تنفد من البنزين».

- «لا يمكن أن يكون هناك بنزين إضافيّ دائمًا. لو واصلت السير، سينفد منك».

- «لن تواصل السير إلى الأبد».

قال: «وكيف تعرفين متى سنتوقّف؟»

أجبتُ: «عندما تمرّ بمحطّة بنزين». وها هي ذي، مركز تسوّق مهجور مغسول بالمطر مع مضخّات بنزين تقف بغرور تحت مجموعة من الأعلام متنوّعة الألوان. قدت السيّارة إلى الداخل، وخرجت منها، واتّجهت إلى المضخّات دافنًا رأسي تحت ياقة معطفي المرفوعة. لم تكن مقفلة، ما يعني أنّ أصحابها غادروا فجأة، تاركين الأشياء بعجلة على حالها، مثل الأدوات وخزفيّات من حضارة هنود البويبلو، والخبز داخل الفرن، والطاولة المجهّزة لثلاثة أشخاص، لغز سيشغل الأجيال. وضعت الخرطوم على المضخّة المفتوحة. رفرفت الأعلام في الرياح.

بعد دقائق قليلة، بعد عودتنا إلى الطريق، رأينا ضوءًا مبهرًا شديدًا ظهر

في السماء أمامنا وإلى يسارنا، مرغمًا إيّانا على الانكماش في مقاعدنا، وإمالة رؤوسنا كي نرى على نحو أفضل، وتبادل التعجّب في ما بيننا بعبارات نصف كاملة. كانت السحابة المتموّجة السوداء، الحدث السامّ الهوائيّ، وقد أضاءتها أشعة النور التي سلّطتها سبع حوّامات عسكريّة. كانت تتعقّب حركتها في الرياح، وإبقاءها ضمن مجال الرؤية. في كلّ سيّارة، تحرّكت الرؤوس، أطلق السائقون زماميرهم لتنبيه الآخرين، برزت الوجوه عند النوافذ، وتطايرت العبارات بنبرة دهشة طاغية.

كانت الكتلة الهائلة الداكنة تتحرّك مثل سفينة موت في أسطورة نورسيّة تمخر الليل بكائنات مدرّعة ذات أجنحة لولبيّة. لم نكن واثقين كيف يمكن أن نتصرّف. كنّا نشاهد أمرًا رهيبًا، شديد القرب، شديد الانخفاض، محمَّلًا بالكلورايد، والبنزينات، والفينيلات، والهايدروكربونات، أو أيًّا يكن محتواه الكيميائيّ الدقيق. ولكنّه كان آسرًا أيضًا، جزءًا من عظمة حدث جارف، مثل المشهد الرائع في فناء محطّة القطار أو الناس الماشين بثقل على الجسر المليء بالثلج مع الأطفال، والطعام، والممتلكات، جيش تراجيديّ من المهجَّرين. كان خوفنا مترافقًا مع إحساس بالرهبة المترافقة مع ما هو دينيّ. من الممكن طبعًا أن تغمرك الرهبة بفعل الأمر الذي يهدّد حياتك، أن تراه قوّة كونيّة، أكبر بكثير منك، أقوى، خلّفته الإيقاعات الجوهريّة المتصلّبة. كان هذا موتًا مصنّفًا في المخبر، محدَّدًا أو مقاسًا. ولكنّنا نظرنا إليه آنذاك على نحو بسيط وبدائيّ، مثل انحراف فصليّ في الأرض كطوفان أو إعصار، أمر عصيٍّ على التحكّم. ولم يبدُ عجزنا متوافقًا مع فكرة الحدث الذي صنعه البشر.

في المقعد الخلفيّ تقاتل الأطفال على حيازة المنظار.

كان الأمر بأسره مذهلًا. كانوا يسلّطون الضوء على السحابة لنا كما لو كانت جزءًا من عرض صوتيّ ضوئيّ، مثل ضباب يريح المزاج يطوف

عبر معركة مشرّفة قُتل فيها ملك. ولكن ما نشهده الآن ليس تاريخًا. كان أمرًا خفيًّا متقرّحًا، شعورًا حُلميًّا يرافق الحالم حتّى بعد أن يستفيق. وهج ينبض من الحوّامات، دفقات كريميّة من الضوء الأحمر والأبيض. شغّل السائقون زماميرهم واحتشد الأطفال عند جميع النوافذ، التوَت الوجوه، ضغطت الأكفّ الورديّة على الزجاج. انعطفت الطريق بعيدًا عن السحابة السامّة وتحرّك المرور بحرّيّة لفترة. عند تقاطع قرب مخيّم الكشّافة، دخلت حافلتان مدرسيّتان حركة المرور الأساسيّة، وكلتاهما تحمل مجانين بلاكسمث. ميّزنا السائقَيْن، ولمحنا وجوهًا مألوفة من النوافذ، أناس كنّا نراهم عادة جالسين على كراسٍ قماشيّة خلف أسوار المصحّ العالية أو يتمشّون في دوائر تضيق تدريجًا، بسرعة تتزايد مثل كتلة دوّارة في جهات متاهة حلزونيّة، أحسسنا بعاطفة غريبة تجاههم وبإحساس بالراحة إذ تمّ الاعتناء بهم على نحو لطيف واحترافيّ. بدا أنّ هذا يعني أنّ البنية لم تُمسّ.

مررنا بلافتة للحظيرة الأكثر تصويرًا في أميركا.

استغرق المرور البطيء ساعة ليعبر الدرب المؤدّية إلى المخيّم. لوّح رجال يرتدون بزّات مايلكس ويحملون مصابيح يدويّة، بجانب أبراج لافتات عالية، تقودنا باتّجاه موقف السيّارات وإلى الحقول الرياضيّة وإلى أماكن مفتوحة أخرى. خرج الناس من الغابة، يضع بعضهم مصابيح على الرأس، ويحمل بعضهم أكياس تسوّق، وأطفالًا، وحيوانات. خضنا في دروب قذرة، فوق حفر وأخاديد. قرب المباني الرئيسة رأينا جماعة من الرجال والنساء يحملون ألواحًا مشبكيّة ولاسلكيّات، مسؤولون لا يرتدون بزّات مايلكس، خبراء في علم الإخلاء الجديد. انضمّت ستيفي إلى وايلدر في نومه العميق. توقّف المطر. أطفأ الناس مصابيح سيّاراتهم، وجلسوا قلقين. الرحلة الغريبة الطويلة قد انتهت. انتظرنا بلوغ إحساس بالرضا، شعورًا ما يقارب الإنجاز الهادئ، الإرهاق المُستحَقّ الذي يعد

بنوم عميق هادئ. ولكنّ الناس قبعوا في سيّاراتهم المظلمة يحدّق كلّ منهم بالآخر عبر النوافذ المغلقة. أكل هاينرش قطعة حلوى. أنصتنا إلى صوت أسنانه تلتصق بالكراميل وكتلة الغلوكوز. وأخيرًا خرجت عائلة من سيّارتهم الداتسون ماكسيما. كانوا يرتدون سُتَر نجاة ويحملون مصابيح.

تجمّعت حشود صغيرة حول رجال بعينهم. هم كانوا مصادر المعلومات والشائعات. أحدهم يعمل في معمل كيميائيّ، وآخر سمع شائعة، وثالث قريب من موظّف في وكالة حكوميّة. أخبار صحيحة وكاذبة ومن أنواع شتّى انتشرت في أرجاء المهجع من التجمّعات الكثيفة.

قيل إنّهم سيسمحون لنا بالعودة إلى منازلنا في الصباح الباكر؛ إنّ الحكومة منخرطة في عمليّة تغطية على المسألة؛ إنّ حوّامة دخلت السحابة السامّة واختفت؛ إنّ الكلاب قد وصلت من نيومكسيكو، وستقفز بباراشوتات وتهبط إلى مرج في عمليّة إنزال ليليّة جريئة؛ إنّ بلدة فارنغتن ستبقى غير صالحة للسكْن أربعين عامًا.

بقيت الملاحظات في حالة من التردّد الدائم. لكن ثمّة شيئًا أكثر أو أقلّ قابليّة للتصديق من أيّ شيء آخر. ومع تعاظم صدمة الناس بالواقع، تحرّرنا من الحاجة إلى التمييز.

فضّلت بعض العائلات النوم في سيّاراتهم، وأُرغم الآخرون على فعل هذا بسبب عدم توفّر مكان لهم في المباني السبعة أو الثمانية هناك. كنّا في ثكنة ضخمة، إحدى ثلاثة مبانٍ مماثلة في المخيّم، ومع اشتغال المولّد الكهربائي الآن شعرنا بشيء من الارتياح. زوّدنا الصليب الأحمر بأسرّة نقّالة، وسخّانات، وسندويشات وقهوة. كانت هناك مصابيح كيروسين لتدعيم الإضاءة الموجودة. كان لدى كثير من الناس راديوهات، وطعام إضافيّ يتشاطرونه مع آخرين، وبطّانيّات، وكراسٍ شاطئيّة، وملابس إضافيّة. كان المكان مكتظًّا، ولا يزال باردًا، ولكن

رؤية الممرّضات والمتطوّعين جعلتنا نحسّ بأنّ الأطفال بأمان، كما أنّ حضور الأرواح المقطوعة، نساء شابّات مع رضّع، مسنّين وعاجزين، منحنا صلابة وإرادة قويّين، شعورًا بالإيثار كان واضحًا بما يكفي ليعمل كهويّة جماعيّة. هذه المنطقة الكئيبة الضخمة، التي كانت مظلمة جرداء خارج التاريخ قبل عدّة ساعات فقط، باتت مكانًا متّفقًا عليه على نحو غريب، مليئًا بالتوق للتواصل والكلام.

تنقّل الساعون إلى الأخبار من تجمّع إلى آخر، مفضّلين البقاء أكثر في التجمّعات الأكبر. بهذه الطريقة تنقّلت ببطء بين الثكنات. ثمّة تسعة مراكز إخلاء، كما علمت، بما فيها هذا المكان وكونغ فو پالاس. لم يتمّ إخلاء آيرن سيتي؛ وكذا الأمر بالنسبة إلى معظم البلدات الأخرى في المنطقة. قيل إنّ الحاكم كان في طريقه إلى الكاپيتول في حوّامة حكوميّة. ربّما ستحطّ في حقل فاصولياء خارج بلدة مهجورة، بحيث يخرج الحاكم، مبتسمًا وواثقًا، بجاكيت مبطّن، ضمن مجال عدسات الكاميرا، لعشر ثوان أو خمس عشرة، كدليل على خلوده.

يا لمفاجأتي حين شققت طريقي بين الناس في الحلقات الخارجيّة من أحد أكبر التجمّعات لأكتشف أنّ ابني كان محور الاهتمام، يتحدّث بصوته الذي وجده أخيرًا، بنبرة الحماسة للركون إلى الكارثة بهدف الهروب. كان يتحدّث عن الحدث السامّ الهوائيّ بطريقة عمليّة، مع أنّ صوته كان يضجّ بالكشف النبوئيّ. كان يلفظ الاسم ذاته، مشتقّ النيودين، بتلذّذ واضح، شاعرًا ببهجة عالية لمجرّد سماع صوته. أنصت الناس باهتمام لهذا الصبيّ المراهق بجاكيته وقبّعته المموّهين، والمنظار يحيط بعنقه وكاميرا إنستاماتيك مشدودة على خصره. لا ريب أنّ مستمعيه قد تأثّروا بعمره. فهو سيكون صادقًا وحريصًا، إذ لا مصلحة شخصيّة له؛ سيمتلك إدراكًا للبيئة؛ ستكون معلوماته الكيميائيّة طازجة وحديثة.

سمعته يقول: «المادّة التي رشّوها على الاندلاق الكبير في فناء

محطّة القطار هي بودرة الصودا على الأغلب. ولكن كان هذا الإجراء قد تأخّر. تخميني أنّهم سيرسلون طائرات رشّ المحاصيل منذ الفجر ليرشّوا السحابة السامّة بكمّيات أكبر من بودرة الصودا، ما سيؤدّي إلى تفكيكها وتشظّيها إلى مليون نفثة غير مؤذية. بودرة الصودا هي الاسم الدارج لكربونات الصوديوم، التي تُستخدم في صناعة الزجاج، والسيراميك، والمنظّفات والصابون. وكذلك هي ما يستخدمونه لصناعة بيكربونات الصوديوم، وهي مادّة على الأرجح أنّ كثيرًا منكم أسرف في شربها بعد قضاء ليلة في البلدة».

اقترب الناس أكثر، منبهرين بسعة معرفة الصبيّ وفطنته. من المدهش سماعه يتحدّث بهذه السهولة إلى حشد من الغرباء. هل كان يجد نفسه، يعلم كيف يحدّد قيمته من ردود أفعال الآخرين؟ هل من الممكن أنّه سيتعلّم شقّ طريقه في هذا العالم بفعل مكابدته ومروره بهذا الحدث الرهيب؟

«وعلى الأرجح، فإن ما تتساءلون عنه جميعكم هو ماذا يكون هذا النيودين دي الذي نواصل سماع اسمه؟ سؤال جيّد. لقد درسناه في المدرسة، وشاهدنا أفلامًا عن جرذان تصاب بأورام وما إلى ذلك. إذًا، أوكي، الأمر بسيط أساسًا. نيودين دي مزيج من الأشياء التي تخلط معًا وهي عبارة عن مخلّفات تنتج من صناعة المبيد الحشريّ. المادّة الأصليّة تقتل الصراصير، أمّا المخلّفات فتقتل كلّ شيء آخر. نكتة صغيرة قالها معلّمنا».

فرقع أصابعه، وحرّك ساقه اليسرى قليلًا.

«تكون عديمة اللون في حالة البودرة، عديمة الرائحة وشديدة الخطورة، ولكن لا أحد يعلم بالضبط ما تسبّبه للبشر وذرّيّتهم. أجروا اختبارات لسنوات وبالتالي إمّا أنّهم يعرفون ولا يقولون. بعض الأشياء تكون فظيعة جدًّا بحيث يتعذّر نشرها على العامّة».

قوّس حاجبيه وبدأ يختلج على نحو هزليّ، ولسانه يتدلّى من زاوية فمه. وقد أدهشني سماع الناس يضحكون.

«حين تتسرّب إلى التربة، قد تمتد حياتها إلى أربعين سنة. أي أكبر من كثير من الناس. وبعد خمس سنوات ستلاحظون أنواعًا مختلفة من الفطور تنمو بين نوافذكم العاديّة ونوافذكم الشبكيّة علاوة على ثيابكم وطعامكم. بعد عشر سنوات ستصدأ شاشاتكم وتبدأ بالتكسّر والاهتراء. ألواح الجدران ستنحني. سيكون هناك تكسّر زجاج وإصابات لدى الحيوانات. وبعد عشرين سنة ربّما ستضطرّون إلى حبس أنفسكم في العلّيّة والاكتفاء بالانتظار والمشاهدة. أظنّ أنّ هناك درسًا في هذا كلّه. اعرفوا موادّكم الكيميائيّة».

لم أكن أريد أن يراني هناك. سيتسبّب له هذا بالانتباه لنفسه، ويتذكّر حياته السابقة كصبيّ كئيب هارب. دعه يتألّق، لو كان هذا ما يفعله، باسم الحظ العاثر، والكارثة الرهيبة العشوائيّة. لذا انسللت، مارًّا برجل يرتدي حذاءً ثلجيًّا ملفوفًا بالبلاستيك، واتّجهت إلى نهاية الثكنة حيث كنّا قد خيّمنا.

كنّا بجوار عائلة سوداء من شهود يهوه. رجل وامرأة مع صبيّ يقارب الثانية عشرة. كان الأب والابن يوزّعون كرّاسات على الناس المجاورين وبدا أنّهما لا يواجهان مشكلة في إيجاد متلقّين ومستمعين.

قالت المرأة لبابيت: «أليس هذا أمرًا كبيرًا؟»

قالت بابيت: «لن يفاجأني شيء بعد الآن».

- «أليست هذه هي الحقيقة».

- «ما سيفاجئني هو أن لا تكون هناك مفاجآت».

- «يبدو هذا صحيحًا».

- «أو أن تكون هناك مفاجآت تافهة صغيرة. تلك ستكون مفاجأة. بدلًا من أشياء كهذه».

قالت المرأة: «لدى الربّ يهوه مفاجأة أكبر يخبّئها».

- «الربّ يهوه؟»

- «هو ذاك».

كانت ستيفي ووايلدر نائمَيْن في أحد الأسرّة النقّالة. جلست دينيز في الطرف الآخر غارقة في **الدليل الطبّيّ**. عدّة فرشات هوائيّة مسنودة إلى الجدار. ثمّة طابور طويل عند هاتف الطوارئ، حيث يتّصل الناس بأقاربهم أو يحاولون الوصول إلى غرفة التحكّم في أحد برامج الاتّصال الإذاعيّة. كانت معظم الراديوهات هنا مضبوطة على أحد تلك البرامج. جلست بابيت في كرسيّ تخييم، تنبّش في كيس قماشيّ مليء بأطعمة خفيفة ومؤن أخرى. رأيت مرطبانات وكراتين كانت تقبع في الثلاجة أو الخزانة لشهور.

قالت: «أظنّ أنّ هذا سيكون وقتًا ملائمًا للامتناع عن الأطعمة الدهنيّة».

- «لم الآن تحديدًا؟»

- «هذا وقت الانضباط، والتقشّف العقليّ. إنّنا على الحافّة عمليًّا».

- «أظنّ أنّ من المثير رؤيتك وأنت تعتبرين كارثة محتملة عليك وعلى عائلتك وآلاف الناس الآخرين فرصة للامتناع عن الأطعمة الدهنيّة».

قالت: «تبدأ الانضباط حين تجد محفّزًا. لو لم آكل الزبادي الآن، قد أتوقّف عن شرائه إلى الأبد. ولكنّني أظنّ أنّني سأستثني حبوب القمح».

بدت الماركة أجنبيّة. أمسكت مرطبان حبوب القمح وتمعّنت في الماركة.

قلت: «إنّها ألمانيّة. كُليها».

هناك أناس يرتدون البيجامات والشباشب. رجل مع بندقيّة تتدلّى

من كتفه، أطفال يحبون في أكياس النوم. أومأت بابيت تريد الاقتراب منّي.

همستْ: «لنُبْقِ الراديو مطفأً، بحيث لا تسمع الفتاتان، لم تعانيا شيئًا أكثر من ديجا ڤو. أود أن أبقي الأمور كما هي عليه».

- «ماذا لو كانت الأعراض حقيقيّة؟»

- «كيف يمكن أن تكون حقيقيّة؟»

- «لم لا يمكن أن تكون حقيقيّة؟»

همستْ: «لم يعانيا منها إلا بعد أن أعلنوها».

- «هل سمعت ستيفي عن ديجا ڤو في الراديو؟»

- «لا بدّ».

- «كيف تعرفين هذا؟ هل كنت معها عندما أذاعوها؟»

- «لست متأكّدة».

- «فكّري جيّدًا».

- «لا أتذكّر».

- «هل تذكرين أنك قلت لها شيئًا عن معنى ديجا ڤو؟»

أخرجتْ قليلًا من الزبادي بملعقة، وبدا أنّها قد توقّفت لحظة لتستغرق في التفكير.

قالت أخيرًا: «حدث هذا من قبل».

- «ما الذي حدث من قبل؟»

- «تناول الزبادي، الجلوس هنا، التحدّث عن ديجا ڤو».

- «لا أريد سماع هذا».

- «كان الزبادي في ملعقتي. رأيت هذا للحظة. التجربة كلّها. طبيعيّ، مكون من حليب صافي، وقليل الدسم».

كان الزبادي لا يزال في الملعقة. راقبتها ترفع الملعقة إلى فمها وهي تفكّر بعمق، محاولة قياس الفعل مع توهّم حدوث الأمر نفسه. من وضعيّتي الرابضة أومأت لها بالاقتراب أكثر.

همستُ: «يبدو أنّ هاينرش يخرج من قوقعته».

- «أين هو؟ لم أره».

- «ترين الناس المتجمّعين هناك؟ هو في المنتصف تمامًا. إنّه يخبرهم عمّا يعرفه عن الحدث السامّ».

- «ما الذي يعرفه؟»

- «الكثير، كما تبيّن».

همسَتْ: «لم لمْ يخبرنا؟»

- «على الأرجح أنّه تعب منّا. الظهور بمظهر المرح والجاذبيّة أمام عائلته أمر يستحقّ فعله. هكذا هم الأبناء. إنّنا نمثّل النوع الخاطئ من التحدّي».

- «مرح وجاذبيّة؟»

- «أظنّ أنّه كان يمتلكه داخله طوال الوقت. كانت المسألة متعلّقة بإيجاد الوقت الملائم لعرض مَلَكاته».

اقتربت أكثر بحيث كاد رأسانا يتلامسان.

- «ألا تظنّ أنّ عليك الذهاب إلى هناك؟ دعه يراك وسط الحشد. أره أنّ والده حاضر في لحظته الكبرى».

- «سينزعج فقط لو رآني هناك».

- «لماذا؟»

- «أنا أبوه».

- «إذًا لو ذهبتَ هناك، ستدمّر الأشياء عبر إحراجه وعرقلة أسلوبه

بسبب علاقة الأب-الابن. ولو لم تذهب، لن يعلم أبدًا أنّك شهدت لحظته الكبرى وسيظنّ أنّ عليه التصرّف أمامك كما اعتاد التصرّف دائمًا، بنوع من التردّد والنزعة الدفاعيّة، بدلًا من أسلوبه الجديد المبتهج الواثق».

- «ورطة في الحالتين».

همسَتْ: «ماذا لو ذهبتُ أنا؟»

- «سيظنّ أنّني أرسلتكِ».

- «هل سيكون هذا شنيعًا؟»

- «يظنّ أنّني أستغلّك لإرغامه على فعل ما أريد».

- «قد تكون هناك بعض الحقيقة في هذا يا جاك. ولكن، حينها، ما معنى وجود زوجة الأب أو زوج الأمّ إن لم يُستَخدَما في المشاحنات الصغيرة بين من تربطهم صلة دم؟»

اقتربتُ أكثر، وأخفضتُ صوتي أكثر.

قلت: «مجرّد قطعة كراميل».

- «ماذا؟»

- «فقط بعض اللعاب الذي لم تعرفي ماذا تفعلين به».

- «كانت قطعة كراميل». همست، مشكّلة حرف O بإبهامها وسبّابتها.

- «أعطني واحدة».

«كانت تلك آخر قطعة».

- «ما نكهتها - بسرعة»

- «كرز».

مصصت شفتي وأصدرت أصوات امتصاص. جاء الرجل الأسود

بكرّاساته وجلس بجانبي. كانت مصافحتنا طويلة وقويّة. تمعّن فيّ بشدّة، معطيًا الانطباع أنّه تكبّد عناء سفر هذه المسافة الطويلة، مقتلعًا عائلته، لا ليهرب من الحدث الكيميائيّ بل ليجد الشخص الوحيد الذي سيفهم ما عليه قوله.

- «الأمر يحدث في كلّ مكان، أليس كذلك؟»

قلت: «بهذه الدرجة أو تلك»

- «وما الذي تفعله الحكومة بشأنه؟»

- «لا شيء».

- «أنت قلتها، لا أنا. ثمّة كلمة وحيدة في اللغة تصف ما يحدث وقد وجدْتَها بحرفيّتها. لست متفاجئًا على الإطلاق. ولكن حين تفكّر بالأمر، ما الذي بإمكانهم فعله؟ لأنّ ما سيأتي، سيأتي لا محالة. لا حكومة في هذا العالم كبيرةٌ بما يكفي لإيقافه. هل يعرف رجل مثلك تعداد الجيش النظاميّ في الهند؟»

- «مليون».

- «أنت قلتها، لا أنا. مليون جنديّ وعاجزون عن إيقافه. هل تعلم من لديه أكبر جيش نظاميّ في العالم؟»

- «إمّا الصين أو روسيا، مع أنّ الجيش الفيتناميّ يستحقّ الذكر».

قال: «أخبرني، هل بإمكان الفيتناميّين إيقافه؟»

- «لا».

- «إنّه هنا، صحيح؟ الناس يشعرون به. نعلم في قرارة أنفسنا. مملكة الربّ قادمة».

كان ممشوقًا بشعرٍ خفيف متناثر وفجوة بين سنّيه الأماميّين. كان يجلس بسهولة، يبدو مرن المفاصل ومرتاحًا. انتبهتُ إلى أنّه يرتدي بذلة وربطة عنق مع حذاء رياضيّ.

قال: «هل هذه أيّام عظيمة؟»

تمعّنت في وجهه، محاولًا إيجاد إشارة إلى الإجابة الصحيحة.

- «هل تحسّ بقدومها؟ هل هي على الطريق؟ هل تريد قدومها؟»

كان يحرّك أصابع قدميه حين يتكلّم.

- «حروب، مجاعات، زلازل، انفجارات بركانيّة، بدأ كلّ شيء بالتبلور. بحسب كلماتك، هل ثمّة شيء يمكن له منعه من القدوم حين يبدأ زخمه؟»

- «لا».

- «أنت قلتها، لا أنا. طوفانات، أعاصير، أوبئة من أمراض جديدة غريبة. هل هي إشارة؟ هل هي الحقيقة؟ هل أنت جاهز؟»

قلت: «هل يشعر الناس بها حقًّا في قرارة أنفسهم؟»

- «الأنباء الجيّدة تنتقل بسرعة».

- «هل يتحدّث الناس عنها؟ في زياراتك إلى المنازل، هل يراودك الانطباع أنّهم يريدونها؟»

- «لا يتعلّق الأمر بما إذا كانوا يريدونها. بل بأين أذهب كي أسجّل. يتعلّق بأخرجني من هنا الآن. الناس يسألون: ´هل هناك انقلاب فصول في مملكة الربّ؟` يسألون: ´هل توجد رسوم لقطع الجسر وزجاجات مُرتَجعة؟` بمعنى آخر أعني أنّهم يدخلون في الموضوع مباشرة».

- «تحسّ أنّه انتفاخ في الأرض».

- «تجمّع مفاجئ. لو شئنا الدقّة. ألقِ نظرة واحدة وأعرف. هذا رجل يفهم».

- «الزلازل ليست انتفاخًا، إحصائيًّا».

منحني ابتسامة تعاطف. شعرت بأنّني أستحقّها تمامًا، مع أنّني لم

أكن واثقًا من السبب، ربّما كان من التزمّت اقتباس إحصائيّات في وجه معتقدات، ومخاوف، ورغبات قويّة.

– «كيف تخطّط قضاء بعثك؟» قال، كما لو أنّه يستفسر عن عطلة طويلة قادمة.

– «جميعنا نحصل على بعث؟»

– «إمّا أن تكون من الأشرار أو من الناجين. يتفسّخ الأشرار وهم يمشون في الشارع. يشعرون أنّ عيونهم تخرج من محاجرها. ستعرفهم من وحلهم وأعضائهم الناقصة. أناس يقتفون الطين الذي خُلقوا منه. سيكون الفعل الفصل في تفسّخهم. ويعرف الناجون أحدهم الآخر من لطفهم وتكتّمهم. لا تباهٍ فيه، هكذا تعرف الشخص الناجي».

كان رجلًا جادًّا، كان واقعيًّا وعمليًّا، حتّى أخمص قدميه. تعجّبت من ثقته العالية بنفسه، وتحرّره من الشكّ. هل هذه لحظة فاصلة؟ لا التباس، لا مزيد من الشكّ. كان جاهزًا للانتقال إلى العالم القادم. كان يُرغم العالم القادم على الانسلال في وعيه، الأحداث الهائلة التي تبدو وقائع بالنسبة إليه، تشرح ذاتها، منطقيّة، واضحة، حقيقيّة. لا أحسّ بمعركة فاصلة أخيرة في قرارة نفسي ولكنّني أشعر بالقلق حيال كلّ هؤلاء الناس الذين يحسّون بها، الذين يبدون جاهزين لها، يتمنّونها بشدّة، يجرون اتّصالات هاتفيّة وسحوبات مصرفيّة. لو أنّ عددًا كافيًا من الناس أراد حدوثها، هل ستحدث؟ ما عدد الناس الذي يكون كافيًا؟ عمّ يتحدّث كلٌّ منّا إلى الآخر بوضعيّة الجلوس البدائيّة هذه؟

أعطاني كرّاسًا بعنوان «عشرون خطأً شائعًا عن نهاية العالم». كنت أعاني من وضعيّة جلوسي، أحسّ بدوار وألم في الظهر. عند باب الصالة كانت امرأة تقول شيئًا عن التعرّض للعوامل السامّة. كان صوتها الخافت ضائعًا تقريبًا في الهدير المتواصل في الثكنة، الضوضاء الخفيضة التي يصدرها الناس في الأماكن الكبيرة المغلقة. كانت دينيز قد انتهت من

دليلها الطبّيّ وتنظر إليّ بصرامة. تلك النظرة التي تحتفظ بها عادة لأبيها وفقدانه الأخير لثبات قدميه.

قلت لها: «ما المشكلة؟»

- «ألم تسمع ما قاله الصوت؟»

- «تعرُّض».

قالت بحدّة: «هذا صحيح».

- «وما علاقتنا نحن؟»

قالت: «ليس نحن. بل أنت!»

- «لم أنا؟»

- «ألست الشخص الذي خرج من السيّارة ليملأ خزّان البنزين؟»

- «أين كان الحدث الهوائيّ حين قمت بهذا؟»

- «أمامنا مباشرة. ألا تتذكّر؟ عدت إلى السيّارة ثمّ مشينا قليلًا لنجده أمامنا تحت كلّ تلك الأضواء».

- «تقولين إنّني حين خرجت من السيّارة، ربّما كانت السحابة قريبة جدًّا بحيث تهطل عليّ».

ردّت بنفاد صبر: «ليس خطأك. ولكنّك كنت تحت تأثيره عمليًّا قرابة دقيقتين ونصف».

شققت طريقي إلى الأمام. طابوران يتشكّلان. A إلى M، وN إلى Z. في نهاية كلّ طابور طاولة قابلة للطيّ عليها كمبيوتر صغير. كان الخبراء يجولون، رجال ونساء بشارات على صدورهم ورباط ذراع ملوّن. وقفت خلف العائلة التي ترتدي ستر النجاة. بدوا مشرقين، سعيدين ومتحمّسين. لم تعد السترات البرتقاليّة السميكة خارج السياق تمامًا حتّى ونحن على أرض جافّة بهذه الدرجة أو تلك، فوق مستوى سطح البحر، على بعد أميال عن أقرب مسطّح مائيّ. اندفاعات مفاجئة تولّد

كلّ أنواع الاضطرابات العجيبة بفعل قدومها المفاجئ بذاته. تنوّع في الألوان والأمزجة طَبَعَ المشهد من بدايته إلى نهايته.

لم يكن الطابوران طويلين. حين وصلت إلى مكتب A-M، أدخل الرجل الجالس وراءه البيانات على لوحة المفاتيح. اسمي، سنّي، تاريخي الطبّيّ، وما إلى ذلك. كان شابًّا هزيلًا بدا متحفّظًا حيال الأحاديث التي تقع خارج نطاق إرشادات غير محدّدة. على الكمّ الأيسر لجاكيته الكاكيّ كان يرتدي رباط ذراع يحمل كلمة سميوڤاك.

رويت ظروف تعرّضي المزعوم.

- «كم استغرق خروجك؟»

قلت: «دقيقتان ونصف. هل تعتبر فترة طويلة أم قصيرة؟»

- «كلّ ما يجعلك على تماسّ مع الانبعاثات الفعليّة يعني أنّك في مشكلة».

- «لمَ لمْ تتبدّد السحابة المتنقّلة في كلّ تلك الرياح والأمطار؟»

- «هذه ليست سحابة اعتياديّة. هذا حدث عالي الكثافة. إنّه محمّل بتركيزات عالية من المنتجات الجانبيّة. بإمكانك رمي صنّارة هناك وسحبها نحو البحر، وهذه مبالغة من أجل توضيح الأمر».

- «ماذا بشأن الناس الذين كانوا في السيّارة؟ كان عليّ فتح الباب للخروج والدخول؟»

- «هناك درجات للتعرّض. بإمكاني القول إنّ وضعهم يعني الحدّ الأدنى من الخطر. ولكن الدقيقتين ونصف الدقيقة من التعرّض الكامل لها هو ما يخيفني. تماسّ بالجلد وفتحات الجسم. هذا نيودين دي. جيل جديد تمامًا من النفايات السامّة. ما نسمّيها حالة البراعة. جزء من مليون مليون يمكن أن يتسبّب بموت الجرذ سريريًّا».

نظر إليّ بتلك النظرة الفوقيّة المتجهّمة الخاصّة بالمحارب المحنّك.

من الواضح أنّه لا يقدِّر كثيرًا الناس الذين لا تسمح حيواتهم الخالية من الإنجازات - من دون أي لوم أو انتقاد لأنفسهم - ومفرطة الحماية بأيّ مقارنة مع الجرذ الميّت سريريًا. أردت هذا الرجل في صفّي. لديه حرّيّة وصول إلى المعلومات، كنت مستعدًّا لأن أصبح متذللًا ومتملّقًا لو أوقفه هذا عن إبداء ملاحظات متفرّقة عاديّة عن درجة تعرّضي وفرص نجاتي.

- «يا له من رباط ذراع ذاك. ما الذي تعنيه سميوڤاك؟ يبدو أمرًا مهمًّا».

- «اختصار لـ «مُحاكاة إخلاء»، برنامج حكوميّ جديد لا يزالون يكافحون من أجل تأمين تمويل له».

- «ولكن هذا الإخلاء لم يكن محاكاة. كان حقيقيًّا».

- «نعلم هذا. ولكن فكّرنا بإمكانيّة استخدامه كنموذج».

- «نوع من التمرين؟ هل تقول إنّكم رأيتم فرصة لاستخدام الحدث الحقيقيّ لتتدرّبوا على المحاكاة؟»

- «نفّذنا على أرض الواقع مباشرة».

- «وكيف يسير الأمر؟»

- «منحنى الإدخال ليس على قدر طموحاتنا. إن الواقع أقل من المتوقع. وكذلك لم تُوضَع ضحايانا في المكان الذي أردنا لهم لو كانت هذه محاكاة فعليّة. بمعنى آخر، إنّنا مرغمون على التعامل مع الضحايا في المكان الذي نجدهم فيه. لم تُتح لنا إمكانيّة التحكّم بكمبيوتر المرور. فجأة انطلق الأمر، بأبعاده الثلاثة، ونمط المشهد كلّه. كما أنّ عليك أن تأخذ بالاعتبار حقيقة أنّ كلّ ما شاهدناه اليوم كان حقيقيًّا. لا يزال أمامنا تعديلات كثيرة. ولكن لهذا أُوجد التدريب».

- «ماذا عن أجهزة الكمبيوتر؟ هل البيانات الموجودة في المنظومة حقيقيّة أم مجرّد معطيات للتدريب؟»

- «راقب واحكم».

قضى برهة من الوقت يضغط المفاتيح ثمّ يدرس الاستجابات الشفريّة على شاشة البيانات. وقت أطول بدرجة معقولة، كما بدا لي، من الوقت الذي خصّصه للناس الذين سبقوني في الطابور. في الواقع بدأت أحسّ أنّ الآخرين يراقبونني. وقفت عاقدًا ذراعيّ. محاولًا إظهار صورة رجل هادئ، مثل شخص في طابور متجر أدوات ينتظر الفتاة عند الكاونتر كي تحسب ثمن الحبل الغليظ الذي اشتراه. بدت الوسيلة الوحيدة لتحييد الأحداث، لمواجهة تيّار النقاط الكمبيوتريّة التي تسجّل حياتي وموتي. لا تنظر إلى أحد، لا تكشف شيئًا من ماضي داخلك، ابق هادئًا. تتجلّى عبقريّة الذهن البدائيّ في قدرته على تصوير العجز البشريّ بطرق نبيلة وجميلة.

قال وهو ينظر إلى الشاشة: «أنت تنتج أرقامًا كبيرة».

- «بقيتُ هناك دقيقتين ونصف الدقيقة فقط. كما تساوي بالثواني؟»

- «لا يتعلّق الأمر بمجرّد وجودك هناك لفترة طويلة من الثواني. أتحدّث عن پروفايل البيانات الخاصّ بك بأكمله. أدخلت تاريخك الطبّيّ. نتج لديّ أرقام ضمن أقواس ونجوم نابضة».

- «ماذا يعني هذا؟»

- «من الأفضل أن لا تعرف».

نظر بصمت كما لو أنّ أمرًا بالغ الأهمّيّة يظهر على الشاشة. تساءلت عن معنى قوله إنّه أدخل تاريخي. أين كان تاريخي أساسًا؟ في وكالة فيدراليّة أو حكوميّة، شركة تأمين أو بطاقات مصرفيّة أو مركز طبّيّ؟ ما التاريخ الذي كان يقصده؟ أخبرته أشياء بسيطة. الطول، الوزن، أمراض الطفولة. ما الذي عرفه غير هذا؟ هل عرف بشأن زوجاتي، علاقتي بهتلر، أحلامي ومخاوفي؟

كانت عنقه نحيلة وأذناه مثل أذنيّ إبريق بحيث لا تتناسب مع جمجمته النحيلة، والمظهر البريء الذي يسم القتلة الريفيّين قبل الحرب.

سألته: «هل سأموت؟»

- «ليس على هذا النحو».

- «ماذا تعني؟»

- «ليس بهذا العدد الكبير من الكلمات».

- «ما عدد الكلمات المفروض؟»

- «ليست مسألة كلمات، بل مسألة سنوات. سنعرف أكثر خلال خمس عشرة سنة. أمّا في الوقت الحاليّ نحن أمام وضع فعليّ».

- «ما الذي سنعرفه خلال خمس عشرة سنة؟»

- «لو بقيت حيًّا خلال هذا الوقت، سنعرف قَدْرًا أكبر ممّا نعرفه الآن. دورة حياة نيودين دي ثلاثون سنة. ستكون قد قطعت نصف المشوار حينها».

- «ظننت أنّها أربعون سنة».

- «أربعون سنة في التربة. ثلاثون سنة في جسم الإنسان».

- «إذًا، كي أعيش أطول من هذه المادّة، ينبغي أن أبلغ ثمانيناتي. بإمكاني حينها أن أشعر بالراحة».

- «بحسب ما نعرفه الآن».

- «ولكن يبدو أنّ الإجماع العامّ هو أننا لا نعرف ما يكفي حاليًّا لنكون واثقين بشأن أيّ شيء».

- «سأجيبك بهذه الطريقة. لو كنتُ جرذًا لم أكن لأرغب بالوجود في أيّ مكان ضمن مجال مئتي ميل عن الحدث الهوائيّ».

- «وماذا لو كنتَ بشرًا؟»

نظر إليّ بحرص. وقفت عاقدًا ذراعيّ، محدّقًا من فوق رأسه باتّجاه باب الثكنة الأماميّ. أن أنظر في وجهه مباشرة يعني التصريح بهشاشتي.

- «لن أقلق حيال ما أعجز عن رؤيته الآن أو الإحساس به. سأمضي قدمًا وأعيش حياتي. تزوّج، استقرّ، أنجب أطفالًا. ليس ثمّة سبب يمنعك من القيام بهذه الأمور، بحسب ما نعرفه الآن».

- «ولكنّك قلتَ إنّنا أمام وضع فعليّ».

- «لم أقل أنا هذا. هذا ما قاله الكمبيوتر. المنظومة بأكملها تقول هذا. هذا ما نسمّيه سجلّ قاعدة بيانات هائلة. غلادني، ج. أ. ك. أُدخل الاسم، المادّة، زمن التعرّض ثمّ أدخل تاريخك الموجود في الكمبيوتر. مورّثاتك، علاماتك المميّزة، بياناتك الطبّيّة، بياناتك السيكولوجيّة، سجلّك الإجراميّ والطبّيّ. فتنتج نجوماً نابضة. هذا لا يعني أنّ أمرًا سيحدث فعليًّا، على الأقلّ ليس اليوم أو غدًا. بل يعني ببساطة أنّك تساوي الكلّ الإجماليّ من بياناتك. لا يمكن لأحد التملّص من هذا».

- «وهذا السجلّ الهائل المزعوم ليس محاكاة، بالرغم من رباط الذراع الذي ترتديه. إنّه حقيقيّ».

- «إنّه حقيقيّ».

وقفت ساكنًا تمامًا. لو كانوا يظنّون أنّني ميّت سلفًا، كانوا سيتركونني وشأني. أظنّ أنّني شعرت كما لو أنّ طبيبًا يرفع صورة شعاعيّة تُظهر ثقبًا على شكل نجمة وسط أحد أعضائي الحيويّة. الموت قد دخل. إنّه داخلك. قيل إنّك تحتضر ومع ذلك بعيد عن الاحتضار، تتأمّله على مهل، ترى حرفيًّا في صورة شعاعيّة أو شاشة كمبيوتر منطقة الغريب المرعب بأسره. حين يُصوَّر الموت غرافيكيًّا، متلفزًا بالأحرى، تحسّ بانفصال مخيف بين وضعك ونفسك. تُقدّم شبكة رموز، تكنولوجيا رائعة بأكملها تُنتَزع من الآلهة. تدفعك إلى الإحساس كما لو أنّك غريب في حفرة موتك.

أردت ردائي الأكاديميّ ونظّارتي الداكنة.

حين عدت إلى الزاوية القصيّة في الثكنة، كان الأطفال الثلاثة الأصغر نائمين، كان هاينرش يضع إشارات على خريطة طريق وبابيت جالسة على مسافة مع العجوز تريدول وعدد من الكفيفين الآخرين. كانت تقرأ لهم من رزمة صغيرة بألوان برّاقة من نشرات السوبرماركت.

كنت بحاجة إلى إلهاء. وجدت كرسيّ تخييم فوضعته قرب الجدار خلف بابيت. ثمّة أربعة كفيفين، وممرّضة وثلاثة أشخاص مبصرين جالسين في نصف دائرة بمواجهة القارئة. كان آخرون يتوقّفون أحيانًا لينصتوا إلى وصف مادّة أو اثنتين ثمّ يمضون في طريقهم. وظّفت بابيت صوتها الخاصّ بالقصّ، النبرة الصادقة والمرحة التي كانت تستخدمها لقراءة الحكايات الخرافيّة لوايلدر أو المقاطع الإيروتيكيّة لزوجها في سريرهما النحاسيّ فوق حفيف حركة المرور.

قرأت خبر الصفحة الأولى: «حياة مضمونة بعد الموت بكوبونات إضافيّة». ثمّ قلبت إلى الصفحة المقصودة.

«أذهل علماء في معهد الدراسات المتقدّمة الشهير في پرنستن العالم حين قدّموا برهانًا حاسمًا غير قابل للتفنيد على وجود حياة بعد الموت. كان باحث في هذا المعهد البارز قد استخدم التنويم المغناطيسيّ لحثّ مئات من الناس على استعادة تجارب حيواتهم السابقة حين كانوا بناة أهرامات، وطلاب منح بالتبادل، وزوّارًا من خارج الأرض».

غيّرت بابيت صوتها أثناء قراءة الحوار.

«´في السنة الماضية وحدها`، صرّح المنوّم المغناطيسيّ الخبير بالتجسّد لنغ تي وان: ´ساعدت المئات على العودة إلى حيواتهم السابقة تحت تأثير التنويم المغناطيسيّ. أحد موضوعاتي الأكثر إذهالًا كانت امرأة قادرة على استعادة حياتها كصيّادة-جامعة في الحقبة الميزوليثيّة قبل عشرة آلاف عام. بدا مدهشًا سماع هذه المواطنة ذات الجسد

الضئيل التي ترتدي بنطالًا فضفاضًا من اليوليستر وهي تصف حياتها كزعيم جماعة ذكر ضخم الجثّة كانت جماعته تسكن مستنقعًا من الفحم الحجريّ وتصطاد الخنزير البرّيّ بقوس وسهام بدائيّة. كانت قادرة على تحديد سمات تلك الحقبة التي لا يمكن أن يلمّ بها سوى أركيولوجيّ خبير. بل نطقت كذلك عدّة عبارات بلغة ذلك العصر، وهي لغة تتشابه إلى حدّ بعيد مع الألمانيّة الحديثة»".

عاد صوت بابيت إلى نبرة القصّ العاديّ.

«وكان د. شيف تشاترجي، وهو معلّم لياقة وفيزيائيّ مختصّ بالطاقة العالية، قد أذهل جمهور برنامج تلفزيونيّ يُبثّ مباشرة، حين روى الحالة الموثّقة على نحو ممتاز لامرأتين، لا تعرف أيّ منهما الأخرى، كانتا قد جاءتا إليه بسبب انكفاء فيزيولوجيّ في جسديهما في الأسبوع ذاته، ليكتشف حينها أنّهما كانتا شقيقتان توأمين في مدينة أطلنطس الضائعة قبل خمسين ألف سنة. وصفت المرأتان المدينة، قبل غرقها الغامض الكارثيّ في البحر، بكونها حاضرة بلديّة مُدارة على نحو أمثل حيث بإمكانك التجوّل بأمان في كلّ ساعات النهار والليل تقريبًا. تعملان الآن في تصميم الطعام لوكالة ناسا.

«إنّ الأكثر إذهالًا هي حالة الطفلة پاتي ويڤر ذات الخمس سنوات التي قدّمت إدّعاءات مُقْنعة للدكتور تشاترجي بأنّها كانت في حياتها السابقة قاتلًا محترفًا سرّيًّا تابعًا للكي جي بي مسؤولًا عن جرائم القتل التي لم تُحلّ بعد للمشاهير هوارد هيوز، مارلين مونرو، إلڤيس پريسلي. وقد عرف ضمن الدوائر الجاسوسيّة باسم «الأفعى» بسبب السمّ القاتل الذي لا يترك آثارًا والذي كان يحقنه في الجزء الخلفيّ من سيقان الضحايا المشاهير، وقد مات القاتل المحترف في حادث تحطّم حوّامة رهيب في موسكو قبل ساعات من ولادة الصغيرة پاتي ويڤر في پوپيولار ميكانكس، آيوا. ولم تكن لديها العلامات الجسديّة المميّزة للأفعى

فحسب بل بدا بأنّها تمتلك أيضًا براعة في التقاط الكلمات والعبارات الروسيّة.

«´فحصت هذا الموضوع عشرات المرّات على الأقلّ`، يقول د. تشاترجي. ´استخدمنا أقسى التقنيّات الاحترافيّة كي أدفعها لمناقضة نفسها. ولكن قصّتها كانت متّسقة على نحو مدهش. إنّها حكاية الخير الذي يمكن أن ينبع من الشرّ`. وتقول پاتي الصغيرة، ´في لحظة موتي حين كنت الأفعى، رأيت دائرة نور مبهرة بدت وكأنّها ترحّب بي، تومئ إليّ. كانت تجربة روحانيّة دافئة. خطوت باتّجاهها. لم أكن حزينة على الإطلاق`».

أدّت بابيت صوتَيْ د. تشاترجي وپاتي ويڤر. كان صوت تشاترجي كما أدّته إنكليزيًّا بلهجة هنديّة دافئة رخيمة، مع عبارات مكسَّرة. وكانت پاتي مثل طفلة بطلة في فيلم معاصر، الشخصيّة الوحيدة على الشاشة التي لا تُرعبها الظواهر الغامضة التي تهزّ الأعماق.

«في تطوّر صاعق آخر كشفت پاتي الصغيرة أنّ المشاهير الثلاثة قُتلوا للسبب المدهش نفسه. كان كلٌّ منهم في لحظة موته في حالة تلبّس خفيّة من كفن تورينو المعروف بقواه الشفائيّة المقدّسة. كان الفنّانان إلڤيس ومارلين ضحايا حياة رهيبة من الشراب والمخدّرات وقد أملا استعادة الهدوء الجسديّ والروحيّ لحياتهما بعد تجفيف جسديهما بالكفن المقدّس بعد جلسات الساونا. وكان الملياردير هوارد هيوز يعاني من متلازمة توقّف طَرْف العين، وهي حالة غريبة تمنع عينيه من الانفتاح مجدّدًا لساعات بعد رفّة واحدة، وكان يأمل تسخير قوّة الكفن المذهلة إلى تدخّل الأفعى بحقنة سلسة من سمّه القاتل. كما كشفت پاتي ويڤر تحت تأثير التنويم المغناطيسيّ أنّ الكي جي بي لطالما استخدمت تلبّس الكفن من أجل أعضاء الپوليتبورو، اللجنة التنفيذيّة في الحزب الشيوعيّ، الذين يهرمون بسرعة ويعانون من آلام مبرحة. وقيل إنّ تلبّس

الكفن هو الدافع الحقيقيّ وراء محاولة اغتيال البابا يوحنّا پولس الثاني في الڤاتيكان - محاولة أخفقت لأنّ الأفعى كان قد قُتل في حادث الحوّامة المروّع ووُلد مجدّدًا كفتاة منمّشة الوجه في آيوا».

«كوبون النجاة من الخطر أدناه يضمن لك حرّيّة الوصول إلى عشرات الحالات الموثّقة من الحياة بعد الموت، والحياة الأبديّة، وتجارب الحياة السابقة، والحياة بعد الموت في الفضاء الخارجيّ، وتقمّص الأرواح، والبعث الجسديّ عبر تقنّيات تيّار الوعي الكمبيوتريّة».

تمعّنتُ في الوجوه المتراصة على شكل نصف دائرة. لم يبدُ أحد مندهشًا بهذا الخبر. أشعل العجوز تريدول سيجارة، متململًا من يده المرتعشة، مُرغَمًا على إبعاد اللهب قبل أن يحرقه. لم يكن هناك أدنى اهتمام واضح في النقاش. كان تأثير القصّة مجرّد تصديق سلبيّ. ها هي ذي، مألوفة ومريحة بطريقتها الغريبة الخاصّة، مجموعة عبارات ليست أقلّ حقيقيّة من رصيدنا اليوميّ من الوقائع المنزليّة المُشاهدة. حتّى بابيت بنبرة صوتها لم تُبدِ علامة تشكيك أو تشامخ. خطوات پاتي الصغيرة إلى الوهج المرحّب الدافئ لاقتْني في حالة ضعيفة واهنة. وددت تصديق هذا الجزء من الحكاية على الأقلّ.

قرأت بابيت إعلانًا. حمية ستانفورد المخطّطة السريعة المحطّمة للجزئيّات على امتداد 3 أيّام.

أمسكت بنشرة أخرى. كانت قصّة الغلاف تتناول أبرز عرّافي البلد وتنبّؤاتهم للعام القادم. قرأت البنود ببطء.

«أسراب صحون طائرة ستغزو ديزني وورلد وكيب كاناڤيرال. وفي تطوّر مفاجئ، سيكشف الهجوم عن حماقة الحرب مفضيًا إلى معاهدة حظر تجارب نوويّة بين الولايات المتّحدة وروسيا».

«طيف إلڤيس پريسلي سيُرى وهو يتنزّه ببطء قرب غريسلاند، القصر الموسيقيّ».

«اتّحاد مالي ياباني سيشتري الطائرة الرئاسيّة ويحوّلها إلى ملكيّة مشتركة جويّة للرفاهيّة مع امتيازات تعبئة وقود في الجو وقدرة على إطلاق صواريخ جوّ-أرض».

«سيظهر بغ فوت على نحو مفاجئ في موقع تخييم عند الساحل الشماليّ الغربيّ الخلاب الوعر عند المحيط الهادئ. الوحش البرّيّ الضخم المشعر، الذي يبلغ طوله ثمانية أقدام، الذي قد يكون الحلقة المفقودة في سلسلة التطوّر، سيرحّب بالسيّاح بلطف داعيًا إيّاهم للتجمّع حوله، حيث سيقدّم نفسه كرسول سلام».

«ستقوم الأطباق الطائرة برفع المدينة المفقودة أطلنطس من قبرها المائيّ في البحر الكاريبيّ بوسائل تيلي-حركيّة ومساعدة أكبال قويّة بمزايا ليست معروفة في مثيلاتها الأرضيّة. وستكون النتيجة ´مدينة سلام` ليس فيها حضور للمال أو جوازات السفر على الإطلاق».

«روح لندِنْ ب. جونسن ستتواصل مع مديري سي بي إس التنفيذيّين لتحضير مقابلة تلفزيونيّة مباشرة كي تدافع عن نفسها إزاء الاتّهامات التي وردت في كتب حديثة».

« مارك ديفيز تشاپمن قاتل مطرب البيتلز سيغيّر اسمه إلى جون لينون ويبدأ عمله ككاتب أغاني روك من زنزانته في جناح جرائم القتل».

«أعضاء عصابة لتحطيم الطائرات سيخطفون طائرة جامبو ويحطّمونها على البيت الأبيض كفعل ولاء أعمى لزعيمهم المنعزل الغامض، المعروف فقط باسم العم بوب. سينجو الرئيس والسيّدة الأولى على نحو عجائبيّ حيث يصابان بجروح طفيفة، بحسب أصدقاء مقرّبين منهما».

«الملياردير الراحل هوارد هيوز سيظهر على نحو غريب في سماء لاس فيغاس».

«أدوية عجيبة صُنّعت في مختبرات صيدلانيّة لصحون طائرة في جو الفضاء منعدم الوزن ستؤدّي إلى علاجات للقلق، والبدانة، وانحرافات المزاج».

«من ما بعد القبر، سيتواصل الأسطورة الحيّة الراحل جون وين بالتخاطر مع الرئيس ريغان ليساعد في صياغة السياسة الخارجيّة الأميركيّة. بعد تعتّقه بالموت، سيؤيّد الممثّل الضخم سياسة السلام والحب».

«سفّاح الستّينات تشارلز مانسن سيهرب من سجنه ويرعب ريف كاليفورنيا لأسابيع قبل التفاوض على الاستسلام في بثّ تلفزيونيّ مباشر في مكاتب وكالة إنترناشيونال كريتيف مانجمنت (آي سي إم)».

«التابع الفضائيّ الوحيد للأرض، أي القمر، سينفجر في ليلة رطبة من ليالي يوليو، مسبّبًا دمارًا بفعل المدّ، وبأمطار من التراب والركام الصخريّ على معظم أرجاء كوكبنا. ولكن طواقم التنظيف التابعة للصحون الطائرة ستساعد في منع كارثة عالميّة، مبشّرة بحقبة من السلام والوفاق».

راقبت الجمهور. أذرع معقودة، ورؤوس تميل قليلًا. لم تبدُ التنبّؤات طائشة بالنسبة إليهم. اكتفوا بتبادل ملاحظات عابرة غير ذات صلة، كما يفعلون أثناء الاستراحة الإعلانيّة في التلفزيون. مستقبل التابلويد، بآليته القائمة على انتقال متفائل إلى الأحداث الأپوكاليپتيّة، ليس شديد البعد ربّما عن تجربتنا المباشرة. انظر إلينا، مُرغَمون على إخلاء منازلنا، هرعنا نتخبّط في ليلة قاسية، تلاحقنا سحابة سامّة، محتشدون باكتظاظ في مخيّمات مؤقّتة، حيث حكم علينا بموت مُحتمل. أصبحنا جزءًا من الكتلة العامّة لكوارث الميديا. تعامل الجمهور الصغير من المسنّين والكفيفين مع تنبّؤات العرّافين كأحداث وشيكة الوقوع بحيث ينبغي صياغتها بما يتوافق مع حاجاتنا وأمانينا. انطلاقًا من إحساس متواصل بالدمار الشديد، واصلنا اختلاق الأمل.

قرأت بابيت إعلانًا عن نظّارة للحِمْية. أنصت المسنّون باهتمام. عدت إلى مكاننا. أردت أن أكون قريبًا من الأطفال، أراقبهم وهم نائمون. مراقبة الأطفال وهم نائمون تُشعرني بالخشوع، بأنّني جزء من منظومة روحانيّة. تلك هي أقرب نقطة من الله يمكن لي بلوغها. لو كان ثمّة مُعادل علمانيّ للوقوف في كاتدرائيّة شاهقة الأبراج ذات أعمدة رخاميّة وينابيع نور صوفيّ تنساب من النوافذ القوطيّة الثنائيّة، فسيكون هو مراقبة الأطفال في غرفهم الصغيرة وهم يستغرقون في النوم. البنات على الأخصّ.

انطفأت معظم الأضواء. وخفتت ضوضاء الثكنة. كان الناس ينامون بالتتابع. كان هاينرش لا يزال مستيقظًا، يجلس على الأرض، بكامل ثيابه، مسندًا ظهره إلى الجدار، يقرأ دليل الإنعاش الذي وزّعه الصليب الأحمر. لم يكن، في أيّ حال من الأحوال، الطفل الذي يساهم نومه المتقطّع في سكينتي. كان نومه مضطربًا، متقلّبًا، غريبًا، إذ كان الصبيّ يقع من سريره أحيانًا، لتجده متكوّرًا كالجنين في الفجر، يرتعد على الأرضيّة الخشبيّة الصلبة.

قلت: «يبدو أنّهم يسيطرون على الأمور».

- «من؟»

- «أيًّا كان المسؤول هناك».

- «ومن المسؤول؟»

- «خلاص... انسَ».

قال: «يبدو الأمر وكأنّنا عدنا بالزمن. ها نحن ذا في العصر الحجريّ، نعرف كلّ هذه الأشياء العظيمة بعد قرون من التقدّم ولكن ما الذي بوسعنا فعله لتسهيل الحياة لسكّان العصر الحجريّ؟ هل بإمكاننا تصنيع ثلاجة؟ هل بإمكاننا شرح آليّة عملها أساسًا؟ ما الكهرباء؟ ما الضوء؟ نعايش هذه الأشياء يوميًّا في حياتنا ولكن ما النفع الذي تُسديه لنا لو

وجدنا أنفسنا وقد عدنا بالزمن ونعجز حتّى عن إخبار الناس عن المبادئ الأوليّة. دع عنك التصنيع الفعليّ لشيء يحسّن ظروف العيش. سمّ لي شيئًا واحدًا بإمكانك تصنيعه. هل بإمكانك تصنيع ولو عود ثقاب خشبيّ بسيط بحيث تحكّه على صخرة لتنتج لهبًا؟ نظنّ أنّنا شديدو العظمة والتحديث. رحلات هبوط على القمر، قلوب صناعيّة. ولكن ماذا لو دخلنا في لولب زمنيّ بحيث نصبح وجهًا لوجه مع الإغريق القدماء. ابتكر الإغريق علم المثلثات. كانوا يجرون عمليّات تشريح وتحليل للأجساد. ما الذي بإمكانك قوله لإغريقيّ قديم ويعجز هو عن قوله، قصة كبيرة. هل بإمكانك إخباره عن الذرّة؟ الذرّة atom مفردة إغريقيّة. عرف الإغريق أنّ الأحداث الكبرى في الكون لا يمكن رؤيتها بالعين البشريّة. إنّها أمواج، إنّها أشعّة، إنّها جزيئات».

- «أمورنا على ما يرام».

- «نحن نجلس في هذه الغرفة العفنة الضخمة. يبدو وكأنّنا عدنا بالزمن».

- «لدينا تدفئة، لدينا إضاءة».

- «تلك أشياء العصر الحجريّ. كان لديهم تدفئة وإضاءة. كان لديهم نار. كانوا يضربون حجرَيْ صوّان ليولّدوا شرارة. هل تُحسنُ ضرب حجرَيْ صوّان؟ هل ستميّز حجرًا صوّانًا لو رأيته؟ لو سألك سكّان العصر الحجريّ ما هو نوكليوتيد، هل تُحسن الإجابة؟ كيف نصنع ورق الكربون؟ ما الزجاج؟ لو استيقظت غدًا في العصور الوسطى ورأيت وباءً مستفحلًا، ما الذي بإمكانك فعله لإيقافه، وأنت تعرف ما تعرف عن تقدّم الأدوية والأمراض؟ ها نحن في القرن الحادي والعشرين عمليًّا وقد قرأتَ مئات الكتب والمجلات وشاهدت مئة برنامج تلفزيونيّ عن العلم والطبّ. هل بإمكانك إخبار أولئك الناس أمرًا جوهريًّا صغيرًا يمكن أن يُنقذ مليونًا ونصف المليون من الأرواح؟»

- «´اغلوا مياهكم ، سأقول لهم».

- «أكيد. وماذا عن افركوا خلف الأذنين . هذا جيّد بالقدر ذاته أيضًا».

- «لا أزال أظنّ أنّ أمورنا على ما يرام. لم يكن ثمّة تحذير. لدينا طعام، لدينا راديو».

- «ما الراديو؟ ما مبدأ عمل الراديو؟ تابع، اشرح. أنت تجلس وسط دائرة من هؤلاء الناس. يستخدمون الأدوات الحجريّة. يأكلون طعامًا ينبشونه من الأرض. اشرح ما الراديو».

- «ليس هناك لغز. نواقل قويّة ترسل إشارات. تنتقل عبر الهواء، لتلتقطها مُستقبِلات».

- «تنتقل عبر الهواء. ماذا، مثل الطيور؟ لم لا تقول إنّه سحر؟ تنتقل عبر الهواء بأمواج سحريّة. ما هو نوكليوتيد؟ لا تعرف، صحيح؟ مع أنّها أحجار أساس الحياة. ما نفع التكنولوجيا لو كانت تطوف في الهواء فحسب؟ تنتقل من كمبيوتر إلى آخر. تتغيّر وتنمو كلّ ثانية وكلّ يوم. ولكن فعليًّا لا أحد يعرف شيئًا».

- «أنت تعرف. تعرف بشأن نيودين دي. رأيتك بين أولئك الناس».

- «كان استثناء لمرّة واحدة فقط».

عاد إلى قراءته. قرّرت الخروج لأشمّ هواءً نقيًّا. في الخارج جماعات عديدة من الناس تقف حول نيران مشتعلة في براميل بسعة خمسة وخمسين غالونًا. رجل يبيع مشروبات غازيّة وسندويشات من ڤان تُفتح من الجانب. حافلات مدارس، درّاجات ناريّة، ڤانات صغيرة مركونة في الجوار. تمشّيت قليلًا. أناس ينامون في السيّارات، وآخرون ينصبون خيمًا. أعمدة ضوء تتراقص ببطء في الغابة، أصوات بحث، أصوات خافتة تنادي. مشيتُ قرب سيّارة مكتظّة بعاهرات من آيرن ستي. كان الضوء الداخليّ مشتعلًا، والوجوه تحتلّ النوافذ. كنّ يشبهن

الفتيات عند ركن المحاسبة في السوپرماركت، شقراوات، مستسلمات بذقون مرتخية. رجل يستند إلى الباب الأماميّ من جهة السائق، يتحدّث عبر فتحة صغيرة في النافذة، ينفث بخارًا أبيض مع تنفّسه. قال راديو: «تضاءلت مبيعات الخنازير المؤجّلة، مضيفة قدرًا من الانخفاض في تلك السوق».

اكتشفت أنّ الرجل الذي يتحدّث إلى العاهرات هو مري جيه سيسكند. مشيتُ إلى هناك، وانتظرت أن ينهي كلامه قبل أن أواجهه. خلع قفّازه الأيمن ليصافحني. ارتفعت نافذة السيّارة منغلقة.

- «ظننتُ أنّك ستكون في نيويورك لقضاء الإجازة بين الفصلين».

- «عدت باكرًا لأشاهد أفلام حوادث السيّارات. نظّم ألفونس أسبوع عروض ليساعد في التحضير للسيمينار. كنت في حافلة المطار متّجهًا إلى آيرن سيتي حين انطلقت الصافرات. لم يكن أمام السائق متّسع كبير للاختيار عدا اللحاق بحركة المرور إلى هنا».

- «أين ستقضي الليلة؟»

- «نُقل جميع من في الحافلة إلى أحد الأبنية الخارجيّة. سمعت شائعة عن نساء متبرّجات فجئت أستطلع الأمر. كانت إحداهنّ ترتدي لباس جلد النمر تحت معطفها. أرتني إيّاه. وأخرى قالت إنّ لديها فَرْجًا يُخلع ويُركّب! ما الذي تظن أنها تعنيه؟ أنا قلق قليلًا، مع هذا، بشأن جميع انتشارات أمراض أسلوب الحياة: أحمل واقيًا ذكريًّا مضلّعًا مدعّمًا طوال الوقت. قياس يلائم جميع الأحجام. ولكن ينتابني إحساس أنّه لا يشكّل حماية كافية ضدّ ذكاء وقابليّة الفيروس الحديث على التأقلم».

قلت: «لا يبدو عملهنّ مزدهرًا جدًّا».

- «لا أظنّ أنّ هذا هو نوع الأمراض الذي يفضي إلى الشبق الجنسيّ. قد يأتي زبون أو اثنان في نهاية المطاف ولكن لن تكون هناك حفلة جنس جماعيّة، ليس الليلة على أيّ حال».

- «أظنّ أنّ الناس يحتاجون إلى وقت للمرور خلال مراحل معيّنة».
- «هذا واضح».

أخبرته أنّني أمضيت دقيقتين ونصف الدقيقة متعرّضًا للسحابة السامّة. ثمّ لخّصت الحوار الذي تبادلته مع موظّف سميوڤاك.

- «هذا التنفّس البسيط للنيودين زرع الموت في جسدي. الأمر رسميّ الآن، بحسب الكمبيوتر. ثمّة موت داخل جسدي. إنّها مجرّد مسألة ما إذا كنت سأعيش أكثر منه أم لا. له دورة حياة خاصّة. ثلاثون عامًا. وحتّى لو لم يقتلني على نحو مباشر، من الأرجح أن يعيش أكثر منّي داخل جسدي. قد أموت في تحطّم طائرة وسيبقى نيودين دي مزدهرًا داخلي كما لو أنّ بقاياي وجدت مستقرًّا له».

قال مري: «هذه هي طبيعة الموت الحديث. له حياة مستقرّة. يزدهر مكانةً وبعدًا. فيه اكتساح لم يكن موجودًا من قبل أبدًا. بإمكاننا التقاط صور مقطعيّة له، تسجيل ارتعاشاته وأمواجه. لم نكن بمثل هذا القرب منه سابقًا، أو شديدي المعرفة بعاداته ومواقفه. نعرفه على نحو حميميّ. ولكنّه يواصل النموّ، اكتساب تسارع ومدى، منافذ جديدة، ممرّات ووسائل جديدة. وكلّما ازدادت معرفتنا تعاظم نموّه. هل هذا نوع من قوانين الفيزياء؟ كل تقدّم في المعرفة والتقنيّة يترافق مع نوع جديد من الموت، سلالة جديدة. الموت يتأقلم، مثل فعالية فيروس. هل هو قانون طبيعة؟ أم مجرّد خرافة تخصّني وحدي؟ أحسّ أنّ الموت أقرب إلينا من أيّ وقت مضى. أحسّ أنّنا نتشارك الفضاء ذاته مع الموتى. تذكر لاو تسي. 'لا فرق بين السريع والميّت. كلاهما قناة واحدة من الحيويّة'. قال هذا قبل المسيح بستمئة عام. هذا صحيح مجدّدًا، بل ربّما صحيح أكثر من أيّ وقت مضى».

وضع يديه على كتفي ونظر بحزن إلى وجهي. عبّر لي بأبسط كلمات عن مدى أسفه لما حدث. تحدّث عن احتمال وجود خطأ في الكمبيوتر.

الكمبيوتر يقترف أخطاء، كما قال. كهرباء البساط الساكنة قد تتسبّب بخطأ. نسالة خيط أو شعرة في الدارات. هو لم يكن يصدّق ما يقول وكذلك أنا. ولكنّه تحدّث على نحو مُقْنع، عيناه تضجّان بعاطفة عفويّة، شعور واضح وعميق. أحسست بأنّني قد كوفئت على نحو غريب. كان تعاطفه معادِلًا للحادثة، شفقة وأسى آسران. كان النبأ السيئ يستحقّ هذا تقريبًا.

- «منذ أن كنت في عشرينيّاتي، كان لديّ خوف، ورهبة. والآن قد تحقّق الأمر. أشعر بأنّني وقعت في فخّ، أحسّ بأنّني متورّط بشدّة. لا عجب أنّهم يسمّون هذا الشيء الحدث السامّ الهوائيّ. إنّه حدثٌ فعلًا. يؤشّر لنهاية الأشياء الخالية من الأحداث. هذه مجرّد بداية. انتظر وسترى».

قال مقدّم برنامج: «أنت على الهواء». انطفأت النار في براميل النفط. بائع السندويش أغلق الڤان.

- «هل هناك نوبات ديجا ڤو عند جماعتك؟»

قلت: «زوجة وبنت».

- «هناك نظريّة بشأن ديجا ڤو».

- «لا أريد سماعها».

- «لمَ تظنّ أنّ هذه الأمور قد حدثت من قبل؟ الأمر بسيط. لقد حدثت من قبل حقًّا في أذهاننا، كرؤى عن المستقبل. ولأنّها استبصارات، نعجز عن مواءمة مضمونها داخل منظومة وعينا بكونها قد تشكّلت الآن. هذه أمور خارقة للطبيعة أساسًا. نحن نستبصر المستقبل ولكنّنا لم نتعلّم كيفيّة معالجة التجربة. لذا تبقى كامنة إلى حين تحقّق الاستبصار، إلى أن يواجهنا الحدث. نصبح الآن أحرارًا في عمليّة تذكّره، فنعايشه كأيّ مادّة مألوفة».

- «لم انتشرت هذه النوبات لدى كثير من الناس الآن؟»

ردّ بهدوء: «لأنّ الموت في كلّ ذرّة من الهواء. إنّه يحرّر مادّة مكبوتة. إنّه يقرّبنا من أمور لم نكن نعلمها عن أنفسنا. ربّما كان هناك كثير منّا قد رأى لحظة موته، ولكنّه عجز عن إبراز المادّة إلى السطح. ربّما حين نموت، سيكون أوّل شيء نقوله، ´أعرف هذا الشعور. كنت هنا من قبل` ».

أعاد وضع يديه على كتفي، وتمعّن بي بحزن متجدّد آسر. سمعنا العاهرات ينادين الزبائن.

قلت لمري: «أودّ لو أفقد اهتمامي بنفسي. هل ثمّة فرصة لحدوث هذا؟»

- «أبدًا. لقد حاول أشخاص أفضل منك».

- «أظنّ أنّك محقّ».

- «هذا واضح».

- «أتمنّى لو كان ثمّة ما يمكن لي فعله. أتمنّى لو كان بإمكاني نسيان المشكلة».

- «اعمل بجدّ أكبر على هتلرك».

نظرت إليه. ما مقدار ما يعرفه؟

فُتحت نافذة السيّارة قليلًا. قالت إحدى النساء لمري: «حسنًا، سأفعلها مقابل خمسة وعشرين».

قال: «هل راجعتِ المسؤول عنك؟»

أنزلتْ النافذة لتحدّق به. كان مظهرها بليدًا مثل المرأة مجعّدة الشعر التي ظهرت في أخبار المساء حيث دُفن بيتها في الطين.

قال مري: «تعلمين من أقصد. الرجل الذي يراعي احتياجاتك العاطفيّة مقابل مئة بالمئة من إيرادك. الرجل الذي تعتمدين عليه لضربك حين تسيئين التصرّف».

- «بوبي؟ إنه في آيرن سيتي، مختبئ من السحابة. لا يحبّ الخروج للتدخّل بنفسه إلا إذا كان الأمر ضروريًا حقًا».

ضحكت النساء، وبرزت ستّ رؤوس. كانت ضحكةً خبيرةً. مبالغًا فيها بعض الشيء، بحيث تعني تمييزهنّ كجماعة مترابطة في ما بينها بطرق لا تُقدّر بسهولة من باقي الناس.

فُتحت نافذة ثانية بمقدار نصف إنش، وأطلّ فم برّاق: «بوبي نموذج القوّاد الذي يحبّ استخدام عقله».

جولة ثانية من الضحك. ولم نكن واثقين ما إذا كان الضحك على حساب بوبي، أو حسابنا، أو حسابهنّ. ثمّ ارتفعت النافذة.

قلت: «الأمر لا يخصّني، ولكن ما الأمر الذي ستقدّمه لك مقابل خمسة وعشرين دولارًا؟»

- «مناورة هايملخ(*)».

تمعّنتُ في جزء وجهه بين القبّعة واللحية. بدا مستغرقًا في التفكير، يحدّق بالسيّارة. كانت النوافذ مضبّبة، ورؤوس النساء غارقة في دخان السجائر.

قال بشرود: «بالطبع علينا إيجاد فسحة عموديّة».

- «لا تتوقّع منها حقًّا أن تحشر لقمة طعام في مجراها الهوائيّ».

نظر إليّ، نصف مصعوق: «ماذا؟ لا، لا، لن يكون هذا ضروريًّا. طالما أنّها تصدر أصوات غصّ واختناق. طالما أنّها تزفر بعمق حين أدفع بحوضي. طالما أنّها تسقط إلى الخلف عاجزة إلى حضني الذي سينقذها».

خلع قفّازه ليصافحني. ثمّ مضى إلى السيّارة ليناقش التفاصيل

(*) طريقة إسعاف أولي، للمصابين باختناق أو انسداد في الجزء العلوي من القصبة الهوائية، تعتمد على الوقوف خلف المصاب وإحاطة صدره بالذراعين، والضغط بالساعدين والكفين على الحجاب الحاجز إلى أعلى.

مع المرأة المطلوبة. راقبته يقرع الباب الخلفيّ. وبعد لحظة فُتح الباب فحشر جسده في المقعد الخلفيّ. مشيتُ باتّجاه أحد البراميل المشتعلة. ثلاثة رجال وامرأة وقفوا حول النار، يتبادلون الشائعات جيئة وذهابًا.

ماتت ثلاث غزلان في كونغ فو پالاس. مات الحاكم، أمّا الطيّار ومساعد الطيّار فأصيبا بجروح خطيرة بعد «هبوط تحطّم» في مول تجاريّ. رجلان ماتا في فناء محطّة القطار، مع آثار حروق واضحة بالأسيد في بزّتيهما المايلكس. مجموعات من كلاب جيرمن شيپرد، الكلاب التي تشمّ النيودين، هبطت مظلاتها ثمّ أُرسلوا إلى المناطق المتأثّرة. ثمّة حالات كثيرة شوهدت فيها صحون طائرة في المنطقة. انتشرت عمليّات نهب كثيرة من جانب رجال يرتدون أكياس بلاستيكيّة. ومات اثنان منهم. ستّة من رجال الحرس الوطنيّ ماتوا، قتلوا في اشتباك إطلاق رصاص اندلع إثر حادثة عنصريّة. هناك تقارير عن حالات إجهاض، وأطفال يولدون قبل أوانهم. كما كانت هناك مشاهدات لسحب متموّجة أخرى.

كان الناس الذين يتبادلون هذه المعلومات غير الأكيدة يروونها برهبة مشوبة بالاحترام، قافزين على رؤوس أصابع أقدامهم في الطقس البارد، عاقدين أذرعهم على صدورهم. كانوا خائفين من احتمال أن تكون القصص حقيقيّة، ومنبهرين في الوقت ذاته بالسمة الدراماتيكيّة للأشياء. كان الحدث السامّ قد أطلق روح الخيال. أناس يبتكرون حكايا، وآخرون ينصتون مسحورين. كان ثمّة احترام متعاظم للشائعة الصاعقة، الحكايا الأشدّ إرعابًا. ولم نكن أقرب لتصديق قصّة ما أو عدم تصديقها ممّا كنّا عليه من قبل. ولكن ثمّة تقديرًا أكبر الآن. بدأنا نتعجّب من قدرتنا على تصنيع الرهبة.

جيرمن شيپرد. ذاك كان الخبر المُطَمْئن الذي اختزنته داخلي. الجسد القويّ، الفراء الغزير الداكن، الرأس الشرسة، اللسان اللاعق

الطويل. تخيّلتها تجوس الشوارع المقفرة، متأهّبة، بخطى حذرة، قادرة على سماع أصوات نعجز عن سماعها، قادرة على الإحساس بالتغيّرات في تدفّق المعلومات. رأيتها في بيتنا، تتشمّم الخزائن، آذانها الطويلة منتصبة، وثمّة رائحة تحفّها تنبعث من الحرارة والفرو والقوّة المُخزَّنة.

في الثكنة كان الجميع نائمًا تقريبًا. تحسّست طريقي قرب جدار مظلم. الأجساد المكتظّة تستلقي بهدوء ثقيل، وتبدو وكأنّها تصدر زفرة أنفيّة واحدة. أجساد تضطرب؛ طفل آسيويّ بعينين واسعتين يراقبني أخطو وسط أكياس نوم محتشدة. أضواء ملّونة مرّت جانب أذني اليمنى. سمعت تدفّق ماء في المرحاض.

كانت بابيت تكوّر جسدها على فراش هوائيّ مغطّاة بمعطفها. ابني ينام جالسًا في كرسيّ مثل راكب قطار سكران، رأسه مائل على صدره. حملت كرسيّ تخييم إلى السرير النقّال حيث كان الأطفال الأصغر. ثمّ جلستُ هناك، منحنيًا إلى الأمام، كي أراقبهم وهم نائمون.

خليط فوضويّ من الرؤوس والأطراف المتداخلة. في تلك الوجوه الناعمة الدافئة ثمّة ثقة مطلقة وشديدة النقاء بحيث لم أشأ التفكير بأنّها قد تكون في غير محلّها. لا بدّ من وجود شيء في مكان ما، مكان ما، كبير وهائل وجليل بما يكفي لتبرير هذا التّعويل المتّقد والإيمان الضمنيّ. إحساس ورع يائس خيّم عليّ. كان ذا طبيعة كونيّة، يضجّ بالحنين والوصول. يتحدّث عن مسافات شاسعة، قوى هائلة ولكن رقيقة. كان هؤلاء الأطفال النائمون مثل شخصيّات في إعلان عن جماعة الصّليب الورديّ، حيث ينبع شعاع نور قويّ من مكان ما خارج الصفحة. تقلّبت ستيفي قليلًا، وتمتمت شيئًا وهي نائمة. بدا مهمًّا أن أعرف ما كان. في وضعي الحاليّ، حاملًا لطخة الموت بفعل سحابة النيودين، كنت مستعدًّا للبحث في أيّ مكان عن علامات وتلميحات. إلماحات براحة غريبة. سحبت الكرسي مقتربًا أكثر. ربّما كان وجهها وهي نائمة بعمق

مثل بنية لم تُخلق إلا لتحمي عينيها، تينك الشيئين العظيمين، الكبيرين، الواسعين، النزّاعين إلى انقلاب الألوان والتأهّب المندفع، إلى إدراكٍ لوجود اليأس عند الآخرين. جلست هناك أراقبها. بعد لحظات تمتمت مجدّدًا. مقاطع واضحة هذه المرّة، لا مجرّد تمتمة أحلام، ولكنّها لغة لا تنتمي إلى هذا العالم. جاهدتُ كي أفهم. كنت مقتنعًا أنّها قالت شيئًا، مقاطع تتوافق في اجتماعها مع معنى واضح. راقبت وجهها، وانتظرت. مضت عشر دقائق. تمتمت كلمتين مسموعتين بوضوح، مألوفتين ومحيّرتين في آن، كلمتين بدتا حاملتين لمعنى طقسيّ، جزءًا من تعويذة لفظيّة أو نشيد وجدٍ صوفيّ.

تويوتا سيليكا

مرّت لحظة طويلة قبل أن أدرك أنّ هذا اسم سيّارة. وتسبّبت هذه الحقيقة في دهشة أكبر. كان نطقهما جميلًا وغامضًا، جرعة ذهبيّة مع إيحاء بمعجزة وشيكة. بدا مثل اسم قوّة مغرقة في القدم في السماء، منقوش على ألواح باللغة المسماريّة. جعلني أحسّ أنّه يرفرف. ولكن كيف يمكن هذا؟ ماركة بسيطة، سيّارة عادية. كيف يمكن لهاتين الكلمتين الأقرب للهراء أن تجعلني أحسّ بمعنى، وبحضور، حين يتمتمها طفل في نومه المتقلّب؟ كانت تكرّر صوتًا تلفزيونيًّا فحسب. تويوتا كورولا، تويوتا سيليكا، تويوتا كريسيدا. اسم عابر للقوميّات، أنتجه كمبيوتر ما، قابل للنطق عالميًّا بهذه الدرجة أو تلك. جزء من ضوضاء دماغ كلّ طفل، المناطق الفرعيّة العميقة العصبيّة على السبر. أيًّا يكن مصدره، هزّني هذا الاسم المنطوق مثل أثر لحظة سموّ بهيٍّ.

أعوّل على أطفالي في هذا.

جلست فترة أطول، مراقبًا دينيز، مراقبًا وايلدر، أحسّ بانعدام الذات وكبر روحانيّ. كان ثمّة فراش هوائيّ فارغ على الأرض ولكنّني أردت أن أتشارك مع بابيت في الفراش فحشرت جسدي قرب جسدها، جسدها

الحالم. يداها، قدماها، وجهها، كلّها مدفونة تحت المعطف؛ ثمّة خصلة شعر فحسب. سقطت مباشرة في غفوة بحرّيّة مثل وعي سرطان البحر الساكن في الأعماق، هادئة بلا أحلام.

بدا أنّ دقائق قليلة قد مضت حين طوّقني الصخب والفوضى. فتحت عيني لأجد دينيز تهزّ ذراعيّ وكتفيّ. وحين رأت أنّني استيقظت، بدأت تهزّ أمّها بقوّة. حولنا من جميع الاتجاهات، كان الناس يرتدون ثيابهم ويوضّبون أغراضهم. كان الصخب الأكبر منبعثًا من سرينات الحافلات الصغيرة في الخارج. صوت يلقي إرشاداته عبر مكبّر صوت. وعلى مبعدة سمعت رنين جرس ثمّ سلسلة من زمامير السيّارات، وهي إشارة بدء لما سيصبح ضوضاء شاملة، ذعر قطيعيّ من أصوات زعيق رهيبة متفاوتة القوّة حيث السيّارات من مختلف الأحجام والأنواع تحاول الوصول إلى باب موقف السيّارات بأسرع وقت ممكن.

استطعت إجلاس جسدي. كانت كلتا الفتاتين تحاولان إيقاظ بابيت. كانت الغرفة تفرغ تدريجًا. رأيت هاينرش يحدّق بي وهو واقف فوقي، وابتسامة غامضة على شفتيه. كان الصوت المكبَّر يقول: «تغيّر رياح، تغيّر رياح. غيّرت السحابة اتّجاهها. سامّة، سامّة، تتّجه إلى هنا».

تقلّبت بابيت على الفراش وهي تغمغم بهدوء: «خمس دقائق أخرى» أمطرتها الفتاتان بوابل من الهزّات القويّة رأسها وذراعيها. انتصبت واقفًا، باحثًا عن مرحاض الرجال. كان وايلدر مرتديًا ثيابه. يأكل كعكة أثناء انتظاره. زعق الصوت مجدّدًا، مثل ثرثرة رتيبة في ميكروفون سوبرماركت، وسط طاولات بيع العطر ورنين الأجراس: «سامّة، سامّة. إلى سيّاراتكم، تابعوا إلى سيّاراتكم». دينيز، التي كانت تقبض على معصم أمّها، دفعت الذراع بأكملها على

الفراش. «لم عليه تكرار كلّ ما يقوله مرّتين؟ فهمنا من المرّة الأولى. هو يريد سماع نفسه يتحدّث فحسب».

تمكّنوا من رفع جسد بابيت على أطرافها الأربعة. هرعت إلى المرحاض. كان لديّ معجون الأسنان ولكنّني عجزت عن إيجاد الفرشاة. وضعت قليلًا من المعجون على إبهامي ومرّرت الإبهام على طول أسناني. حين عدت، كانوا قد ارتدوا ثيابهم وتهيّأوا، متّجهين إلى المخرج. امرأة برباط ذراع توزّع أقنعة عند الباب، أقنعة جراحيّة بيضاء تغطّي الأنف والفم. أخذنا ستّة وخرجنا. كان الظلام لا يزال مخيّمًا. ومطر غزير يهطل. أمامنا امتدّ مشهد من الفوضى الشاملة. سيّارات عالقة في الطين، سيّارات متوقّفة، سيّارات تزحف عبر طريق الخروج الوحيدة، سيّارات تسلك طريقًا مختصرة عبر الغابة، سيّارات عالقة بين الأشجار، والصخور، والسيّارات الأخرى. السرينات تزعق ثمّ تخفت، الزمامير تنطلق بيأس واحتجاج. أناس يركضون، وخيام طيّرتها الرياح إلى الأشجار، وعائلات بأكملها تترك سيّاراتها وتنطلق مشيًا إلى مدخل ساحة الركن، ومن داخل الغابات سمعنا هدير درّاجات ناريّة، وأصواتًا تطلق صيحات غير مفهومة. بدا المشهد مثل سقوط عاصمة كولونياليّة في أيدي الثوار. دراما صاخبة كبيرة مع عناصر من الذلّ والذنب. وضعنا أقنعتنا وركضنا عبر الزحام إلى سيّارتنا. على بعد أقلّ من عشر ياردات كانت جماعة رجال تخطو بهدوء إلى لاندروفر. بدوا أشبه بقادة في حرب عصابات. رجال بقامات نحيلة ورؤوس طويلة ضخمة. انطلقوا بالسيّارة باتّجاه الشجيرات الكثيفة مباشرة، مبتعدين لا عن الطريق الموحلة فقط بل عن جميع السيّارات الأخرى التي تحاول شقّ طرق مختصرة. كان المُلصَق على مصدّ سيّاراتهم يقول الحدّ من الأسلحة يعني التحكّم بالعقل. في مواقف مماثلة لهذا، تودّ أن تلتصق بأعضاء الجماعات اليمينيّة الهامشيّة. تدرّبوا على البقاء على قيد الحياة. تبعتهم بشيء من الصعوبة، حيث كانت سيّارتنا الصغيرة تثب على نحو سيئ

في الشجيرات الكثيفة، فوق المنحدرات، وعلى الحجارة المتخفّية. وخلال خمس دقائق كانت اللاندروفر قد اختفت عن الأنظار.

تحوّل المطر إلى بَرَد، والبَرَد إلى ثلج.

رأيت صفًّا من المصابيح الأماميّة لسيّارات أقصى اليمين فانطلقت بالسيّارة خمسين ياردة عبر أخدود في ذلك الاتّجاه، والسيّارة تميل مثل مزلقة. لم يبد أنّنا نقترب من الأضواء. شغّلت بابيت الراديو فقيل لنا إنّ على الناس الذين أخلوا مخيّم الكشافة الانطلاق نحو آيرن ستي، حيث جُهزّت التدابير لتأمين الطعام والمأوى. سمعنا صخب زمامير فاعتقدنا أنّها ردّة فعل على إعلان الراديو ولكنّها استمرّت بزخم سريع لحوح، مُظهرة في هذه الليلة العاصفة إحساسًا بخوف وتحذير حيوانيّين.

ثمّ سمعنا هدير المراوح. من فُرجات الأشجار العالية رأيناها، السحابة السامّة الهائلة، مضاءةً الآن بمصابيح ثماني عشرة حوّامة - هائلة بحيث تكاد تكون عصيّة على الاستيعاب، فوق حدود الأسطورة الشاسعة، كتلة منتفخة هائجة مثل بزاقة حلزون. بدا أنّها تولّد عواصفها الداخليّة الخاصّة. ثمة فرقعات وبقبقات، وهج ضوء، ألسنة متراقصة طويلة من اللهب الكيميائيّ. زمامير السيّارات تزعق وتئنّ. الحوامات ترتجّ كأجهزة عملاقة. جلسنا في السيّارة، في الغابة المغطّاة بالثلج، لا ننبس بكلمة. السحابة العظيمة، بعيدًا عن قلبها الهائج، كانت تبرق بلون فضّيّ تحت أضواء المصابيح. كانت تتحرّك بقوّة رهيبة وبطء بزّاقة عبر الليل، وبدا أنّ الحوامات تتسكّع بلا أدنى فعاليّة حول حوافّها. في حجمها الهائل، كتلتها المظلمة الضخمة، والحوامات المرافقة لها، كانت السحابة تشبه ترويجًا وطنيًّا للموت، حملة بملايين الدولارات تدعمها فقرات إذاعيّة، وإعلانات طرق وصحف، وتخمة تلفزيونيّة. كان ثمّة تفريغ عالي المستوى للأضواء المبهرة. تزايدت درجة أصوات الزمامير.

تذكّرت بما يشبه الصدمة أنّني ميّت عمليًّا. عاودتني المقابلة مع تقني سميوڤاك بتفاصيلها الرهيبة. شعرت بالتوعّك على مستويات عدّة.

لم يكن ثمّة ما أفعله باستثناء محاولة إيصال العائلة إلى ضفّة السلامة. تابعت انطلاقي عبر الأضواء، نحو صوت الزمامير الزاعقة. كان وايلدر نائمًا، مبحرًا في فضاءات متماثلة. ضغطت دوّاسة البنزين، حرّكت العجلة، واندفعت بالسيّارة عبر صفّ من أشجار الصنوبر الأبيض.

عبر قناعه قال هاينرش: «هل تمعّنتم يومًا في عيونكم؟»

«ماذا تعني؟» قالت دينيز، مبدية اهتمامًا مباشرةً، كما لو كنّا مستلقين بتكاسل في يوم صيفيّ على الشرفة الأماميّة.

- «عيونكم. هل تميّزون أجزاءها؟»

- «تعني القزحيّة مثلًا، والبؤبؤ؟»

- «تلك هي الأجزاء المُعْلنة. ماذا عن الجسم الزجاجيّ؟ ماذا عن العدسة؟ العدسة كلمة خادعة. ما عدد الناس الذين يعرفون أساسًا أنّ لديهم عدسة؟ يظنّون أنّ ´عدسة` تعني ´كاميرا` حتمًا».

- «ماذا عن الأذن؟» قالت دينيز بصوت مكتوم.

- «لو كانت العين لغزًا، انسي الأذن تمامًا. فقط قولي ´قوقعة` لأيّ شخص، سينظر إليك كما لو أنّه يقول ´من هذا الشخص؟` ثمّة عالم بأسره داخل جسدنا».

قالت: «ولا أحد يكترث».

- «كيف يمكن للناس أن يعيشوا حياتهم بأكملها من دون معرفة أسماء أعضائهم الجسديّة؟»

قالت: «ماذا عن الغدد؟»

- «بإمكانك أكل غدد الحيوانات. العرب يأكلون الغدد».

- «الفرنسيون يأكلون الغدد». قالت بابيت عبر شاش القناع. «العرب يأكلون العيون، بما أنّنا في سيرة العيون».

قالت دينيز: «أيّ أجزاء؟»

- «العين بأكملها. عين الخروف».

قال هاينرش: «لا يأكلون الرموش».

قالت ستيفي: «هل تمتلك الخراف رموشًا؟»

قالت بابيت: «اسألي أباك».

خاضت السيّارة في غدير لم أنتبه إليه حتّى صرنا فيه. جاهدت كي نصل إلى الضفّة المقابلة. كان الثلج يسقط بغزارة عبر الأغصان العالية. واستمرّ الحوار من وراء الأقنعة. فكّرت أنّ مأزقنا الحالي لا يبدو موضع اهتمام كبير لبعض منّا. أردتهم أن ينتبهوا إلى الحدث السامّ. أردت أن يتمّ تقديري لجهودي في إيصالنا إلى الطريق. فكّرت أن أخبرهم عن الحساب الكمبيوتريّ، الموت المرهون بالزمن الذي أحمله في كروموزوماتي ودمي. تسرّب الرثاء الذاتيّ عبر روحي. حاولت أن أهدأ وأستمتع به.

- «سأعطي أيّ شخص في هذه السيّارة خمسة دولارات». قال هاينرش عبر قناعه، «لو تمكّن من إجابتي ما إذا كان العدد الأكبر من البشر قد ماتوا أثناء بناء الأهرامات في مصر أم بناء سور الصين العظيم - وعليكم تحديد عدد من ماتوا في كلّ من المكانين، بفارق خمسين شخصًا».

تبعت ثلاث مركبات ثلجيّة عبر حقل مفتوح. كشفت عن جو مرح ذكيّ. كان الحدث السامّ لا يزال ضمن مجال الرؤية، واللهب الكيميائيّ يفرقع في أقواس بطيئة تندفع من جزئه الداخليّ. مررنا بعائلات تمضي مشيًا، رأينا صفًّا من أضواء حمراء مزدوجة تومض وسط الظلام. وحين خرجنا من الغابة، نظر إلينا الناس في السيّارات الأخرى بعيون ناعسة.

استغرق الوصول إلى الجادّة تسعين دقيقة، وثلاثين أخرى للوصول إلى تقاطع الطرق، ومنه انطلقنا إلى آيرن ستي. هنا التقينا بجماعة كونغ فو بالاس. زمامير زاعقة، أطفال يلوّحون. مثل عربات قطار تتهادى على سكّة سانتا ڤي. والسحابة لا تزال معلّقة في المرآة الأماميّة.

كرايلن، رسْتْ-أُولْيَمْ، ريد ديفل.

وصلنا آيرن ستي عند الفجر، كانت تنتشر نقاط تفتيش عند جميع مخارج الطريق. وزّع الشرطيّون الجوّالون وموظّفو الصليب الأحمر إرشادات مطبوعة بشأن مراكز الإخلاء. وبعد نصف ساعة وجدنا أنفسنا مع أربعين عائلة أخرى، في صالة كاراتيه مهجورة في الطابق العلويّ من بناء مكوّن من أربعة طوابق في الشارع العامّ. لم يكن ثمّة أسرّة أو كراسٍ. رفضت ستيفي خلع قناعها. وبحلول الساعة التاسعة صباحًا وصلتنا فُرُش هوائيّة، وبعض الطعام والقهوة. عبر النوافذ المغبرّة رأينا جماعة من تلاميذ المدارس المُعمَّمين، أعضاء جماعة السيخ المحليّة، يقفون في الشارع مع لافتة مكتوبة بخطّ اليد: **آيرن سيتي ترحّب بمن أخلوا المنطقة.** لا يُسمح لنا بمغادرة البناء.

على حائط الصالة رسومات توضيحيّة بحجم البوستر لوضعيّات التحريك الستّة في الكفّ البشريّة.

ظهرًا انتشرت شائعة في أرجاء المدينة. أُنزل تقنيّون بحبال من حوامات الجيش كي يزرعوا جسيمات ميكروويّة في قلب السحابة السامّة. كانت هذه الجسيمات إعادة تجميع جينيّة تتّسم بشهيّة مصمّمة للجزيئات السامّة الفاعلة في نيودين دي. هذه الجسيمات ستستهلك السحابة المتموّجة حرفيًّا، تلتهمها، وتُشظيها، وتفكّكها.

هذا الابتكار المذهل، شديد الشبه في الطبيعة بما يمكن أن نصادفه على صفحات ناشيونال إنكوايرر أو ذا ستار، جعلنا نبدو متململين قليلًا، مُتْخَمين على نحو وهميّ، كما يحدث بعد تناول أطعمة سريعة. تجوّلت

في أنحاء الغرفة، كما كنت أفعل في مخيّم الكشّافة، متنقّلًا من جماعة متحدّثة إلى أخرى، لم يبد أنّ أحدًا مهتمّ بمعرفة الكيفيّة التي يمكن فيها لمجموعة جسيمات ميكروويّة استهلاك ما يكفي من المادّة السامّة لتنظيف السماء من مثل هذه السحابة الكثيفة الهائلة. لم يكن أحد يعرف ما سيحدث للنفايات السامّة بعد أن تُؤكَل أو للجسيمات الميكرويّة بعد أن تُنهي طعامها.

في كلّ فسحة من الغرفة كان الأطفال يقلّدون وضعيّات كاراتيه. وحين عدت إلى مكاننا، كانت بابيت تجلس وحيدة ترتدي وشاحًا وقبّعة من الصوف.

قالت: «لا أحبّ هذه الشائعة الأخيرة».

- «بعيدة الاحتمال؟ تظنّين أنّه من غير المعقول أن تتمكّن حفنة من الجسيمات من شقّ طريقها بالأكل عبر الحدث السامّ».

- «أظنّ أنّ هناك جميع أنواع الاحتمالات في العالم. لا أشكّ ولو للحظة أنّ لديهم هذه الجسيمات الصغيرة مُخزَّنة في خزانة تضمّ علبًا بلاستيكيّة شفّافة، مثل علب ريش القلم. هذا ما يقلقني».

- «احتمال وجود جسيمات مصنَّعة بحدّ ذاته».

- «الفكرة، الاحتمال، البراعة المذهلة. من جهة، أنا أحترم الأمر تمامًا. مجرّد التفكير بأنّ ثمّة أناسًا قادرون على تصنيع مثل هذه الأشياء. ميكروب آكل للسحاب أو أيًّا يكن اسمه. الأمر هو أنّه ليس ثمّة نهاية للمفاجأة. كلّ الدهشة المتبقّية في العالم هي ميكروسكوبيّة. ولكنّني قادرة على التعايش مع هذا. أمّا ما يخيفني فهو التساؤل هل قلّبوا الاحتمال من جميع وجوهه فعلًا؟»

قلت: «تشعرين بتوجّس غامض».

- «أشعر أنّهم يعملون على الجزء المؤمن بالخرافات من طبيعتي. كلّ تقدّم أسوأ من سابقه لأنّه يجعلني أكثر رعبًا».

- «رعبٌ من ماذا؟»

- «السماء.. الأرض، لا أعلم».

- «كلّما تزايد التقدّم العلميّ، تعاظم الخوف البدائيّ».

- «لم هذا؟»

في الثالثة عصرًا كانت ستيفي لا تزال ترتدي قناع الحماية. مشت قرب الجدران، عينان خضراوان فاتحتان، فطنتان، متأهّبتان، متكتّمتان. كانت تراقب الناس كما لو أنّهم يعجزون عن رؤيتها تراقبهم، كما لو أنّ القناع يغطّي عينيها بدلًا من تركهما مكشوفتين. ظنّ الناس أنّها تلعب لعبة. غمزوها، حيّوها. كنت واثقًا أنّ الأمر سيستغرق يومًا آخر قبل أن تشعر بأمان كافٍ لتخلع القناع. كانت صارمة بشأن التحذيرات، أوّلت الخطر بكونه حالة شديدة الافتقار في التفاصيل والدقّة لمكان أو زمان محدّدين. أعلم أنّ علينا الاكتفاء بانتظارها كي تنسى الصوت المضخَّم، والسرينات، والرحلة الليليّة عبر الغابة. وفي هذه الأثناء كان القناع، الذي يُبْرز عينيها، يمثّل حساسيتها حيال نوبات الضغط والتنبّه. بدا أنّه يقرّبها من مخاوف العالم الحقيقيّة، يشحذها برياحه.

في السابعة مساءً بدأ رجل يحمل تلفزيونًا صغيرًا يمشي ببطء في أرجاء الغرفة، متحدّثًا أينما توجّه. كان في منتصف العمر أو أكبر، رجل بعينين صافيتين وقامة منتصبة يرتدي قبّعة مؤطّرة بالفرو مع طيّات على الجانبين. كان يرفع التلفزيون عاليًا في الهواء بعيدًا عن جسده. وكان خلال حديثه يستدير كلّيًّا عدّة مرّات وهو يمشي كي يُري الشاشة الفارغة لجميع من كانوا في الغرفة.

قال لنا: «ليس هناك شيء على الشبكات. لا كلمة، ولا صورة. على قناة غلاسبورو عددنا اثنتين وخمسين كلمة بالضبط. لا تقريرًا مصوّرًا، لا بثًّا مباشرًا. هل يحدث هذا النوع من الأمور معظم الأحيان بحيث لم يعد أحد يكترث؟ ألا يعرف هؤلاء الناس ما قاسيناه؟ كنّا في

أقصى حالات الخوف. ولا نزال كذلك. تركنا بيوتنا، قدنا السيّارات في العاصفة القويّة، رأينا السحابة. كانت طيفًا قاتلًا يحوم فوقنا مباشرة. هل يُعقَل أن لا يُقْدم أحد تغطية مهمّة لهذا الشيء؟ نصف دقيقة، عشرين ثانية؟ هل يقولون لنا إنّ الأمر كان تافهًا، كان ضئيلًا؟ هل هم قساة القلوب إلى هذا الحدّ؟ هل هم شديدو الملل من التسرّبات والتلوّثات والنفايات؟ هل يظنّون أنّ الأمر مجرّد مسلسل تلفزيونيّ؟ ʼهناك قدر كبير من التلفزيون أساسًا - لم نعرض المزيد؟ʻ ألا يعلمون أنّه حقيقيّ؟ ألا ينبغي أن تكتظّ الشوارع بالمصوّرين وتقنيّي الصوت والمراسلين؟ ألا ينبغي لنا أن نصيح من النوافذ إليهم، ʼاتركونا وشأننا، لقد قاسينا بما فيه الكفاية، اخرجوا من هنا مع معدّات التطفّل الكريهة؟ʻ هل ينبغي أن يكون لديهم مئتا ميّت، ومشاهد كوارث قليلة في الأرشيف، قبل أن يأتوا إلى موقع ما بحواماتهم وليموزينات قناتهم؟ ماذا بالضبط يجب أن يحدث قبل أن يقحموا ميكروفوناتهم في وجوهنا ويلاحقوننا إلى عتبات بيوتنا، مخيّمين في الفناء الأماميّ، خالقين سيرك الميديا المعتاد؟ ألم نستحقّ الحقّ بالاشمئزاز من أسئلتهم الحمقاء؟ انظروا إلينا ونحن في هذا المكان. يتركون الطعام أسفل الدرج ويتسلّلون على أطراف أصابعهم إلى برّ الأمان. هذا أكثر الأوقات رعبًا في حياتنا. كلّ شيء أحببناه وعملنا من أجله هو تحت تهديد جدّيّ. ولكنّنا ننظر حولنا ولا نرى استجابة من المسؤولين عن وسائل الإعلام. الحدث السامّ الهوائيّ أمر مرعب. خوفنا هائل. حتّى لو لم يكن ثمّة قدر كبير من فقدان الأرواح، ألا نستحقّ بعض الاهتمام حيال معاناتنا، قلقنا البشريّ، رعبنا؟ أليس هذا خبرًا مخيفًا؟»

هتاف. موجة مستمرّة من الصياح والتصفيق. تلفّت المتحدّث مرّة أخرى ببطء، عارضًا التلفزيون الصغير على جمهوره. وعندما أنهى استدارته، بات يواجهني تمامًا، على بعد ليس أكثر من عشرة إنشات. تغيير ألمّ بوجهه المُرهَق، ارتباك طفيف، صدمة من واقعة ثانويّة أفلتت منه.

قال لي أخيرًا: «رأيت هذا من قبل».

- «رأيت ماذا من قبل؟»

- «أنت تقف هناك، أنا أقف هنا. مثل قفزة نحو البعد الرابع. ملامحك حادّة وواضحة على نحو لا يصدّق. شعر خفيف، عينان مرهقتان، أنف متورّد، فم وذقن بلا علامات مميّزة، بشرة من النوع المتعرّق، فكّ اعتياديّ، كتفان مرتخيتان، يدان وقدمان ضخمتان. حدث كلّ هذا من قبل. البخار يهسهس في الأنابيب. شعرات صغيرة منتصبة في المسامات. هذه النظرة ذاتها على وجهك».

قلت: «أيّ نظرة؟»

- «ملتاعة، شاحبة، تائهة».

كان هذا منذ تسعة أيّام قبل أن يُعْلموننا أنّ بإمكاننا العودة على بيوتنا.

III

ديلاراما

22

السوپرماركت مليئة بالمسنّين الذين يبدون تائهين بين الأقسام التي تبعث على الدوار. بعض الناس قصيرو القامة ولا يصلون إلى الرفوف العليا؛ بعضهم يسدّون الممرّات بعرباتهم؛ بعضهم أخرق وبطيء الاستجابة؛ بعضهم نسّاء؛ بعضهم مرتبك؛ بعضهم يمشون وهم يتمتمون بتذمّر وعلى وجوههم النظرة الحذرة ذاتها التي يحملها الناس في المباني الحكوميّة.

وضعت عربتي في الممرّ. وايلدر يجلس داخلها، على الرفّ المتحرّك، محاولًا إمساك الأغراض التي تحرّض أشكالُها وإشعاعُها نظام تحليله البصريّ. ثمّة قسمان جديدان في السوپرماركت، زاوية لحّام، ومخبز، وقد كان امتزاج عبق الخبز والكعك في الفرن مع منظر الرجل الملطّخ بالدماء المنكبّ على شرائح لحم العجل شديد الإثارة لنا جميعًا.

«دْرِسْتان ألترا(*)، درستان ألترا».

مبعث الإثارة الأخرى كان الثلج. تنبّؤ بسقوط ثلوج غزيرة، في آخر النهار أو ليلًا. وهذا حرّض الحشود، من كان يخشى انسداد الطرق قريبًا، ومن كان مسنًّا إلى حدّ يعجز فيه على المشي في الثلج والجليد، ومن ظنّ أنّ العاصفة ستحبسهم في بيوتهم لأيّام وأسابيع. كان المسنّون على

(*) Dristan Ultra دواء شهير لعلاج حالات البرد.

نحو أخصّ شديدي التأثّر بالأخبار المنذرة بالكوارث كما عُرضت على التلفزيون من أشخاص وقورين يقفون أمام خرائط رادار رقميّة أو صور مضيئة لكوكب الأرض. يحتلّهم الجنون فيهرعون إلى السوپرماركت للتزوّد بالمؤن قبل تغيّر الطقس. رصد ثلوج، قال مذيعو النشرة الجويّة. تحذير من الثلج. سيّارات كشط الثلوج. ثلج ممتزج ببرَد ومطر متجمّد. كانت تثلج أساسًا في الغرب. وتتحرّك الآن إلى الشرق. تشبّثوا بهذه الأخبار كما يمسكون بجمجمة قزم. صور لثلوج. عواصف ثلجيّة. تحذيرات من الثلج. قيادة السيّارة وسط الثلوج. نفث الثلوج. ثلج عميق متنقّل. تراكمات، انزلاقات. كان المسنّون يتسوّقون بهلع. حين لا يملؤهم التلفزيون بالغضب، فإنّه سيخيفهم بدرجة كبيرة. كانوا يتبادلون الهمسات عند طوابير الدفع. النصائح للمسافرين، مجال الرؤية معدوم. متى ستهبّ؟ كم إنشًا سيكون الارتفاع؟ كم يومًا؟ باتوا متكتّمين، مراوغين، يتلقّون آخر وأسوأ الأنباء من الآخرين، يضيفون مكرًا إلى تعجّلهم، يحاولون التملّص إلى الخارج قبل أن يتساءل أحدهم عن كميّة مشترياتهم. مؤن في زمن الحرب. جشعون. مذنبون.

رأيت مري في قسم الطعام العضويّ، يحمل مقلاة تِفْلون. توقّفت أراقبه برهة. كان يتحدّث إلى أربعة أشخاص أو خمسة، متوقّفًا أحيانًا لخربشة عدّة ملاحظات في دفتر بسلك. كان بارعًا في الكتابة، فيما المقلاة مثبّتة بغرابة تحت ذراعه.

ناداه وايلدر، بزعيق مثل صوت السناجب، فتقدّمت دافعًا العربة.

- «كيف هي امرأتك الصالحة؟»

قلت: «جيّدة».

- «هل بدأ هذا الطفل بالكلام؟»

- «بين حين وآخر. يحبّ اختيار أوقاته».

- «تتذكّر تلك المسألة التي ساعدتني فيها؟ نزاع السلطات على إلڤيس پريسلي؟»

- «أكيد، أتيت وحاضرت».

- «تبيّن، للأسف، أنّني كنت سأربح في جميع الأحوال».

- «ماذا حدث؟»

- «كوتساكيس، غريمي، لم يعد بين الأحياء».

- «ماذا يعني هذا؟»

- «يعني أنّه ميت».

- «ميت؟»

- «ضاع أثناء ركوب الأمـواج عند ماليبو. خلال الإجـازة بين الفصلين. عرفت هذا منذ ساعة. وجئت إلى هنا».

تنبّهت فجأة إلى النسيج الكثيف المحيط. الأبواب الأوتوماتيكيّة تنفتح وتنغلق، تطلق صريرًا شديدًا. بدت الألوان والروائح أكثر حدّة. برز صوت وقع الأقدام من بين عشرات الأصوات الأخرى، من الأزيز العميق لمنظومات الصيانة، من حفيف صفحات الجرائد حين كان المتسوّقون يستطلعون أبراجهم في الجرائد المعلّقة، من همسات النساء العجائز بوجوههنّ المتبرّجة، من القعقعة الرتيبة للسيّارات حين تطأ غطاء فتحة صرف صحّيّ خارج المدخل. أقدام متثاقلة. سمعتها بوضوح، خطو حَذِرٌ حزين في كلّ الممرّات.

- «وكيف حال الفتاتين؟»

- «جيّد».

- «عادتا إلى المدرسة؟»

- «نعم».

- «بعد أن انتهى الرعب».

- «نعم. لم تعد ستيفي ترتدي قناع الحماية».

- «أريد شراء بعض قطع نيويورك». قال، مشيرًا باتّجاه اللحّام.

بدت العبارة مألوفة، ولكن ما الذي يعنيه؟

- «لحم غير معلّب، خبز طازج». واصل الكلام. «فواكه غريبة، أجبان نادرة. منتجات من عشرين بلدًا. يبدو الأمر مثل الوقوف عند تقاطع طرق في العالم القديم، بازار فارسيّ أو بلدة مزدهرة على ضفاف دجلة. كيف حالك يا جاك؟»

ما الذي عناه بقوله كيف حالي؟

قلت: «يا للمسكين كوتساكيس، فُقد في ركوب الأمواج. ذلك الرجل الضخم».

- «ذاك هو».

- «لا أعرف ما أقول».

- «كان ضخمًا فعلًا».

- «إلى حدّ هائل».

- «لا أعرف ما أقول أيضًا. عدا أنّه من الأفضل أنّه هو من رحل لا أنا».

- «لا بدّ أنّ وزنه كان يفوق ثلاثمئة رطل».

- «أوه، بسهولة».

- «ما رأيك، مئتان وتسعون، ثلاثمئة؟»

- «ثلاثمئة على الأكيد».

- «ميّت. رجل ضخم مثله».

- «ما الذي بوسعنا قوله؟»

- «ظننتُ أنّني ضخم».

- «كان ضخمًا على مستوى آخر. أنت ضخم على مستواك».

- «ليس هذا لأنّني أعرفه. لم أكن أعرفه على الإطلاق».

- «من الأفضل أن لا نعرفهم حين يموتون. من الأفضل أن يكونوا هم لا نحن».

- «أن تكون هائل الحجم بشدّة. ثمّ تموت».

- «أن تُفقد دون أثر. أن تُجرَف بعيدًا».

- «بإمكاني تخيّله بوضوح تامّ».

- «هذا غريب بشكل ما، أن نتمكّن من تخيّل الموتى».

أخذت وايلدر على طول صناديق الفاكهة. كانت الفاكهة برّاقة، مبلّلة، قاسية القشر. ثمّة شيء من الغرور فيها. بدت مُعتنى بها بحرص، مثل الفاكهة ذات الألوان الأربعة في دليل للتصوير الفوتوغرافيّ. انعطفنا يمينًا عند أباريق الماء البلاستيكيّة واتّجهنا إلى المحاسب. كنت أحبّ التواجد مع وايلدر. كان العالم سلسلة من المسرّات العابرة. كان يمسك كلّ ما يستطيع ثمّ ينساه في غمرة إمساك مسرّة تالية. كنت أحسد وأحترم هذا النسيان.

طرحت عليه الفتاة في ركن المحاسب عدّة أسئلة، عارضة إجاباتها بصوت طفوليّ.

كانت بعض بيوت البلدة تبدي مظاهر إهمال. كانت مقاعد الحديقة بحاجة إلى إصلاح. الشوارع المحفَّرة تحتاج إلى ترميم. علامات الزمن. ولكنّ السوپرماركت لم تتغيّر، إلا نحو الأفضل. كانت حسنة التنظيم، موسيقيّة، برّاقة. كان هذا هو المفتاح، كما بدا لنا جميعًا. كان كلّ شيء رائعًا، وسيستمرّ في كونه رائعًا، بل يتّجه ليكون أفضل في نهاية المطاف طالما أنّ السوپرماركت موجودة.

في وقت مبكّر ذلك المساء، أوصلت بابيت إلى درس الوضعيّات. توقّفنا عند زاوية الجادة وخرجنا لمشاهدة الغروب. منذ الحدث السامّ

الهوائيّ، أصبحت لحظات الغروب جميلة على نحوٍ رائع. لا يعني هذا أنّ ثمّة صلة ملموسة. لو كانت خصائص مشتقّ النيودين (إضافة إلى التدفّق اليوميّ من الاندلاقات، والتلوّث، والشوائب، والاختلاطات) قد تسبّبت بهذه القفزة الجماليّة من لحظات الغروب الرائعة أساسًا إلى مشاهد بصريّة عالية واسعة حمراء، مشوبة بالرهبة، فهذا أمر لم يتمكّن أحد من إثباته.

قالت بابيت: «ما الذي بإمكاننا تصديقه غير هذا؟ كيف لنا أن نفسّر بغير هذا؟»

- «لا أعلم».

- «لسنا عند حافّة محيط أو صحراء. كانت لدينا لحظات غروب شتائيّة باهتة. ولكن انظر إلى السماء المتّقدة. إنّها جميلة، آسرة جدًّا. كان الغروب يستغرق خمس دقائق. إنّه يمتدّ الآن ساعة كاملة».

- «لم هذا؟»

- «لم هذا؟»

كانت هذه البقعة عند الزاوية تمنح إطلالة واسعة على الغرب. كان الناس يأتون إلى هنا منذ ابتداء لحظات الغروب الجديدة، حيث يوقفون سيّاراتهم، ويقفون في الرياح القارسة ليتبادلوا الأحاديث المرتبكة والمشاهدة، ثمّة أربع سيّارات قد توقّفت حتّى الآن، وغيرها قادمة حتمًا. أصبحت الزاوية نقطة تأمّل. تردّدت الشرطة في فرض حظر ركن سيّارات هنا. كان أحد تلك المواقف، مثل الألعاب الأولمبيّة لذوي الحاجات الخاصّة، التي تجعل كلّ الضوابط قليلة الأهمّيّة.

عدت لاحقًا إلى كنيسة الأبرشيّة لأُقلّها. رافقتني دينيز ووايلدر في هذه الرحلة. كانت رؤية بابيت بالجينز ورباط تدفئة الساقين مشهدًا رائعًا ومثيرًا. كان رباط تدفئة لساقين أقرب إلى القماش العسكريّ، مسحة من الفروسيّة القديمة. حين كانت تزيل الثلوج كانت ترتدي عصابة رأس

من الفرو أيضًا. يدفعني هذا إلى التفكير بأناس القرن الخامس الميلاديّ محتشدين حول نار المخيّم يتحدّثون بنبرة هادئة بلهجاتهم التركيّة والمغوليّة. سماوات صافية. الموت النموذجيّ الشجاع لأتيلا ملك الهون.

قالت دينيز: «كيف كان الدرس؟»

- «يمضي على نحو ممتاز إلى درجة أنّهم يريدون منّي تدريس فصل آخر».

- «عن ماذا؟»

«جاك لن يصدّق هذا».

قلت: «عن ماذا؟»

- «الأكل والشرب. اسمه الأكل والشرب: سمات أساسيّة. ولا بدّ لي من الاعتراف بأنّه أشدّ حماقة بقليل ممّا يفترض به أن يكون حتمًا».

قالت دينيز: «وما الذي ستدرّسينه؟»

- «هذا كلّ شيء. الأمر عصيّ على الإحاطة الشاملة. كلْ أطعمة خفيفة في الطقس الدافئ. واشرب كمّيّة كافية من السوائل».

- «ولكنّ الجميع يعرفون هذا».

- «المعرفة تتغيّر يوميًّا. يحبّ الناس أن يروا معتقداتهم وقد تعزّزت. لا تستلق بعد وجبة ثقيلة. لا تشرب الكحول على معدة فارغة. لو توجّبت عليك السباحة، انتظر ساعة على الأقلّ بعد الطعام. العالم أشدّ تعقيدًا بالنسبة للبالغين منه للأطفال. لم نكبر مع هذه الوقائع والمواقف المتبدّلة. بدأت الظهور في يوم ما فجأة. لذا يحتاج الناس إلى أن يطمئنهم شخص في موقع سلطة بأنّ هذه الطريقة في فعل أمر. ما الطريقة الصحيحة أو الخاطئة، حاليًّا على الأقلّ. أنا كنت أكثر شخص في متناولهم، هذا كلّ شيء».

نسالة خيط صغيرة التصقت بشاشة التلفزيون.

استلقينا في السرير بهدوء. رأسي بين نهديها، متوسّدًا كما لو أنّي أتّقي عاصفة لا ترحم. كنت مصمّمًا أن لا أخبرها عن نتيجة الكمبيوتر. كنت أعلم أنّها ستنهار لو علمت أنّ من المؤكّد تقريبًا أنّ موتي سيسبق موتها. أصبح جسدها منبع عزمي، وصمتي. ليلًا أتحرّك إلى نهديها، دافنًا وجهي في ذلك المكان بعينه كما تذهب غوّاصة مصابة إلى حوض التصليح. كنت أستمدّ الشجاعة من نهديها، فمها الدافئ، يديها المتحرّكتين، أطراف أناملها المنزلقة على ظهري. وكلّما كانت اللمسة ألطف، زاد تصميمي على عدم إخبارها. وحده يأسها هو ما يمكن أن يكسر إرادتي.

مرّة كدت أطلب منها ارتداء رباط الساق قبل أن نمارس الحبّ. ولكنّه بدا طلبًا أشدّ انغماسًا في الشفقة منه كبادرة جنسيّة منحرفة، وظننت أنّ هذا سيجعلها تشكّ أنّ هناك مشكلة ما.

23

طلبت من مدرّس الألمانيّة إضافة نصف ساعة لكلّ درس. بدا الآن أنّ الوقت عاجل أكثر من أيّ وقت مضى لتعلّم اللغة. كانت غرفته باردة. وكان يرتدي ملابس طقس مختلف وبدا بأنّه يكوّم الأثاث عند النوافذ تدريجيًّا.

جلسنا متقابلين في الضوء الشحيح. كنت أقوم بعمل جيّد بشأن المفردات وقواعد النحو. بات بوسعي النجاح في اختبار كتابيّ بسهولة. ولكن لا زلت ألاقي صعوبة في لفظ الكلمات، ولم يبد دنلوپ أيّ اكتراث. كان يلفظ الكلمات مرارًا وتكرارًا، فتتطاير قطرات البصاق الجافّ على وجهي.

صار لدينا ثلاثة دروس في الأسبوع. وبدا بأنّه تخلّص من عادته

في الشرود، وبدا أشدّ انهماكًا. الأثاث، والجرائد، والصناديق الكرتونيّة، والأغطية البلاستيكيّة الشفّافة واصلت تراكمها عند الجدران والنوافذ - أغراض تبدو أنّها منحدرةٌ إلى وادٍ. كان يحدّق في فمي حين أؤدّي تمارين اللفظ. ومرّةً مدّ يده اليمنى ليضبط وضعيّة لساني. كانت لحظة غريبة وشنيعة، فعل حُميميّة مقلقة. لم يمدّ أحد يده إلى لساني من قبل.

كلاب جيرمن شيپرد لا تزال تجول أنحاء البلدة، يرافقها رجال ببزّات مايلكس. بتنا نرحّب بالكلاب، نعتاد عليها، نطعمها ونلاعبها، ولكنّنا لم نتأقلم تمامًا مع منظر الرجال ببزّاتهم وأحذيتهم الثقيلة، والأنابيب الملتصقة بأقنعتهم الواقية. ارتبطت هذه الملابس لدينا بمصدر معاناتنا ورعبنا.

أثناء تناول العشاء قالت دينيز: «لم لا يرتدون ملابس عاديّة؟»

قالت بابيت: «هذا ما يرتدونه أثناء تأديتهم عملهم. هذا لا يعني أنّنا في خطر. لم تلتقط الكلاب إلا بضعة آثار ضئيلة للمادّة السامّة عند أطراف البلدة».

قال هاينرش: «هذا ما يُفترض بنا تصديقه. لو أعلنوا عن النتائج الحقيقيّة لما يجدونه ستكون هناك دعاوى قضائيّة للتعويض بمليارات الدولارات. عدا التظاهرات، والهلع، والعنف، والفوضى الاجتماعيّة».

بدا بأنّه يتلذّذ في وصف المشهد. فقالت بابيت: «هذا احتمال متطرّف، أليس كذلك؟»

- «ما المتطرّف، ما قلته أم ما سيحدث؟»

- «الاثنان. ليس هناك سبب للاعتقاد أنّ النتائج ليست كما أعلن عنها».

قال: «هل تصدّقين ذلك حقًّا؟»

- «ولم لا؟»

- «ستنهار الصناعة لو تمّ الكشف عن النتائج الفعليّة لهذه التحقيقات».

- «أيّ تحقيقات؟»

- «التي تحدث في كلّ أنحاء البلاد».

قالت: «هذا هو موضوعنا. كلّ يوم في الأخبار نشاهد تسرّبًا سامًّا آخر. مذيبات كيميائيّة مسرطنة من صهاريج التخزين، زرنيخ من المداخن، ماء فيه موادّ مشعّة من مصانع الطاقة. ما مدى جدّيّة الأمر لو كان هذا يحدث طوال الوقت؟ أليس تعريف الحدث الخطير معتمدًا على حقيقة أنّه ليس حدثًا يوميًّا؟»

نظرت الفتاتان إلى هاينرش، مترقّبتين ردًّا بارعًا حاسمًا.

قال: «انسي هذه الاندلاقات. ليست الاندلاقات مهمّة».

لم يكن هذا هو الاتجاه الذي توقّع أيٌّ منّا أن يأخذ الحديث إليه. تأمّلته بابيت بحذر. قطّع ورقة خسّ على صحن السلطة أمامه إلى قطعتين متساويتين.

قالت بحذر: «لم أكن لأقول إنّها ليست مهمّة. إنّها تسرّب يوميّ صغير. إنّها قابلة للسيطرة. ولكنّها ليست مجرّد لا شيء. يجب أن نراقبها».

- «كلّما سارعنا بنسيان هذه الاندلاقات، كلّما اقتربنا من مواجهة القضيّة الحقيقيّة».

قلت: «وما القضيّة الحقيقيّة؟»

كان يتحدّث بفم مليء بالخسّ والخيار.

- «القضيّة الحقيقيّة هي نوع الإشعاع الذي يحيط بنا يوميًّا، الراديو، والتلفزيون، والميكروويف، وخطوط الطاقة خارج بابك، ورادار المرور على الأوتوستراد. لسنوات كانوا يقولون لنا إنّ هذه الجرعات الصغيرة ليست خطيرة».

قالت بابيت: «والآن؟»

راقبناه يستخدم ملعقته ليجعل البطاطا المهروسة في صحنه على شكل جبل بركانيّ. صبّ مرق اللحم بحرص شديد في الفتحة العلويّة. ثمّ انهمك في تخليص قطعة الستيك من الدهن، والأعصاب، والشوائب الأخرى. خطر لي أنّ الأكل هو الصيغة الاحترافيّة الوحيدة التي يبلغها معظم البشر.

قال: «هذا مبعث القلق الكبير الجديد. انسوا الاندلاقات، والانهيارات، والتسرّبات. الأمور التي تحيط بكم في منازلكم هي التي ستقضي عليكم عاجلًا أم آجلًا. إنّها الحقول الكهربائيّة والمغناطيسيّة. من في هذه الغرفة سيصدّقني لو قلت إنّ معدّل الانتحار يبلغ أقصاه بين الناس الذين يعيشون قرب خطوط التوتّر العالي؟ ما الذي يجعل هؤلاء الناس شديدي الحزن والاكتئاب؟ مجرّد رؤية الأسلاك العارية والأقطاب الكهربائيّة؟ أم أنّ ثمّة أمرًا يصيب خلاياهم الدماغيّة بفعل التعرّض للأشعّة المتواصلة؟»

غمس قطعة الستيك في المرق الذي صار في السفح البركانيّ، ثمّ وضعها في فمه. ولكنّه لم يبدأ المضغ إلى أن سحب بعض البطاطا من الطبقات السفلى وأضافها إلى اللحم. وبدأ التوتّر يحيط بسؤال ما إذا كان سيتمكّن من إنهاء المرق قبل أن تنهار البطاطا.

قال وهو يمضغ: «انسوا الصداع والإرهاق. ماذا عن الاضطرابات العصبيّة، السلوك الغريب والعنيف في المنزل؟ هذه اكتشافات علميّة. من أين تظنّون نشأ سبب ولادة أطفال مشوّهين؟ الراديو والتلفزيون. هذا هو».

نظرت الفتاتان إليه باحترام. أردت أن أحاججه. أردت أن أسأله لم يتوجّب عليّ تصديق هذه الاكتشافات العلميّة وليست النتائج التي قالت إنّنا آمنون من تسمّم النيودين. ولكن ما الذي بوسعي قوله وأنا في وضعي الحاليّ؟

وددتُ إخباره أنّ الدليل الإحصائيّ من النوع الذي كان يقتبس

منه هو غير حاسم ومضلّل بطبيعته. أردت أن أقول إنّه سيتعلّم التعامل مع هذه الاكتشافات الكارثيّة باتّزان مع تقدّمه في العمر، سيتخلّى عن حرفيّته الحاسمة، ويطوّر روحًا بحثيّة تشكيكيّة وواسعة الاطّلاع، يتقدّم في الحكمة وإطلاق الأحكام المتّزنة، يشيخ، ويذبل، ويموت.

ولكن كلّ ما قلته: «البيانات المرعبة أصبحت صناعة بحدّ ذاتها اليوم، تتنافس الشركات المختلفة في ما بينها لترى مدى الرعب الذي ستتمكّن من إحداثه فينا».

قال: «لديّ خبر لك. يطلق دماغ الجرذ الأبيض شوارد الكالسيوم حين يتعرّض لموجات بمستوى توتّر موجات الراديو. هل يعرف أحد على هذه الطاولة معنى هذا؟»

نظرت دينيز إلى أمّها.

قالت بابيت: «هل هذا ما يعلّمونه في المدرسة اليوم؟ ماذا حلّ بالتربية المدنيّة، كيف يصبح القانون تشريعًا؟ مربّع الوتر يساوي مربّع الضلعين القائمتين. لا أزال أتذكّر النظريّات. معركة بنكر هل جرت فعليًّا على تلّ بْريد. هاك واحدة. لاتفيا، إستونيا، لتوانيا».

قلت: «هل مونيتور أم ميريماك هي التي غرقت؟»

- «لا أعرف ولكن كان لدينا تيپيكانو وتايلر أيضًا».

قالت ستيفي: «ما هذا؟»

- «أريد أن أقول إنّه كان هنديًّا ينافس على رئاسة الجمهوريّة. هاك واحدة. من اخترع الحصّادة الآليّة وكيف غيّرت وجه الزراعة الأميركيّة؟»

قلت: «أحاول تذكّر أنواع الصخور الثلاثة. بركانيّ، رسوبيّ، وشيء آخر».

- «ماذا عن اللوغاريتمات؟ ماذا عن أسباب الاستياء الاقتصاديّ الذي أفضى إلى الانهيار الكبير؟ هاك واحدة. من فاز في مناظرات لنكولن- دوغلاس؟ انتبه. الأمر ليس واضحًا كما يبدو عليه».

قلت: «الأنتراسيت والبيتومينيّ. متساوي الضلعين ومختلف الأضلاع».

خطرت لي الكلمات الغامضة مع دفق من صور صفّ مدرسيّ ملخبطة.

- «هاك واحدة. الآنغلز، الساكسون، الجوت».

كانت ديجا ڤو لا تزال مشكلة في المنطقة. أُعلن عن خطّ ساخن مجّانيّ. وكان هناك مستشارون موجودون على مدار الساعة للتحدّث إلى الناس الذين تنتابهم نوبات متكرّرة. ربّما كانت ديجا ڤو وعِلل أخرى في الدماغ والجسد نتائج دائمة من الحدث السامّ الهوائيّ. ولكن خلال فترة من الوقت أصبح من الممكن تأويل مثل هذه الأشياء بكونها علامات عزلة عميقة بدأنا نحسّ بها. لم تكن ثمّة مدينة كبيرة بعذاب أكبر قد نستخدمه لرؤية مصيبتنا بمنظار مخفّف. لا مدينة كبيرة نلومها على إحساسنا بالنزوع إلى الظهور بمظهر الضحيّة. لا مركزًا تجاريًّا كبيرًا نابضًا يمتصّ لوعتنا، يُلهينا عن إحساسنا المتواصل بالزمن - الزمن كمسبّب لدمارنا بذاته، تشوّهات كروموسوماتنا، نسيجنا المتضاعف على نحو هستيريّ.

«بابا». همستُ بين نهديها، تلك الليلة في السرير.

مع أنّنا بالنسبة إلى بلدة صغيرة متحرّرون على نحو لافت من الاستياء، إلّا أنّ غياب حاضرة مدينيّة محوريّة يجعلنا نشعر في لحظاتنا الخاصّة ببعض الوحدة.

24

في الليلة التالية اكتشفت الديلار. زجاجة كهرمانيّة من بلاستيك خفيف. كانت ملصقة على الجانب السفليّ من غطاء شوفاج التدفئة المركزيّة في غرفة النوم. وجدتها حين بدأ الشوفاج يقرقع فأزلت الغطاء

لأتفحّص الصمّام بطريقة حريصة ومنهجيّة، محاولًا إخفاء العجز الذي كنت أشعر به.

ذهبت فورًا للبحث عن دينيز. كانت في السرير تشاهد التلفزيون. حين أخبرتها بما وجدت ذهبنا بهدوء إلى الحمّام وتفحّصنا الزجاجة معًا. كان من السهل رؤية كلمة ديلار عبر اللاصق الشفّاف. لم يلمس أيّ منّا شيئًا، وكانت مفاجأتنا عظيمة لاكتشاف الدواء مخبّأً على هذا النحو. تفحّصنا الأقراص الصغيرة باهتمام صامت. ثمّ تبادلنا نظرة مشحونة بمعانٍ ضمنيّة. من دون أيّ كلمة أعدنا غطاء الشوفاج إلى مكانه، والزجاجة من دون أن تُمَسّ، وعدنا إلى غرفة دينيز. كان الصوت عند نهاية السرير يقول: «لدينا الآن هنا ليمون يُستخدَم زينةً سريعةً وجذّابةً تناسب الطعام البحريّ».

جلست دينيز على السرير، نظراتها تتجاوزني كما تتجاوز جهاز التلفزيون، والپوسترات والتذكارات. ضاقت عيناها، وقطّبت وجهها غارقة في التفكير.

– «لن نقول شيئًا لبابا».

قلت: «حسنًا».

– «ستقول إنّها لا تتذكّر لمَ وضعتها هناك».

– «ما هو ديلار؟ هذا ما أودّ معرفته. هناك ثلاثة أو أربعة أماكن فقط يمكن لها التوجّه إليها لصرف الوصفة، ضمن مساحة معقولة. يمكن للصيدليّ أن يخبرنا استطبابات هذه المادّة. سأنطلق بالسيّارة منذ الصباح الباكر».

قالت: «لقد فعلتُ هذا من قبل».

– «متى؟»

– «قريب الكرسماس. ذهبت إلى ثلاث صيدليّات وتحدّثت إلى الهنود الجالسين وراء الكاونتر».

- «أظنّ أنّهم باكستانيّون».

- «أيًّا يكن».

- «ماذا قالوا لك عن ديلار؟»

- «لم يسمعوا به من قبل أبدًا».

- «هل طلبت منهم البحث؟ لا بدّ أن تكون لديهم لوائح بآخر الأدوية وأحدثها. ملاحق، تحديثات».

- «بحثوا. ليس موجودًا على أيّ لائحة».

- «غير مُدرَج».

- «علينا الاتصال بطبيبها».

- «سأتصل به الآن. سأهاتف منزله».

- «فاجِئه». قالت، بقسوة حادّة.

- «لو وجدته في المنزل، لن يجيب عبر خدمة آليّة، أو موظّفة استقبال، أو ممرّضة، أو الطبيب الشابّ المرح الذي يشاركه في جناح العيادات والذي يكون.دوره في الحياة التعامل مع ما يرفضه الطبيب المكرَّس. حالما تنتقلين من الطبيب الأكبر سنًّا إلى الطبيب الشابّ، فهذا يعني أنّك ومرضك حالة من الدرجة الثانية».

قالت: «هاتِفه في منزله. أيقظه. واخدعه كي يخبرك بما نريد معرفته».

كان الهاتف الوحيد في المطبخ. مشيتُ عبر الردهة، ناظرًا إلى غرفة نومنا لأتأكّد من أنّ بابيت لا تزال هناك، تكوي البلوزات وتستمع إلى برنامج اتصالات على الراديو، وهو شكل من أشكال الترفيه باتت مدمنة عليه مؤخّرًا. نزلت إلى المطبخ، وجدت اسم الطبيب في دفتر الهاتف واتّصلت برقم منزله.

كان اسم الطبيب هوكستراتن. بدا ألمانيًّا. كنت قد التقيت به مرّة - رجل محدوب بزائدة لحميّة في لغده وصوت خفيض. كانت دينيز

قد اقترحت خداعه ولكن الوسيلة الوحيدة لفعل هذا كانت ضمن سياق النزاهة والصدق. لو تظاهرت أنّني غريب يسعى إلى معرفة معلومات عن ديلار، سيُنهي المكالمة أو يطلب منّي الذهاب إلى العيادة.

ردّ بعد الرنّة الرابعة أو الخامسة. أخبرته من أكون وقلت إنّني قلق بشأن بابيت. قلق بما يكفي للاتّصال به في منزله، تصرّف طائش بلا شكّ ولكنّه تصرّف تمنّيت أن يكون قادرًا على تفهّمه. قلت إنّني واثق تمامًا من أنّ الدواء الذي وصفه لها هو ما يسبّب المشكلة.

- «أيّ مشكلة؟»

- «ضعف الذاكرة».

- «تتّصل بالطبيب في منزله للتحدّث عن ضعف الذاكرة؟ لو أنّ كلّ من يعاني ضعفًا في الذاكرة اتّصل بالطبيب في المنزل، ما الذي سنكون أمامه؟ سيكون التأثير المتراكم شديدًا».

قلت له إنّ ضعف الذاكرة متكرّر.

- «متكرّر. أعرف زوجتك. تلك هي الزوجة التي جاءتني في إحدى الليالي مع طفل يبكي. ´ابني يبكي`. تأتي إلى طبيب في القطاع الخاصّ وتطلب منه معالجة طفل من البكاء. والآن أرفع السمّاعة لأجد الزوج. تتّصل بطبيب في منزله بعد الساعة العاشرة ليلًا. تقول له، ´ضعف ذاكرة`. لم لا تقول إنّها تعاني من غازات؟ اتّصل بي في المنزل من أجل غازات؟»

- «متكرّرة ومديدة يا دكتور. لابدّ أنّه الدواء».

- «أيّ دواء؟»

- «ديلار».

- «لم أسمع به من قبل».

- «قرص أبيض صغير، في زجاجة كهرمانيّة».

– «تصف قرصًا دوائيًّا بأنّه صغير وأبيض وتتوقّع من الطبيب أن يردّ، في المنزل، بعد العاشرة ليلًا. لم لا تقول لي إنّه دائريّ؟ هذا أمر حاسم في حالتنا».

– «إنّه دواء غير مُدرَج».

– «لم أره من قبل. ولم أصفه لزوجتك حتمًا. صحّتها ممتازة بحسب قدرتي على تمييز هذه الأمور، خاضعة مثلي للعيوب البشريّة ذاتها، مثل أي شخص آخر».

بدا هذا مثل تنصّل. إساءة ممارسة للمهنة. ربّما كان يقرأ من بطاقة مطبوعة مثل محقّق يُعْلِم مشتبهًا به بحقوقه الدستوريّة. شكرته، أنهيت المكالمة، واتّصلت بطبيبي في منزله. ردّ بعد الرنّة السابعة، قال إنّه ظنّ أنّ ديلار جزيرة في الخليج الفارسيّ، إحدى محطّات إنتاج النفط الجوهريّة المساهمة في نجاة الغرب. وكانت ثمّة امرأة تقدّم النشرة الجويّة في الخلفيّة.

صعدت إلى الطابق العلويّ وأخبرت دينيز ألا تقلق. سآخذ أحد الأقراص من الزجاجة ليحلله شخص ما في قسم الكيمياء في الكلّيّة. انتظرت أن تخبرني أنّها قد فعلت هذا أيضًا. ولكنّها اكتفت بحني رأسها بتجهّم فخرجت إلى البهو، متوقّفًا في غرفة هاينرش لأتمنّى ليلة سعيدة. كان يؤدّي تمرين الرفع الثابت في الخزانة، مستخدمًا قضيبًا مثبّتًا بالباب.

– «من أين جلبت هذا؟»

– «هذا لميركاتر».

– «ومن هذا؟»

– «هو طالب السنة الأخيرة الذي أتسكّع معه حاليًّا. أوشك على بلوغ التاسعة عشر ولا يزال في المدرسة الثانويّة. كي أعطيك فكرة».

– «فكرة عن ماذا؟»

- «عن مدى ضخامته. يرفع هذه الأثقال الرائعة على صدره».
- «لم تريد أن تلعب الرفع الثابت؟ ما الذي يحقّقه هذا؟»
- «ما الذي يحقّقه أيّ شيء؟ ربّما أريد تنمية جسدي فقط لتعويض أمور أخرى».
- «أيّ أمور أخرى؟»
- «صلعي يزداد سوءًا. لو اكتفينا بأمر واحد».
- «إنّه لا يزداد سوءًا. اسأل بابا إن كنت لا تصدّقني. عيناها حادّتان في أمور كهذه».
- «طلبت منّي أمّي أن أراجع طبيب جلد».
- «لا أظنّ أنّه ضروريّ في هذه المرحلة».
- «ذهبت وانتهى الأمر».
- «وماذا قال؟»
- «هي طبيبة. طلبت منّي أمّي أن أذهب إلى طبيبة».
- «ماذا قالت؟»
- «قالت إنّ لديّ موقع متبرّع كثيفًا».
- «ماذا يعني هذا؟»
- «بإمكانها أخذ شعر من أجزاء أخرى في رأسي وتزرعها جراحيًّا في المكان المطلوب. وهذا لن يشكّل أيّ فارق. سأكون أصلع في وقت قصير. بإمكاني بسهولة تخيّل نفسي أصلع تمامًا. هناك أطفال بعمري مصابون بسرطان. شعرهم يتساقط بسبب العلاج الكيميائيّ. لم ينبغي أن أكون مختلفًا؟»

كان يقف في الخزانة يحدّق بي. قرّرت تغيير الموضوع.

- «لو كنت تظنّ أنّ التمرين يساعد حقًّا، لم لا تقف خارج الخزانة وتؤدّي تمارينك هنا؟ لم الوقوف في ذلك المكان المظلم المتعفّن؟»

- «لو كنت تعتبر أنّ هذا غريب، عليك أن ترى ما يفعله ميركاتر».

- «ما الذي يفعله؟»

- «يحاول كسر الرقم القياسيّ العالميّ في الجلوس في قفص مليء بالأفاعي السامّة، من أجل سجلّ غينيس للأرقام القياسيّة. يذهب إلى غلاسبورو ثلاث مرّات في الأسبوع حيث متجر الحيوانات الغريبة. يسمح له المالك بإطعام المامبا والأفعى النافخة، كي يعتاد على الأمر. انس أفعى الجرس الأميركيّة الشماليّة تمامًا. الأفعى النافخة أشدّ الأفاعي سمًّا في العالم».

- «كلّ مرّة أشاهد فيها تصويرًا جديدًا لشخص في أسبوعه الرابع من الجلوس في قفص مليء بالأفاعي، أجد نفسي أتمنّى أن يُلدَغ».

قال هاينرش: «وأنا كذلك».

- «لم هذا؟»

- «إنّه يطلب هذا».

- «صحيح. معظمنا يقضي حياته في تجنّب الخطر. لم يظنّ هؤلاء الناس أنّهم مختلفون؟»

- «هم يطلبون هذا. دعهم يحصلون عليه».

صمتُّ قليلًا مستمتعًا بلحظة الاتّفاق نادرة.

- «ما الذي يفعله صديقك للتمرين أيضًا؟»

- «يجلس فترات طويلة في مكان واحد، لتعتاد مثانته. خفّض عدد الوجبات إلى اثنتين يوميًّا. ينام وهو جالس، ساعتين كلّ مرّة. يريد أن يمرّن نفسه على الاستيقاظ تدريجيًّا، من دون حركات مفاجئة، فهذا قد يثير المامبا».

- «يبدو طموحًا غريبًا».

- «المامبا حسّاسة».

- «ولكن لو كان هذا يشعره بالسعادة».

- «يظنّ أنّه سعيد ولكنّها مجرّد خليّة عصبيّة تتلقّى تحريضًا أكبر من المعتاد أو أقلّ من المعتاد».

نزلت من السرير في منتصف الليل واتّجهت إلى الغرفة الصغيرة آخر البهو لأراقب ستيفي ووايلدر وهما نائمان. بقيت هناك، دون حراك، قرابة الساعة. شاعرًا بالتجدّد والنشاط على نحو عصيّ على الوصف.

فوجئت، حين دخلت غرفة نومنا، إذ وجدت بابيت واقفة عند نافذة تنظر إلى الليل المخيِّم. لم تبد علامة على انتباهها لغيابي من السرير ولم تبد أنّها سمعتني حين دخلت في السرير مجدّدًا، دافنًا نفسي تحت الأغطية.

25

يتمّ إيصال جريدتنا على يد إيرانيّ متوسّط العمر يقود نيسان سنترا. ثمّة أمر يقلقني بشأن السيّارة - السيّارة تنتظر ومصابيحها مضاءة، فجرًا، حين يضع الرجل الجرائد عند الأبواب الأماميّة، أقول لنفسي إنّني وصلت سنًّا محدّدة، سنّ التعرّض للخطر الذي لا يمكن توقّعه. العالم مليء بالمعاني المهجورة. في الحياة الدارجة أجد مواضيع وكثافات غير متوقّعة.

جلست إلى طاولتي في مكتبي أحدّق بالقرص الأبيض. كان يشبه صحنًا طائرًا بهذه الدرجة أو تلك، قرص انسيابيّ مع ثقب صغير جدًّا في أحد أطرافه. لم أتمكّن من رؤية الثقب إلا بعد لحظات طويلة من التأمّل المتمعّن.

لم يكن القرص طبشوريًّا مثل الأسبرين وليس كبسولة صقيلة أيضًا. ملمسه غريب في يدي، حسّاس للمس على نحو غريب ولكنّه يعطي في الوقت ذاته الانطباع بأنّه صنعيّ، غير قابل للذوبان، مُصمَّم بإتقان.

ذهبت إلى بناء مقبَّب صغير يُعرَف بالمرصد وأعطيت القرص لويني رتشاردز، وهي باحثة كيميائيّة-عصبيّة شابّة قيل إنّ عملها مذهل. كانت امرأة طويلة غامضة يحمرّ وجهها حين يقول أحد أمرًا مضحكًا. كان عدد من مهاجري نيويورك يحبّون زيارة مهجعها ليطلقوا وابلًا سريعًا من النكات الظريفة، لمجرّد أن يروا احمرار وجهها.

راقبتها وهي تجلس إلى مكتبها الفوضويّ لدقيقتين أو ثلاث دقائق، تدوّر القرص ببطء بين إبهامها وسبّابتها. لعقته ورفعت كتفيها.

- «ليس له طعم بكلّ تأكيد».

- «كم سيستغرق تحليل مكوّناته؟»

- «لديّ دماغ دولفين في بريدي الوارد ولكن تعال خلال ثمان وأربعين ساعة».

كانت ويني مشهورة في الكلّيّة بالتنقّل من مكان إلى آخر دون أن يراها أحد. لم يعرف أحد كيف تتمكّن من هذا أو لمَ تعتبر هذا ضروريًّا. ربّما كانت تدرك شخصيّتها الخرقاء، قامتها الطويلة وحركتها الغريبة. ربّما كان لديها فوبيا من الأماكن المفتوحة، مع أنّ المساحات في الكلّيّة مكنكنة وعجيبة أساسًا. ربّما كان لعالم الأشخاص والأشياء تأثير عليها، يلطمها بقوّة جسد قويّ عارٍ - يجعلها تحمرّ في الواقع - بحيث اعتبرت أنّ من الأسهل تفادي التواصل المتكرّر. ربّما تعبت من اعتبار عملها مذهلًا. في جميع الأحوال لاقيتُ صعوبة في إيجادها طوال ذلك الأسبوع. لم تُرَ في الساحات والممرّات، وكانت غائبة عن مهجعها كلّما اتّجهت إلى هناك.

في البيت نجحت دينيز في عدم طرح موضوع ديلار. لم تكن تريد الضغط عليّ بل تفادت تلاقي النظرات، كما لو أنّ تلاقي النظرات أكبر ممّا بوسع معلوماتنا السرّيّة احتماله. أمّا بابيت فلم تكن تُبدي نظرة لو لم تجد ضرورة لذلك. وسط الأحاديث كانت تلتفت لتحدّق في سقوط

الثلج، أو لحظات الغروب، أو السيّارات المركونة على نحو جامد وأبديّ. بدأت هذه التأمّلات تقلقني. لطالما كانت امرأة تهتمّ بالمظهر المادّيّ من الأشياء مع إحساس قويّ بالخصوصيّة، ثقة بكلّ ما هو ملموس وحقيقيّ. كان هذا التحديق الخاصّ نوعًا من الاغتراب لا عنّا نحن المحيطين بها فحسب بل عن الأشياء ذاتها التي كانت تراقبها بلا نهاية.

جلسنا إلى طاولة الإفطار بعد أن ذهب الأطفال الكبار.

- «هل رأيت كلب آل ستوڤر الجديد؟»

قلت: «لا».

- «يظنّون أنّه مخلوق فضائيّ. ولكن الواقع هو أنّهم لا يمزحون. كنت هناك البارحة. الحيوان غريب».

«هل هناك ما يزعجك؟»

«بل أنا بخير».

- «أتمنّى لو تخبريني. يبوح كلّ منّا للآخر بكلّ شيء. لطالما فعلنا هذا».

- «جاك، ما الذي يمكن أن يزعجني؟»

- «تحديقك من النوافذ. أنت مختلفة قليلًا. لا ترين الأشياء وتتفاعلين معها كما اعتدت أن تفعلي».

- «هذا ما يفعله كلبهم. يحدّق من النوافذ. ولكن ليست أيّ نافذة. يصعد إلى العلّيّة ويضع قوائمه على الإفريز لينظر من أعلى نافذة. يظنّون أنّه ينتظر التعليمات».

- «دينيز ستقتلني لو عرفت أنّني سأقول هذا».

- «ماذا؟»

- «وجدت الديلار».

- «أيّ ديلار؟»

- «كان ملصقًا على غطاء الشوفاج».

- «لمَ أُلصق أيّ شيء على غطاء الشوفاج؟»

- «هذا بالضبط ما توقّعتْ دينيز أنّك ستقولينه».

- «هي على حق عادة».

- «تحدّثت إلى هوكستراتن، طبيبك».

- «أنا عال العال، حقًّا».

- «هذا ما قاله»

- «هل تعرف ما الذي تدفعني لفعله هذه الأيّام الكئيبة الكالحة الباردة؟»

- «ماذا؟»

- «أن أتسلّل إلى السرير مع رجل وسيم. سأضع وايلدر في لعبة النفق. احلق ذقنك ونظّف أسنانك. أراك في السرير بعد عشر دقائق».

تلك الظهيرة رأيت ويني رتشاردز تخرج من باب المرصد وتمشي متبخترة إلى مرج صغير قرب الأبنية الجديدة. هرعت من وراء مكتبي وتبعتها. كانت تُبقي نفسها قريبة من الجدران، وتمشي بخطوة واسعة. أحسست أنّني حقّقت مشاهدة مهمّة لحيوان مهدّد بالانقراض أو ظاهرة شبه بشريّة مثل الييتي أو ساسكواتش. كان الطقس باردًا ومُغِمًّا. أدركت أنّني لن ألحق بها ما لم أبدأ بالهرولة. أسرعت خلف بناء إدارة الكلّيّة فزدت سرعتي، خائفًا من أنّي سأضيّعها. شعرت بالغرابة وأنا أركض. لم أركض منذ سنوات طويلة ولم أميّز جسدي في هذه الحركة الجديدة، لم أميّز العالم تحت قدميّ، الصلبة المنحدرة. انعطفت وزدت سرعتي،

منتبهًا لجسدي الضخم وهو يطير. أعلى، أسفل، حياة، موت. ردائي يرفرف خلفي.

وصلت إليها في الممرّ الفارغ لبناء من طابق واحد يعبق برائحة سوائل التنظيف. وقفت مستندة إلى الجدار وهي ترتدي ثوبًا أخضر فاتحًا وحذاء تنس. كنت مقطوع الأنفاس وعجزت عن التحدّث فرفعت ذراعي اليمنى، طالبًا وقت استراحة. أخذتني ويني إلى طاولة في غرفة صغيرة مليئة بأدمغة في مرطبانات. كانت الطاولة مجهّزة بمغسلة وتعجّ بأوراق الملاحظات وإرشادات المختبر. أعطتني ماء في كوب ورقيّ. حاولت كسر صلة طعم مياه الصنبور مع منظر الأدمغة والرائحة العامّة لسوائل الحفظ والتعقيم.

قلت: «هل كنت تختبئين منّي؟ تركت لك ملاحظات، ورسائل هاتفيّة».

- «ليس منك يا جاك، أو من أيّ شخص محدّد».
- «إذًا لم كان إيجادك شديد الصعوبة؟»
- «أليس هذا جوهر القرن العشرين؟»
- «ماذا؟»
- «يختفي الناس حتّى لو لم يكن هناك من يلاحقهم».
- «هل تظنّين أنّ هذا صحيح؟»

قالت: «هذا واضح».

- «ماذا عن القرص؟»
- «قطعة تكنولوجيا مثيرة. ما اسمها؟»
- «ديلار».
- «لم أسمع به من قبل».
- «ماذا بإمكانك إخباري عنه؟ تبسّطي بالشرح. لم أتناول غدائي بعد».

شاهدتها تتورّد.

قالت: «ليس قرصًا طبّيًّا بالمعنى القديم. إنّه نظام توصيل دوائيّ. لا يذوب مباشرة أو يحرّر مكوّناته مباشرة. الدواء في ديلار محفوظ في غشاء پوليمريّ. يرشح الماء في جهازك المعديّ المعويّ عبر الغشاء بمعدّل مضبوط بدقّة».

- «ما الذي يفعله الماء؟»

- «يذيب الدواء المخزَّن في الغشاء. ببطء، تدريجًا، بدقّة. ثمّ يخرج الدواء من القرص عبر ثقب صغير وحيد. ومجدّدًا بمعدّل مضبوط بدقّة».

- «استغرقت وقتًا طويلًا قبل اكتشاف الثقب».

- «هذا لأنّه محفور عن طريق الليزر. ليس صغيرًا فحسب بل دقيق الأبعاد على نحو مذهل».

- «أشعّة ليزر، پوليمرات».

- «لست خبيرة في أيّ من هذه المجالات يا جاك، ولكن بإمكاني القول إنّها منظومة صغيرة رائعة».

- «ما المغزى من كلّ هذه الدقّة؟»

- «أميل للاعتقاد أنّ الجرعة المضبوطة تهدف إلى تقليل مشكلات اعتباطيّة الحبوب والكبسولات، يؤخذ العقار بمعدّلات محدّدة ولفترات طويلة. وتتجنّب بالتالي النموذج الكلاسيكيّ من الجرعة المفرطة التي تليها جريمة ناقصة. لا تتلقّى دفق أدوية مفاجئ يتبعه دفق في أدنى الدرجات. دون تلبّك في المعدة، أو غثيان، أو تقيؤ، أو تقلّصات عضليّة، إلى آخره. هذه المنظومة فعّالة».

- «أنا منبهر. بل مذهول حتّى. ولكن ما الذي يحدث للقرص الپوليمري بعد خروج الدواء منه؟»

- «يدمّر نفسه. ينفجر داخليًّا على نحو دقيق فيتخلّص من تجاذباته

الهائلة. لقد دخلنا مجال الفيزياء. ما إن يتقلّص الغشاء البلاستيكيّ إلى جزيئاته الميكرسكوپيّة، سيُطرح بأمان من الجسم بطريقة مضبوطة».

- «رائع. والآن أخبريني عن استطبابات هذا الدواء؟ ما هو ديلار؟ ما المكوّنات الكيميائيّة؟»

- «لا أعرف».

- «بالطبع تعرفين. أنت متّقدة الذكاء. الجميع يقول هذا».

- «ماذا بوسعهم قوله غير هذا؟ أعمل في الكيمياء العصبيّة. لا أحد يعلم ماهيتها».

- «لدى العلماء الآخرين معرفة بهذا المجال، حتمًا. وهم يقولون إنّك ذكيّة».

- «جميعنا أذكياء. أليس هذا هو المتعارف عليه هنا؟ تقول عنّي ذكيّة، وأقول عنك ذكيّ. نوع من الإيغو الجماعيّة».

- «لا أحد يقول عنّي إنّي ذكيّ. يقولون إنّي ماكر. يقولون إنّي متعلّق باختصاص كبير. قمت بافتتاح مجال لم يكن أحد يعرف بوجوده».

- «هناك افتتاحيّات للذكاء أيضًا. وجاء دوري الآن، هذا كلّ شيء. وكذلك بنيتي مضحكة، مشيتي مضحكة. لو عجزوا عن اعتباري ذكيّة، سيُرغَمون على قول أشياء قاسية عنّي. ويا له من موقف شنيع للجميع».

قرّبت عدّة ملفات إلى صدرها.

- «جاك، كلّ ما أستطيع قوله لك بثقة هو أنّ المادّة المحتواة في ديلار نوع من الدواء النفسيّ. ربّما صُنع ليتفاعل مع جزء بعيد من القشرة الدماغيّة البشريّة. انظر حولك. الأدمغة في كلّ مكان. سمك القرش، الحيتان، الدلافين، القرود العليا. لا يتقارب أيّ منها ولو بدرجة بعيدة من تركيب الدماغ البشريّ. الدماغ البشريّ ليس مجال اختصاصي. لديّ معرفة علميّة ضئيلة بالدماغ البشريّ ولكنّها لا تكفي لجعلي فخورة

بكوني أميركيّة. في دماغك ترليون خليّة عصبيّة وفي كلّ خليّة عصبيّة عشرة آلاف غُصين عصبيّ صغير. منظومة التواصل الداخليّ تثير الرهبة. إنّها تشبه مجرّة يمكن لك إمساكها في يدك، ولكنّها أشدّ تعقيدًا، وأشدّ غموضًا».

- «ولم يجعلك هذا فخورة بأن تكوني أميركيّة؟»

- «دماغ الطفل الرضيع يتطوّر استجابة للمحفّزات. ولا نزال نقود العالم بالمحفّزات».

شربت ماءً.

قالت: «أتمنّى لو كنت أعرف أكثر. ولكن طبيعة الدواء الفعليّة مستعصية على فهمي. بإمكاني إخبارك أمرًا واحدًا. إنّه ليس مطروحًا في السوق».

- «ولكنّني وجدته في علبة دواء عاديّة».

- «لا آبه أين وجدته. أنا واثقة تمامًا من أنّني كنت سأميّز مكوّنات عقارات المُسْتقبلات الدماغيّة المعروفة. هذا العقار غير معروف».

بدأت تصوّب نظرات سريعة إلى الباب. كانت عيناها ملتمعتين وخائفتين. انتبهت أنّ ثمّة ضوضاء في الممرّ. أصوات بشريّة، وقع أقدام. راقبت ويني وهي تتراجع باتّجاه باب خلفيّ. عزمت على رؤيتها تحمرّ مرّة أخرى. وضعت إحدى ذراعيها خلف ظهرها، فتحت الباب، التفَتْ بسرعة وخرجت راكضة إلى الظهيرة الكئيبة. حاولت أن أفكّر بشيء مضحك أقوله.

26

جلست في السرير مع ملاحظاتي عن قواعد الألمانيّة. وبابيت مستلقية على جنبها تحدّق بالساعة-الراديو، تستمع إلى برنامج

اتّصالات. سمعت امرأة تقول: «عام 1977 نظرت في المرآة ورأيت الشخص الذي سأصبحه. لم أستطع ولم أشأ النزول من السرير. أشكال تتحرّك عند زاوية مجال الرؤية، مثل من يمشون على درجات متحرّكة. كنت أتلقّى اتّصالات من قاعدة پيرشنغ الصاروخيّة. كنت بحاجة إلى التحدّث إلى آخرين عايشوا هذه التجارب. كنت بحاجة إلى برنامج دعم، شيء أسجّل فيه».

انحنيت فوق جسد زوجتي وأطفأت الراديو. واصلتْ التحديق. قبّلتها بلطف على رأسها.

- «يقول مري إنّ لذيك شعرًا مهمًّا».

رسمتْ ابتسامة باهتة صغيرة. أبعدتُ ملاحظاتي وأدرْتُها بلطف بحيث تواجهني أثناء كلامي.

- «حان وقت حوار جادّ. أنت تعرفينه، وأنا أعرفه. ستخبرينني كلّ شيء عن ديلار. إن لم يكن من أجلي، فمن أجل ابنتك الصغيرة. هي قلقة - شديدة القلق. وكذلك، لم يعد لديك مجال للمناورة. لقد حشرناك عند الحائط أنا ودينيز. وجدت الزجاجة المخبّأة، أخذت قرصًا، وحلّلته عند خبير. هذه الأقراص الصغيرة البيضاء مصنّعة ببراعة مذهلة. تكنولوجيا ليزر. بلاستيك متطوّر. ديلار يكاد يضاهي براعة الجسيمات الميكروويّة التي التهمت السحابة المتموّجة. من كان سيصدّق وجود حبّة بيضاء صغيرة تعمل كمضخّة ضغط في الجسد البشريّ لتؤمّن الدواء بأمان وفعاليّة، وتتدمّر ذاتيًّا أيضًا؟ أنا مصدوم بجمال هذا كلّه. ونعرف أمرًا آخر أيضًا، أمرًا يدمّر مرافعتك تمامًا. نعلم أنّ ديلار ليس متوافرًا للاستخدام العامّ. هذه الحقيقة وحدها تبرّر مطالبات بتفسير. حقيقة لم يتبقّ لديك الكثير لتقولينه. أخبرينا عن طبيعة هذا العقار فقط. وكما تعرفين تمامًا، ليس لديّ مزاج ملاحظة الناس. ولكن دينيز نوع مختلف من الأشخاص. كنت أفعل كلّ ما بوسعي لكبحها. لو لم تخبريني ما أودّ

معرفته، سأطلق العنان لابنتك الصغيرة. ستأتي إليك بكلّ ما في جعبتها. لن تضيع الوقت في محاولة إشعارك بالذنب. تؤمن دينيز بالهجوم المباشر. ستثبّتك بالأرض كلّيًّا. تعرفين أنّني على حقّ يا بابيت».

مرّت خمس دقائق تقريبًا. كانت مستلقية هناك، تحدّق بالسقف.

- «دعني أروي لك بطريقتي». قالت بصوت خافت.

- «هل تريدين مشروبًا؟»

- «لا، شكرًا».

- «خذي وقتك. لدينا الليل بطوله. ولو كان هناك شيء تريدينه أو تحتاجين إليه، قولي فقط. كلّ ما عليك هو أن تطلبي. سأبقى هنا مهما طال الوقت».

مرّت لحظة أخرى.

- «لا أعرف من أين أبدأ بالضبط. ربّما منذ سنة ونصف. ظننت أنّني أدخل مرحلة، نوعًا من فترة العلامة المائيّة في حياتي».

- «نقطة تحوّل». قلت. «أو حدّ مائيّ».

- «نوع من فترة حسم، كما اعتقدت. منتصف العمر. شيء من هذا القبيل. سيزول الوضع وسأنسى كلّ شيء بشأنه. ولكن لم يَزُل. وبدأت أفكّر أنّه لن يزول».

- «أيّ وضع؟»

- «لا تشغل بالك بهذا الآن».

- «كنتِ مكتئبة مؤخّرًا. لم أرك بهذه الحالة من قبل على الإطلاق. هذا مغزى وجود بابيت. إنّها شخص مرح. لا تستسلم للاكتئاب أو التحسّر».

- «دعني أتكلّم يا جاك».

- «حسنًا».

- «أنت تعرفني. أظنّ أنّ كلّ شيء قابل للإصلاح. بوجود الموقف الصحيح والجهد الملائم، يمكن للمرء تغيير وضع مؤذٍ عبر تجزئته إلى أصغر مكوّناته. بإمكانك كتابة لوائح، وابتكار تصنيفات، ورسم مخطّطات وصور توضيحيّة. بهذا أتمكّن من تعليم طلابي كيفيّة الوقوف والجلوس، والمشي مع علمي أنّك تعتقد أنّ هذه المواضيع شديدة الوضوح والشمول والعموميّة بحيث تتعذّر تجزئتها إلى مكوّناتها. لست شخصًا شديد البراعة ولكنّني أعرف كيفيّة تجزئة الأشياء، وكيفيّة فصلها وتصنيفها. بإمكاننا تحليل وضعيّة الجسد، تحليل الأكل، والشرب بل التنفّس أيضًا. كيف بغير هذا تفهم العالم، تلك هي طريقتي في تناول المسائل».

- «أنا هنا. لو كان هناك شيء تريدينه أو تحتاجين إليه، قولي فقط».

- «حين أدركت أنّ هذا الوضع لن يزول، حاولت فهمه أفضل عبر تجزئته إلى مكوّناته. في البداية كان عليّ اكتشاف ما إذا كان فيه مكوّنات. ذهبت إلى المكتبات العامّة والخاصّة، قرأت مجلات ودوريّات متخصّصة، شاهدت قنوات تلفزيونيّة، أعددت قوائم ومخططات، رسومًا بيانيّة متعدّدة الألوان، أجريت اتّصالات هاتفيّة مع كتّاب وعلماء متخصّصين، تحدّثت إلى رهبان سيخ في آيرن سيتي بل درست السحر حتّى، حيث خبّأت الكتب في العلّيّة بحيث لا تجدها أنت أو دينيز وتتساءلان عمّا يحدث».

- «كلّ هذا من دون أن أعرف! جوهر مغزى وجود بابيت هي أنّها تتحدّث إليّ، تبوح وتفضفض».

- «ليس موضوعنا خيبة أملك حيال صمتي. موضوع حديثنا هو ألمي ومحاولاتي لإيقافه».

- «سأُعدّ هوت تشوكلت. ما رأيكَ؟»

- «ابق هنا. هذا هو الجزء الحاسم. كلّ هذه الطاقة، هذا البحث

والدراسة والتكتّم، من دون أن أتوصّل إلى أيّ شيء. لم ينته الوضع. كان يسكن حياتي، ولا يترك لي مجالًا للراحة. ثمّ في أحد الأيّام كنت أقرأ للسيّد تريدول من مجلّة نشيونال إكزامينر. لفت إعلان انتباهي. لا تشغل بالك بمحتواه الدقيق. مطلوب متطوّعين لبحث سرّيّ. هذا كلّ ما عليك معرفته».

- «ظننت أنّ زوجاتي السابقات هنّ من كنّ يحترفن المكر. المخادعات الحلوات. المتوتّرات، العاطفيّات، ذوات عظام الخدّ العالية، ثنائيّات اللغة».

- «استجبت للإعلان وذهبت إلى مقابلة في شركة صغيرة تجري أبحاثًا في السيكوبيولوجيا. هل تعرف ما هذا؟»

- «لا».

- «هل تعرف مدى تعقيد الدماغ البشريّ؟»

- «لديّ فكرة بسيطة معقولة».

- «لا، ليس لديك. لنتّصل بشركة غراي ريزيرتش، مع أنّ هذا ليس الاسم الحقيقيّ. لنتّصل ونتواصل مع السيّد غراي. السيّد غراي مركّب من عدّة أشخاص. وتواصلت في نهاية المطاف مع ثلاثة أشخاص أو أربعة أو ربّما أكثر في الشركة».

- «إحدى تلك العمارات الشاهقة القرميديّة الباهتة بأسلاك مكهربة وشجيرات قصيرة».

- «لم أزر مكاتبه الرئيسيّة أبدًا. لا تهتمّ للسبب. المهمّ هو أنّني خضعت لفحص إثر آخر. عاطفيّ، سيكولوجيّ، استجابة حركيّة، نشاط دماغيّ. قال السيّد غراي إنّ هناك ثلاثة أشخاص في المرحلة النهائيّة وكنت إحداهم».

- «مرحلة نهائيّة في ماذا؟»

- «كنّا سنصبح مواضيع فحوصات في تطوير عقار تجريبيّ على نحو فائق وشديد السرّيّة، بالاسم الكوديّ، ديلار، كان يعمل عليه لسنوات. كان قد اكتشف مُستقبِلًا لديلار في الدماغ البشريّ ويضع اللمسات الأخيرة على القرص نفسه. ولكنّه أخبرني أيضًا أنّ ثمّة أخطارًا عند تجريبه على البشر. قد أموت. قد أبقى حيّة ولكن دماغي قد يموت. قد يموت النصف الأيسر من الدماغ ويبقى القسم الأيمن حيًّا. وهذا يعني أنّ القسم الأيسر من جسمي سيحيا فيما القسم الأيمن سيموت. كان ثمّة احتمالات شنيعة كثيرة. قد أتمكّن من المشي على الجانبين وأعجز عن المشي نحو الأمام. قد لا أميّز الكلمات من الأشياء، بحيث لو قال أحدهم ´رصاصة سريعة`، سأرمي بنفسي على الأرض وأتّخذ ملجأ. أراد السيّد غراي أن أعرف الأخطار. كانت هناك أوراق لإخلاء المسؤوليّة ووثائق أخرى كي أوقّعها. كان لدى الشركة محامون، قساوسة».

- «تركوكِ تمضين قدمًا، حيوان تجارب بشريّ».

- «لا، لم يفعلوا. قالوا إنّ الأمر شديد الخطورة إلى حدّ كبير - قانونيًّا، أخلاقيًّا، وما إلى ذلك. كانوا يريدون الانتقال إلى العمل على تصميم جزيئات كمبيوتريّة وأدمغة كمبيوتريّة. رفضت قبول هذا. لقد اقتربت إلى هذا الحدّ، أوشكت على الوصول. أريد منك أن تتفهّم ما حدث لاحقًا. لو كنتُ سأخبرك القصّة بأكملها، لابدّ أن أذكر هذه المرحلة، هذه الزاوية الصغيرة الوضيعة في القلب البشريّ. تقول إنّ بابيت تبوح وتفضفض»..

- «هذا جوهر مغزى وجود بابيت».

- «جيّد. سأبوح وأفضفض. عقدت مع السيّد غراي اتّفاقًا خاصًّا. انسَ القساوسة، والمحامين، وعلماء السيكوبيولوجيا. سنجري التجارب بأنفسنا. سأشفى من وضعي، وسيضمن هو فتحًا طبيًّا رائعًا».

- «ما الوضيع في كلّ هذا؟»

- «تضمّن الأمر حماقةً. كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة التي أدفع السيّد غراي عبرها ليسمح لي باستخدام العقار. كان ملاذي الأخير، أملي الأخير. في البداية عرضت دماغي. والآن أعرض جسدي».

شعرت بإحساس دفء يزحف في ظهري ويشعّ إلى الخارج عبر كتفي. كانت بابيت تنظر إليّ مباشرة. وأنا متّكئ على مرفقي، بمواجهتها، أدرس ملامحها. وحين نطقتُ أخيرًا كان هذا بصوت هادئ مستفسر - صوت رجل يسعى أساسًا إلى فهم أحجية بشريّة أزليّة.

- «كيف تقدّمين جسدك إلى شخص مكوّن من عدّة أشخاص؟ هذا شخص مركّب. هو يشبه الرسم الذي تقوم به الشرطة ويتكوّن من حاجبَيْ شخص وأنف شخص آخر. فلنركّز على الجهاز التناسليّ. ما عدد الأجهزة التي نتحدّث عنها؟»

- «شخص واحد يا جاك. شخص أساسيّ، صاحب المشروع».

- «إذًا، لم نعد نتحدّث عن السيّد غراي المركّب من عدّة أشخاص؟»

- «هو الآن شخص واحد. ذهبنا إلى غرفة موتيل صغيرة قذرة. لا تشغل بالك بالمكان والزمان. كان جهاز التلفزيون يكاد يلتصق بالسقف. هذا كلّ ما أتذكّره. قذرة، دبقة. كنت حزينة. ولكن يائسة جدًّا، جدًّا».

- «تسمّين هذه حماقة، كما لو أنّنا لم نشهد ثورة في اللغة الصريحة الوقحة. سمّيها كما هي، صفيها بأمانة، امنحيها القيمة التي تستحقّها. دخلت إلى غرفة موتيل، متحمّسة حيال تجرّدها البارد، وظيفيّة الأثاث وذوقه الرديء. مشيتِ حافية على البساط قليل القابليّة للاحتراق. مضى السيّد غراي ليفتح الأبواب باحثًا عن مرآة بالطول الكامل. راقبك تخلعين ملابسك. استلقيتما على السرير، تعانقتما. ثمّ دخلك».

- «لا تستخدم ذلك المصطلح. تعلم شعوري بشأن ذلك الاستخدام».

- «لقد فعّل الأمر الذي يُسمّى الدخول. بمعنى آخر أدخل نفسه.

في دقيقة كان مرتديًا ثيابه كاملة، يضع مفاتيح السيّارة المستأجرة على الكومودينو. وفي الدقيقة التالية كان داخلك».

- «لم يكن أحد داخل أحد. هذا استخدام غبيّ. فعلت ما كان عليّ فعله. كنت بعيدة. كنت بعيدة أعمل خارج نفسي. كان تعاملًا رأسماليًّا. أنت تقدّر الزوجة التي تبوح بكلّ شيء. أبذل قصارى جهدي لأكون تلك المرأة».

- «حسنًا، أحاول أن أفهم فقط. كم مرّة ذهبتما إلى ذلك الموتيل؟»

- «على نحو مستمرّ تقريبًا خلال عدّة أشهر. كان هذا هو الاتّفاق».

أحسست بالحرارة ترتفع على طول مؤخّرة عنقي. تمعّنت فيها جيّدًا. تبدّى حزن في عينيها. استلقيت ونظرت إلى السقف. اشتغل الراديو. بدأت تبكي بهدوء.

قلت: «هناك بعض الجيلي مع شرائح الموز. أعدّته ستيفي».

- «هي فتاة طيّبة».

- «بإمكاني بسهولة أن أجلب لك بعضه».

- «لا، شكرًا».

- «لم اشتغل الراديو؟»

- «الموقّت مكسور. سآخذه إلى المصلّح غدًا».

- «أنا سآخذه».

قالت: «ولا يهمّك. لا مشكلة. بإمكاني أخذه بسهولة».

- «هل استمتعت بالجنس معه؟»

- «كلّ ما أتذكّره هو التلفزيون قرب السقف، موجّهًا إلى الأسفل نحونا».

- «هل كان لديه حسّ دعابة؟ أعرف أنّ النساء يقدّرن الرجال

القادرين على إطلاق نكات عن الجنس. أنا لا أستطيع، للأسف. وبعد هذا لا أظنّ أنّ هناك فرصة كبيرة في قدرتي على التعلّم».

- «من الأفضل لو عرفته بكونه السيّد غراي. فقط. هو ليس طويلًا، أو قصيرًا، أو شابًّا، أو مسنًّا. هو لا يضحك أو يبكي. هذا من أجل راحتك».

- «لديّ سؤال. لم لم تُجرِ غراي ريزيرتش الفحوصات على الحيوانات؟ لا بدّ أنّ الحيوانات أفضل من الكمبيوتر في بعض الجوانب».

- «هذا هو المغزى. لا يعاني أيّ حيوان من هذا الوضع. هذا وضع بشريّ. تخاف الحيوانات من أمور كثيرة، كما قال السيّد غراي. ولكنّ أدمغتها ليست مركّبة بما يكفي لاحتواء هذا الشعور تحديدًا».

للمرّة الأولى بدأت ألتقط فكرة عن ما كانت تتحدّث عنه طوال الوقت. أصبح جسدي باردًا. شعرت بالخواء. نهضت من استلقائي، متّكئًا مرّة أخرى على مرفقي كي أنظر إليها من فوق. بدأت تبكي مجدّدًا.

- «عليك أن تخبريني يا بابيت. لقد أخذتني معك إلى هذا الحدّ، جعلتني أعايش كلّ هذا القَدْر. يجب أن أعرف. ما الوضع؟»

كلّما طال بكاؤها، تزايدت ثقتي بما أعرف أنّها ستقوله. شعرت بدافع لارتداء ثيابي والخروج، آخذ غرفة في مكان ما إلى أن ينقشع الأمر كلّه. رفعت بابيت وجهها نحوي، حزين وشاحب، وعيناها تبديان أسى لا شفاء منه. كنّا متقابلين، متّكئين على المرفق، مثل تمثال لفيلسوفَيْن متبطّلين في أكاديميّة كلاسيكيّة، أطفأ الراديو نفسه.

قالت: «أخاف من الموت. أفكّر فيه طوال الوقت. يأبى تركي».

- «لا تقولي هذا. هذا رهيب».

- «ليس بيدي. كيف يمكن لي التحكّم به؟»

- «لا أريد أن أعرف. وفّريه لشيخوختك. لا تزالين شابّة، تمارسين الكثير من التمارين. هذا ليس خوفًا منطقيًّا».

- «إنّه يسكنني يا جاك. أعجز عن طرده من تفكيري. أعلم أنّ من غير المفترض أن أقاسي مثل هذا الخوف بهذا القدر من الوعي والاستمرار. ما الذي بوسعي فعله؟ إنّه موجود. ولهذا انتبهت إلى إعلان السيّد غراي بهذه السرعة في الصحيفة حين كنت أقرأ بصوت عال. أصاب العنوان هدفه. **الخوف من الموت**. أفكّر به طوال الوقت. لقد خاب أملك. بإمكاني رؤية هذا».

- «خاب أملي؟»

- «ظننتَ أنّ الوضع أكثر تحديدًا. أتمنّى لو كان. ولكن المرء لا يبحث لشهور وشهور كي يحصر الحلّ في إحدى العلل الصغيرة اليوميّة».

حاولت أن أُنسيها الأمر.

- «كيف بإمكانك أن تكوني واثقة هكذا من أنّ الموت هو ما تخافين؟ الموت غامض جدًّا. لا أحد يعرف ماهيته، إحساسه، شكله. ربّما كلّ ما لديك هو مشكلة صغيرة تتبدّى على شكل موضوع شامل كبير».

- «أيّ مشكلة؟»

- «أمر تُخْفينه عن نفسك. وزنك ربّما».

- «لقد قلَّ وزني. ماذا عن طولي؟»

- «أعلم أنّك خفَّضتِ وزنك. هذا هو موضوعنا تمامًا. أنت في صحّة ممتازة عمليًّا. تتّقدين صحّة. هوكستراتن أكّد هذا، وهو طبيبك. لا بدّ من وجود شيء آخر، مشكلة كامنة».

- «ما الذي يمكن أن يكون كامنًا أكثر من الموت؟»

حاولتُ إقناعها أنّ الأمر ليس بالجدّيّة التي تظنّها.

- «بابا، الجميع يخاف من الموت. لمَ ينبغي أن تكوني مختلفة؟ أنت بنفسكِ قلت إنّه وضع بشريّ. ليس هناك أحد تجاوز السابعة ولا يشعر بقلق حيال الموت».

- «في مستوى محدّد الجميع يخافون من الموت. أنا أخافه سلفًا. لا أعلم كيف أو متى حدث هذا. ولكن لا يُعقَل أن أكون الشخص الوحيد وإلا ما السبب الذي يدفع غراي ريزيرتش إلى إنفاق الملايين على حبّة دواء؟»

- «هذا ما قلته. أنت لست الوحيدة. هناك مئات آلاف الناس. أليس من المُطَمْئن معرفة هذا؟ أنت مثل المرأة التي كانت على الراديو التي تتلقّى اتّصالات من قاعدة صاروخيّة. أرادت إيجاد آخرين تسهم تجاربهم الذُّهانيّة في جعلها تحسّ بعزلة أقلّ».

- «ولكن السيّد غراي قال إنّني فائقة الحساسيّة لرعب الموت. أجرى عليّ عشرات الفحوصات. ولذا كان متحمّسًا لاستخدامي».

- «هذا ما أجده غريبًا. أخفيتَ رعبك وقتًا طويلًا. لو كان بإمكانك إخفاء مثل هذا الأمر عن زوج وأطفال، ربّما لا يكون خطيرًا إلى هذا الحدّ».

- «ليست هذه قصّة خداع زوجة. لا يمكنك تجاهل القصّة الحقيقيّة يا جاك. إنّها كبيرة جدًّا».

أبقيت صوتي هادئًا. تحدّثت إليها كما قد يخاطب أحد أولئك الفلاسفة المتّكئين عضوًا أصغر في الأكاديميّة، شخص عمله مبشّر وذكيّ بدرجة جيّدة ولكن لعلّه معتمد بشدّة على بحث الزميل الأكبر.

- «بابا، أنا من بين أفراد هذه العائلة هو الشخص المهووس بالموت. لطالما كنت أنا الشخص».

- «لم تقل هذا من قبل على الإطلاق».

- «كي أحميكم من القلق. كي أبقيكم مفعَمين بالنشاط، والحيويّة، والسعادة. أنتِ الشخص السعيد. أنا الأحمق المحكوم عليه بالموت. هذا ما أعجز عن غفرانه لك. أن تخبريني أنّك لست المرأة التي ظننت أنّها هي. أنا مجروح. أنا منهار».

- «لطالما اعتبرتك الشخص الذي قد يتأمّل الموت. قد تخرج في نزهات وتتأمّل. ولكن طوال تلك الأوقات كنّا نتحدّث عمّن سيموت أوّلًا، ولم تقل يومًا إنّك خائف».

- «الأمر ينطبق عليكِ أيضًا. ´ما إن يكبر الأولاد`، جعلتِ الأمر أشبه برحلة إلى إسبانيا».

قالت: «أريد فعلًا أن أموت أوّلًا، ولكن هذا لا يعني أنّني لست خائفة. أنا خائفة جدًّا. أنا خائفة طوال الوقت».

- «كنت خائفًا أكثر من نصف حياتي».

- «ما الذي تريد قوله؟ خوفك أقدم وأحكم من خوفي؟»

- «أستيقظ متعرّقًا. تنتابني نوبات تعرّق قاتلة».

- «أمضغ العلكة لأنّ حنجرتي تنقبض».

- «ليس لي أحد. أنا مجرّد عقل أو ذات، وحيد في فضاء شاسع».

قالت: «أنا أنهار».

- «أنا شديد الضعف بحيث يتعذّر عليّ التحرّك. أفتقر كلّيًّا إلى إحساس العزم، والتصميم».

- «تخيّلتُ أمّي تموت. ثمّ ماتت».

- «أتخيّل الجميع يموتون. لا نفسي فحسب. أغرق في أحلام يقظة شنيعة».

- «أحسست بالذنب. ظننت أنّ موتها مرتبط بتفكيري به. أحسّ بالشعور ذاته حيال موتي. كلّما فكّرت به أكثر، اقتربت ساعته».

- «يا لغرابة هذا. لدينا هذه المخاوف المديدة العميقة الرهيبة بشأن أنفسنا والناس الذين نحبّهم. ومع ذلك نخرج من البيت، نتكلّم مع الناس، نأكل، نشرب. نتمكّن من أداء وظائفنا. المشاعر حقيقيّة وعميقة. ألا ينبغي أن تشلّنا؟ كيف لنا أن ننجو منها، لفترة على الأقلّ؟ نقود سيّارة، ندرّس صفًّا. كيف لم ينتبه أحد إلى مدى عمق مخاوفنا، الليلة الماضية، هذا الصباح؟ هل هو أمر يخفيه كلّ منّا عن الآخر، باتّفاق مشترك؟ أم هل نتشارك السرّ ذاته دون أن نعلم؟ نرتدي القناع ذاته».

- «ماذا لو كان الموت مجرّد صوت؟»

- «ضوضاء كهربائيّة».

- «تسمعها إلى الأبد. صوت يحيط بك من كلّ الاتّجاهات. يا للفظاعة».

- «متماثل، أبيض».

قالت: «أحيانًا يحوم فوقي. أحيانًا يدسّ نفسه في عقلي، قليلًا قليلًا. أحاول محادثته. ´ليس الآن يا موت`».

- «أستلقي في الظلمة أنظر إلى الساعة. أعداد فرديّة دومًا. الواحدة وسبع وثلاثون دقيقة صباحًا. الثالثة وتسع وخمسون دقيقة صباحًا».

- «الموت أعداده فرديّة. هذا ما قاله لي السيخ. الرجل المقدّس في آيرن سيتي».

- «أنت قوتي، محرّك حياتي. كيف لي أن أقنع أنّ هذا خطأ رهيب؟ شاهدتك تُحمّمين وايلدر، تكوين ردائي. هذه المسرّات العميقة والبسيطة ضاعت منّي الآن. ألا ترين هول ما قد فعلتِ؟»

قالت: «أحيانًا يلطمني كعصف رياح. وأكاد أودّ أن ينكفئ جسدي».

- «هل هذا سبب زواجي ببابيت؟ كي تخفي الحقيقة عنّي، تخفي الأشياء عنّي، تشترك في حبكة جنسيّة على حسابي؟ كلّ الحبكات تتحرّك باتّجاه واحد». أخبرها بهدوء.

تعانقنا بقوّة لوقت طويل، التصق جسدانا في احتضان جَمَعَ عناصر الحبّ، والأسى، والرقّة، والجنس، والنزاع. يا للرقّة التي تنقّلنا فيها بين المشاعر، ووجدنا ملاذات، مستخدمين أدنى حركات أذرعنا، أعضائنا التناسليّة، أقلّ جرعات التنفّس، كي نبلغ اتّفاقنا على خوفنا، نتقدّم في منافستنا، نرسّخ رغباتنا المتجذّرة بمواجهة الفوضى في روحينا.

مكتئبين، غير مكتئبين، غير مكتئبين أبدًا.

استلقينا عاريين بعد الحبّ، مبلّلين ملتمعين. جذبت الأغطية فوقنا. تحدّثنا بهمسات ناعسة لدقائق. اشتغل الراديو.

قلت: «أنا هنا. كلّ ما تريدين أو تحتاجين، أيًّا تكن صعوبته، قولي لي وسيُنفَّذ».

- «شربة ماء».

- «أكيد».

- «سأذهب معك»..

- «ابقي، ارتاحي».

- «لا أريد أن أكون وحيدة».

ارتدينا روبَيْنا، واتّجهنا إلى الحمّام من أجل الماء. شربَتْ فيما كنت أتبوّل. خلال عودتنا إلى غرفة النوم طوّقتها بذراعي ومشينا وكأنّ أحدنا سيقع على الآخر، مثل مراهقَيْن على الشاطئ. انتظرتُ قرب السرير وهي تعيد وضع الملاءات بترتيب، وتعيد الوسادات إلى مكانها. تكوّرت مباشرة استعدادًا للنوم ولكن لا تزال هناك أشياء أودّ معرفتها، أشياء يجب عليّ قولها.

- «تحديدًا ما الذي حقّقه أعضاء شركة غراي ريزيرتش؟»

- «عزلوا قسم الخوف من الموت في الدماغ. ديلار يسرّع راحة تلك المنطقة».

- «مدهش».

- «إنّه ليس مجرّد مهدّئ قويّ. يتفاعل العقار تحديدًا مع النواقل العصبيّة في الدماغ المرتبطة بالخوف من الموت، لكلّ عاطفة وإحساس ناقله العصبيّ الخاصّ. اكتشف السيّد غراي الخوف من الموت ثمّ انهمك في العمل على إيجاد الموادّ الكيميائيّة التي تحثّ الدماغ على إنتاج مثبّطاته».

- «مذهل ومرعب».

- «كلّ ما يجري في حياتك بأسرها هو نتيجة جزيئات تنشط في مكان ما في دماغك».

- «نظريّات هاينرش عن الدماغ. كلّها صحيحة. إنّنا نساوي الكلّ الإجماليّ من محفّزاتنا الكيميائيّة. لا تحدّثيني عن هذا. الاستغراق في التفكير فيها لا يحتمل».

- «بإمكانها اقتفاء كلّ ما تقوله وتفعله وتحسّ به إلى عدد الجزيئات في منطقة بعينها».

- «ما الذي يحدث للخير والشرّ في هذه المنظومة؟ الشغف، والحسد، والكراهية؟ هل تصبح كتلة متشابكة من الخلايا العصبيّة؟ هل تقولين إنّ عرفًا بأكمله من الإخفاقات البشريّة في طريقه الآن إلى النهاية، إنّ الجبن، والساديّة، والتحرّش مصطلحات لا معنى لها؟ هل يُطلب منّا التعامل مع هذه الأشياء نوستالجيًّا؟ ماذا عن الغضب الذي يفضي إلى القتل؟ كان للقاتل هالة مخيفة خاصّة به. كانت جريمة كبيرة. ما الذي سيحدث لو اختزلنا الأمر إلى خلايا وجزيئات؟ ابني يلعب الشطرنج مع قاتل. أخبرني بهذا. لم أكن أريد الإنصات».

- «هل أستطيع النوم الآن؟»

- «انتظري. لو كان ديلار يسرّع الارتياح، لمَ كنت شديدة الحزن في الأيّام الماضية، تحدّقين في الفراغ؟»

- «بسيطة. العقار لا يعمل».

انكسر صوتها حين نطقت هذه الكلمات. رفعت اللحاف فوق رأسها. كلّ ما كنت أحدّق به هو منطقة مرتفعة. رجل في الراديو يقول: «كنت أتلقّى رسائل مشوَّشة عن ميولي الجنسيّة». مسحتُ على رأسها وجسدها من فوق اللحاف.

- «هل بإمكانك التفصيل يا بابا؟ أنا موجود. أودّ المساعدة».

- «أعطاني السيّد غراي ستّين قرصًا في زجاجتين. هذا سيكون أكثر من كافٍ، كما قال. قرص كلّ اثنتين وسبعين ساعة. خروج الدواء شديد التدرّج والدقّة بحيث لا يحصل تداخل بين حبّة وأخرى. أنهيت الزجاجة الأولى أواخر نوفمبر، أوائل ديسمبر».

- «وجدتها دينيز».

- «حقًّا؟»

- «كانت تلاحقك منذ تلك اللحظة».

- «أين تركتُها؟»

- «في قمامة المطبخ».

- «لم فعلتُ هذا؟ كان هذا إهمالًا».

- «ماذا عن الزجاجة الثانية؟»

- «أنت وجدت الزجاجة الثانية».

- «أعرف. أنا أسأل عن عدد الأقراص التي أخذتها؟»

- «أخذت الآن خمسة وعشرين من الزجاجة. العدد الكلّيّ في الزجاجتين خمسة وخمسون. وتبقّت خمسة».

- «أربعة. أخذت أحدها للتحليل».

- «هل أخبرتني بهذا؟»

- «نعم. وهل كان هناك أيّ تغيّر في وضعك؟»

سمحتْ لِقمّة رأسها بالظهور.

- «اعتقدت هذا في البداية. كان أوّل البداية أكثر وقت مبشّر. ولم يكن هناك تحسّن بعدها. وثبّطت همّتي أكثر فأكثر. دعني أنم الآن يا جاك».

- «تذكرين حين تناولنا العشاء عند مري؟ في طريقنا إلى المنزل تحدّثنا عن ضعف ذاكرتك. قلت إنّك لست واثقة ما إذا كنت تأخذين دواءً أم لا. عجزتِ عن التذكّر، كما قلت. كانت تلك كذبة بالطبع».

- «أظنّ هذا».

- «ولكنّك لم تكذبي بشأن الذاكرة عمومًا. افترضنا أنا ودينيز أنّ النسيان كان أثرًا جانبيًّا للعقار الذي كنت تأخذينه».

خرج الرأس كلّه.

قالت: «خطأ تمامًا. لم يكن أثرًا جانبيًّا للدواء. كان أثرًا جانبيًّا للوضع. قال السيّد غراي إنّ فقدان الذاكرة محاولة يائسة لمواجهة الخوف من الموت. الأمر يشبه حربًا بين الخلايا العصبيّة. أنا قادرة على نسيان أمور كثيرة ولكنّني أخفق عندما يحين دور الموت. والآن أخفق السيّد غراي أيضًا».

- «هل يعرف هذا؟»

- «تركت رسالة على الأنسر ماشين».

- «ما الذي قاله حين ردّ؟»

- «أرسل إليّ شريط تسجيل بالبريد، وقد أخذته لأستمع إليه عند آل ستوفر. قال إنّه آسف جدًّا، أيًّا يكن معنى هذا. قال إنّني لست الموضوع المناسب أبدًا. هو واثق أنّ الدواء سيعمل يومًا ما، قريبًا، مع شخص ما، في مكان ما. قال إنّه ارتكب خطأً معي. كان الأمر جزافًا بدرجة كبيرة. وهو كان شديد الحماسة».

حلّ منتصف الليل. كان كلانا مرهقًا. ولكنّنا اقتربنا كثيرًا، قلنا الكثير، بحيث عرفت أنّه لن يمكننا التوقّف هنا. أخذت نفسًا عميقًا، ثمّ استلقيت، محدّقًا بالسقف. انحنت بابيت نحو جسدي لتطفئ المصباح. ثمّ ضغطت زرًا في الراديو، مُخْرسة الأصوات. ألف ليلة أخرى كانت قد انتهت على نحو مماثل تقريبًا. أحسستُ بها تغرق في السرير.

- «هناك أمر عاهدت نفسي ألّا أخبرك به».

قالت: «ألا يمكن الانتظار حتّى الصباح؟»

- «أنا على لائحة الموت موقّتًا. لن يحدث هذا غدًا أو بعد غد. ولكنّه قيد العمل».

تابعت كلامي أخبرها عن تعرّضي لنيودين دي، متحدّثًا بهدوء، برتابة، بجمل تصريحيّة قصيرة. أخبرتها عن تقنيّ الكمبيوتر، الطريقة التي أدخل فيها تاريخي لينتج سجلًّا هائلًا تشاؤميًّا. إنّنا الكلّ الإجماليّ لبياناتنا، قلت لها، كما نحن الكلّ الإجماليّ لمحفّزاتنا الكيميائيّة. حاولت أن أشرح مدى صعوبة صراعي لإخفاء الخبر عنها. ولكن بعد هذا البوح، بدا أنّ هذا هو النوع الخاطئ من الأسرار التي ينبغي إخفاؤها.

قلت: «إذًا، لم نعد نتحدّث عن الخوف والموت المحدق. هذا هو الأمر الصعب والثقيل، الواقع بذاته».

ببطء خرجتْ من تحت الأغطية. صعدتْ فوقي، تشهق بالبكاء. أحسستُ بأصابعها تنغرس في كتفيّ وعنقي. سقطت الدموع الدافئة على شفتيّ. ضربتني على صدري، أمسكت يدي اليسرى، عضّت اللحم بين الإبهام والسبّابة. تحوّلت شهقاتها إلى صوت نخر، مليء بجهد يائس ورهيب. أخذت يدي بين يديها، بلطف ولكن بشراسة أيضًا، وأخذت تؤرجحها على الوسادة جيئة وذهابًا، وهو تصرّف عجزتُ عن ربطه بأيّ شيء كانت قد فعَلَتْه، أيّ شيء تبدو على وشك فعله.

في ما بعد، بعد أن انزلقت عن جسدي في نوم عميق، واصلتُ التحديق في الظلام. اشتغل الراديو. أزحت الأغطية وذهبت إلى الحمّام.

كانت ثقّالات الورق الملوّنة الخاصّة بدينيز على رفّ مغبرّ عند الباب. أدرتُ المياه على يديّ ومعصميّ. رشقت ماءً باردًا على وجهي. المنشفة الوحيدة المتوفّرة كانت فوطة ورديّة صغيرة لمسح اليد عليها تصميم لعبة إكس-أو. جفّفت نفسي ببطء وحرص. ثمّ أبعدت غطاء الشوفاج عن الجدار وأدخلت يدي تحته. كانت زجاجة الديلار قد اختفت.

27

أجريت فحصي الطبّيّ الشامل الثاني منذ الحدث السامّ. لا أرقام مخيفة في النتائج. هذا الموت شديد العمق بحيث لا يُلتقَط. طبيبي، سوندار تشاكراڤارتي، سألني عن حماستي المفاجئة لإجراء الفحوصات. في الماضي كنت خائفًا على الدوام من معرفة النتائج.

أخبرته أنّني لا أزال خائفًا. رسم ابتسامة عريضة، منتظرًا الجملة الحاسمة. صافحته وانطلقت خارجًا.

في طريق العودة إلى المنزل قدت السيّارة عبر شارع إلم ناويًا أن أنزل في محطّة سريعة في السوپرماركت. كان الشارع يعجّ بسيّارات الطوارئ. وعلى مسافة رأيت أجسادًا متناثرة. نفخ رجل برباط ذراع في الصافرة لي ووقف أمام سيّارتي. رأيت رجالًا آخرين ببزّات مايلكس. كان حاملو النقّالات يركضون على طول الشارع. عندما اقترب رجل الصافرة، تمكّنت من قراءة الأحرف على رباط ذراعه: سميوڤاك.

قال: «ارجع. الشارع مغلق».

- «هل أنتم متأكّدون يا جماعة من أنّكم مستعدّون لإجراء محاكاة. ربّما عليكم الانتظار من أجل تسرّب كبير آخر. دوّنوا جداولكم الزمنيّة».

- «تحرّك، اخرج. أنت في منطقة التعرّض».

- «ماذا يعني هذا؟»

- «يعني أنّك ميّت».

خرجت من الشارع وركنت السيّارة. ثمّ مشيتُ ببطء عائدًا إلى شارع إلم، محاولًا أن أبدو من سكّان الشارع. بقيت قرب واجهات المتاجر، مختلطًا بالفنيّين ورجال القانون، مع الأشخاص ذوي الملابس الموحّدة، كانت هناك حافلات، سيّارات شرطة، ڤانات صغيرة. بدا المجهَّزون بمعدّات إلكترونيّة وكأنّهم يحاولون البحث عن إشعاع أو هطول سامّ. وخلال هذا كنت قد اقتربت من الضحايا المتطوّعين. كانوا عشرين تقريبًا، منقلبين على وجوههم، مستلقين على ظهورهم، متكوّمين على أحجار الرصيف، يجلسون في الشارع بنظرات زائفة.

فوجئت بابنتي بينهم. كانت تستلقي في منتصف الشارع، على ظهرها، وإحدى يديها مائلة جانبيًّا، ورأسها مائل إلى الجهة الأخرى. بالكاد كنت أحتمل المشاهدة. هل هذا ما تعتبر نفسها عليه في سنّ التاسعة - ضحيّة منذ الآن، تحاول صقل مهارتها؟ يا للطبيعيّة التي بدت عليها، يا لتماهيها العميق مع فكرة وجود كارثة كبرى. هل هذا هو المستقبل الذي تتصوّره؟

اتّجهت إلى هناك وانحنيت فوقها.

- «ستيفي. أهذه حقًا أنتِ؟»

فتحت عينيها.

قالت: «لا يُفترض بك أن تكون هنا ما لم تكن ضحيّة».

- «أريد التأكّد فقط من أنّك بخير».

- «سأقع في مشكلة لو رأوك».

- «الطقس بارد. ستمرضين، هل تعرف بابا أنّك هنا؟»

- «سجّلتُ في المدرسة منذ ساعة».

- «كان يجب عليهم توزيع بطّانيّات على الأقلّ».

أغلقت عينيها. تحدّثت إليها للحظات أخرى ولكنّها لم تجب. لم

يكن ثمّة أدنى أثر للسخط أو النبذ في كلامها. إتقان لمهمّتها فقط. لديها تاريخ في الإخلاص لكونها ضحيّة.

عدت إلى الرصيف. انطلق صوت رجل بمكبّر صوت عبر الشارع من مكان ما داخل السوپرماركت.

«أودّ الترحيب بكم جميعًا باسم إدارة الكوارث المُسبَقة، وهي شركة استشاريّة خاصّة تُعنَى وتنفّذ عمليّات محاكاة للإخلاء. تتعاون مع اثنتين وعشرين هيئة حكوميّة في تنفيذ هذا التدريب على التعامل مع كارثة. وأجزم أنّه الأوّل من نوعه. كلّما تدرّبنا أكثر على الكارثة، ستتزايد فرصة نجاتنا من الكارثة الحقيقيّة. يبدو أنّ الحياة تعمل على هذا النحو، أليس كذلك؟ تأخذ مظلّتك إلى المكتب طوال سبعة عشرة يومًا متواصلة، من دون أن تهطل قطرة مطر. وفي اليوم الأوّل الذي تتركها في المنزل، ستشهد هطولًا يكسر الرقم القياسيّ. يحدث هذا دومًا، صحيح؟ هذه هي الآليّة التي نتمنّى تفعيلها، من بين آليّات أخرى. حسنًا، إلى العمل. حين تطلق صافرات الإنذار ثلاث دقّات طويلة، سيغادر آلاف الأشخاص المختارين بيوتهم وأماكن عملهم، يهرعون إلى مركباتهم وينطلقون إلى ملاجئ طوارئ ممتازة التجهيز. سيهرع مديرو حركة المرور إلى محطّاتهم التي تعمل بالكمبيوتر. وستصدر إرشادات محدّثة على نظام سميوڤاك الإذاعيّ. وسينتشر أشخاص مختارون ضمن منطقة التعرّض للسحابة. جامعو عيّنات ألبان سيفحصون الحليب وأطعمة عشوائيّة خلال الأيّام الثلاثة على طول منطقة التعرّض. لن نقوم بمحاكاة اندلاق خاصّ اليوم. هذا تسرّب أو اندلاق يغطّي الأشكال كلّها. قد يكون بخارًا مشعًّا، سحابة كيميائيّة، سديمًا من مصدر مجهول. أهمّ شيء هي الحركة. إخراج هؤلاء الناس من المنطقة. تعلّمنا الكثير خلال ليلة السحابة المتموّجة. ولكن لا بديل عن محاكاة منظَّمة. ولو حَدَثَ أن تدخّل الواقع على شكل حادث سيّارة أو ضحيّة تسقط من نقّالة، من المهمّ أن نتذكّر أنّنا لسنا موجودين

هنا لإصلاح العظام المكسورة أو إطفاء النيران. نحن هنا لننفّذ محاكاة. المعوقات المفاجئة قد تكلّف أرواحًا في وضع الطوارئ الحقيقيّ. لو تعلّمنا العمل مع تجاهل المعوّقات الآن، سنتمكّن من العمل مع تجاهلها لاحقًا حين يحين الوقت. حسنًا. حين تطلق الصافرات عويلين كئيبين، سيقوم قباطنة الشارع بالدخول إلى منزل إثر آخر باحثين عن كلّ ما تترك غفلةً. طيور، وأسماك زينة، ومسنّين، ومعاقين، وعاجزين، وعالقين، إلى آخره. خمس دقائق، يا ضحايا. أمّا أنتم يا كادر الإنقاذ، تذكّروا أنّ هذه ليست محاكاة انفجار. ضحاياكم منهَكون وليسوا مصابين. وفّروا عنايتكم الرقيقة لسحابة الانفجار النوويّ في يونيو. أمامنا أربع دقائق بعدّ تنازليّ، يا ضحايا، صيروا منهكين. وتذكّروا أنّكم هنا لا كي تصرخوا أو تتخبّطوا. نحبّ الضحيّة الصامتة. هذه ليست نيويورك أو لوس أنجلس. الأنين الخافت يفي بالغرض».

أدركت أنّني لا أريد المشاهدة. عدت إلى السيّارة واتّجهت إلى المنزل. أطلقت الصافرات الدفقات الثلاث الأولى حين توقّفت أمام المنزل. كان هاينرش يجلس على الدرج الأماميّ، مرتديًا سترته العاكسة وقبّعته المموّهة، وكان معه فتى أكبر سنًّا. كان جسده قويًّا مشدودًا مصبوغًا. لم يبد أنّ أيّ أحد في شارعنا ينفّذ إخلاءً. هاينرش يمسك لوحًا ويتأمل ما فيه.

- «ما الذي يحدث؟»

قال: «أنا قبطان شارع».

- «هل كنت تعلم أنّ ستيفي ضحيّة؟»

- «قالت إنّها ربّما ستفعل».

- «لمَ لمْ تخبرني؟»

- «إذا اختاروها ووضعوها في سيّارة إسعاف. ما المشكلة؟»

- «لا أعلم ما المشكلة».

- «لو كانت تريد فعلها. ينبغي عليها فعلها».

- «تبدو شديدة التناسب مع الدور».

- «قد ينقذ هذا حياتها يومًا ما».

- «كيف يمكن للتظاهر بالإصابة أو الموت أن ينقذ حياة المرء؟»

- «لو فعلتها الآن، قد لا تضطرّ لفعلها لاحقًا. كلّما تدرّبت أكثر على أمر ما، تضاءلت احتماليّة حدوثه فعلًا».

- «هذا ما قاله الخبير».

- «إنّها حيلة ولكنّها تنجح».

- «من هذا؟»

- «هذا أورِسْت مركاتر. سيساعدني في تفقّد ما تبقّى».

- «أنت الذي تريد الجلوس في قفص مليء بالأفاعي القاتلة. هل يمكن أن تخبرني السبب؟»

قال أورست: «لأنّني أريد تحطيم الرقم القياسيّ».

- «ولم تريد أن تموت من أجل رقم؟»

- «أيّ موت؟ من جاء على سيرة الموت؟»

- «ستكون محاطًا بأفاعٍ نادرة وقاتلة».

- «إنّها الأفضل في مضمارها. وأريد أن أكون الأفضل في مضماري».

- «وما الذي تفعله؟»

- «أجلس في قفص لسبعة وستّين يومًا. هذا ما يحتاجه الأمر لكسر الرقم القياسيّ».

- «هل تدرك أنّك تجازف بحياتك من أجل سطرين في كتاب بغلاف ورقيّ؟»

صوّب إلى هاينرش نظرة استفساريّة، بحيث بدا واضحًا أنّه يحمّله المسؤوليّة عن هذا الاستجواب الأحمق.

واصلتُ الكلام: «ستلدغك».

- «لن تلدغني».

- «وكيف تعرف هذا؟»

- «لأنّني أعرف».

- «هذه أفاعٍ حقيقيّة يا أورست. لدغة واحدة وينتهي كلّ شيء».

- «لدغة واحدة لو كانت ستلدغ. ولكنّها لن تلدغ».

- «إنّها حقيقيّة. أنت حقيقيّ. يُلدغ الناس طوال الوقت. السمّ قاتل».

- «يُلدغ الناس. ولكنّني لن أُلدغ».

وجدت نفسي أقول: «ستُلدغ، ستُلدغ. هذه الأفاعي لا تعلم أنّك تعتبر الموت خيارًا غير مطروح. لا تعرف أنّك شابّ وقويّ يظنّ أنّ الموت يشمل الجميع ما عداه. ستُلدغ وستموت».

توقّفت، شاعرًا بالعار بسبب انفعال حججي، فوجئت برؤيته ينظر إليّ بشيء من الاهتمام، نوع من إبداء احترام على مضض. لعلّ القوّة الوقحة لانفجاري بالكلام قد ذكّرته بخطورة ما ينوي القيام به، ملأته بمخاوف من مصير ثقيل الوطأة.

قال: «لو كانت ستلدغ، فلتلدغ. سأموت مباشرة على الأقلّ. هذه الأفاعي هي الأفضل، الأسرع. لو لدغتني الأفعى النافثة، سأموت خلال ثوانٍ».

- «ولم أنت مستعجل؟ أنت في التاسعة عشرة. ستجد مئات الطرق للموت أفضل من الأفاعي».

ما هذا الاسم، أورست؟ تمعّنت في قسمات وجهه. ربّما كان هسپانيًّا، شرق أوسطيًّا، جنوب آسيويًّا، أوروبيًّا شرقيًّا ببشرة داكنة، أسود

ببشرة فاتحة. هل في كلامه لكنة؟ لم أكن واثقًا. هل كان من جزر ساموا، من سكّان أميركا الأصليّين، يهوديًّا من السافارد؟ باتت الصعوبة أكبر في إدراك ما تعجز عن قوله للناس.

قال لي: «ما الوزن الذي بإمكانك حمله على صدرك؟»

- «لا أعرف. ليس كثيرًا».

- «هل سبق أن لكمت أحدًا في وجهه؟»

- «ضربة عابرة ربّما، مرّة واحدة، منذ زمن طويل».

- «أتمنّى أن ألكم أحد في الوجه يومًا ما. بقبضة عارية. بأقصى قوّتي. لأكتشف هذا الشعور».

ابتسم هاينرش مثل حمامة النافذة في الأفلام. انطلقت صافرات الإنذار - عويلان كئيبان. دخلتُ إلى البيت فيما تفقّدَ الفتيان أرقام المنازل على اللوح المشبكيّ. كانت بابيت في المطبخ تطعم وايلدر غداءه.

قلت: «إنّه يرتدي سترة عاكسة».

- «إجراء احتياطيّ في حال وجود ضباب، كي لا تصدمك السيّارات المسرعة».

- «لا أظنّ أنّ أحدًا سيُسرع. كيف تشعرين؟»

- «أفضل».

- «وأنا أيضًا».

- «أظنّ أنّ تواجدي مع وايلدر يرفع معنويّاتي».

- «أعلم ما تعنين. تكون نفسيّتي جيّدة دائمًا حين أكون معه. هل هذا لأنّ المسرّات لا تدوم لديه؟ إنّه أنانيّ من دون أن يكون جشعًا، أنانيّ على نحو طبيعيّ وأريحيّ كلّيًّا. ثمّة ما هو رائع في الطريقة التي يرمي بها شيئًا، ويلتقط آخر. أنزعج حين لا يقدّر الأطفال الآخرون اللحظات

أو المناسبات الخاصّة. يتخلّون عن أمور ينبغي صونها وحفظها. ولكن حين يقوم وايلدر بتصرّفاته، أرى روح العبقريّة في ما يفعل».

- «قد يكون هذا صحيحًا ولكن هناك أمر آخر بشأنه يرفع معنويّاتي. أمر أكبر، أعظم، أعجز عن إدراكه تمامًا».

- «ذكّريني أن أسأل مري».

قرّبت ملعقة شوربة من فم الطفل، راسمة تعبيرات على وجهها كي يقلّدها، وتقول: «أيوا، أيوا، أيوا، أيو، أيوا».

- «أريد أن أسألك عن شيء آخر. أين الديلار؟»

- «انسه يا جاك. ذهب الأحمق، أو أيًّا يكن المصطلح الملائم».

- «وهم قاسٍ. أعرف. ولكنّني أريد أن أحفظ الأقراص في مكان آمن، حتّى ولو كدليل ملموس على وجود ديلار. لو قرّر نصف دماغك الأيسر أن يموت، أريد أن أكون قادرًا على مقاضاة شخص ما. تبقّت أربعة أقراص، أين هي؟»

- «هل تقول لي إنّها ليست خلف غطاء الشوفاج؟»

- «هذا صحيح».

- «لم أحرّكها من مكانها، بصدق».

- «هل من الممكن أنّك تخلّصت منها في لحظة غضب أو اكتئاب. أريدها من أجل الدقّة التاريخيّة فقط. مثل أشرطة تسجيل البيت الأبيض. ستدخل في الأرشيف».

قالت: «أنت لم تخضع لفحوصات. من الخطر تناول ولو حبّة واحدة».

- «لا أريد تناولها».

- «لا، بل تريد».

- «انتهينا من مسألة تناول الأقراص. أين السيّد غراي؟ قد أرغب بمقاضاته حقًّا».

- «عقدنا اتّفاقًا، هو وأنا».

- «أيّام الثلاثاء والجمعة. موتيل غراي ڤيو».

- «ليس هذا ما أعنيه. قطعت وعدًا بأن لا أكشف هويّته الحقيقيّة لأحد. وإذا أخذنا بالاعتبار ما أنت عازم عليه، سيصبح الوعد مضاعفًا. هذا من أجل مصلحتك قبل مصلحته. لن أقول شيئًا يا جاك. فلنكمل حياتنا فقط. لنتعاهد على أنّنا سنبذل قصارى جهدنا. أيوا، أيوا، أيوا، أيوا، أيوا».

انطلقتُ بالسيّارة إلى المدرسة الابتدائيّة وتوقّفت عند الشارع المجاور للمدخل الرئيسيّ. بعد عشرين دقيقة بدأوا بالخروج، ثلاثمئة طفل تقريبًا، ثرثارين، مرحين، متعطّشين للقتال. كانوا يتبادلون شتائم ذكيّة، بذاءات بارعة متنوّعة، ويضرب أحدهم الآخر بحقائب الكتب، والقبّعات القماشيّة. جلست في مقعد السائق أتأمّل حشد الوجوه، أشعر أنّني مثل تاجر مخدّرات أو منحرف.

حين رأيت دينيز ضغطت الزمّور فجاءت. كانت تلك المرّة الأولى التي أجلبها من المدرسة فصوّبت نحوي نظرة صارمة حذرة وهي تعبر أمام السيّارة - نظرة تشي أنّها ليست في مزاج لسماع أخبار انفصال أو طلاق. سلكت طريق النهر نحو المنزل. وكانت تتمعّن في ملامحي.

قلت: «الأمر يتعلّق بالديلار. ليس للدواء علاقة بمشكلات ذاكرة بابا. بل العكس في الواقع. إنّها تأخذ ديلار لتحسين ذاكرتها».

- «لا أصدّقك».

- «لم لا؟»

- «لأنّك لم تكن لتأتي لتجلبني من المدرسة لمجرّد إخباري بهذا. لأنّنا كنّا قد عرفنا أساسًا عدم إمكانيّة الحصول عليه بوصفة طبّيّة. لأنّني تحدّثت إلى طبيبها وهو لم يسمع به على الإطلاق».

- «اتّصلت به في المنزل؟»
- «في العيادة».
- «ديلار أكثر خصوصيّة بقليل من أدوية المقويّات النفسيّة العاديّة».
- «هل أمّي مدمنة مخدّرات؟»
- «أنت أذكى من هذا».
- «لا، لست أذكى».
- «نريد أن نعرف ما فعلتِ بالزجاجة. هناك أقراص متبقيّة».
- «كيف تعرف أنّني أخذتها؟»
- «أنا أعرف، وأنت تعرفين».
- «لو تكرّم أحد بإخباري طبيعة ديلار فعلًا، قد نصل إلى حلّ ما».

قلت: «هناك أمر لا تعرفينه. لم تعد أمّك تأخذ الدواء. أيًّا يكن سبب احتفاظك بالزجاجة، لم يعد سببًا لازمًا على الإطلاق».

انعطفنا باتّجاه الغرب وأصبحنا نقود الآن ضمن الحرم الجامعيّ. أوتوماتيكيًّا بحثت داخل الجاكيت عن النظّارة الداكنة وارتديتها.

قالت: «سأرميها إذًا».

في الأيّام القليلة التالية جرّبت تشكيلة متنوّعة من الحجج، بعضها يكاد يكون مدهشًا من فرط دقّة حبكها ونسجها. بل استخدمتُ بابيت حتّى، مقنعًا إيّاها أنّ الزجاجة يجب أن تكون في عهدة أشخاص بالغين. ولكنّ إرادة البنت كانت ممانعة بشدّة. حياتها ككيان قانونيّ تكوّنت بفعل مساومات ومماحكات الآخرين وقد كانت مصمّمة على اتّباع أسلوب شديد الصرامة بحيث لا يسمح بالتنازلات أو التسويات. ستُبقي الشيء مخفيًّا إلى أن نُفشي لها بسرّه.

ربّما كان بقاء الأمر على حاله صائبًا على الأرجح، قد يكون العقار خطيرًا في نهاية الأمر. ولم أكن من المؤمنين بالحلول السهلة، شيء

أبتلعه فيخلّص روحي من خوف قديم. ولكنّني عجزت عن كبحٍ نفسي عن التفكير بذلك القرص الشبيه بالصحن الطائر. هل يعمل حقًّا، هل يعمل إذا تناوله شخص ما وليس شخص آخر؟ كان المقابل الحميد للنيودين الخبيث. يغسل من مؤخّرة لساني نزولًا إلى معدتي. المادّة الدوائيّة تذوب، مطلقة موادّ كيميائيّة خيّرة في مجرى الدم في جسدي، مُغرقة جزء الدماغ المسؤول عن الخوف من الموت. الحبّة تدمّر ذاتها بصمت في انفجار داخليّ صغير، انفجار بوليمر، خفيّ ودقيق، ومُراعٍ لما حوله.

التكنولوجيا بوجه إنسانيّ.

28

وايلدر جالس على كرسيّ معدنيّ مرتفع أمام البوتوغاز، يراقب غليان الماء في قِدْرٍ صغير من الميناء. بدا مأخوذًا بهذه العمليّة. أتساءل ما إذا كان قد اكتشف صلة رائعة بين الأشياء التي لطالما كان يعتبرها منفصلة. المطبخ غنيّ عادة بمثل هذه اللحظات، ربّما بالقدر ذاته بالنسبة إليّ كما إليه.

دخلت ستيفي وهي تقول: «أنا الشخص الوحيد من بين مَنْ أعرفهم الذي يحبّ أيّام الأربعاء». بدا أنّ انبهار وايلدر جذبها. ذهبت ووقفت بجانبه، محاولة اكتشاف ما جذبه للماء المهتاج. انحنت فوق القدر، تبحث عن بيضة.

أغنية إعلانيّة لمُنتَج اسمه راي-بان وايفيرر بدأت تصدح في رأسي.

- «كيف جرت عمليّة الإخلاء؟»

- «عدد كبير من الناس لم يأتوا. انتظرنا ونحن مرميّون، نئنّ».

قلت: «يأتون في الإخلاءات الحقيقيّة».

- «سيكون الأوان قد فات حينها».

كان الضوء مشرقًا ولطيفًا، جاعلًا الأشياء تشعّ. كانت ستيفي ترتدي ملابس للخروج، صباح دوام مدرسيّ، ولكنّها بقيت عند البوتوغاز، تقلّب نظراتها بين وايلدر والقِدْر وبالعكس، محاولة ربط خيوط فضوله وذهوله.

- «تقول بابا إنّك تلقّيت رسالة».

- «أمّي تريد أن أزورها في عيد الفصح».

- «جيّد. هل تريد الذهاب؟ بالطبع تريد. أنت تحبّ أمّك. إنّها في مكسيكو سيتي الآن، أليس كذلك؟»

- «من سيوصلني؟»

- «أنا أوصلك إلى المطار. وتُقِلّك أمّك من الجانب الآخر. هذا سهل. بي تفعلها معظم الأحيان. وأنت تحبّ بي».

ضخامة المهمّة، السفر جوًّا إلى بلد أجنبيّ بسرعة تقارب سرعة الصوت، على ارتفاع ثلاثين ألف قدم، وحيدة، في صندوق محدَّب من التيتانيوم والفولاذ، دفعها مباشرة إلى الصمت. أخذنا نراقب غليان الماء.

- «سجّلت كي أصبح ضحيّة أخرى. سيكون الموعد قبل الفصح مباشرة. لذا أظنّ أنّ عليّ البقاء هنا».

- «إخلاء آخر؟ ما المناسبة هذه المرّة؟»

- «رائحة غريبة».

- «تعنين مادّة كيميائيّة منبعثة من مصنع عند النهر؟»

- «أظنّ هذا».

- «وما الذي تفعلينه كضحيّة لرائحة؟»

- «لم يخبرونا بعد».

- «أنا واثق من أنّهم لن يمانعوا إعفاءك هذه المرّة فقط. سأكتب طلبًا».

زواجي الأوّل والرابع كان من دانا بريدكفْ، وهي أمّ ستيفي. مضى الزواج الأوّل على نحو جيّد بما يكفي ليشجّعنا على تكرار المحاولة حين أصبح القرار مشتركًا. وعندما فعلنا هذا، بعد فترتي الاكتئاب مع جانيت سافوري وتويدي براونر، مضت الأمور إلى الانهيار. ولكن لم يتمّ هذا إلا بعد أن حملت بستيفاني روز، في ليلة ملأى بالنجوم في باربادوس. دانا كانت هناك لرشوة مسؤول حكوميّ.

لم تخبرني إلا أقلّ القليل عن عملها الاستخباراتيّ. أعلم أنّها كانت تراجع الأعمال الأدبيّة لدى السي آي إيه، روايات جادّة طويلة ببنى سرديّة مشفّرة أغلب الأحيان. تسبّب عملها بإصابتها بالتعب والسخط، بحيث نادرًا ما كانت تستمتع بالطعام، أو الجنس أو الحديث. كانت تتحدّث الإسبانيّة مع شخص على الهاتف، وكانت أمًّا فائقة النشاط، تتّقد بقوّة عاصفة محيّرة. وتتابَعَ وصول الروايات الطويلة بالبريد.

كان غريبًا تعثّري الدائم بالحيوات المرتبطة بالاستخبارات. كانت دانا جاسوسة بعمل جزئيّ. تنحدر تويدي من عائلة عريقة ذات تراث طويل من التجسّس والتجسّس المضادّ وهي متزوّجة الآن من عميل عالي المستوى متخصّص في الأدغـال. جانيت، قبل تقاعدها في المعتزل، كانت محلّلة عملات أجنبيّة تجري أبحاثًا لجماعة سرّيّة من المنظرين البارزين المرتبطين بمركز أبحاث مثير للجدل. وكان كلّ ما أخبرتني به أنّهم لا يلتقون مرّتين في المكان ذاته.

لا بدّ أنّ جزءًا من إعجابي ببابيت كان الراحة الكبيرة. لم تكن ممّن يخفون الأسرار، على الأقلّ حتّى إلى أن أدخلتها مخاوفها من الموت في نوبات خبل من الأبحاث السرّيّة والخيانة الجنسيّة. فكّرت بالسيّد غراي وعضوه المتدلّي. كانت الصورة سديميّة، ناقصة. كان الرجل رماديًّا فعلًا، يطلق أزيزًا بصريًّا.

انتقل الماء إلى مرحلة الغلي اللولبيّ. ساعدت ستيفي الولد في النزول عن الكرسيّ. ارتطمت ببابيت في طريقي إلى الباب الأماميّ. تبادلنا السؤال البسيط ولكن شديد الصدق الذي كان كلّ منّا يطرحه على الآخر مرّتين أو ثلاث مرّات يوميًّا منذ ليلة اعترافات ديلار. «**كيف حالك؟**» طرح السؤال، وسماع الردّ، يشعر كلينا بتحسّن. ركضت إلى الأعلى لأبحث عن نظارتي. كانت مسابقة السرطان الوطنيّة على التلفزيون.

في قاعة الغداء في المبنى المئويّ، راقبت مري يشمّ أدوات المائدة. كان ثمّة شحوب يحتلّ وجوه مهاجري نيويورك. لاشر وغْرابا تحديدًا. كان فيها شحوب الهوس، الشهيّات القويّة المحصورة بالأماكن الصغيرة. قال مري إنّ عند إليوت لاشر وجه فيلم نْوار (أسود). كانت قسماته مفصَّلة بحدّة، وشعره مضمَّخ بمستخلص زيتيّ. خطرت لي الفكرة الغريبة أنّ هؤلاء الرجال يشعرون بالحنين إلى الأسود والأبيض، وحنينهم محكوم بقيم عديمة اللون، وتطرّفات شخصيّة من اللون الرماديّ المدينيّ بعد الحرب.

ألفونس ستومپاناتو جالس يشعّ عدائيّة وتهديدًا. بدا أنّه يراقبني، رئيس قسم يعاين هالة رئيس قسم آخر. كان شعار بروكلين دودجيز محبوكًا على مقدّمة ردائه.

لفّ لاشر منديلًا ورقيًّا ورماه على شخص على مسافة طاولتين. ثمّ حدّق ناحية غْرابا.

قال بنبرة عدائيّة: «من كان صاحب التأثير الأكبر في حياتك؟»

- «رتشارد ودمارك في قبلة الموت. حين دفع رتشارد ودمارك السيّدة العجوز بكرسيّها المتحرّك عبر ذلك القسم من الدرج، بدا هذا بمثابة فتح شخصيّ بالنسبة إليّ. لقد حسم عددًا من التناقضات. استنسخت ضحكة رتشارد ودمارك الساديّة واستخدمتها عشر سنوات.

ساعدتني في تجاوز عدّة فترات عاطفيّة صعبة. رتشارد ودمارك بدور تومي يودو في فيلم هنري هاث واي قبلة الموت. تذكر تلك الضحكة المرعبة؟ وجه الضبع. ضحكة الغول. لقد وضّحت عددًا من الأمور في حياتي ساعدتني في أن أصبح ذا شخصيّة».

- «هل سبق أن بصقت في زجاجة الصودا كي لا تضطرّ إلى مشاركة مشروبك مع الأطفال الآخرين؟»

- «كان هذا تصرّفًا أوتوماتيكيًّا. بل كان بعض الأطفال يبصقون في سندويشاتهم أيضًا. بعد أن نلعب قذف السنتات إلى الجدار، نذهب لشراء أشياء نأكلها ونشربها. ودائمًا كانت هناك خطّة بصاق. يبصق الشباب في حصّتهم من حلوى الفَجْ والشارلوت».

- «كم كان عمرك حين أدركت للمرّة الأولى أنّ أباك حقير؟»

قال غْرابا: «اثنتا عشر ونصف. كنت أجلس في الشرفة في فيرمونت أشاهد فيلم فرتز لانغ الصراع الليليّ وفيه باربرا ستانويك بدور ميه دويل، وبول دوغلاس بدور جيري داماتو والعظيم روبرت ريان بدور غيرل بفايفر. وأدوار صغيرة لـ ج. كارول نيش، وكيف إيندس ومارلين مونرو القديمة. صُوِّر في اثنين وثلاثين يومًا. أسود وأبيض».

- «هل سبق أن أصابك انتصاب حين تحتكّ خبيرة الأسنان بذراعك أثناء تنظيف أسنانك؟»

- «مرّات أكثر ممّا بوسعي إحصاؤها».

- «حين تزيل الجلد الميّت عن إبهامك، هل تأكله أم تبصقه؟»

- «أمضغه قليلًا، ثمّ أجعله ينزلق بنعومة من مؤخّرة لساني».

قال لاشر: «هل سبق أن أغلقت عينيك وأنت تقود السيّارة في أوتوستراد؟»

- «أغلقت عينيّ على طريق 95 الشماليّ لثماني ثوانٍ كاملة. ثمان

ثوانٍ هو رقمي القياسيّ الشخصيّ. وقد أغلقت عينيّ حتّى ستّ ثوانٍ في طرق ريفيّة عديدة ولكن هذا كان بسرعة ثلاثين أو خمسة وثلاثين فقط. وفي الأوتوسترادات متعدّدة المسارب أزيد السرعة حتّى سبعين قبل أن أغلق عينيّ. تفعل هذا في الطرق ذات الاتجاه الواحد. أغلقت عينيّ حتّى خمس ثوان في طريق ذي اتجاه واحد ومعي أشخاص آخرون في السيّارة. تنتظر إلى أن ينعسوا، هكذا تفعلها».

يمتلك غْرابا وجهًا مستديرًا قلقًا رطبًا. ثمّة مظهر فيه لصبيّ جميل تمّت خيانته. راقبته وهو يشعل سيجارة، يطفئ عود الثقاب ويقذفه على سَلَطة مري.

قال لاشر: «ما مدى اللذّة التي أحسست بها وأنت طفل في تخيّل نفسك ميّتًا؟»

قال غْرابا: «دع عنك حين كنت طفلًا. لا أزال أفعلها طوال الوقت. كلّما شعرت بالانزعاج من أمر ما، أتخيّل جميع أصدقائي، وأقربائي وزملائي متجمّعين حول نعشي. كانوا يشعرون بأسف شديد جدًا، ولم يسبق لهم أن كانوا ألطف حين كنت حيًّا. رثاء الذات أمر أسعى بجدّ كبير للحفاظ عليه. لمَ أتخلَّ عنه لمجرّد أنّني كبرت؟ رثاء الذات أمر يبرع فيه الأطفال، ولا بدّ أنّ هذا يعني أنّه طبيعيّ ومهمّ. تخيُّل نفسك ميّتًا هو الشكل الأتفه الأدنأ الأشدّ إشباعًا من رثاء الذات الطفوليّ. يا لحزن وأسى وأسف كلّ هؤلاء الناس، وهم يقفون عند تابوتك البرونزيّ الكبير. يعجز كلٌّ منهم حتّى عن النظر في عينيّ الآخر لأنّهم يعلمون أنّ موت هذا الرجل المحترم الحنون هو نتيجة مؤامرة اشتركوا فيها جميعًا. التابوت مغطّى بالأزهار ومؤطّر بقماش مخمليّ مثل السلمون أو الدرّاق. يا لروعة التيّارات المتقاطعة من رثاء الذات والثقة بالنفس التي تتمكّن من الغرق فيها، وأنت ترى نفسك في بزّة داكنة وربطة عنق، تبدو مُسمَّرًا، متلائم الجسد، مرتاحًا، كما يقولون عن الرؤساء بعد

الإجازات. ولكن ثمّة ما هو أكثر صبيانيّة وإشباعًا من رثاء الذات، أمر يفسّر لمَ أحاول تخيّل نفسي ميّتًا على نحو متكرّر، رجلًا عظيمًا محاطًا بمعزّين منتحبين. إنّها وسيلتي في معاقبة الناس لاعتقادهم أنّ حيواتهم أكثر أهمّيّة من حياتي».

قال لاشر لمري: «ينبغي أن يكون لدينا يوم موتى رسميّ مثل المكسيكيّين».

- «لدينا هذا. يسمّى أسبوع السوبر بول».

لم أكن أريد الإنصات لهذا الحديث. لديّ موتي أتأمّل فيه، بعيدًا عن كلّ التخيّلات. ليس هذا لأنّني اعتبرت ملاحظات غْرايا ذات أسس واهية. إحساس بالمؤامرة حرّض فيّ موجة خاصّة للردّ. هذا ما نغفره على سرير الموت، لا الكراهية أو الجشع. نغفر لهم لقدرتهم على وضع أنفسهم على مسافة، على التآمر بصمت ضدّنا، قتلنا، فعليًّا.

شاهدت ألفونس يعيد تأكيد حضوره الثقيل بإدارة كتفيه. اعتبرتها إشارة إلى أنّه يقوم بإحماء قبل الكلام. أردت أن أفرّ، وأنسلّ فجأة، وأهرب.

قال ناظرًا إليّ مباشرة: «في نيويورك يتساءل الناس ما إذا كان لديك طبيب باطني جيّد. هنا تكمن القوّة الحقيقيّة. الأعضاء الداخليّة. الكبد، والكلية، والمعدة، والأمعاء، والبنكرياس. الطبّ الباطني هو الخمر السحريّة. تكتسب القوّة والكاريزما من طبيب باطني جيّد بمعزل عن العلاج الذي يقدّمه. يسأل الناس عن دافعي الضرائب، مخطّطي العقارات، تجّار المخدّرات. ولكنّ الطبيب الباطني هو ما يهمّ فعلًا. «من طبيبك الباطني؟» سيقول شخص بنبرة تحدٍّ. السؤال يعني ضمنيًّا أنّه إن كان اسم طبيبك غير معروف، لا بدّ أنّك ستموت بسبب سرطان يشبه ثمرة فطر على بنكرياسك. لا بدّ لك من أن تشعر بقيمة أدنى وبأنّ مصيرك محتوم لا لأنّ أعضاءك الداخليّة قد تقطر دمًا بل لأنّك لا تعرف من ينبغي

أن تراجع ليكشف عليك، كيف تصنع علاقات، كيف تشقّ طريقك في العالم. انسَ العقدة الصناعيّة-العسكريّة. السلطة الحقيقيّة تُستَخدم كلّ يوم، في هذه التحدّيات والتخويفات الصغيرة، عن أشخاص يشبهوننا».

ازدردتُ الحلوى وانسللتُ من الطاولة. انتظرت مري في الخارج. عندما خرج أمسكت بذراعه فوق المرفق ومشينا في أرجاء الحرم الجامعيّ مثل مواطنين أوروبّيّين عجوزين، رأسانا مائلتان أثناء الحديث.

قلت: «كيف تنصت إلى هذا؟ الموت والمرض. هل يتكلّمون على هذا النحو طوال الوقت؟»

- «حين كنت أغطّي الرياضة، كنت أتواصل مع الكتّاب الآخرين في الطريق. غرف فنادق، طائرات، تكاسي، ومطاعم. لم يكن هناك إلا موضوع أوحد للحديث. الجنس والموت».

- «هذان موضوعان».

- «أنت على حقّ يا جاك».

- «أكره مجرّد التفكير بأنّهما مرتبطان بشكل عصيّ على الفصل».

- «الأمر هو أنّه في الطريق كلّ شيء مرتبط. كلّ شيء ولا شيء، لو شئنا الدقّة».

مشينا قرب برك من الثلج الذائب.

- «كيف هو تقدُّم سيمينارك عن حوادث السيّارات؟»

- «شاهدنا مئات مشاهد الحوادث. سيّارات مع سيّارات. سيّارات مع شاحنات. شاحنات مع حافلات. درّاجات ناريّة مع سيّارات. سيّارات مع حوّامات. يظنّ طلابي أنّ هذه الأفلام نبوئيّة. إنّها تؤشّر إلى الرغبة الانتحاريّة للتكنولوجيا. الدرب إلى الانتحار، الاندفاع المتعجّل إلى الانتحار».

- «وماذا تقول لهم؟»

- «إنّها إلى حدّ بعيد أفلام من الدرجة الثانية، أفلام تلفزيونيّة، أفلام سينمات درايف-إن ريفيّة. أخبر طلابي ألا يبحثوا عن الأپوكاليبس في أماكن كهذه. أعتبر حوادث السيّارات هذه جزءًا من عُرف مديد للنزعة التفاؤليّة الأميركيّة. إنّها أحداث إيجابيّة، مليئة بروح ´أستطيع فعلها` القديمة. يقصد بكلّ حادث سيّارة أن يكون أفضل من سابقه. ثمّة تحديث متواصل في المعدّات والمهارات، اجتماع تحدّيات. يقول مخرج، ´أريد من هذه الشاحنة المسطّحة أن تنفّذ شقلبة مزدوجة في الهواء تنتج كرة نار برتقاليّة بقطر ستّة وثلاثين قدمًا، بحيث يستخدمها مدير التصوير لإضاءة المشهد`. أُخبرهم أنّهم لو أرادوا إدخال موضوع التكنولوجيا، عليهم أخذ هذا بعين الاعتبار، هذه النزعة نحو الأفعال الهائلة، نحو السعي إلى حلم».

- «حلم؟ وكيف يردّ طلابك؟»

- «بطريقتك ذاتها. ´حلم؟` كل هذا الدم والزجاج، ذلك المطّاط الزاعق. ماذا عن الدمار الكبير، معنى الحضارة في وضع انحطاطها؟»

- «ماذا عنه؟»

- «أخبرهم أنّ ما يرونه ليس انحطاطًا بل براءة. ينأى الفيلم عن الأهواء البشريّة المعقّدة ليبيّن لنا شيئًا أوليًّا، شيئًا متّقدًا وصاخبًا ومباشرًا. إنّه إشباع رغبة تقليديّ، تَوْقٌ إلى البساطة. نريد أن نكون بريئين مجدّدًا. نريد عكس اتّجاه تدفّق التجربة، تدفّق الدنيويّة ومسؤوليّاتها. ويقول طلابي، ´انظر إلى الأجساد المسحوقة، والأوصال المقطّعة. أيّ نوع براءة هو هذا؟`»

- «وبم تردّ؟»

- «أخبرهم أنّه لا يصحّ النظر إلى حادث سيّارة في فيلم على أنه عمل عنف. إنّه احتفاء. إعادة تأكيد للقيم والمعتقدات التقليديّة. أربط حوادث السيّارات مع عطل عيد الشكر وعيد الاستقلال. لا نعلن حدادًا

على الموتى أو ننعم بالمعجزات. هذه أيّام نزعة تفاؤليّة علمانيّة، أيّام احتفاء بالذات. سنتحسّن، سنزدهر، نرفع أنفسنا إلى مرتبة الكمال. راقب أيّ حادث تحطّم سيّارة في أيّ فيلم أميركيّ، إنّها لحظة جرأة مثل الأفعال القديمة من طيران الممثّلين البدلاء، أو مشيهم على الأجنحة. الأشخاص الذين ينفّذون هذه الحوادث قادرون على التقاط جَذَل متعة صافية تعجز حوادث تحطّم السيّارات في الأفلام الأجنبيّة عن مقاربتها».

- «انظر إلى ما وراء العنف».

- «تمامًا. انظر إلى ما وراء العنف يا جاك. هذه روح رائعة مُتْرَعة بالبراءة والمرح».

29

أتحرّك أنا وبابيت في الممرّ العريض، كلّ منّا مع عربة تسوّق برّاقة. مررنا بعائلة تتسوّق بلغة الإشارة. لا أزال أرى الأضواء الملوّنة.

قالت: «كيف تشعر؟»

- «بخير. أنا مرتاح. كيف أنت؟»

- «لم لا تجري فحصًا شاملًا؟ ألن تشعر بتحسّن لو عرفت أن لا مشكلات لديك؟»

- «أجريت فحصين. لا شيء هناك».

- «ما الذي قاله د. تشاكراڤارتي؟»

- «ما الذي بوسعه أن يقول؟»

- «يتحدّث الإنكليزيّة بطريقة جميلة. أحبّ سماعه يتحدّث».

- «ليس بقدر حبّه للكلام».

- «ما الذي تعنيه بحبّه للكلام؟ هل تعني أنّه ينتهز كلّ فرصة ممكنة للكلام؟ هو طبيب. الكلام واجب عليه. أنت تدفع له كي يتكلّم بكلّ

معنى للكلمة. هل تعني أنّه يتباهى بالإنكليزيّة الجميلة؟ يزعجك بمواصلة الكلام؟»

- «نحتاج إلى غلاس پلس».

قالت: «لا تتركني لوحدي».

- «أنا ذاهب إلى الممرّ رقم خمسة فقط».

- «لا أريد أن أبقى لوحدي يا جاك. أظنّ أنّك تعلم هذا».

قلت: «سنتخطّى هذا الأمر على نحو جيّد. ربّما أقوى من قبل. إنّنا مصمّمان على أن تتحسّن. بابيت ليست شخصًا عصابيًا. إنّها قويّة، معافاة، منطلقة، إيجابيّة. تقول نعم للأشياء. هذا هو مغزى وجود بابيت».

بقينا معًا في الممرّات وعند ركن دفع الحساب. اشترت بابيت ثلاث جرائد تابلويد من أجل جلستها القادمة مع العجوز تريدول. قرأناها معًا أثناء وقوفنا في الطابور. ثمّ ذهبنا معًا إلى السيّارة، حمّلنا المشتريات، وجلسنا شبه متلاصقَيْن في السيّارة في طريق عودتنا إلى البيت.

قلت: «باستثناء عينيّ».

- «ماذا تعني؟»

- «يظنّ تشاكراڤارتي أنّ عليّ مراجعة طبيب عيون».

- «هل هي البقع الملوّنة مجدّدًا؟»

- «نعم».

- «توقّف عن ارتداء تلك النظّارة الداكنة».

- «لا يمكنني تدريس هتلر من دونها».

- «لم لا؟»

- «أنا بحاجة إليها، انتهينا».

- «إنّها غبيّة، لا نفع منها».

قلت: «لقد شيّدتُ مهنة كاملة. ربّما أنا لا أفهم كلّ العناصر المتضمّنة ولكن هذا سبب أكبر كي لا أعبث بها».

مراكز أزمة ديجا ڤو أغلقت. وأُلغي الخطّ الساخن بهدوء. بدا الناس على وشك النسيان. بالكاد يمكنني أن ألومهم حتّى لو أحسست بالهجران إلى حدّ ما، تُركتُ أحمل العبء وحدي.

تابعت دروس الألمانيّة بإخلاص. بدأت أعمل مع مدرّسي على أشياء قد أقولها في الجلسات الترحيبيّة في مؤتمر هتلر الذي لا يزال على بعد عدة أسابيع. كانت النوافذ قد حُجبت كلّيًّا بالأثاث وركام الأغراض. هوارد دنلوپ يجلس في منتصف الغرفة، ووجهه البيضويّ يسبح في ستّين واطًا من الضوء المغبرّ. بدأت أشكّ أنّني الشخص الوحيد الذي يتبادل الأحاديث معه، كما بدأت أشكّ أنّه بحاجة إليّ أكثر من حاجتي إليه. فكرة مُربِكة رهيبة.

كان هناك كتاب بالألمانيّة على طاولة مكسورة قرب الباب. العنوان مكتوب ببنط أسود ثقيل سميك يجلب الشؤم: Das Aegyptische Todtenbuch.

قلت: «ما هذا؟»

همس: «**كتاب الموتى المصريّ**. من الأكثر مبيعًا في ألمانيا».

معظم الأحيان، حين لا تكون دينيز في البيت، كنت أهرع إلى غرفتها. أرفع الأغراض، أعيدها إلى مكانها، أنظر خلف الستارة، أتمعّن في درج مفتوح، أدسّ قدمي تحت السرير وأحرّكها باحثًا. تفتيش عشوائيّ.

بابيت تستمع إلى برامج إذاعيّة.

بدأت أتخلّص من الأشياء. أغراض أعلى وأسفل خزانتي، أغراض في صناديق في القبو والعلّيّة. رميت مراسلات، وكتب بطبعات تجاريّة

قديمة، ومجلات كنت أحتفظ بها للقراءة، وأقلام رصاص بحاجة إلى بَري. رميت أحذية تنس، وجوارب تعرّق، وقفّازات بأصابع مهترئة، وأحزمة وربطات عنق قديمة. تخلّصت من أكوام من تقارير الطلاب، وقضبان مكسورة من كراسٍ معدنيّة قابلة للطيّ. تخلّصت منها كلّها. رميت كلّ علبة رذاذ لا غطاء لها.

أصدر عدّاد البنزين صوتًا غريبًا.

تلك الليلة شاهدت تقريرًا مصوّرًا في التلفزيون فيه رجال شرطة يُخرجون كيس جثّة من الفناء الخلفيّ لمنزل في بيكرز ڤيل. قال المراسل إنّهم اكتشفوا وجود جثّتين، مع احتمال كبير بوجود عدد أكبر من الجثث المدفونة في ذلك الفناء. بل ربّما عدد أكبر بكثير. ربّما عشرون جثّة، ثلاثون جثّة – لا أحد متأكّد. حرّك ذراعه على طول المنطقة. كان فناء خلفيًّا كبيرًا.

كان المراسل رجلًا في منتصف العمر يتحدّث بوضوح وقوّة بل حتّى بدرجة من الحميميّة، التي تؤشّر إلى وجود تواصل متكرّر مع جمهوره، إلى اهتمامات مشتركة وثقة متبادلة. سيستمرّ الحفر طول الليل، كما قال، وستعود القناة إلى نقل المشهد كلّما تأكّدتْ تطوّرات جديدة. جعل الأمر يبدو مثل وعد عاشقٍ.

بعد ثلاث ليال توجّهت إلى غرفة هاينرش، حيث المكان المؤقّت لجهاز التلفزيون. كان يجلس على الأرض مرتديًا تي-شيرت قطنيًّا بقبّعة، يشاهد تغطية مباشرة لموقع الحدث ذاته. كان الفناء يسبح في الضوء، رجال برفوش ومجارف يعملون وسط أكوام التراب. في المقدّمة يقف المراسل، عاري الرأس، في معطف صوف الغنم، وسط ثلج خفيف، يعطي المستجدّات. قالت الشرطة إنّها كانت تملك معلومات مؤكّدة، وكان الحفّارون ماهرين ومنظَّمين، وكان العمل مستمرًّا طوال اثنتين وسبعين ساعة. ولكن لم يتمّ العثور على جثث أخرى.

كان إحساس التوقّعات الخائبة طاغيًا. الحزن والخواء يخيّمان على المشهد. اغتمام، وكآبة فاجعة. أحسسنا بها داخلنا، أنا وابني، فيما كنّا نشاهد بصمت. كانت في الغرفة، تنساب في الهواء من تيّارات الإلكترونات النابضة. بدا المراسل اعتذاريًّا للوهلة الأولى. ولكن مع مواصلته مناقشة غياب القبور الكثيرة، تزايد اليأس في محيّاه، وهو يشير إلى الحفّارين، هازًّا رأسه، بحيث بدا مستعدًّا تقريبًا ليلتمس منّا التعاطف والتفهّم.

حاولت أن لا أحسّ بالخيبة.

30

في الظلام يعمل الذهن مثل آلة اتّهام، بحيث يكون الشيء الوحيد المستيقظ في الكون. حاولت تبيّن الجدران، الكومودينو في الزاوية. إنّه الشعور العاجز القديم. أن تكون ضئيلًا، ضعيفًا، محكومًا بالموت، وحيدًا. الهلع، پانيك [Panic]، المشتقّ من إله الغابات والبرّيّة، نصف الماعز. حرّكت رأسي إلى اليمين، متذكّرًا الراديو-الساعة. راقبت تبدّل الأعداد، تقدّم الدقائق الرقميّة، من الفرديّة إلى الزوجيّة. كانت تشعّ في الظلام.

بعد برهة أيقظت بابيت. كان الهواء الدافئ ينبع من جسدها حين استدارت نحوي. هواء رضا. مزيج من النسيان والنوم. أين أنا، من أنت، ما الذي كنت أحلم به؟

قلت: «يجب أن نتحدّث».

تمتمت كلمات غير مفهومة، بدت وكأنّها تُبعد حضورًا محوّمًا. حين وصلت يدي إلى المصباح، لكمتني بقفا يدها على ذراعي. أضاء المصباح. تراجعت باتّجاه الراديو، مغطّية رأسها وهي تئنّ.

- «لا يمكنكِ التهرّب. هناك أمور يجب أن نتحدّث بشأنها. أريد طريقة الوصول إلى السيّد غراي. أريد الاسم الحقيقيّ لغراي ريزيرتش».

لم تنطق إلا أنينًا: «لا».

- «أنا أعي أبعاد هذا الأمر. لديّ انطباع عامّ. لا آمال أو توقّعات كبيرة. كلّ ما أريد هو معرفة الأمر. المحاولة. لا أؤمن بأعمال السحر. كلّ ما أقوله، ´دعيني أحاول، دعيني أرى`. أنا مستلق هنا منذ ساعات أحسّ بالشلل حقًّا. غارق في العرق. تحسّسي صدري يا بابيت».

- «بعد خمس دقائق. أحتاج إلى النوم».

- «تحسّسي. أعطني يدك. انظري كم أنا مبلّل».

قالت: «جميعنا نتعرّق. ما العرق أساسًا؟»

- «لديّ أنهار هنا».

- «تريد تناول دواء. لن يفيدك يا جاك».

- «كلّ ما أطلبه هو عدّة دقائق لوحدي مع السيّد غراي، لأعرف ما إذا كنت أصلح للأمر».

- «سيظنّ أنّك تريد قتله».

- «ولكن هذا جنون. سأكون مجنونًا. كيف لي أن أقتله؟»

- «سيعرف أنّني أخبرتك عن الموتيل».

- «مسألة الموتيل حدثت وانتهت. ليس بإمكاني تغيير ما حدث. هل أقتل الرجل الوحيد الذي يستطيع تخليصي من ألمي؟ تحسّسي تحت ذراعي لو لم تصدّقيني».

- «سيظنّ أنّك زوج تُكنّ الضغينة».

- «بصراحة الموتيل ليس سوى مبعث أسى صغير. هل سأشعر بتحسّن لو قتلته؟ ليس عليه أن يعرف من أكون. سأختلق هويّة، أبتكر قصّة. ساعديني، أرجوك».

- «لا تُعدْ عليّ قصّة العرق. ما معنى العرق؟ لقد قطعت وعدًا للرجل».

في الصباح جلسنا إلى طاولة المطبخ. كانت نشّافة الملابس تهدر في المدخل. أنصتُّ إلى قرقعة الأزرار والسحّابات حين تصطدم بالهيكل الداخليّ.

- «أعرف أساسًا ما أريد قوله له. سأكون تصويريًّا، طبّيًّا. لا فلسفة أو لاهوت. سألجأ إلى البراغماتيّ الذي فيه. لا بدّ من أنّه سيتأثّر بحقيقة أنّني مسجَّل على جدول مواعيد الموت. وهذا بصراحة أكبر من كلّ ما بإمكانك ادّعاؤه. حاجتي شديدة. وأظنّ أنّه سيستجيب لهذا. وكذلك، هو يريد تجربة أخرى على موضوع حيّ. هكذا هم هؤلاء الناس».

- «وكيف أعرف بأنّك لن تقتله؟»

- «أنت زوجتي. هل أنا قاتل؟»

- «أنت رجل يا جاك. وجميعنا نعرف عن الرجال وغضبهم الجنونيّ. وهذا أمر يبرع فيه الرجال إلى حدّ كبير. الجنون والغيرة العنيفة. الغضب المسبّب للقتل. وحين يبرع الناس في أمر، فمن الطبيعيّ أن يبحثوا عن فرصة لممارسة هذا الأمر. لو كنت بارعة فيه، كنت سأفعلها. تصادف أنّني لست كذلك، لذا بدلًا من الدخول في نوبات غضب تفضي إلى القتل، أقوم بالقراءة للكفيفين. بمعنى آخر، أنا أعرف حدودي، ومستعدّة للقبول بما هو أقلّ».

- «ما الذي فعلته لأستحقّ هذا؟ هذا الكلام لا يشبهك. هازئ، ساخر».

قالت: «انس الأمر، ديلار كان خطئي. ولن أتركك تجعله خطأك أنت أيضًا».

أنصتنا إلى صوت الصنبور وخربشة الأزرار والسحّابات. وقد حان وقت ذهابي إلى الجامعة. أشار الصوت في الأعلى: «يقول مركز أبحاث في كاليفورنيا إنّ الحرب العالميّة القادمة قد تُشَنّ من أجل الملح».

طوال فترة بعد الظهر وقفت عند النافذة في مكتبي أراقب المرصد.

كان الظلام يقترب عندما ظهرت ويني رتشاردز عند الباب الجانبيّ، نظرت إلى كلا الاتّجاهين، ثمّ بدأتْ التحرّك بخبب ذئب عبر المرج الموحل. هرعت خارجًا من مكتبي نازلًا الدرج. خلال ثوان كنت قد صرت في الخارج على درب مرصوفة، أركض. مباشرة تقريبًا أحسست بجذلٍ غريب، مثل الإثارة الغامرة التي تسم استعادة لذّة ضائعة. رأيتها تنعطف عند زاوية بسرعة مضبوطة قبل أن تختفي خلف مبنى للصيانة. ركضت بأقصى قوّتي، منطلقًا بسرعة، مندفعًا بمواجهة الريح، راكضًا بصدر بارز، ورأس مرفوع، وذراعيّ تتأرجحان بقوّة. ظهرت عند حافة المكتبة، خيالًا متنبّهًا ومتسلسلًا يتحرّك تحت النوافذ المقوّسة، يكاد يختفي في الغسق. بعدما كادت تلامس الدرج أسرعت بخطاها فجأة، مندفعةً بأقصى سرعة من نقطة انطلاق وهميّة. كانت تلك مناورة بارعة وجميلة كنت قادرًا على تقديرها حتّى حين أعاقتني. قرّرت أن أركض من خلف المكتبة لألاقيها عند الطريق المباشرة الطويلة المؤدّية إلى مختبرات الكيمياء. ركضت لفترة وجيزة إلى جانب أفراد فريق اللاكروس وهم يقتحمون الحقل بعد التدريب. ركضنا بإيقاع خطوات واحد، واللاعبون يلوّحون بمضاربهم بطريقة أقرب إلى الطقوس وينشدون أغنية عجزت عن فهمها. عندما وصلت الدرب العريضة كنت أجاهد لأتنفّس. لم تكن ويني في مجال النظر. ركضت عبر موقف سيّارات الكلّيّة، قرب الكنيسة الحديثة البرّاقة، حول مبنى الإدارة. باتت الريح مسموعة الآن، تهدر عبر الأغصان العارية العالية. ركضت باتّجاه الشرق، ثمّ غيّرت رأيي، وقفت أتلفّت حولي، وخلعت نظارتي لأتمعّن بالنظر. أردت أن أركض، كنت راغبًا بالركض. سأركض إلى أبعد مسافة ممكنة، أركض حتّى حلول الليل، أركض لأنسى سبب ركضي. بعد عدّة لحظات رأيت خيالًا يتبختر صاعدًا تلًّا عند حافّة الحرم الجامعيّ. لا بدّ أنّها هي. بدأتُ الركض مجدّدًا، مدركًا أنّها بعيدة جدًّا، وستختفي عند قمّة التلّ، ولن تعاود ظهورها لأسابيع. وضعت كلّ ما تبقّى من طاقتي في اندفاعة صاعدة أخيرة، مندفعًا فوق

الأسمنت، والعشب، ثمّ الحصى، ورئتاي تحترقان في صدري، مع ثقل في ساقيّ يبدو هو جوهر جاذبيّة الأرض، حُكمها الأشدّ حميميّة وإيحاءً، قانون الأجسام الساقطة.

يا لمفاجأتي، وأنا أقترب من قمّة التلّ، لمّا رأيتُ أنّها توقّفت. كانت ترتدي جاكيتًا مبطّنًا بمادّة عازلة وتنظر باتّجاه الغرب. مشيتُ نحوها ببطء. وبعد أن قطعت بنظري صفًّا من المنازل الخاصّة رأيتُ الأمر الذي جعلها تتوقّف. كانت حافّة الأرض ترتعش بسديم معتم. وفوقه تقبع الشمس، تغرق مثل سفينة في بحر محترق. غروب بعد-حداثيّ آخر، غنيّ بخيالات رومانتيكيّة. لمَ محاولة وصفه؟ يكفي القول إنّ كلّ شيء في مجال رؤيتنا بدا وكأنّه موجود ليجمع ضوء هذا الحدث. لا يعني أنّه كان أحد أقوى لحظات الغروب. كانت هناك ألوان أكثر ديناميكيّة من قبل، وإحساس أعمق من المدى السرديّ.

- «أهلًا جاك. لم أكن أعلم أنّك تصعد إلى هنا؟»

- «أذهب عادة على جسر الأوتوستراد».

- «أليس شيئًا رائعًا؟»

- «إنّه جميل فعلًا».

- «يجعلني أغرق في التفكير. إنّه جميل حقًّا».

- «ما الذي تفكّرين به؟»

- «ما الذي بإمكانك التفكير به في حضرة هذا النوع من الجمال؟ أخاف، أعرف هذا».

- «هذا ليس أحد أنواع الغروب الأكثر إخافة».

- «إنّه يخيفني. يا إلهي، انظر إليه».

- «هل رأيت الثلاثاء الماضي؟ غروب قويّ وآسر. أعتبر هذا الغروب عاديًّا. ربّما بدأ الغروب يبهت».

قالت: «لا أتمنّى هذا. سأفتقده».

- «ربّما كانت المخلّفات السامّة في الغطاء الجويّ تتناقص».

- «ثمّة مدرسة فكريّة تقول إنّ مخلّفات السحابة ليست هي ما يسبّب هذا الغروب. بل مخلّفات الجسيمات الميكروويّة التي التهمت السحابة».

وقفنا هناك نشاهد موجة ضوء متورّدة، مثل قلب يدقّ في فيلم تسجيليّ على تلفزيون ملوّن.

- «تذكرين القرص الذي يشبه الصحن الطائر؟»

قالت: «طبعًا. تحفة هندسيّة فائقة».

- «اكتشفت استطبابه. صُنع ليحلّ مشكلة قديمة. الخوف من الموت. إنّه يحفّز الدماغ على إنتاج مثبّطات الخوف من الموت».

- «ولكنّنا سنموت لا محالة».

- «الجميع يموتون، نعم».

- «لن نخاف فقط».

- «هذا صحيح».

- «أمر مثير، كما أظنّ».

- «ديلار أنتجته شركة أبحاث سرّيّة. أظنّ أنّ بعض هؤلاء الأشخاص علماء سيكوبيولوجيا. أتساءل ما إذا كنت قد سمعت شائعات عن جماعة تعمل سرًّا على قضيّة الخوف من الموت».

- «سأكون آخر من يسمع. لا يمكن لأحد أن يجدني أبدًا. وعندما يجدونني، فهذا كي يخبرني بأمر مهمّ».

- «وما الذي يمكن أن يكون أكثر أهمّيّة؟»

- «أنت تتحدّث عن ثرثرة، شائعات. هذه تفاصيل ضئيلة يا جاك. من هم هؤلاء الناس، أين قاعدتهم؟»

- «لهذا السبب كنت ألاحقك. اعتقدتُ أنّك تعرفين شيئًا عنهم. لا أعرف معنى سيكوبيولوجيا أصلًا».

- «إنّه نوع جامع. اختصاص تتقاطع فيه فروع معرفيّة عديدة. العمل الحقيقيّ يكون في الفجوات بينها».

- «أليس لديك شيء تقولينه لي؟»

شيء ما في صوتي جعلها تلتفت لتنظر إليّ. كانت ويني في بداية ثلاثيناتها ولكنّها تمتلك عينًا دقيقة ومدرَّبة على التقاط الكوارث شبه الخفيّة التي تكوّن الحياة. وجه نحيل مغطّى جزئيًّا بخصلات شعر بنّيّة مجعّدة. العين برّاقة ونشيطة. لها المظهر المنقاريّ وأجوف العظام لمخلوق مائيّ عظيم. فم مزموم صغير. ابتسامة على تعارض دائم مع تزمّت داخليّ ضدّ إغواء الفكاهة. أخبرني مري مرّة أنّه أعجب بها. اعتبر أنّ غرابتها الجسديّة علامةٌ على ذكاء يتطوّر بسرعة خارقة. وأعتقد أنّني فهمت ما يعنيه. كانت تهزّ العالم وتحاول انتزاعه، مكتسحة إيّاه أحيانًا.

قالت: «لا أعرف ماهية تورّطك الشخصيّ مع هذه المادّة، ولكنّني أظنّ أنّ المرء يخطئ حين يفقد إحساسه بالموت، بل حتّى خوفه من الموت. أليس الموت هو الحدّ الفاصل الذي نحتاج إليه؟ ألا يمنح سياقًا قيّمًا للحياة، نوعًا من التعريف؟ عليك أن تسأل نفسك ما إذا كان أيّ شيء تفعله في هذه الحياة سيمتلك جمالًا ومعنى من دون المعرفة التي تكون لديك بشأن خطّ نهاية، فاصل أو حَدّ».

أراقب الضوء ينسلّ إلى القمم المستديرة للسحب الشاهقة. كلورتس، ڤيلامنتس، فريدنت.

قالت: «يظنّ الناس أنّني بعيدة عن الواقع. لديّ نظريّة بعيدة عن الواقع عن الخوف البشريّ، هذا صحيح. تخيّل نفسك يا جاك شخصًا يحب البيت إلى حدّ كبير، شخص يحبّ الجلوس في مكان واحد ويجد نفسه يمشي في غابة كثيفة. تلمح شيئًا في زاوية عينك. وقبل أن تعرف

أيّ شيء آخر، تدرك أنّ هذا الشيء كبير جدًّا ولا ينتمي أبدًا إلى الإطار المألوف الذي تعرفه. علّة في صورة العالم. إمّا أنّه لا ينبغي أن يكون هنا أو أنت لا ينبغي لك هذا. والآن يصبح الشيء بشكله الكامل أمامك. إنّه دبّ بكتفين بارزتين، ضخم، بلون بنّيّ برّاق، يختال في خطواته، تتقطّر اللزوجة من أنيابه العارية. جاك، لم يسبق لك أن رأيت حيوانًا ضخمًا في البراري. رؤية هذا الدبّ غريبة إلى حدّ صادم يمنحك إحساسًا متجدّدًا عن الذات - الذات في وضع رهيب فريد. ترى نفسك بطريقة جديدة كثيفة. تعيد اكتشاف نفسك. تتنبّه بشأن تمزّقك الوشيك. لقد مكّنك الوحش الواقف على قائمتيه الخلفيّتين من رؤية نفسك كما لو كان هذا للمرّة الأولى، خارج المحيط المعتاد، وحيدًا، واضحًا، كاملًا. الاسم الذي نمنحه لهذه العمليّة المعقّدة هو الخوف».

- «الخوف، حين يرتفع إلى أقصى مستوياته، هو إدراك الذات».

- «هذا صحيح يا جاك».

- «والموت؟»

- «ذات، ذات، ذات. لو أمكن رؤية الموت أقلّ غرابة وغير ذي دلالة، فإنّ إدراكك لذاتك بما يخصّ الموت سيتقلّص، وكذلك خوفك».

- «ما الذي يجب أن أفعله لأجعل الموت أقلّ غرابة؟ كيف أناوره؟»

- «لا أعرف».

- «هل سأجازف بالموت لوقدت السيّارة بسرعة عند المنعطفات؟ هل من المفترض أن أذهب لتسلّق الصخور في الإجازات؟»

قالت: «لا أعرف. أتمنّى لو كان بإمكاني معرفة هذا».

- «هل أتسلّق على الواجهة الشفّافة لبناء من تسعين طابقًا، مرتديًا حزامًا مثبّتًا بحبل؟ ما الذي عليّ فعله يا ويني؟ هل أجلس في قفص مليء بأفاعٍ أفريقيّة كما سيفعل صديق ابني المقرّب؟ هذا ما يفعله الناس اليوم».

- «أظنّ أنّ ما يجب عليك فعله يا جاك هو نسيان الدواء الذي في القرص. ليس هناك دواء، هذا واقع».

كانت على حقّ. كلّهم على حقّ. أتابع حياتي مع زوجتي، أربّي أطفالي، أدرّس طلابي. أحاول أن لا أفكّر بذلك الشخص الغامض في موتيل غراي ڤيو وهو يضع يديه اللتين لم تنهيا عملهما على زوجتي.

- «لا أزال حزينًا يا ويني، ولكنّك أسبغت على حزني ثراءً وعمقًا لم أعرفهما من قبل».

أدارت رأسها، وقد تورّدت.

قلت: «أنت أكثر من مجرّد صديقة طقس صافٍ - أنت عدو حقيقيّ».

اتّقد وجهها حمرة بشدّة.

قلت: «الناس متّقدو الذكاء لا يفكّرون بالحيوات التي يسحقونها، لأنّهم متّقدو الذكاء».

نظرة أخيرة إلى السماء وبدأنا ننزل التلّ.

31

هل تذكّرت: 1) إعداد شيك لويڤفورم داينامكس؟ 2) تدوين رقم حسابك على الشيك؟ 3) توقيع الشيك؟ 4) إرسال المبلغ كاملًا، لأنّنا لا نقبل المبلغ على دفعات؟ 5) إرسال مستند الدفع الأصليّ، لا نسخة عنه؟ 6) إدخال مستند الدفع بحيث يكون العنوان واضحًا من الجزء الشفّاف في المغلّف؟ 7) قصّ القسم الأخضر من المستند عند الخطّ المنقّط للاحتفاظ في سجلاتك؟ 8) كتابة عنوانك الصحيح والرمز البريديّ؟ 9) إبلاغنا قبل ثلاثة أسابيع على الأقلّ من تخطيطك للانتقال؟ 10) إلصاق طرق المغلّف؟ 11) لصق طابع عل المغلّف بما أنّ مكتب البريد

لن يرسل المغلّف دون طابع؟ 12) إرسال المغلّف قبل ثلاثة أيّام على الأقلّ من التاريخ المدرج في الصندوق الأزرق؟

قناة كابل الصحّة، قناة كابل الطقس، قناة كابل الأخبار، قناة كابل الطبيعة.

لم يكن أحد يريد تناول طعامًا مطبوخًا تلك الليلة. صعدنا جميعًا في السيّارة وذهبت إلى القسم التجاريّ في الأرض الخالية خلف حدود البلدة - ضوء النيون اللامنتهي. وقفت عند مطعم متخصّص بقطع الدجاج وكعك البراونيز. قرّرنا أن نأكل في السيّارة. كانت السيّارة تفي بجميع حاجاتنا. أردنا أن نأكل، لا أن نقلب أنظارنا على الناس الآخرين. أردنا ملء معداتنا والانتهاء بسرعة.لم نكن بحاجة إلى الضوء والفسحة. وبالتأكيد لم نكن بحاجة إلى أن نجلس متقابلين إلى طاولة أثناء الأكل، والبدء بشبكة معقّدة وماكرة من الإشارات والشفرات. كنّا مرتاحين بشأن الأكل ونحن ننظر باتّجاه واحد، ننظر إلى ما يبعد إنشات قليلة فقط عن يدينا. ثمّة نوع من الصرامة في هذا. جلبت دينيز الأكل إلى السيّارة ووزّعت مناديل ورقيّة، وهيّأنا أنفسنا للطعام. أكلنا مرتدين ثيابنا كاملة، بالقبّعات، والمعاطف الثقيلة، من دون كلام، نمزّق قطع الدجاج بأيدينا وأسناننا. ثمّة جوّ من التركيز التامّ حيث الأذهان معلّقة بفكرة مهنيّة واحدة. كنت متفاجئًا حين اكتشفت جوعي الشديد. كنت أمضغ وآكل ناظرًا إلى مسافة إنشات فحسب من يدي. هكذا يقلّص الجوعُ العالمَ. هذه هي حافّة الكون المرئيّ للطعام. اقتطعت ستيفي الجلد المقرمش عن قطعة الصدر وأعطته لهاينرش. لا تأكل الجلد أبدًا. بابيت تمصّ عظمة. هاينرش يتبادل الأجنحة مع دينيز، كبير بصغير. كان يظنّ أنّ الأجنحة الأصغر أشهى. نعطي العظام لبابيت كي تنظّفها وتمصّها. طردت صورة للسيّد غراي وهو مستلق بكسل عاريًا على سرير موتيل، صورة لم يتمّ

التعامل معها تقبع عند الحوافّ. أرسلنا دينيز لتحضر مزيدًا من الطعام، ننتظرها بصمت. ثمّ باشرنا الأكل مجدّدًا، شبه منتشين بأبعاد لذّتنا.

قالت ستيفي بهدوء: «كيف يطفو روّاد الفضاء؟»

طرأ صمت قاتل مثل تكّة ناقصة في الأبديّة.

توقّفت دينيز عن الأكل لتقول: «إنّهم أخفّ من الهواء».

توقّفنا جميعًا عن الأكل. وخيّم صمت قلق.

قطعه هاينرش أخيرًا: «ليس هناك هواء. لا يمكن أن يكونوا أخفّ من شيء غير موجود. الهواء خواء تامّ باستثناء الجزيئات الثقيلة».

قالت بابيت: «كنت أظنّ الفضاء باردًا. لو لم يكن هناك هواء، كيف يمكن أن يكون باردًا؟ ما الذي يعطي إحساس الدفء أو البرد؟ الهواء، أو هذا ما كنت أظنّ. لو لم يكن هناك هواء، لا ينبغي أن يكون هناك برد. مثل يوم لا شيء مميّز فيه».

قالت دينيز: «كيف يمكن أن يكون هناك لا شيء. لا بدّ من وجود شيء».

قال هاينرش بسخط: «هناك شيء. هناك جزيئات ثقيلة».

قالت بابيت: «يوم من نوع: هل-أحتاج-إلى-كنزة-صوفيّة؟»

كان ثمة توقّف آخر. انتظرنا لنعرف ما إذا كان الحوار قد انتهى. ثمّ تابعنا الأكل مجدّدًا. تبادلنا الأجزاء التي لا نريدها بصمت، ندسّ أيدينا في علب البطاطا المقليّة المتموّجة. وايلدر يحبّ البطاطا البيضاء الناعمة وكنّا نخرجها لنعطيه إيّاها. وزّعت دينيز الكتشب في أكياس رقيقة صغيرة. امتلأت السيّارة برائحة الدهن واللحم المقضوم. تبادلنا القطع وقضمنا.

قالت ستيفي بصوت خافت: «ما مدى برودة الفضاء؟»

انتظرنا جميعًا مرّة أخرى. ثمّ قال هاينرش: «يعتمد الأمر على مدى ارتفاعك. كلّما تزايد الارتفاع، تزايدت البرودة».

قالت بابيت: «انتظر دقيقة. كلّما تزايد الارتفاع، ستقترب أكثر من الشمس. سيتزايد الدفء إذًا».

- «ما الذي يجعلك تظنّين أنّ الشمس عالية؟»

- «كيف يمكن للشمس أن تكون منخفضة؟ عليك أن تنظر للأعلى كي ترى الشمس».

قال: «ماذا عن الليل؟»

- «إنّه في الجانب الآخر من الأرض. ولكن مع هذا لا بدّ أن ينظر الناس إلى الأعلى».

قال: «كلّ مغزى أفكار سير ألبرت آينشتاين هو كيف يمكن أن تكون الشمس في الأعلى لو كنت واقفًا فوق الشمس؟»

قالت: «الشمس كرة منصهرة ضخمة. من المستحيل أن تقف فوقها».

- «كلّ ما يقوله هو ´لو`. أساسًا ليس ثمّة أعلى أو أسفل، حرّ أو برد، نهار أو ليل».

- «ما الذي يوجد؟»

- «جزيئات ثقيلة. جوهر مغزى وجود الفضاء هو إعطاء الجزيئات فرصة كي تبرد بعد أن انبثقت من سطح النجوم العملاقة».

- «لو لم يكن هناك حرّ أو برد، كيف يمكن للجزيئات أن تبرد؟»

- «حارّ وبارد مجرّد كلمات. فكّري بهما ككلمات. يجب أن نستخدم كلمات. لا يمكننا أن نصدر أصوات نخر فقط».

- «تُسمّى تويج [كورولا] الشمس. شاهدناها تلك الليلة على قناة الطقس». قالت دينيز لستيفي في نقاش منفصل:

قالت ستيفي: «كنت أظنّ أنّ كورولا سيّارة!»

ردّ هاينرش: «كلّ شيء هو سيّارة. الشيء الذي يجب أن تفهميه عن

النجوم العملاقة هي أنّها تشهد انفجارات نوويّة فعليّة داخل أعماق النواة. انسي كليًّا تلك الصواريخ البالستيّة العابرة للقارات الروسيّة التي يفترض أن تكون رائعة جدًّا. نحن نتحدّث عن انفجارات أكبر بمئة مليون مرّة».

خيّم صمت طويل. لم ينطق أحد. واصلنا الأكل بقدر ما يستدعيه الأمر لقضم ومضغ لقمة واحدة من الطعام.

قالت بابيت: «يُزعَم أنّ عرّافين روسيّين هم من تسبّبوا بهذا الطقس المجنون».

قلت: «أيّ طقس مجنون؟»

قال هاينرش: «لدينا عرّافون، ولديهم عرّافون، كما يفترض. يريدون تخريب محاصيلنا عبر التأثير على الطقس».

- «كان الطقس طبيعيًّا».

تدخّلت دينيز بذكاء: «بالنسبة لهذا الوقت من السنة».

كان هذا هو الأسبوع الذي رأى فيه شرطيٌّ جثّة تُرمى من صحن طائر. حدث هذا حين كان في جولة روتينيّة عند أطراف غلاسبورو. الجثّة الغارقة في مياه الأمطار لرجل مجهول الهويّة وجدت لاحقًا في تلك الليلة، مرتدية لباسًا كاملًا. وأفصح التشريح أنّ الوفاة ناتجة عن كسور متعدّدة وانهيار عضلة القلب - ربّما نتيجة صدمة شديدة. تحت التنويم المغناطيسيّ كشف الشرطيّ، جيري تي ووكر، بالتفصيل عن رؤية ضبابيّة لجسم يشعّ بالنيون يشبه صحنًا دوّارًا عملاقًا كان يطير فوق حقل بارتفاع ثمانين قدمًا. الشرطيّ ووكر، وهو محارب قديم في فيتنام، قال إنّ هذا المشهد الغريب ذكّره بطواقم الحوّامات الذين كانوا يرمون المشتبه بهم الڤيتكونغ من الباب. على نحو لا يصدّق، فيما كان يشاهد كوّة تُفتَح والجثّة مكوّمة على الأرض، أحسّ ووكر برسالة تُنقَل بالتخاطر إلى دماغه. ويخطّط خبراء التنويم المغناطيسيّ في الشرطة لتكثيف جلساتهم محاولين نبش الرسالة.

كانت هناك مشاهدات في كلّ أنحاء المنطقة. تدفّق عقليّ منشّط، احتدام أفعوانيّ، بدا وكأنّه ينتقل من بلدة إلى أخرى. لم يكن يهمّ ما إذا كنت تؤمن بهذه الأمور أم لا. كانت إثارة، موجة، رعشة. صوت أو ضجيج سينبعث في السماء وسنُنْتشل من الموت. قاد الناس سيّاراتهم إلى أطراف البلدات وهم غارقون في التأمّل. وفيما قرّر بعضهم العودة، مضى آخرون متوغّلين إلى مناطق أبعد بدت في تلك الأيّام واقعة تحت تأثير تعويذة، ترقّب مقدّس. كان الهواء يهبّ رقيقًا ناعمًا. وكلب أحد الجيران ينبح طوال الليل.

في موقف سيّارات مطعم الوجبات السريعة أكلنا كعك البراونيز. يلتصق الفتات بأطراف أيدينا. شفطنا الفتات، لعقنا الأصابع. ومع اقترابنا من الانتهاء، بدأ المدى الفيزيائيّ لإدراكنا بالتوسّع. امتدّت حدود الطعام إلى العالم الأوسع. نظرنا أبعد من أيدينا. نظرنا عبر النوافذ، إلى السيّارات والأضواء. نظرنا إلى الناس وهم يغادرون المطعم، رجال ونساء وأطفال يحملون علب الطعام، بعكس اتّجاه الرياح. بدأ التذمّر يتدفّق من الأجساد الثلاثة في المقعد الخلفيّ. يريدون أن يكونوا في المنزل، لا هنا. يريدون أن يطرفوا بأعينهم فيجدون أنفسهم في غرفهم، مع أغراضهم، لا جالسين في سيّارة مكتظّة على هذه الطريق الخرسانيّة التي تغسلها الرياح. لطالما كانت الرحلات إلى المنزل اختبارًا. أشغّل السيّارة عارفًا أنّ الأمر لن يستغرق ثواني قليلة قبل أن يتحوّل التذمّر الجماعيّ إلى تهديد. بإمكاننا استشعار قدومه، أنا وبابيت، وعيد متجهّم يتخمّر هناك في الخلف. سيهاجموننا، مستخدمين الاستراتيجيّة الكلاسيكيّة للتقاتل فيما بينهم. ولكن يهاجموننا لأيّ سبب؟ لأنّنا لم نعدهم إلى المنزل على نحو أسرع؟ لكوننا أكبر سنًّا وحجمًا وبدرجة ما أكثر استقرارًا في المزاج منهم؟ هل يهاجموننا بسبب موقعنا كحامين – حامين لا بدّ أن يخفقوا عاجلًا أم آجلًا؟ أم أنّهم يهاجمون ما نحن عليه بكلّ بساطة، أصواتنا، ملامحنا، إيماءاتنا، طرق مشينا وضحكنا، لون عيوننا، لون شعرنا، درجة بشرتنا، كروموسوماتنا وخلايانا؟

كما لو أنّها تحاول تشتيت انتباههم، كما لو أنّها لم تعد تحتمل بوادر هجومهم، قالت بابيت بمرح: «لمَ تُرى هذه الصحون الطائرة في الجزء الشماليّ من الولاية أغلبَ الأحيان؟ أفضل المشاهدات تكون في الشمال. يُختطَف الناس ويُؤخَذون. يرى المزارعون علامات حرق حيث تحطّ الصحون الطائرة. تلد امرأة طفلًا فضائيًّا، كما تزعم. دائمًا في الشمال».

قالت دينيز: «هناك تكون الجبال. يمكن للسفن الفضائيّة أن تهرب من الرادار أو أيًّا كان».

قالت ستيفي: «لمَ توجد الجبال شمال الولاية؟»

ردّت دينيز: «الجبال في الشمال دائمًا. بهذه الطريقة تذوب الثلوج كما هو مخطّط لها في الربيع وتتدفّق نزولًا إلى الخزّانات قرب المدن، حيث تكون في النهاية المنخفضة من الولاية للسبب ذاته بالضبط».

فكّرت لحظة، أنّها قد تكون على حقّ. يبدو نوعًا غريبًا من الرأي. هل هو حقًّا؟ أم هو جنونيّ تمامًا؟ لا بدّ أنّ هناك مدنًا كبيرة في الجزء الشماليّ في بعض الولايات. أم هي فقط شمال الحدود في الجزء الجنوبيّ من الولايات الواقعة شمالًا؟ ما قالته قد لا يكون صحيحًا ومع ذلك واجهت مشكلة، لحظتئذ، في تفنيده. عجزت عن تعداد مدن أو جبال تفنّد هذا الرأي. لا بدّ من وجود جبال في الجزء الجنوبيّ من بعض الولايات. أم أنّها تكون تحت حدود الولاية، في الجزء الجنوبيّ من الولايات الواقعة جنوبًا؟ حاولت تعداد عواصم وولايات، حكّام ولايات. كيف يمكن أن يكون هناك شمال تحت الجنوب؟ هل هذا ما وجدته محيّرًا؟ هل هذا هو جوهر خطأ دينيز؟ أم أنّها كانت، بدرجة ما، محقّة على نحو غريب؟

قال الراديو: «جرعات مفرطة من الملح، والفوسفور، والمغنيزيوم».

في وقت لاحق تلك الليلة جلست أنا وبابيت نشرب الكاكاو. على

طاولة المطبخ، بين الكوبونات، وإيصالات السوپرماركت الممتدّة على طول قدم، كاتالوغات الطلبات عبر البريد، كان ثمّة بطاقة بريديّة من ماري أليس، أكبر أولادي. هي الذرّيّة الذهبيّة من زواجي الأول من دانا بريدلَفْ، الجاسوسة، ولذا فهي شقيقة ستيفي، مع أنّ عشر سنوات وزواجين تفصل بينهما. ماري أليس في التاسعة عشر الآن وتعيش في هاواي، حيث تعمل مع الحيتان.

أمسكت بابيت جريدة تابلوير تركها أحد ما على الطاولة.

– «صرير الفئران يبلغ أربعة آلاف دورة في الثانية. يستخدم الجرّاحون أشرطة تسجيل لصرير فئران بتوتّر عالٍ لتدمير الأورام في جسم الإنسان. هل تصدّق هذا؟»

– «نعم».

– «وأنا أيضًا».

وضعت الجريدة من يدها. وبعد هنيهة قالت لي فجأة: «كيف تشعر يا جاك؟»

– «أنا بخير. عال العال. بصدق. ماذا عنكِ؟»

– «أتمنّى لو أنّي لم أخبرك عن وضعي».

– «لماذا؟»

– «حينها لم تكن لتخبرني أنّك ستموت أوّلًا. هذان هما أكثر أمرين أريدهما في العالم. أن لا يموت جاك أوّلًا. وأن يبقى وايلدر على ما هو عليه إلى الأبد».

32

مشيتُ أنا ومري في الحرم الجامعيّ بطريقتنا الأوروبّيّة، الخطوة تأمّليّة هادئة، والرأسان يميلان عند الكلام. أحيانًا كان أحدنا يمسك

الآخر فوق المرفق، كإيماءة إلى الحميميّة والدعم الجسدي. وأحيانًا أخرى كنّا نمشي متباعدَيْن قليلًا، يدا مري ملتصقتان خلف ظهره، فيما يدا غلادني معقودتان مثل يديّ الرهبان على بطنه، وبدت لمسة مقلقة بعض الشيء.

- «ألمانيّتك تتحسّن؟»

- «أتكلّمها على نحو سيّء. أعاني مع الكلمات. نعمل أنا وهوارد على الملاحظات الافتتاحيّة للمؤتمر».

- «تناديه هوارد؟»

- «ليس أمامه. لا أناديه بأيّ اسم أمامه وهو لا يناديني بأيّ اسم أمامي. إنّه ذلك النوع من العلاقة. هل تراه أبدًا؟ تعيشان تحت السقف ذاته في نهاية المطاف».

- «لمحات عابرة. يبدو أنّ النزلاء الآخرين يفضّلون الأمور على هذا النحو. يكاد لا يوجد، كما نحسّ».

- «ثمّة أمر غريب فيه. لست واثقًا ما هو بالتحديد».

قال مري: «بشرته بلون اللحم».

- «صحيح. ولكن ليس هذا ما يجعلني غير مرتاح».

- «يدان ناعمتان».

- «هذا هو السبب؟»

- «الأيدي الناعمة عند الرجل تربكني. البشرة الناعمة عمومًا. بشرة الأطفال. لا أظنّ أنّه يحلق الشعر».

قلت: «وماذا أيضًا؟»

- «آثار بصاق جافّ عند زاويتيّ فمه».

قلت بحماسة: «أنت على حقّ. بصاق جافّ. أشعر به يلطمني على وجهي حين يميل لينطق الأحرف. ماذا أيضًا؟»

- «وطريقة النظر فوق كتفَي الشخص».

قلت: «تلاحظ كلّ هذا في لمحات عابرة. رائع. ماذا أيضًا؟»

- «وجلوس صارم يبدو متعارضًا مع مشيته المتثاقلة».

- «نعم، هو يمشي من دون أن يحرّك ذراعيه. ماذا أيضًا، ماذا أيضًا؟»

- «وأمر آخر، أمر فوق وبخلاف كلّ هذا، أمر غريب ورهيب».

- «بالضبط. ولكن ما هو؟ أمر أعجز عن تحديده تمامًا».

- «ثمّة جو غريب حوله، مزاج ما، إحساس، حضور، فيض».

- «ولكن ما هو؟» قلتِ متفاجئًا حين وجدت نفسي مهتمًّا شخصيًّا وبشدّة، فيما البقع الملوّنة تتراقص عند زاوية النظر.

كنّا قد مشينا ثلاثين خطوة حين بدأ مري يحرّك رأسه. راقبت وجهه أثناء مشينا. حرّك رأسه ونحن نقطع الشارع وواصل حني رأسه طوال الطريق الملاصق لمكتبة الموسيقا. مشيتُ بجانبه خطوة بخطوة، قابضًا على مرفقه، مراقبًا وجهه، منتظرًا أن يتكلّم، غير مكترث لحقيقة أنه أبعدني عن طريقي كلّيًّا، وكان لا يزال يكرّر حني رأسه عندما اقتربنا من مدخل ولموت غرينج، وهو بناء من القرن التاسع عشر أعيد ترميمه عند حافّة الحرم الجامعيّ.

قلت: «ولكن ما هو؟ ما هو؟»

لم يتمّ الأمر إلا بعد أربعة أيّام حين اتّصل بي في المنزل، الساعة الواحدة صباحًا، ليهمس في أذني: «يبدو مثل رجل يعتبر الجثث مثيرة جنسيًّا».

ذهبت إلى درس أخير. كانت الجدران والنوافذ محتجبة خلف الأغراض المكوّمة التي بدت الآن وكأنّها تتجّه نحو منتصف الغرفة. الرجل ذو الوجه الذي بلا ملامح أغلق عينيه وبدأ يتحدّث، مردّدًا عبارات سياحيّة مفيدة: «أين أنا؟»، «هل تستطيع مساعدتي؟»، «حلّ

الليل وأنا ضائع». بالكاد كنت قادرًا على تحمّل الجلوس هناك. ثبّتته ملاحظة مري في هويّة راسخة إلى الأبد. ما كان محيّرًا بشأن هاورد دنلوپ بات واضحًا الآن. ما كان غريبًا وشبه مرعب بات الآن سقيمًا. بدا أنّ دعارة كالحة تغادر جسده لتطوف في أرجاء الغرفة المُمَتْرَسة.

سأفتقد هذه الدروس في الحقيقة. كما سأفتقد الكلاب، الجيرمن شيپرد. اختفت بكلّ بساطة في أحد الأيّام. لعلّها مطلوبة في مكان آخر وأُرسلت إلى الصحراء لتصقل مهاراتها. كان الرجال ببزّات مايلكس لا يزالون في الأنحاء، على أيّ حال، يحملون معدّاتهم ومجسّاتهم، يمخرون البلدة في فرق من ستّة أو ثمانية بمركبات مفلطحة مثل الخنزير تشبه ألعاب المكعّبات.

وقفت قرب سرير وايلدر أراقبه وهو نائم. الصوت من الباب المجاور قال: «في بطولة ساحل نابيسكو دينا للغولف بجوائز أربعمئة ألف دولار».

تلك كانت الليلة التي احترق فيها مصحّ المجانين. ركبت السيّارة مع هاينرش وذهبنا نتفرّج. كان ثمّة رجال آخرون هناك مع أولادهم المراهقين. من الواضح أنّ الآباء والأبناء يسعون إلى التقارب في هذه المناسبات. تسهم النيران في تقريب أحدهم من الآخر، تثبت وتد الكلام. هناك معدّات يمتدحونها، ويناقشون تقنيّات رجال الإطفاء وينتقدونها. رجولة محاربة النيران - رجولة الحرائق، يمكن للمرء أن يقول - تناسب نوع الحوار المقتضب الذي يمكن للآباء والأبناء خوضه من دون غرابة أو إحراج.

قال هاينرش: «معظم هذه الحرائق في الأبنية القديمة تبدأ من الأسلاك الكهربائيّة. تمديد خاطئ للأسلاك. تلك هي إحدى العبارات التي لا يمكن أن تبقى في مكان فترة طويلة من دون سماعها».

قلت: «معظم الناس لا يموتون من الحريق. إنّهم يموتون من استنشاق الدخان».

- «تلك هي العبارة الأخرى».

هدرت ألسنة اللهب في المهاجع. وقفنا عند الشارع نشاهد مَيَلان جزء من السقف، مدخنة قديمة تنكسر ببطء ثمّ تغوص. استمرّ توافد سيّارات الإطفاء بمضخّاتها من البلدات الأخرى، والإطفائيّون يخطون بتثاقل بأحذيتهم المطّاطيّة وقبّعاتهم ذات الطراز القديم. مُدّت الخراطيم ووُجّهت، ثمّ ظهر شخص فوق السقف المتوهّج على سلّم ذي طبقات. شاهدنا بداية انهيار الرواق، ومَيَلان عمود بعيد. امرأة بروب نوم مشتعل تمشي على طول المرج. شهقنا، بشعور يكاد يكون تقديرًا. كان شعرها أبيض وخفيفًا، يرفرف في الهواء المحترق، وكان بإمكاننا تمييز جنونها، شديدة الغرق في الأحلام والحنق بحيث كادت النار المحيطة برأسها تبدو عفويّة. لم ينطق أحد بكلمة. في كلّ هذه الحرارة والضوضاء المنبعثة من الخشب المتداعي، اختلست صمتًا لنفسها. يل لقوّته وحقيقته. يا له من شيء عميق هذا الجنون. هرع ضابط إطفاء إليها، ثمّ ابتعد قليلًا عنها، مرتبكًا، كما لو أنّها، في نهاية المطاف، لم تكن هي الشخص الذي كان يتوقّع لقاءه. اندلع منها انفجار أبيض، مثل صحن شاي ينكسر. أربعة رجال يحيطون بها الآن، يضربون ألسنة اللهب بخوذاتهم وقبّعاتهم.

تواصل العمل العظيم على احتواء الحريق، جهد بدا قديمًا وضائعًا مثل بناء كاتدرائيّة. الرجال منقادون بروح مهنة جماعيّة نبيلة. كلب دلماسيّ يقعي في مقصورة شاحنة بسلّم وخطّاف.

قال هاينرش: «الأمر مسلٍّ كيف أنّ بإمكانك النظر إليه وتنظر إليه. مثل النار في المدفأة».

- «هل تقول إنّ نوعَيْ النار آسران بالقدر ذاته؟»

- «كلّ ما أقوله هو أنّ بإمكانك النظر فتنظر».

- «´لطالما كان الإنسان مفتونًا بالنار`. هل هذا ما تقوله؟»

- «هذا بنائي المحترق الأوّل. تمهّل عليّ».

احتشد الآباء والأبناء على الرصيف، يشيرون إلى هذا الجزء أو ذاك من البناء نصف المتداعي. مري، الذي يبعد نزله عدّة ياردات فقط، اتّجه نحونا وصافحنا من دون أيّ كلمة. تطايرت النوافذ. شاهدنا مدخنة أخرى تنزلق عن السقف، وعدّة طوبات تنهمر على المرج. صافحنا مري مجدّدًا، ثمّ اختفى.

سرعان ما انتشرت رائحة مادّة لاذعة. قد يكون احتراق مادّة عازلة - بوليسترين الذي يغلّف الأنابيب والأسلاك - أو مادّة أخرى أو اثنتين من عشرات الموادّ الأخرى. رائحة نتنة حادّة ولاذعة ملأت الجوّ، طاغية على رائحة الدخان والأحجار المتفحّمة. غيّرت تلك الرائحة مزاج الناس على الرصيف. وضع بعضهم مناديل على وجوههم، فيما غادر آخرون فجأة شاعرين بالقرف. أيًا كان الذي تسبّب بالرائحة، أحسست أنّه جعل الناس تشعر بالخيانة. دراما قديمة، شاملة، رهيبة كانت تستبدل بشيء غير طبيعيّ، تطفّل صغير ونتن. بدأت أعيننا تحترق. انفضّ الحشد. بدا وكأنّنا أُرغمنا على تمييز وجود نوع آخر من الموت. الأوّل كان حقيقيًّا، والآخر ملفّقًا. طردتنا الرائحة ولكن داخلها وعلى نحو أشدّ سوءًا كان ذلك الإحساس بأنّ الموت حلّ بطريقتين، في آن أحيانًا، وبأنّ كيفيّة دخول الموت إلى أنفك وفمك، كيف هي رائحة الموت، قد تشكّل اختلافًا في روحك على نحو ما.

هرعنا إلى سيّاراتنا، نفكّر بالمشرّدين، بالمجانين، بالموتى، وكذلك بأنفسنا الآن. هذا هو ما فعلته رائحة تلك المادّة المحترقة. لقد عقّدت حزننا، جعلتنا أقرب إلى سرّ نقطة نهاية حياتنا.

في المنزل حضّرت حليبًا لي وله. فوجئت أنّه شربه. أمسك كوبه بكلتا يديه، تحدّث عن ضوضاء الحريق، وعن إثارة الاحتراق التي

يغذّيها الهواء، مثل اندفاع نفّاث. كدت أتوقّع منه أن يشكرني على النار الجميلة. جلسنا هناك نشرب حليبنا. وبعد قليل ذهب إلى خزانته ليلعب الثابت.(*)

جلست في وقت متأخّر أفكّر بالسيّد غراي. جسد رماديّ، ساكن، غير مكتمل. تذبذت الصورة وتقلّبت، ارتعشت زوايا جسده بتشوّهات عشوائيّة. أدركت أنّني أفكّر به معظم الأحيان في الفترة الأخيرة. أحيانًا بكونه السيّد غراي المركّب. أربعة خيالات أشخاص رماديّون أو أكثر منخرطون في عمل رائد. علماء، حالمون. أجسادهم المتموّجة تتداخل فيما بينها، تمتزج، تندمج، تنصهر. مثل كائنات غير أرضيّة تقريبًا. أذكى منّا نحن الباقين، لا جنس لهم، يؤثرون الآخرين على أنفسهم، عازمون على إبعادنا عن الخوف. ولكن حين انصهرت الأجساد بات أمامي شخص واحد، مدير المشروع، مُغْوٍ رماديّ سديميّ يتحرّك عبر أمواج في أرجاء غرفة موتيل. نحو السرير، نحو المكيدة. رأيت زوجتي تتكئ على جانبها، ممتلئة الجسم على نحو شهيّ. العارية المنتظرة الأبديّة. رأيته كما يراها. تابعة، خاضعة، مأسورة عاطفيًّا. أحسست بتفوّقه وتحكّمه. هيمنة موقعه. كان يسيطر على ذهني، هذا الرجل الذي لم تسبق لي رؤيته، نصف الصورة، أشدّ خيالات الدماغ ضآلة. يداه القاسيتان تطوّقان نهدًا متورّدًا أبيض. يا لحيويّة هذا النهد وبهائه، يا للبهجة الملموسة، المغبّرة بنمش خمريّ عند قمّته. قاسيت تعذيبًا سمعيًّا. سمعتهما أثناء مداعباتهما المنسابة كخرير، ثرثرة الحبّ واللحم النابض. سمعت الاندلاقات والاصطفاقات، طرطشة الفمين النديّين، نوابض السرير تغوص. فاصل غمغمة من تعديل الوضعيّات. ثمّ خيّم الظلام حول السرير بملاءاته الرماديّة، دائرة تنغلق ببطء.

كلّ الأصوات.

(*) تمرين رياضي لتقوية عضلات الصدر يتم فيه رفع الجسد من خلال الإمساك بعمود مثبت أفقيًا بالاعتماد على قوة الذراعين.

33

كم كانت الساعة حين فتحت عينيّ، شاعرًا بوجود شخص أو شيء قريب؟ هل كان الوقت عددًا فرديًا؟ كانت الغرفة هشّة ورقيقة. حرّكت ساقيّ، رمشتُ، مركّزًا ببطء على جسم مألوف. كان هو وايلدر، واقفًا على بعد قدمين من السرير، يحدّق في وجهي. مضت لحظة طويلة من التأمّل المتبادل. رأسه المستديرة الكبيرة، التي بدت وكأنّها مستندة إلى جسد قزم ضئيل الأطراف، منحته مظهر تمثال صلصاليّ بدائيّ صغير، مثل صنم منزليّ لجماعة دينيّة غامضة منشقّة. تنامى إليّ الإحساس بأنّه يريد أن يريني شيئًا. وحالما نزلت بهدوء من السرير، مشى ببيجامته ذات القدمين الملتصقتين خارجًا من الغرفة. تبعته إلى البهو باتّجاه النافذة المطلّة على الفناء الخلفيّ. كنت حافيًا ولا أرتدي الروب وأحسست بنسمة باردة تخترق پوليستر هونغ كونغ بيجامتي. وقف وايلدر يحدّق عبر النافذة، وكانت ذقنه أعلى من الإفريز بإنش تقريبًا. بدا وكأنّني قضيت حياتي في بيجاما بجانب متدلٍّ، حيث أزرار القميص في العرى الخاطئة، وطيّة القماش التي تغطّي الأزرار مائلة غير مضبوطة. هل حلّ الفجر؟ هل كانت غربانًا تلك التي سمعتها تزعق من بين الأشجار؟

كان ثمّة شخص يجلس في الفناء الخلفيّ. رجل بشعر أشيب يجلس منصبًا في الكرسيّ المجدول القديم. شخص ذو سكون غريب في جلسته. في البداية، دائخًا ونعسًا، لم أعرف ما الذي يجب أن أفعله حيال هذا المنظر. بدا بحاجة إلى تأويل أشدّ حرصًا ممّا كنت قادرًا على تقديمه في تلك اللحظة. فكّرت بشيء واحد، بأنّه وضع هناك بقصدٍ ما. ثمّ بدأ الخوف يتسلّل، ملموسًا وطاغيًا، مثل قبضة تلطم صدري على نحو متكرّر. من كان، وما الذي يحدث هنا؟ انتبهت إلى أنّ وايلدر لم يعد بجانبي. وصلت إلى مدخل غرفته في الوقت الملائم حيث رأيت رأسه تغوص في الوسادة. وحالما وصلت إلى السرير، كان قد غرق في

النوم. لم أعرف ما ينبغي عليّ فعله. شعرت بالبرد، وبالشحوب. شققت طريقي عائدًا إلى النافذة قابضًا على مقبض الباب، الدرابزين، كما لو أنّني أذكّر نفسي بطبيعة ووجود الأشياء الحقيقيّة. كان لا يزال هناك، يحدّق في السياج. رأيت جانب وجهه في الضوء الشحيح، ساكنًا متروّيًا. هل كان مسنًّا بقدر ما فكّرت بداية - أم كان الشعر الأبيض محض رمز، جزءًا من قوّته الرمزيّة؟ ذاك ما كان عليه، بالطبع. إنّه الموت، أو ناقل رسائل الموت، تقنيّ بعينين خاويتين من حقبة الطاعون، من حقبة محاكم التفتيش، الحروب اللامنتهية، مشافي المجانين والمجذومين. لا بدّ أنّه صائغ حكم الأشياء الأخيرة، يمنحني أقلّ القليل من النظرات - المتحضّرة، الساخرة - حين ينطق سطره الفصيح الرشيق عن انتهاء رحلتي. راقبته لوقت طويل، منتظرًا أن يحرّك ولو يده. كان سكونه مسيطرًا. أحسست أنّ شحوبي يتعاظم مع كلّ ثانية تمرّ. ما الذي يعنيه أن تصبح أبيض شاحبًا؟ ما هو الإحساس حين ترى الموت بشحمه ولحمه، قادمًا لأخذك؟ كنت في أشدّ أعماق الرعب. كنت أشعر بالبرد والحرّ، الجفاف والرطوبة، بأنّني أنا نفسي وشخص آخر غيري. أطبقت القبضة على صدري. ذهبت إلى الدرج وجلست على الدرجة العليا، أنظر إلى يدي. تبقّى الكثير. كلّ كلمة وكل تفصيل بمثابة تحفة بإبداع بهيّ. يدي البسيطة، بخطوطها المتوازية والمتشابكة في كتلة معبّرة، تضاريس حياة، قد تكون هي بذاتها موضوعًا لدراسة وتعجّب شخص ما لسنوات. كوزمولوجيا مقابل الخواء.

انتصبت واقفًا وعدت إلى النافذة. كان لا يزال هناك. هرعت إلى الحمام لأختبئ. أنزلت غطاء التواليت وجلست هناك بعض الوقت، متسائلًا عمّ سأفعله بعد ذلك. لم أكن أريده في المنزل.

ذرعت الحمّام قليلًا. سكبت ماءً باردًا على يديّ ومعصميّ، رشقته على وجهي. أحسست أنّني خفيف وثقيل، مشوّشًا ومتيقّظًا. أخذت ثقّالة

ورق ملوّنة من الرفّ المجاور للباب. داخل القرص البلاستيكيّ تطفو صورة ثلاثيّة الأبعاد لغراند كانيون، تكبر الألوان وتصغر كلّما أدرت القرص في الضوء. طائرات متموّجة. أحببت العبارة. بدت تمثّل جوهر موسيقا الوجود. لو كان بوسع المرء أن يعتبر الموت مثل أيّ سطح آخر يسكنه المرء لبعض الوقت فقط. وجهًا آخر من العقل الكونيّ. صورة مُركَّزة على رايت إينجل تريل.

التفتُّ إلى الأشياء المباشرة. لو كنت أريد إبقاءه خارج المنزل، فإنّ ما ينبغي فعله هو أن أخرج. بداية سأمرّ على الأطفال الصغار. تنقّلت بهدوء بين الغرف بقدميّ الحافيتين الشاحبتين. بحثت عن بطّانيّة أرتّبها، لعبة أنزعها من قبضة طفل دافئة، شاعرًا بأنّني أتجوّل في لحظة تلفزيونيّة. كان كلّ شيء ساكنًا ونديًّا. هل سيعتبرون موت أحد الوالدين بمثابة شكل آخر من الطلاق؟

تفقّدت هاينرش. كان يشغل الزاوية العليا اليساريّة من السرير، جسمه منكمش قليلًا مثل آلة الخداع تلك التي تنقبض فجأة حين تُمَسّ. وقفت في المدخل أحني رأسي.

دخلت أتفقّد بابيت. كانت تبدو أصغر بمراحل، فتاة من جديد، مثل شخصيّة تمرّ في حلم. قبّلت رأسها، مستنشقًا الهواء المخمّر الدافئ المنبعث من نومها. نبشت نسختي من كتاب **كفاحي** بين كومة من الكتب والروايات. اشتغل الراديو. هرعت خارجًا من الغرفة، خائفًا من أن يكون أحد أصوات اتّصالات البرامج، لوعة أحد الغرباء، هي آخر ما أسمعه في هذا العالم.

نزلت إلى المطبخ. نظرت عبر النافذة. كان هناك في الكرسيّ المجدول على العشب النديّ. فتحت الباب الداخليّ ثمّ الباب الشبكيّ. خرجت، ونسخة **كفاحي** مضمومة إلى معدتي. عندما انصفق الباب الشبكيّ منغلقًا، انتفض رأس الرجل واستقامت ساقاه. نهض على قدميه

واستدار باتّجاهي. إحساس السكون المخيّم الغريب انزاح، هالة التؤدة، الشعور الذي حرّضه عن سرّ قديم ورهيب. بدأ شخص آخر ينبثق من الأنقاض المقدّسة للأول، وبدأ يتّخذ شكلًا ملموسًا، يتنامى في الضوء الشحيح كمجموعة حركات، خطوط وملامح، حدود واضحة، شخص حيّ بدت سماته الجسديّة الواضحة مألوفة أكثر فأكثر أثناء مشاهدتي لها تدخل حيّز الوجود بشيء من الذهول.

لم يكن الموت هو من يقف أمامي بل ڤيرنن دِكي، حماي.

قال: «هل كنتُ نائمًا؟»

- «ما الذي تفعله هنا؟»

- «لم أكن أريد إيقاظكم يا جماعة».

- «هل كنّا نعرف بقدومك؟»

- «لم أعرف أنا هذا حتّى ظهيرة البارحة. قدنا السيّارة إلى هنا مباشرة. أربع عشرة ساعة».

- «ستسعد بابيت لرؤيتك».

- «أراهن على هذا».

دخلنا. وضعت غلّاية القهوة على البوتوغاز. جلس ڤيرنن إلى الطاولة بجاكيته القطنيّ الأزرق البالي، يلعب بغطاء ولاعة زيپو قديمة. كان له مظهر زير النساء في أقصى انهياره. كان في شعره الفضّيّ مسحة لون شاحبة، لطخة مصفرّة، وكان يصفّفه إلى الخلف مثل ذيل بطّة. وكانت لحيته غير محلوقة منذ حوالي أربعة أيّام. سعاله المزمن بدأ يأخذ حدًا خشنًا، علامة على عدم المسؤوليّة. كان قلق بابيت بشأن وضعه أقلّ من قلقها حيال حقيقة أنّه كان يغرق في لذّة ساخرة في نوبات سعاله، كما لو أنّ ثمّة ما هو مغرٍ في هذا الصوت الرهيب. ولا يزال يرتدي حزامًا عسكريًّا عليه شعار رأس الثور.

- «إذًا بحقّ الجحيم. ها أنا ذا. أمر كبير».

- «ما الذي تفعله هذه الأيّام؟»

- «أكسي السقائف هنا، أزيل الصدأ هناك. أعمل ليلًا ما عدا أنّه لم يبق ما يمكن عمله ليلًا. العمل الليليّ كلّ ما تبقّى أساسًا».

انتبهت إلى يديه. مليئة بالندوب، والجروح، والسحجات، وغارقة دائمًا في الدهن والطين. جال بنظراته في الغرفة، محاولاً التقاط شيء يحتاج إلى استبدال أو إصلاح. مثل هذه العيوب كانت أساسًا مناسبًا للحديث. تمنح فرصة لڤيرنن كي يتحدّث عن حبال الربط والعزقات المانعة لرشح الماء. عن التجصيص، وسدّ الثقوب، والمعجنة. كان ثمّة أوقات يبدو فيها وكأنّه يهاجمني رشقًا بمصطلحات مثل الحفّارة المسنّنة والمنشار السوطيّ. اعتبر ضحالتي في هذه المسائل علامة على عجز أو حماقة أعمق. كانت تلك هي الأشياء التي تبني العالم، وعدم معرفتها أو الاكتراث بها يعني خيانة المبادئ الأساسيّة، خيانة للنوع، للجنس. ما الذي يمكن أن يكون أكثر خيبة من رجل يعجز عن إصلاح صنبور ينقّط - لا نفع منه أبدًا، ميت تاريخيًّا، ميت حيال رسائل جيناته؟ لم أكن واثقًا بأنّني أخالفه الرأي.

- «كنت أقول لبابيت ذلك اليوم. ´لو كان هناك أمر لا يشبهه أبوك، فهو أن يكون أرمل`».

- «وماذا قالت؟»

- «تظنّ أنّك تشكّل خطرًا على نفسك. ´سينام وهو يدخّن. سيموت في سرير محترق مع امرأة مفقودة بجانبه. امرأة مفقودة رسميًّا. إحدى النساء الضائعات المجهولات المسكينات متعدّدات الطلاق`».

سعل ڤيرنن تقديرًا لهذا الحدس: سلسلة من الشهقات الرئويّة. كنت قادرًا على سماع بلغم قصباته الهوائيّة يندفع أعلى وأسفل صدره. صببت قهوته وانتظرت.

- «فقط كي تعرف أخباري الآن يا جاك، هناك امرأة تريد الزواج منّي. تذهب إلى الكنيسة في منزل متنقّل. لا تخبر بابيت».

- «هذا آخر شيء قد أفعله».

- «ستصبح قلقة فعلًا. وتبدأ مكالماتها الطويلة ليلًا».

- «تظنّ أنّك أصبحت شديد الجموح بحيث تعجز عن الالتزام بالزواج».

- «الشيء الذي يميّز الزواج اليوم هو أنّك لا تضطرّ للخروج من المنزل كي تحظى بتلك الإضافات الصغيرة. بإمكانك الحصول على ما تريد ضمن فجوات البيت الأميركيّ. هذه هي الأزمنة التي نعيش فيها، من حسن الحظّ أو سوئه. ستقوم الزوجات بأشياء. يردن القيام بأشياء. ليس عليك أن تزلّ بعينيك. كان الأمر المتوافر الوحيد في البيت الأميركيّ هو الفعل الطبيعيّ الأساسيّ. تحصل الآن على الخيارات أيضًا. الأفعال كبيرة، صدّقني. ومن المسائل المذهلة في زمننا أنّك ترى توازي زيادة الخيارات التي تجدها في المنزل مع تزايد عدد العاهرات في الشوارع. ما رأيك في هذا يا جاك؟ أنت الأستاذ الجامعيّ. ماذا يعني هذا؟»

- «لا أعرف».

- «ترتدي الزوجات ثيابًا داخليّة شهيّة. يعرفن الكلمات، والاستخدامات. وفي هذه الاثناء تقف العاهرات في الشوارع في كلّ تغيّرات الطقس. نهارًا أو ليلًا. من ينتظرن؟ السيّاح؟ رجال الأعمال؟ رجالًا تحوّلوا إلى متلصّصين على الجسد؟ يبدو الأمر كما لو أنّ الغطاء قد انفجر. ألم أقرأ في مكان ما أنّ اليابانيّين يذهبون إلى سنغافورة؟ حشود كاملة من الذكور. أناس يستحقّون الاهتمام».

- «هل تفكّر جدّيًّا بالزواج؟»

- «لا بدّ أن أكون مجنونًا كي أتزوّج امرأة تتعبّد في منزل متنقّل».

ثمة فطنة تحيط بفيرنن، درجة حادّة من التنبّه والذكاء العميق، دهاء يتحيّن فرصته المناسبة. كان هذا يجعل بابيت عصبيّة. رأته يتحرّش بالنساء في أماكن عامّة ليطرح أسئلة شخصيّة بطريقته الماكرة ووجهه الجامد الخالي من التعابير. كانت ترفض الخروج معه إلى مطاعم، إذ تخشى ملاحظاته الفظّة للنادلات، وتلميحاته الحميميّة، وتعليقاته وردوده المصمّمة بحيث تحقّق هدفها، التي يلقيها بصوت يشبه صوت برنامج إذاعي لآخر الليل في راديو قديم. جعلها تقاسي لحظات صعبة، فترات من الغضب والإحراج في عدد من مقصورات النوادي الليليّة.

دخلت الآن، ترتدي ملابس الرياضة القطنيّة، جاهزة لرياضتها الصباحيّة الباكرة على درجات الملعب. عندما رأت أباها على الطاولة، بدا أنّ جسدها فقد قوّته التحفيزيّة. وقفت هناك محنيّة الركبتين. لم يتبقّ شيء باستثناء قدرتها على فغر فمها. بدت وكأنّها تقلّد شخصًا فاغرًا فمه. كانت صورة لفغر الفم، المثال النموذجيّ الأسمى، من دون أن يقلّ اضطرابها أو تحفّزها عن ما أحسستُ به حين رأيته جالسًا في الفناء، ساكنًا مثل ميت. شاهدت وجهها يمتلئ إلى حافّته بدهشة شديدة.

قالت: «هل كنّا نعلم أنّك قادم؟ لمَ لمْ تتّصل؟ لم تتّصل من قبل أبدًا».

- «وليكن. إنها كارثة كبيرة! فلتُدقّ الأجراس!»

بقي جسدها مطويًّا عند الركبتين، محاولة استيعاب حضوره الفجّ، الجسد النحيل القويّ ونظرته اللافتة. يا للقوّة الملحميّة التي يبدو بأنّه يمثّلها بالنسبة إليها، تتّخذ شكلها في مطبخها على هذا النحو، والدًا، أبًا بكلّ وطأة السنين عليه. التاريخ الكثيف الكامل من التداعيات والارتباطات، أتت كلّها لتذكّرها بمن كانت، لتزيل قناعها، تُطبق على حياتها الطائشة لفترة، من دون تحذير.

- «كان بإمكاني تجهيز الأمور. تبدو بمظهر سيّء. أين ستنام؟»

- «أين نمتُ المرّة الماضية؟»

نظر كلاهما إليّ، محاولين التذكّر.

مع تحضيرنا لطعام الإفطار، مع تلاحق نزول الأطفال واقترابهم المتردّد من ڤيرنن للقبلات ومداعبة الشعر، مع مرور الساعات واعتياد بابيت على منظر الشخص المتمهّل ببنطال الجينز البالي، بدأت ألاحظ السعادة التي أخذت تنتابها حين تحوم قربه، تحضّر أشياء صغيرة له، تكون هناك لتنصت إليه. بهجة محتواة في الإيماءات الروتينيّة والإيقاعات الأوتوماتيكيّة. أحيانًا كانت تذكّر ڤيرنن بالأطعمة التي كان يفضّلها، وكيف كان يحبّ طريقة طهوها وتقديمها، أيّ النكات التي كان يبرع في إلقائها، أيّ شخصيّات من الماضي كانوا الحمقى الواضحين، وأيّهم الأبطال الهزليّون. دفقات من حياة أخرى انهمرت على حياتها. إيقاعات كلامها تغيّرت، وبدأت تأخذ مسحة ريفيّة. الكلمات تغيّرت، الإحالات. كانت تلك فتاة ساعدت أباها في صقل وإنهاء خشب السنديان القديم، نزع الشوفاجات من الأرضيّات. سنوات نجارته، شغفه بالدرّاجات الناريّة، الوشم على زنده.

- «أصبحتَ نحيلاً مثل الفاصولياء يا أبي. أنه هذه البطاطا. لا يزال هناك المزيد في الفرن».

ويقول ڤيرنن لي: «كانت أمّها تعدّ أسوأ بطاطا مقليّة بإمكانك تخيّلها. مثل البطاطا المقليّة في الحدائق العامّة الحكوميّة».

ثمّ يلتفت إليها ويقول: «جاك يعرف مشكلتي مع الحدائق العامّة الحكوميّة. إنّها لا تحرّك القلب».

أنزلنا هاينرش إلى الصوفا وأعطينا ڤيرنن غرفته. كان مثيرًا لأعصابنا أن نراه في المطبخ الساعة السابعة صباحًا، أو السادسة، أو أيًّا تكن الساعة الكئيبة التي ننزل فيها أنا وبابيت إلى المطبخ لنعدّ القهوة. كان يعطي انطباعًا بأنّه يصرّ على كونه أكثر دهاء منّا، يلعب على وتر إشعارنا

بالذنب، مظهرًا لنا بأنّه أيًّا يكن مقدار ضآلة الساعات التي ننام فيها، فهو ينام أقلّ.

– «دعني أقول لك يا جاك. حين تكبر في السنّ، ستكتشف أنّك مستعدّ لأمر ما ولكنّك لا تعرف ما هو. أنت تستعدّ طوال الوقت. تمشّط شعرك، تقف عند النافذة تنظر عبرها. أحسّ وكأنّ ثمّة شخصًا هائجًا صغيرًا يلاحقني ويحيط بي طوال الوقت. ولهذا قفزت في السيّارة وانطلقت دون توقّف إلى هنا».

قلت: «كي تكسر التعويذة. للتخلّص من الأشياء الروتينيّة. يمكن للأشياء الروتينيّة أن تكون قاتلة، يا ڤيرن، مدفوعة إلى أقصاها. لديّ صديق يقول إنّ هذا هو سبب الذهاب في إجازة، لا كي ترتاح أو تبحث عن إثارة أو ترى أماكن جديدة. بل لتتملّص من الموت الذي يسكن في الأشياء الروتينيّة».

– «ما صديقك؟ يهوديّ؟»

– «وما علاقة هذا بما قلته؟»

– «مزراب سقفك يرشح. تعرف هذا، أليس كذلك؟»

يحبّ ڤيرنن التجوّل خارج المنزل، ينتظر عمّال النظافة، عمّال إصلاح الهاتف، ساعي البريد، الصبيّ الذي يوصل الجرائد المسائيّة. شخص يتحدّث إليه عن التكنيكات والإجـراءات. مجموعات من المناهج الخاصّة. طرق، فترات زمنيّة، ممرّات. يسهم هذا في تعزيز قبضته على الأشياء، حيث يعرف كيف يُنجز العمل في المناطق الخارجة عن سيطرته.

كان يحبّ إزعاج الأولاد بطريقته الجامدة. وكانوا يردّون على ملاحظاته المزاحيّة بنفور. كانوا متشكّكين حيال جميع الأقارب. يشكّل الأقارب مسألة حسّاسة، جزءًا من الماضي الضبابيّ المعقّد، الحيوات المقسّمة، الذكريات التي يمكن أن تعاود حضورها بفعل كلمة أو اسم.

كان يحبّ الجلوس في سيّارته التي شهدت الويلات، يدخّن.

تراقبه بابيت من النافذة، متمكّنة من إظهار الحبّ، والقلق، والسخط واليأس، والأمل والكآبة، في آن، بهذا القدر أو ذاك. لم يكن على ڤيرنن سوى حمل جسده إلى هنا فيثير فيها سلسلة من العواطف المتطرّفة.

كان يحبّ الاندماج مع حشود المراكز التجاريّة.

- «أعوّل عليك كيْ تخبرني يا جاك».

- «أخبرك بماذا؟»

- «أنت الشخص الوحيد ممّن أعرفهم المتعلّم بما يكفي ليعطيني الإجابة».

- «الإجابة عن ماذا؟»

- «هل كان الناس بهذا الغباء قبل التلفزيون؟»

في إحدى الليالي سمعت صوتًا فظننت أنّه يئنّ في نومه. ارتديت روبي، ومشيتُ عبر البهو، لأدرك أنّ الصوت منبعث من التلفزيون الموضوع في غرفة دينيز. دخلت وأطفأته. كانت نائمة وسط كومة من البطّانيّات والكتب والملابس. بفعل حافز ما، مشيتُ بهدوء إلى الخزانة المفتوحة، فتحت الدرفة الخفيفة ونظرت داخلها. باحثًا عن أقراص ديلار. أغلقت الباب على جسدي الذي كان نصفه داخل الخزانة ونصفه خارجها. رأيت مجموعة متنوّعة كبيرة من الملابس، والأحذية، والدمى، والألعاب وأشياء أخرى. تحسّست بأصابعي باحثًا، فأمسك أثرًا من تذكار طفوليّ. صلصال، أحذية رياضيّة، نشارة أقلام رصاص. قد تكون الزجاجة في حذاء مهجور، جيب أحد القمصان القديمة المكوّمة في الزاوية. سمعتها تتحرّك في السرير. وقفت ساكنًا كاتمًا نفسي.

قالت: «ما الذي تفعله؟»

- «لا تقلقي. هذا أنا».

- «أعلم من أنت».

تابعت البحث في الخزانة، ظانًّا أنّ هذا سيجعلني أبدو أقلّ ذنبًا.

- «أعلم ما الذي تبحث عنه أيضًا».

- «دينيز، لقد انتابني خوف مؤخّرًا. ظننت أنّ أمرًا رهيبًا على وشك الحدوث. تبيّن أنّي مخطئ، الحمد لله. ولكن هناك آثار متبقّية. أحتاج إلى ديلار. قد يساعدني على حلّ المشكلة».

واصلت بحثي.

- «ما المشكلة؟»

- «ألا يكفي بالنسبة إليكِ أن تعرفي بوجود مشكلة؟ لم أكن لآتي هنا لولا هذا. ألا تريدين أن تكوني صديقتي؟»

- «أنا صديقتك. ولكن كلّ ما أريده هو ألّا أُخدع».

- «ليس هناك مجال للخداع. أريد تجربة الدواء فقط. هناك أربعة أقراص متبقّية. سآخذها وينتهي الأمر».

كلّما كان الصوت أكثر اعتياديّة، تزايدت فرص اقترابي منها.

- «لن تأخذها. ستعطيها لأمّي».

ردَّدت كمسؤول حكوميّ رفيع: «لنكن واضحين بشأن أمر واحد. أمّك ليست مدمنة مخدّرات. ديلار ليس ذلك النوع من الدواء».

- «ما هو إذًا؟ أخبرني ما هو فقط».

شيء ما في صوتها أوفي قلبي أوفي عبثيّة اللحظة جعلني أفكّر باحتمال إجابتها على سؤالها. فَتْحٌ حقيقيّ. لم لا أخبرها ببساطة؟ كانت على قدر المسؤوليّة، قادرة على تخمين المعاني الضمنيّة للأشياء الجدّيّة. أدركت أنّني وبابيت كنّا أحمقَيْن طوال الوقت في عدم إخبارها بالحقيقة. يمكن للفتاة أن تستوعب الحقيقة، تعرفنا على نحو أفضل، تحبّنا أكثر في ضعفنا وخوفنا.

جلست عند نهاية السرير. راقبتني بحرص. أخبرتها القصّة البسيطة، حاذفًا الدموع، والعواطف، والرعب، والرهبة، وتعرّضي لنيودين دي، واتّفاق بابيت الجنسيّ مع السيّد غراي، وجدالنا عمّن يخاف الموت أكثر. ركّزت على الدواء بذاته، أخبرتها كلّ شيء أعرفه عن دورة حياته في الجهاز المعديّ المعويّ والدماغ.

أوّل شيء ذكرته كان الآثار الجانبيّة. لكلّ عقار آثاره الجانبيّة. والعقار الذي يمكن أن يمحو الخوف من الموت ستكون له آثار جانبيّة هائلة، خصوصًا أنّه لا يزال في المرحلة التجريبيّة. كانت محقّة، بالطبع. تحدّثت بابيت عن الموت المباشر، الموت الدماغيّ، موت القسم الأيسر من الدماغ، الشلل الجزئيّ، واحتمالات أخرى قاسية وغريبة قد تحدث للجسد والعقل.

أخبرت دينيز أنّ قوّة الإيحاء قد تكون أشدّ أهمّيّة من الآثار الجانبيّة.

- «تتذكّرين كيف سمعتِ من الراديو أنّ السحابة المتموّجة تُسبّب تعرّق راحة اليد؟ تعرّقت راحتا يديك، أليس كذلك؟ قوّة الإيحاء تسبّب للناس المرض، فيما لا تسبّبه لآخرين. قد يكون مهمًّا مدى قوّة أو ضعف ديلار. فكّرت أنّه سيساعدني، فسوف يساعدني».

- «بدرجة ما».

همست: «نحن نتحدّث عن الموت. بمعنى حقيقيّ تمامًا لن يهمّ محتوى تلك الأقراص. قد يكون سكّرًا، قد يكون أحد التوابل. أنا توّاق لأن أُخدع. لأن أكون ضحيّة مقلب».

- «أليس هذا غبيًّا قليلًا؟»

- «هذا ما يحدث للناس اليائسين يا دينيز».

خيّم صمت. انتظرتُ أن تسألني ما إذا كان اليأس محتومًا، ما إذا كانت ستعايش الخوف ذاته يومًا ما، تقاسي المحنة ذاتها.

قالت بدلًا من هذا: «قويّ أو ضعيف لا يهمّ. لقد تخلّصت من الزجاجة».

- «لا، لم تفعلي. أين؟»

- «وضعتها في كابسة القمامة».

- «لا أصدّقك. متى فعلت هذا؟»

- «منذ أسبوع. ظننت بابا قد تتسلّل لتفتّش غرفتي وتجدها. لذا قرّرت التخلّص منها تمامًا. لم يُردْ أحد إخباري ما كانت، صحيح؟ لذا رميتها مع العلب والزجاجات وباقي القمامة. ثمّ كبستها».

- «مثل سيّارة مستعملة».

- «لم يشأ أحد إخباري. هذا كلّ ما كان عليهم فعله. كنت هنا طوال الوقت».

- «حسنًا. لا تقلقي. لقد أسديتِ لي معروفًا».

- «ثمان كلمات تقريبًا كانت كلّ ما يحتاجون إلى قوله».

- «وضعي أفضل من دونها».

- «لن تكون المرّة الأولى التي يخدعونني فيها».

- «لا تزالين صديقتي»

قبّلت رأسها وتوجّهت إلى الباب. انتبهت إلى أنّني أتضوّر جوعًا. نزلت إلى الطابق السفليّ لأجد شيئًا آكله. كان المطبخ مضاءً، وڤيرنن يجلس إلى الطاولة، بكامل ثيابه، يدخّن ويسعل. رماد سيجارته بطول إنش، وقد بدأ يميل. كانت عادة لديه، ترك الرماد يتدلّى. بابيت تظنّ أنّه يفعل هذا ليحرّض مشاعر الإثارة والقلق لدى الآخرين. كان هذا جزءًا من طقس الطيش الذي يتحرّك ضمنه.

- «إنّه الرجل الذي أردتُ رؤيته».

- «ڤيرن، إنّه منتصف الليل. ألا تنام أبدًا؟»

قال: «لنخرج إلى السيّارة».

- «هل أنت جادّ؟»

- «لدينا الآن وضع ينبغي أن نتداوله على انفراد. هذا البيت مليء بالنساء. أم أنا مخطئ؟»

- «إنّنا وحدنا هنا. ما الذي تريد التحدّث عنه؟»

- «هنّ يتنصّتن في نومهنّ».

خرجنا عبر الباب الخلفيّ كي لا نمشي قرب هاينرش. تبعته طوال الدرب الملاصقة للمنزل وعلى الدرج النازلة إلى الممشى. كانت سيّارته الصغيرة قابعة في الظلام. جلس خلف العجلة واندسست بجانبه، شادًّا روبي إليّ أحسّ بأنّني محاصر في هذا المكان الضيّق. كانت السيّارة تعبق برائحة تشبه رائحة دخان خطير في أعماق متجر معدّات تصليح، مزيج من معدن مهترئ وأسمال سريعة الاشتعال ومطّاط مسفوع. كان تنجيد السقف ممزّقًا. عبر وهج ضوء الشارع رأيت أسلاكًا تتدلّى من المصباح العلويّ وغلاف التثبيت.

- «أريد منك أن تأخذ هذا يا جاك».

- «آخذ ماذا؟»

- «لقد احتفظت به لسنوات. والآن أريد منك أن تأخذه. من يعلم ما إذا كنت سأراكم مرّة أخرى يا جماعة؟ وليكن. من يهتمّ! يا للهول!»

- «تريد إعطائي السيّارة؟ لا أريد السيّارة. إنّها سيّارة شنيعة».

- «طوال حياتك كرجل في عالم اليوم، هل سبق أن امتلكت سلاحًا ناريًّا؟»

قلت: «لا».

- «توقّعت. قلت لنفسي ها هو آخر رجل في أميركا لا يمتلك وسيلة للدفاع عن نفسه».

مدّ يده إلى فجوة في المقعد الخلفيّ، مخرجًا شيئًا داكنًا صغيرًا. أمسكه في راحة يده اليمنى.

- «خذه يا جاك».

- «ما هذا؟»

- «احمله. اشعر بالإحساس. إنّه محشوّ».

أعطاه لي. وبغباء كرّرت الجملة: «ما هذا؟» كان ثمّة أمر غير حقيقيّ في تجربة حمل مسدّس. بقيت أحدّق به، متسائلًا عن دافع ڤيرنن. هل كان هو رسالة الموت المظلمة في نهاية المطاف؟ سلاح محشوّ. يا لسرعة التغيّر الذي أحدثه فيّ، مخدّرًا يدي، حتّى وأنا أكتفي بالجلوس والتحديق بهذا الشيء، غير راغب بإعطائه أيّ اسم. هل كان ڤيرنن يقصد تحريض الأفكار، منح تصميم طازج لحياتي، مخطّط، تشكيل؟ أردت إعادته إليه.

- «إنّه شيء صغير ضئيل ولكنّه يطلق رصاصات حقيقيّة، وهذا كلّ ما يمكن أن يطلبه رجل في مكانتك. لا تقلق يا جاك. لا يمكن تعقّبه».

- «ولم قد يريد أيّ شخص تعقّبه؟»

- «أحسّ أنّك لو أعطيت شخصًا مسدّسًا محشوًّا، ينبغي عليك تزويده بالتفاصيل. أمامك الآن تسومڤالت أوتوماتيكيّ عيار 25. صناعة ألمانيّة. ليس فيه قوّة ردع السلاح ثقيل السبطانة ولكنّك لن تواجه وحيد قرن به، صحيح؟»

- «هذا هو موضوعنا. ما الذي سأواجهه به أساسًا؟ لمَ أحتاج إلى هذا الشيء؟»

- «لا تقل عنه شيء. احترمه يا جاك. إنّه سلاح ممتاز التصميم. عمليّ. خفيف الوزن، سهل الإخفاء. اعرف سلاحك. إنّها مسألة وقت فحسب قبل أن ترغب باستخدامه».

- «متى سأرغب باستخدامه؟»

- «هل نعيش على الكوكب نفسه؟ في أيّ قرن نحن؟ انظر إلى مدى السهولة التي دخلت فيها إلى فنائك الخلفيّ. أعالج مزلاج نافذة فأفتحها وأصير في المنزل. كان يمكن أن أكون لصًّا محترفًا، مجرمًا فارًّا، أحد أولئك المنحرفين ذوي اللحية الهزيلة. قاتل متجوّل يتبع مسير الشمس. سفّاح في العطلة الأسبوعيّة يمتلك وظيفة مكتبيّة. اختر ما شئت».

- «ربّما كنت بحاجة إلى مسدّس حيث تعيش. خذه. نحن لا نريده».

- «لديّ ماغنوم قتاليّ قرب سريري. أكره أن أخبرك بمدى التشويه الذي قد يُحْدثه في ترتيب ملامح الإنسان».

صوّب إليّ نظرة حكيمة. واصلتُ التحديق بالمسدّس. خطر لي أنّ هذا هو الوسيلة المطلقة لتحديد كفاءة المرء في العالم. زنته في راحة يدي، تنشّقت الفوهة الفولاذيّة. ما الذي يعنيه الأمر لشخص، بعيدًا عن إحساسه بالكفاءة والسعادة والقيمة الشخصيّة، حين يحمل سلاحًا قاتلًا، يتعامل معه على نحو أمثل، يكون جاهزًا ومستعدًّا لاستخدامه؟ سلاح قاتل مخفيّ. كان سرًّا، كان حياة ثانية، ذاتًا ثانية، حلمًا، تعويذة، حبكة، هياجًا.

صناعة ألمانيّة.

- «لا تخبر بابيت. ستغضب حقًّا لو عرفت أنّك تخفي سلاحًا ناريًّا».

- «لا أريده يا ڤيرن. خذه معك».

- «المهمّ أن لا تضعه في مكان مكشوف. حين يضع طفل يده عليه، ستصبح في مأزق فوريّ. كن ذكيًّا، فكّر بالمكان الذي ستخفيه فيه بحيث يكون في متناولك حين يحين الوقت. استكشف مجال إطلاق النار أوّلًا. لو كان لديك وضع دخيل، من أين سيدخل، كيف سيقترب من الأشياء الثمينة؟ لو كنت أمام مريض عقليّ، من أين سيظهر أمامك؟ المرضى

العقليّون لا يمكن التنبّؤ بأفعالهم لأنّهم لا يعرفون هم أيضًا ما يفعلون. يقتحمون من كلّ مكان، من جذع شجرة، من غصن. فكّر بتركيب زجاج مكسّر حادّ عند حوافّ النوافذ. تعلّم النزول على الأرض بسرعة».

- «لا نريد أسلحة في بلدتنا الصغيرة».

- «كن ذكيًّا لمرّة واحدة في حياتك. ما يهمّ ليس هو ما تريده». قال لي في السيّارة المظلمة.

في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي جاء طاقم عمّال لتصليح الشارع. خرج ڤير ن مباشرة، يراقبهم وهم يكسرون الأسفلت وينقلونه، وبقي قريبًا منهم وهم يضبطون مستوى الطبقة التي لا يزال الدخان يتصاعد منها. وبعد أن غادر العمّال، بدت زيارته على وشك الانتهاء، حيث انهارت إلى أخفض درجات زخمها. بدأنا نرى مكانًا فارغًا حيث كان يقف. بدأ ينظر إلينا من مسافة فاصلة، كما لو كنّا غرباء بأحقاد خفيّة. وتجمَّعَ إرهاق غامض حول جهدنا المبذول للبدء بحديث.

خارجًا عند الرصيف، عانقته بابيت وبكت. عند مغادرته، حلق لحيته، وغسل السيّارة، ولفّ عصابة زرقاء حول عنقه. بدت وكأنّها لن تتوقّف عن البكاء. تنظر في وجهه وتبكي. تبكي وهي تحتضنه. أعطته علبة فلّين مضغوط مليئة بالسندويشات، والدجاج والقهوة، وبكت وهي تضعها بين المقعد بحشوته الممزّقة والسقف البالي.

قال لي مبتسمًا: «هي فتاة طيّبة».

في مقعد السائق مرّر يده على ذيل البطّة، معدّلًا من مظهره في المرآة الأماميّة. ثمّ بدأ يسعل برهة، مانحًا إيّانا حلقة أخرى من البلغم الصدريّ. بكت بابيت مجدّدًا. انحنينا عبر نافذة الراكب الأماميّ، نراقبه وهو يهيّئ جسده في وضعيّة القيادة، متمركزًا بين الباب والمقعد، مدليًا ذراعه اليسرى من النافذة.

قال: «لا تقلقوا بشأني. العرج الخفيف لا يعني شيئًا. الناس الذين

في عمري يعرجون. العرج أمر طبيعيّ في عمر معيّن. انسوا السعال. السعال على ما يرام. يُحرِّك البلغم هنا وهناك. لن يؤذيك البلغم طالما أنّه لا يتركّز في بقعة واحدة ويبقى هناك لسنوات. إذًا السعال مفيد. وكذلك الأرق. الأرق على ما يرام. ما الذي سأجنيه من النوم؟ تبلغ عمرًا تكون فيه كلّ دقيقة نوم بمثابة دقيقة ناقصة كنت ستستثمرها في فعل أشياء نافعة. أن تسعل أو تعرج. ولا تشغلوا بالكم بالنساء. النساء على ما يرام. نستأجر شريطًا ونمارس قليلًا من الجنس. هذا يضخّ الدم إلى القلب. انسوا السجائر. أحبّ أن أقول لنفسي إنّني سأرحل ومعي شيء ما. دعوا المورمونيّين يقلعون عن التدخين. سيموتون بفعل أمر سيّء بالقدر نفسه. المال ليس مشكلة. وضعي متوازن في الدخل. صفر راتب تقاعديّ، صفر مدّخرات، صفر رأسمال وسندات. لذا لا ينبغي أن تقلقوا بشأن هذا. كلّ هذا مُعتنى به تمامًا. لا تشغلوا بالكم بالأسنان. الأسنان على ما يرام. كلّما كانت أضعف، صرت قادرًا على أرجحتها بلسانك. هذا يمنح اللسان شيئًا يفعله. لا تقلقوا بشأن الارتعاش. يعاني الجميع من الارتعاش بين الحين والآخر. إنّها اليد اليسرى فقط على أيّ حال. طريقة الاستمتاع بالارتعاش هي التظاهر بأنّها يد شخص آخر. لا تشغلوا بالكم بفقدان الوزن المفاجئ الذي لا سبب له. ليس هناك مغزى من أكل ما لا تراه. لا تقلقوا بشأن العينين. لا يمكن أن يكون وضعها أسوأ ممّا هو عليه الآن. انسوا الذهن كلّيًّا. الذهن على ما يرام. اقلقوا بشأن السيّارة. عجلة القيادة مائلة. تمت صيانة المكابح ثلاث مرّات. الغطاء يندفع إلى الأعلى عند المطبّات».

بوجه جامد. اعتبرت بابيت أنّ الجزء الأخير كان مضحكًا. الجزء المتعلّق بالسيّارة. وقفت هناك مذهولًا، أراقبها تمشي في دوائر صغيرة من المرح، بركبتين ضعيفتين، بتثاقل، وكلّ مخاوفها ودفاعاتها قد هامت في التاريخ الماكر لصوته.

34

إنه وقت ظهور العناكب. عناكب في زوايا أسقف الغرف. شرانق ملفوفة في الشبك. خيوط راقصة رماديّة تبدو كأنّها لعبة الضوء النقيّة، الضوء كأخبار زائلة، أفكار محمولة على الضوء. الصوت في الطابق العلويّ يقول: «والآن راقبوا هذا. جوني تحاول ضرب رضفة (ركبة) ساق رالف بركلة بوشيدو صاعقة. تقوم بها، هو يتعثّر، هي تركض».

دينيز مرّرت كلمة لبابيت أنّ ستيفي تفحص صدرها بانتظام بحثًا عن كتل. أخبرتني بابيت.

مدّدنا أنا ومري مجال مشياتنا التأمّليّة. في البلدة في أحد الأيّام انتابت مري لحظات انتشاء مبتهجة حرجة إزاء ركن السيّارات على نحو منحرف. كان ثمّة سحر وإحساس حميميّ في صفوف المركبات المتجاورة. كان هذا الشكل من ركن السيّارات جزءًا لا يتجزّأ من مشهد البلدات الأميركيّة، حتّى لو كانت السيّارات ذات ماركة أجنبيّة. لم يكن الترتيب عمليًّا ولكنّه يتخلّص من حالة سيارتين متواجهتين، الشكل الذي يشبه الاعتداء الجنسيّ من نمط أمام–خلف في شوارع المدن المزدحمة.

يقول مري إنّ من الممكن أن تشعر بالحنين إلى مكان حتّى حين تكون فيه.

عالم الطابقين في شارع رئيسيّ اعتياديّ. متواضع، عاقل، تجاريّ على نحو متمهّل، على طريقة ما قبل الحرب، مع آثار ما قبل الحرب من التفصيل المعماريّ الذي نجا في الطوابق العلويّة، في الأفاريز النحاسيّة والنوافذ الرصاصيّة، وفي الأفاريز التي تشبه جرّة أمفورا فوق مدخل متاجر الدايم.

تدفعني للتفكير بمبدأ قيمة الخراب.

قلت لمري إنّ ألبرت سيبر أراد تشييد أبنية تتداعى على نحو رائع، آسر، مثل الأنقاض الرومانيّة. لا هياكل صدئة أو عشوائيّات حديديّة مشوّهة. عرف أنّ هتلر سيكون سعيدًا بأيّ شيء قد يُبْهر الأجيال القادمة. رسم مخطّطًا لبناء رايخ كي يُبنى من موادّ خاصّة، تسمح للبناء أن يتداعى على نحو رومانتيكيّ - رسم لجدران منهارة، نصف أعمدة ملتفّة مثل نبات معرّش. تُشيَّد الأنقاض ضمن خطّة البناء، قلت، ما يُظهر نوستالجيا بعينها وراء مبدأ القوّة، أو نزعة لتنظيم حنين الأجيال القادمة.

قال مري: «لا أثق بنوستالجيا أيّ شخص سواي. النوستالجيا نتاج للسخط والغضب. إنّها من رواسب الشكوى بين الحاضر والماضي. وكلّما اشتدّت النوستالجيا، تعاظمَ اقترابك من العنف. الحرب هي الصيغة التي تأخذها النوستالجيا حين يُرغَم الناس على كيل المديح لبلادهم».

ثمّة رطوبة في الجوّ. فتحت الثلاجة، ونظرت إلى المجمِّد. صوت تكسّر غريب انبعث من بلاستيك تغليف الطعام، الغطاء الذي يغلّف الأشياء نصف المأكولة، أكياس زيبلوغ للحم الأضلاع والكبد، التي تبرق جميعها بحبيبات كريستاليّة شبه متجمّدة. نسمة جافّة باردة. صوت كأنّ شيئًا ينكسر، يتحلّل إلى أبخرة فريون. سكون مخيّم، متجانس ولكن أقرب إلى أن يكون داخليًّا، دفعني للتفكير بالأرواح الهاجعة. شكل من الحياة الساكتة التي تقترب من عتبة الإدراك.

لم يكن أحد هناك. مشيتُ على طول المطبخ، فتحتُ درج كابسة القمامة ونظرت داخل الكيس. مكعّب رطب من العلب شبه المكويّة، علّاقات ملابس، عظام حيوانات ونفايات أخرى. كانت الزجاجات مكسّرة، والعلب مسطّحة. لم تتضاءل ألوان المنتجات في البريق أو الكثافة. دهون، عصائر، وسوائل ثقيلة تسيل من طبقات الخضار المسحوقة. أحسست بأنّني مثل عالم آثار على وشك نخل شذرات

أدوات وقمامة كهف متنوّعة. كانت قد مضت عشرة أيّام منذ كبست دينيز الديلار. تلك القمامة لا بدّ أنّها قد رُميت وجمعت الآن. وحتّى لو لم يحدث هذا، لا بدّ أنّ الأقراص قد سُحقت بفعل مكبس الآلة.

كانت تلك الوقائع مفيدة في جهدي لتصديق أنّني كنت أضيّع الوقت فحسب، مجرّد نبش اعتياديّ في القمامة. حرّرتُ قفلَيْ الكيس، فتحت الرّتاج ورفعتُ الكيس. لطمتني الرائحة النتنة الممتزجة بقوّة صاعقة. هل هي رائحتنا؟ هل تنتمي إلينا؟ هل نحن من خلقها؟ أخرجت الكيس من القمامة وأفرغته. استقرّت الكتلة المكبوسة هناك مثل منحوتة حديثة هازئة، هائلة، رابضة، ساخرة. نكزتها بأسنان مقشّة حديديّة ثمّ نثرت المادّة على الأرضيّة الإسمنتيّة. تفحّصتها مادّة إثر أخرى، كتلة لا شكل لها إثر أخرى، متسائلًا عن سبب شعوري بالذنب، بأنّني منتهك للخصوصيّة، أفضح أسرارًا حميمة وربّما محرجة. كان من الصعب أن لا أتشتّت بفعل بعض من الأشياء التي اختاروها لتخضع لسيطرة شاحنة القمامة الضخمة جاغرنوت. ولكن لم أحسست بأنّني جاسوس منزليّ؟ هل القمامة شديدة الخصوصيّة؟ هل تتّقد في جوهرها بالحرارة الشخصيّة، بمؤشّرات طبيعة المرء العميقة، بدلائل على لحظات حنين سرّيّة، عيوب مُذلّة؟ أيّ عادات، فيتيشات، إدمانات، ميول؟ أيّ أفعال فرديّة، هياجات سلوك؟ وجدت رسومات ملوّنة لشخص بثديين كاملين وعضو تناسليّ ذكريّ. قطعة طويلة من الخيط المجدول تضمّ سلسلة من العقد والأنشوطات. بدت عشوائيّة للوهلة الأولى. ولكن حين تمعّنت فيها ظننت أنّني التقطت علاقة معقّدة بين قياس الأنشوطات، درجة العقد (مفردة أو مضاعفة) والفواصل بين العقد مع أنشوطات العقد الحرّة. نوع من الهندسة السحريّة أو هاجس رمزيّ من الوساوس. وجدت قشرة موز داخلها فوطة نسائيّة. هل كان هذا هو الجانب الخفيّ المظلم من الوعي الاستهلاكيّ؟ مررت بكتلة متشابكة رهيبة من الشعر، والصابون، وأعواد تنظيف الأذن، وصراصير مسحوقة، أغطية زجاجات، ضمّادات معقّمة ملطّخة بالقيح ودهن الخنزير، خيوط

تنظيف أسنان مهترئة، كسرات من ريَش أقلام، أعواد تنظيف أسنان لا يزال هناك فتات طعام عالق بها. وها هنا بوكْسِر ممزّق مع لطخات أحمر شفاه، لعلّه تذكار من موتيل غراي ڤيو.

ولكن لا أثر في أيّ مكان لزجاجة كهرمانيّة مسحوقة أو بقايا أقراص تشبه الصحن الطائر. هذا لا يهمّ. سأواجه كلّ ما تنبغي مواجهته بلا مساعدة كيميائيّة. بابيت قالت إنّ ديلار كان ذهب الأحمق. كانت على حقّ، ويني رتشاردز كانت على حقّ، دينيز كانت على حقّ. كنّ صديقاتي وكنّ على حقّ.

قرّرت الخضوع إلى فحص طبّيّ آخر. وحين صدرت النتائج، ذهبت لأراجع د. تشاكراڤارتي في عيادته الصغيرة في المبنى الطبّيّ. جلس يقرأ ورقة النتائج، رجل بوجه بدين وعينين مظلّلتين، كفّاه الطويلتان تستقرّان منبسطتين على المكتب، ورأسه تهتزّ قليلًا.

– «ها أنت مجدّدًا سيّد غلادني. نراك كثيرًا هذه الأيّام. كم من الرائع أن تجد مريضًا يتعامل مع وضعه بجدّيّة».

– «أيّ وضع؟»

– «وضعه كمريض. يميل الناس إلى نسيان أنّهم مرضى. ما إن يغادروا عيادة الطبيب أو المشفى، يُخرجون الأمر ببساطة من أذهانهم. ولكنّكم جميعًا مرضى دائمون، سواء أحببتم هذا أم لا. أنا الطبيب، وأنت المريض. لا يتوقّف الطبيب عن كونه طبيبًا مع نهاية اليوم. ولا ينبغي للمريض أن يفعلها أيضًا. ينتظر الناس من الطبيب أن يتعامل مع الأمور بجدّيّة ومهارة وخبرة قصوى. ولكن ماذا عن المريض؟ ما مدى حرفيّته؟»

لم يرفع عينيه عن الورقة وهو يقول هذه العبارات برتابته الدقيقة.

وتابع: «لا أظنّ أنّني أحبّ البوتاسيوم لديك أبدًا. انظر هنا. رقم بين قوسين مع نجوم كمبيوتريّة».

- «ما الذي يعنيه هذا؟»

- «ليس هناك مغزى من معرفتك في هذه المرحلة».

- «كيف كان البوتاسيوم المرّة الماضية؟»

- «كان في المعدّل الطبيعيّ. ولكن ربّما كان هذا ارتفاعًا وهميًّا. نحن نتعامل مع دم بأكمله. هنا تكمن أهمّيّة الحاجز الهلامي. هل تعرف معنى هذا؟»

- «لا».

- «ليس هناك وقت للشرح. لدينا ارتفاع حقيقيّ وارتفاعات وهميّة. هذا كلّ ما عليك معرفته».

- «ما مدى ارتفاع البوتاسيوم بالضبط؟»

- «لقد وصل إلى السقف، كما هو واضح».

- «وما الذي يمكن أن يدلّ هذا؟»

- «قد لا يعني شيئًا، وقد يعني أمرًا كبيرًا جدًّا بالفعل».

- «كبير إلى أيّ حدّ؟»

- «سندخل الآن إلى علم الدلالات»، قال.

- «ما أحاول الوصول إليه هو هل يمكن أن يكون هذا البوتاسيوم مؤشّرًا على وضع بدأ يُظهر نفسه، وضع تسبّب به تناول دواء، تعرّض، استنشاق غير متعمّد لتسرّب كيميائيّ، مادّة في الهواء أو المطر؟»

- «هل كنت في حالة تماس فعليّ مع مادّة كهذه؟»

قلت: «لا».

- «هل أنت متأكّد؟»

- «أكيد. لماذا؟ هل تُظهر الأرقام أيّ إشارة إلى تعرّض محتمل؟»

- «لو لم تتعرّض فعلًا، لن تُظهر الأرقام أيّ إشارة فعليّة، صحيح؟»

قلت: «إذًا نحن متّفقان».

- «قل لي سيّد غلادني، بكلّ صراحة. كيف تشعر؟»

- «على حدّ علمي، أنا بصحّة جيّدة. ممتازة. أشعر على نحو أفضل ممّا شعرت به منذ سنوات، بقياس نسبيّ».

- «ما الذي تعنيه بالقياس النسبيّ؟»

- «لو أخذنا بالاعتبار حقيقة أنّني أكبر سنًّا الآن».

نظر إليّ بحرص. بدا وكأنّه يحاول اختراقي. ثمّ دوّن ملاحظة في سجله. ربّما بدوت مثل طفل بمواجهة مدير المدرسة بسبب سلسلة من الغيابات غير المبرّرة.

قلت: «كيف يمكننا تمييز ما إذا كان الارتفاع حقيقيًّا أم وهميًّا؟»

- «سأرسلك إلى غلاسبورو من أجل فحوص أشمل. هل تحبّ هذا؟ هناك مؤسّسة جديدة تدعى أُوتَمْ هارڤست فارمز [مزارع حصاد الخريف]. لديهم معدّات جديدة لامعة. لن يخيب أملك، انتظر وسترى. إنّها لامعة فعلًا».

- «حسنًا. ولكن هل البوتاسيوم هو الأمر الوحيد الذي علينا مراقبته؟»

- «كلّما عرفت أقلّ، كان هذا أفضل. اذهب على غلاسبورو. قل لهم أن ينقّبوا بعمق. لا يتركوا حجرًا دون أن يُقلب. وأخبرهم أن يعيدوا إرسالك إليّ مع نتائج بمغلّف مغلق. سأحلّلها بأدقّ التفاصيل. سأنبشها بشدّة. لديهم المعدّات المتخصّصة في هارڤست فارمز، أدقّ الأدوات، أعدك. أفضل تقنيّي العالم الثالث، آخر تطوّرات الإجراءات».

تعلّقت ابتسامته المشرقة مثل درّاقة على شجرة.

- «معًا، كطبيب ومريض، بوسعنا فعل أشياء لا يمكن لأيّ منّا فعلها بمفرده. ليس ثمّة تركيز كافٍ على الوقاية. درهم وقاية، كما يقولون. هل هذا مثل شعبيّ أم حكمة؟ بالتأكيد بإمكان البروفيسور إخبارنا».

- «أحتاج إلى وقت للتفكير بشأنه».

- «في جميع الأحوال، الوقاية هي الشيء المهمّ، أليس كذلك؟ لقد اطّلعت قبل فترة وجيزة على آخر إصدار من دوريّة **أميركان مورتيشان**. يا لها من صورة صادمة. الصناعة مؤهّلة بالكاد للتناغم مع أعداد الموتى الهائلة».

كانت بابيت على حقّ. هو يتحدّث الإنكليزيّة على نحو جميل. ذهبت إلى المنزل وبدأت التخلّص من الأشياء. رميت طعوم صيد سمك، وكرات تنس خربة، وحقائب ممزّقة. نقّبت في العلّيّة عن الأثاث القديم، والمصابيح المرميّة، ومناخل ملفوفة، وقضبان ستائر ملويّة. رميت إطارات صور، وقوالب أحذية، وأسلاك مظلات، وسنّادات رفوف، وكراسي وأسرّة أطفال، وطاولات تلفزيون مخلّعة، وكراسي ألعاب أطفال، وطاولات محطّمة. رميت ورق تغليف رفوف، وقرطاسيّة باهتة، ومخطوطات لمقالات كتبتها، وتجارب طباعيّة للمقالات نفسها، والدوريّات التي نُشرت فيه المقالات. وكلّما رميت أغراضًا أكثر، وجدت غيرها. كان المنزل متاهة كالحة من الأغراض القديمة والبالية. كان ثمّة عدد هائل من الأشياء، وزن ثقيل الوطأة، صلة، فناء. جلت في الغرف، أرمي الأغراض في صناديق كرتونيّة. مراوح بلاستيكيّة كهربائيّة، ومحامص توست محروقة، وتطريزات **ستار تريك**. استغرق منّي الأمر أكثر من ساعة لأُنزل كلّ شيء إلى الرصيف. لم يساعدني أحد. لم أكن أريد مساعدة أو رفقة أو تفهّمًا إنسانيًّا. كلّ ما أردته هو إخراج الأغراض من المنزل. جلست على الدرج الأماميّ وحيدًا، أنتظر إحساس سكينة وسلام يخيّم على الجو حولي.

امرأة مرّت في الشارع تقول: «مزيل احتقان، مضادّ هستامين، مُخفّف سعال، مسكّن آلام».

35

لم تكن بابيت تكتفي من الاستماع إلى برامج الاتّصالات في الراديو. قالت امرأة: «أكره وجهي. هذه مشكلتي التي استمرت سنوات. من بين جميع الوجوه التي كنت ستمنحني إيّاها، من حيث المنظر، لا بدّ أن يكون هذا هو الأسوأ. كيف يمكن لي أن لا أنظر إليه، من جهة؟ ولكنّني أكرهه، من جهة أخرى. بمعنى آخر لا أزال أنظر. إذ لمن هذا الوجه بكلّ بساطة؟ ما الذي عليّ فعله، أنسى وجوده، أتظاهر أنّه وجه شخص آخر؟ ما أحاول فعله عبر هذا الاتّصال، يا مِلْ، هو إيجاد أشخاص آخرين يعانون من مشكلة تقبّل وجوههم. ها هي بعض الأسئلة كبداية. ما كان شكلكم قبل أن تولدوا؟ ما سيكون شكلكم في الحياة الأخرى، بصرف النظر عن العِرق واللون؟»

كانت بابيت ترتدي بيجامتها الرياضيّة القطنيّة طوال الوقت تقريبًا. كانت بيجاما رماديّة بسيطة، واسعة ومتهدّلة. كانت تطبخ وهي ترتديها، وتوصل الأطفال إلى المدرسة، ترتديها حين تذهب إلى متجر المعدّات والقرطاسيّة. فكّرت بشأن هذا فترة، وقرّرت أنّه ليس ثمّة ما هو غريب بشدّة في هذا، لا شيء يستدعي القلق، لا سبب للاعتقاد أنّها تغرق في البؤس واليأس.

قلت لها: «كيف تشعرين؟ قولي الحقيقة».

– «ما الحقيقة؟ أقضي وقتًا أطول مع وايلدر. وايلدر يساعدني على تخطّي اللحظات الصعبة».

– «أعتمد عليك بأن تكوني بابيت القديمة المفعمة بالصحّة المنطلقة. أحتاج إلى هذا بشدّة بقدر ما تحتاجين إليه، إن لم يكن أكثر».

– «ما الحاجة؟ جميعنا في حاجة. أين الأمر الفريد في هذا؟»

– «هل لا زلت تشعرين كما كنت أساسًا؟»

- «هل تقصد إن كنت مريضة بشأن الموت؟ لم يختفِ الخوف يا جاك».

- «لا بدّ أن نبقى فاعلين».

- «الفعل يساعد ولكن وايلدر يساعد أكثر».

سألتها: «هل أنا أتخيّل أم أنه يتكلّم بقدر أقلّ ممّا كان عليه؟»

- «يوجد ما يكفي من الكلام. ما الكلام؟ لا أريده أن يتكلّم. كلّما قلّ كلامه، كان هذا أفضل له».

- «دينيز قلقة بشأنك».

- «من؟»

- «دينيز».

- «الكلام هو الراديو».

لم تكن دينيز تسمح لأمّها بالخروج للركض ما لم تعدها بوضع الكريم الواقي من الشمس. كانت الفتاة تلحق بها إلى خارج المنزل لتضع مسحة أخيرة من الكريم على مؤخّرة عنق بابيت، ثمّ تقف على أطراف أصابعها لتمسح إلى أسفل أيضًا. كانت تحاول تغطية كلّ بقعة مكشوفة - الحاجبان، الجفنان. كانتا تخوضان جدالات شديدة بشأن الحاجة إلى هذا. تقول دينيز إنّ الشمس خطرة على ذوي البشرة الفاتحة. وتدّعي أمّها أنّ الأمر كلّه لا يعدو كونه ترويجًا للمرض.

تقول: «وكذلك، أنا أركض. الراكض بالتأكيد أقلّ احتمالًا للإصابة بالأشعّة الضارّة من الشخص الواقف أو الماشي».

تستدير دينيز باتّجاهي، فاردة ذراعيها، وجسدها يستحثّني على تصحيح الأمر لهذه المرأة.

قالت بابيت: «أكثر الأشعّة ضررًا هي المباشرة. وهذا يعني أنّه كلّما كان الشخص أسرع، كلّما مال إلى تلقّي تعرّضات جزئيّة فقط، أشعّة عابرة، انحرافات».

فغرت دينيز فمها، وحنت جسدها عند الركبتين. في الحقيقة لم أكن واثقًا أنّ أمّها مخطئة.

قالت بابيت باختصار: «الأمر كلّه سلسلة مترابطة في ما بينها. واقي الشمس، التسويق، الخوف، المرض. لا يمكنك امتلاك أحدها من دون الآخر».

أخذتُ هاينرش وصديقه محبّ الأفاعي، أورست ميركاتر، إلى القسم التجاريّ لتناول العشاء. كانت الساعة الرابعةَ عصرًا، وهو الوقت الذي يشير جدول أورست التدريبيّ إلى كونه موعد الوجبة الرئيسيّة. بناء على طلبه ذهبنا إلى ڤِنْسِنْتْس كاسا ماريو، وهو بناء صغير بنوافذ على شكل كوى كانت تبدو جزءًا من منظومة دفاعيّة ساحليّة.

كنت قد وجدت نفسي أفكّر بأورست وأفاعيه وأردت فرصة للتحدّث معه أكثر.

جلسنا في مقصورة حمراء بلون الدماء. أمسك أورست قائمة الطعام بأصابعه الغليظة. بدت كتفاه أعرض من قبل، والرأس الجادّة شبه غاطسة بينهما.

قلت: «ما أخبار التدريب؟»

- «أُبطئه قليلًا. لا أريد الوصول إلى الذروة بسرعة كبيرة. أعرف كيفيّة الاعتناء بجسدي».

- «أخبرني هاينرش أنّك تنام جالسًا، كي تتحضّر للقفص».

- «لقد أتقنتُ هذا. أقوم بأمر مختلف الآن».

- «مثل ماذا؟»

- «التزوّد بالكربوهيدرات».

قال هاينرش: «ولهذا جئنا إلى هنا».

- «أتزوّد بجرعة أكبر قليلًا كلّ يوم».

- «هذا بسبب الطاقة الهائلة التي سيحرقها في القفص، حيث يكون مستنفرًا، متوتّرًا حين تقترب منه المامبا، أو أيًّا يكن».

طلبنا پاستا وماء.

- «قل لي يا أورست. مع اقترابك أكثر فأكثر من الموعد، هل بدأت تشعر بالقلق».

- «أيّ قلق؟ كلّ ما أريده هو الدخول إلى القفص. كلّما كان أقرب كان أفضل. هذا كلّ ما يسعى إليه أورست ميركاتر».

- «لست متوتّرًا؟ لا تفكّر بما قد يحدث؟»

قال هاينرش: «يحبّ أن يكون إيجابيًّا. هذه هي السمة البارزة اليوم في الرياضيّين. لا تُعوّل على السلبيّ».

- «أخبرني بهذا إذًا. ما السلبيّ؟ ما الذي تفكّر به حين تفكّر بالسلبيّ؟»

- «هاك ما أفكّر به. أنا لا شيء من دون الأفاعي. هذا هو السلبيّ الوحيد. السلبيّ يعني لو لم يتمّ الأمر، لو لم يسمح لي المجتمع الإنسانيّ بالدخول إلى القفص. كيف لي أن أصبح الأفضل في مجالي إن لم يسمحوا لي يفعلها؟»

أحببت مشاهدة أورست وهو يأكل. كان يلتهم الطعام وفقًا لمبادئ الأيروديناميك. اختلافات الضغط، سرعات التنفّس. كان يأكل بصمت وعزم، متزوّدًا، مركّزًا نفسه، ويبدو وكأنّ أهمّيته الذاتيّة تتزايد مع كلّ لقمة طعام تنزلق على لسانه.

- «تعلم أنّك قد تُلدغ. تحدّثنا عن هذا المرّة الماضية. هل تفكّر بما سيحدث بعد أن تُطبق الأنياب على معصمك؟ هل تفكّر بالموت؟ هذا ما أريد معرفته. هل يخيفك الموت؟ هل يسيطر على أفكارك؟ دعني

أفرد أوراقي على الطاولة يا أورست. هل تخاف الموت؟ هل تقاسي الخوف؟ هل يتسبّب لك الخوف بالارتعاش والتعرّق؟ هل تحسّ بظلّ يخيّم على الغرفة حن تفكّر بالقفص، وبالأفاعي، وبالأنياب؟»

- «ما الذي قرأتُه في ذلك اليوم؟ عدد الموتى اليوم أكثر من عددهم في تاريخ العالم مجتمعين. ما الذي يشكّله موت إضافيّ؟ على الأقلّ سأموت وأنا أحاول تدوين اسم أورست ميركاتر في سجلّ الأرقام القياسيّة».

نظرت إلى ابني. قلت: «هل يحاول القول لنا إنّ عدد من ماتوا خلال الأربع وعشرين ساعة القادمة أكثر من عددهم في تاريخ من تبقّى في العالم حتّى الآن؟»

- «هو يقول إنّ عدد الموتى اليوم أكثر من أيّ وقت مضى، مجتمعين».

- «ماذا يعني موتى؟ عرّف الموتى».

- «من هم ميّتون الآن»، يقول.

- «ما الذي تعنيه، ميّتون الآن؟ كلّ مَنْ هو ميت، ميت الآن؟»

- «يقصد الناس الذين في القبور. الموتى المعروفون. أولئك الذين يمكنك إحصاؤهم».

كنت أنصت بتركيز، محاولًا استيعاب ما يعنونه. طبق طعام آخر وُضع أمام أورست.

- «ولكن قد يبقى الناس في القبور مئات السنين أحيانًا. هل يقول إنّ ثمّة موتى في القبور عددهم أكبر من أيّ مكان آخر؟»

- «هذا يعتمد على ما تعنيه بأيّ مكان آخر».

- «لا أعرف ما أعنيه. المدفونون. مَنْ تفتّتَتْ أجسادهم إلى شذرات».

- «عدد الموتى الآن أكثر من أيّ وقت مضى. هذا كلّ ما يقوله».

نظرت إليه وقتًا أطول. ثمّ التفتّ إلى أورست.

- «أنت تواجه الموت عن سابق نيّة. أنت تخطّط لفعل ما يمضي الناس حياتهم في تجنّبه بالذات. الموت. أريد أن أعرف السبب».

- «يقول مدرّبي، ´تنفّس، لا تفكّر`. يقول: ´كن أفعى، وستعرف كيف يكون سكون الأفعى`».

قال هاينرش: «لديه مدرّب الآن».

قال أورست: «إنّه مسلم سنّيّ».

- «هناك عدد من السنّة في آيرن سيتي قرب المطار».

- «السنّيّون كوريّون في معظمهم. ولكن مدرّبي عربيّ، كما أظنّ».

قلت: «ألا تعني أن المونيّين(*) كوريّون في معظمهم؟»

قال أورست: «إنّه سنّيّ».

- «ولكنّ المونيّين هم الكوريّون في معظمهم. ما عدا أنّهم ليسوا كذلك بالطبع. بل زعماؤهم فقط».

بدأوا يفكّرون بهذا. راقبت أورست يأكل. راقبته يدسّ السپاغيتي بالشوكة في حلقه. بقيت رأسه الجادّة من دون حراك، مجرّد مدخل للطعام الذي تنقله حركة الشوكة الميكانيكيّة. يا للفرح الذي كان يُظهره، يا لهذا الإحساس بالمسار الثابت للفعل الذي كان دقيقًا في تنفيذه. لو كان كلّ منّا مركز وجوده أو وجودها، بدا أورست عازمًا على توسيع المركز، بحيث يجعله كلّ شيء. هل هذا ما يفعله الرياضيّ، يحتلّ الذات على نحو أكثر شموليّة؟ من الممكن أنّنا نحسدهم على شجاعة ذات صلة ضئيلة بالرياضة. في الاندفاع نحو الخطر، هم يتملّصون منه

(*) أتباع كنيسة التوحيد، التي أسسها الكوري سون ميونج مون، ازدهرت في أمريكا في خمسينات وستينات القرن العشرين.

بمعنى أعمق، يركّزون في فحص أشبه بالسماويّ، قادرين على الهرب من الموت اليوميّ. ولكن هل كان أورست رياضيًّا؟ هو لن يفعل شيئًا بخلاف الجلوس – يجلس لسبعة وستّين يومًا في قفص زجاجيّ، ينتظر أن يُلدغ أمام الجميع.

قلت: «لن تكون قادرًا على الدفاع عن نفسك. ليس هذا فحسب بل ستكون في قفص مع أشدّ الكائنات لزوجة وإرعابًا وإثارة للاشمئزاز في الأرض. الأفاعي. الناس تنتابهم كوابيس عن الأفاعي. الفقاريّات الزاحفة المنزلقة واضعة البيض ذات الدم البارد. يذهب الناس إلى الأطبّاء النفسيّين. تحتلّ الأفاعي حيّزًا لزجًا خاصًّا في لا وعينا الجمعيّ. وأنت تدخل طوعًا في مكان مغلق مع ثلاثين أو أربعين من أكثر الأفاعي سمّيّة في العالم».

– «أيّ لزوجة؟ إنّها ليست لزجة».

قال هاينرش: «اللزوجة الشهيرة مجرّد أسطورة. إنّه سيدخل إلى قفص مع أفاعي الغابون بأنيابها التي يبلغ طولها إنشين. وربّما أكثر من عشر أفاعي مامبا. المامبا هي أسرع أفعى برّيّة في العالم. أليست صفة اللزوجة خارجة عن الموضوع قليلًا؟»

– «هذا ما أريد الوصول إليه بالضبط. الأنياب. لدغات الأفاعي. خمسون ألف شخص يموتون سنويًّا من لدغ الأفاعي. قالوا هذا في التلفزيون ليلة أمس».

قال أورست: «قيل كلّ شيء في التلفزيون ليلة أمس».

احترمت الـردّ. وأظنّ أنّني احترمته هو أيضًا. كان يخلق ذاتًا إمبراطوريّة من طموح قرأه في إحدى جرائد التابلويد. سيتدرّب بقسوة، ويتحدّث عن نفسه بضمير الغائب، ويتزوّد بالكربوهيدرات. مدرّبه موجود دائمًا، وأصدقاؤه منجذبون إلى هالة المجازفة المُلهَمة. وستتعاظم قوّة حياته مع اقترابه من الموعد.

- «يعلّمه مدرّبه كيفيّة التنفّس بالطريقة القديمة، الطريقة الإسلاميّة السنّيّة. الأفعى مجرّد تفصيل. يمكن للشخص أن يكون ألف شيء».

قال أورست: «كن أفعى».

قال هاينرش: «بدأ الناس يهتمّون. يبدو الأمر كما لو أنّه تأسيسٌ لبناء قادم. كما لو أنّه سيفعلها حقًّا. كما لو أنّهم يصدقونه الآن الأمر من جوانبه كافّة».

لو كانت الذات هي الموت، كيف يمكن أن تكون أقوى من الموت أيضًا؟

طلبت الحساب. رؤى متفرّقة سريعة للسيّد غراي. صورة تبزغ بشورت وجوربين رماديّين. أخرجت عدّة أوراق نقديّة من محفظتي، فاركًا بأصابعي بقوّة للتأكّد من عدم وجود ورقتين ملتصقتين. في مرآة الموتيل كانت صورة جسد زوجتي كاملًا، أبيض، بنهدين مستديرين ناهضين، وركبتين متورّدتين، وأصابع قدمين بارزة، لا ترتدي سوى عصابة تدفئة الساقين الخضراء، مثل فتاة تقود جماعة التشجيع في حفلة جنس جماعيّة.

حين وصلنا إلى المنزل، كانت تكوي في غرفة النوم.

قلت: «ماذا تفعلين؟»

- «أستمع إلى الراديو. ولكن انطفأ فجأة».

- «لو ظننتِ أنّنا انتهينا من السيّد غراي، حان الوقت لتذكيرك».

- «هل نتحدّث عن السيّد غراي المركّب أم السيّد غراي الفرد؟ هناك فارق شاسع».

- «بالتأكيد هناك فارق. دينيز وضعت الأقراص في المكبس».

- «هل هذا يعني أنّنا انتهينا من الشخص المركّب؟»

- «لا أعرف ماذا يعني».

- «هل هذا يعني أنّك أدرت تركيزك الذكوريّ على الفرد الذي في الموتيل؟»

- «لم أقل هذا».

- «ليس عليك أن تقولها. أنت ذكر. والذكر يقتفي طريق الغضب المفضية إلى القتل. إنّها الطريق البيولوجيّة. طريق البيولوجيا الذكوريّة العمياء الحمقاء البسيطة».

- «يا لأناقتك. تَكْوينَ المناديل».

- «جاك، حين تموت، سأقع على الأرض وأبقى هناك. وفي نهاية المطاف، ربّما، بعد وقت طويل جدًّا، سيجدونني رابضة في الظلام، امرأة بلا كلام أو إشارات. ولكن في الوقت الحاليّ لن أساعدك في إيجاد هذا الشخص أو دوائه».

- «الحكمة الأبديّة لمن يكوين ويَخِطْنَ».

- «اسأل نفسك عن الشيء الذي تريده أكثر، كبح خوفك القديم أم الانتقام لكبريائك الذكوريّة المجروحة البليدة الصبيانيّة».

مشيتُ إلى آخر البهو لأساعد ستيفي في إنهاء التوضيب. معلّق رياضيّ يقول: «إنّهم لا يطلقون هتاف استهجان - إنّهم يقولون، ´بروس، بروس`». كانت دينيز ووايلدر معها. اكتشفت من الجو المبطّن أنّ دينيز كانت تعطي نصائح سرّيّة بشأن زيارة الأهل البعيدين. ستبدأ رحلة طيران ستيفي من بوسطن مع محطّتي توقّف بين آيرن سيتي ومكسيكو سيتي ولكن لن تُضطرّ إلى تبديل الطائرة، لذا بدا الوضع قيد السيطرة.

- «كيف أعرف أنّني سأميّز أمّي؟»

قلت: «رأيتِها السنة الماضية. لقد أحببتِها».

- «ماذا لو رفضت السماح لي بالعودة؟»

- «ستكون دينيز ممتنّة لهذا، أليس كذلك؟ شكرًا دينيز. لا تقلقي. ستسمح لك بالعودة».

قالت دينيز: «ماذا لو رفضت؟ هذا احتمال، كما تعرف».

- «لن يحدث هذه المرّة».

- «سيكون عليك اختطافها وإعادتها».

- «لن يكون هذا ضروريًّا».

قالت ستيفي: «ماذا لو كان؟»

قالت دينيز: «هل سنفعلها؟»

- «لن يحدث ولو بعد مليون سنة».

قالت: «يحدث هذا طوال الوقت. يأخذ أحد الوالدين الطفلة، فيستعين الوالد الآخر بخاطفين لاستعادتها».

قالت ستيفي: «ماذا لو أبقتني عندها؟ ماذا ستفعل؟»

- «سيكون عليه إرسال أشخاص إلى المكسيك. هذا هو الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله».

قالت: «ولكن هل سيفعلها؟»

قلت: «تعلم أمّك أنّها لا تستطيع إبقاءك عندها. هي تسافر على الدوام. هذا احتمال غير وارد أبدًا».

قالت لها دينيز: «لا تقلقي. لا تهتمّي بما يقوله الآن، سيعيدك عندما تأتي تلك اللحظة».

نظرت ستيفي إليّ باهتمام وفضول عميقين. أخبرتها أنّني سأسافر إلى المكسيك بنفسي وأفعل كلّ ما يجب فعله لإعادتها إلى هنا. فنظرت إلى دينيز.

قالت الفتاة الأكبر كي تساعد: «من الأفضل الاستعانة بأشخاص. بهذا يكون لديك شخص قام بهذا من قبل».

دخلت بابيت وحملتْ وايلدر.

- «ها أنت ذا. سنذهب إلى المطار مع ستيفي. نعم سنذهب. أيوا. أيوا». قالت.

- «بروس، بروس».

في اليوم التالي كان هناك إخلاء بسبب وجود رائحة مؤذية. كانت سيارات سميوڤاك في كلّ مكان، جال الرجال ببزّات مايلكس الشوارعَ، يحمل كثير منهم معدّات لقياس شدّة الضرر. وقامت الشركة الاستشاريّة التي نفّذت الإخلاء بتجميع مجموعة صغيرة من المتطوّعين في حافلة شرطة في موقف سيّارات السوپرماركت. كانت هناك نصف ساعة من الاختناق والتقيؤ المتعمّد. تمّ تصوير هذا المشهد على أشرطة ڤيديو وأُرسل إلى مكان ما للتحليل.

بعد ثلاثة أيّام انتشرت رائحة مؤذية حقيقيّة عبر النهر. صمت، وتأمّل حذر، بدا وكأنّهما يخيّمان على البلدة. باتت حركة المرور أبطأ، وأصبح السائقون مهذّبين إلى حدّ مفرط. لم تكن ثمّة إشارة إلى وجود تصرّف رسميّ، لا حافلات أو مركبات صغيرة مطليّة بالألوان الرسميّة. تجنّب الناس تبادل النظرات المباشرة في ما بينهم. نتانة مزعجة في فتحتي الأنف، طعم نحاس على اللسان. مع مرور الوقت، بدا أنّ إرادة عدم فعل أيّ شيء قد تعمّقت، رسّخت نفسها بشدّة. كان هناك مَنْ أنكروا أنّهم يشمّون أيّ رائحة على الإطلاق. هذه هي الروائح المعتادة. وكان هناك مَنْ تظاهروا بعدم رؤية المفارقة في تراخيهم. كانوا قد شاركوا في تدريب سيموڤاك ولكن يرفضون الإخلاء الآن. وكان هناك مَنْ يتساءلون عن الشيء الذي تسبّب بالرائحة، مَنْ أبدوا قلقًا، مَنْ قالوا إنّ غياب الكوادر التخصيصيّة يعني عدم وجود ما يستدعي القلق. بدأت عيوننا تدمع.

بعد ثلاث ساعات من إدراكنا له، تلاشى السديم فجأة. أنقذنا من مداولاتنا الرسمية.

36

بين الحين والآخر أفكّر بمسدّس تسومقالت الأوتوماتيكيّ المخبّأ في غرفة النوم.

وقت الحشرات المتدليّة قد حان، بيوت بيضاء بيرقات تتدلّى من الإفريز. حجارة بيضاء في الممشى. بإمكانك أن تمشي ليلًا إلى منتصف الشارع فتسمع النساء يتحدّثن على الهاتف. الطقس الأدفأ يبعث أصواتًا في الظلام. إنّهنّ يتحدّثن عن أبنائهنّ المراهقين. مدى ضخامتهم، مدى سرعتهم. الأبناء مرعبون قليلًا. الكمّيّات التي يأكلونها. الطريقة التي يلوّحون بها عند عتبات البيوت. هذه هي الأيّام التي تكثر فيها الحشرات الدوديّة. إنّها في العشب، ملتصقة بالجدران، معلّقة في الهواء، معلّقة في الأشجار والأفاريز، ملتصقة بمناخل النوافذ. تجري النساء مكالمات خارجيّة مع الأجداد ليتحدّثن عن الأبناء الذين يكبرون. يتشاركون في هاتف تْرِمْلاين، مسنّون مبتسمون بكنزات صوفيّة منسوجة باليد يعيشون على دخول ثابتة.

ما الذي يحدث لهم حين تنتهي الإعلانات؟

تلقّيتُ أنا أيضًا اتّصالًا ذات ليلة. قال موظّف السنترال: «هنا امرأة اسمها الأمّ ديڤي تريد التحدّث على حساب المستلم إلى شخص اسمه جاك غلادني. هل تقبل؟»

- «مرحبًا جانيت. ما الذي تريدينه؟»

- «إلقاء التحيّة فقط. لأسأل عن أحوالك. لم نتكلّم منذ قرون».

- «نتكلّم؟»

- «سْوَامي [المعلّم] يريد أن يعرف ما إذا كان ابننا قادمًا إلى المعتزل هذا الصيف».

- «ابننا؟»

- «ابنك، ابني، ابنه. سوامي يعتبر أطفال مريديه أطفاله».

- «أرسلتُ ابنةً إلى المكسيك الأسبوع الماضي. حين تعود، سأكون جاهزًا للتحدّث بشأن الابن».

- «سوامي يقول إنّ مونتانا ستكون جيّدة للفتى. سينمو، ويمتلئ. هذه هي سنواته الحسّاسة».

- «لماذا تتّصلين بي؟ جدّيًا».

- «لأسلّم عليك فقط يا جاك. نحيّي بعضنا بعضًا هنا».

- «هل هو أحد أولئك السوامي الطريفين بلحية بيضاء كالثلج؟ من الممتع النظر إليها؟»

- «نحن أناس جدّيّون هنا. دورة التاريخ ليس فيها إلا أربعة عصور فقط. تصادف أنّنا في آخر عصر فيها. ليس هناك وقت كبير للطرافة».

صوتها الضئيل الحادّ قفز إليّ من كرة جوفاء في مدار جيو-متزامن.

- «لو كان هاينرش يريد زيارتك هذا الصيف، لا مشكلة لديّ. دعيه يمتطي الجياد، يصطاد سمك التْروت. ولكنّني لا أريد منه الانخراط في شيء شخصيّ وانفعاليّ، مثل الدين. أساسًا كان هناك بعض الكلام عن الاختطاف هنا. الناس منفعلون».

- «العصر الأخير هو عصر الظلام».

- «طيّب. الآن قولي لي ماذا تريدين».

- «لا شيء. لديّ كلّ شيء. راحة البال، هدف، رفقة حقيقيّة. كلّ ما أريده هو أن أحيّيك. أحبّيك يا جاك. مشتاقة إليك. مشتاقة لصوتك. كلّ ما أتمنّاه هو أن نتكلّم قليلًا، نمضي لحظة أو اثنتين في استعادات ودود».

أنهيت المكالمة وخرجت أتمشّى. كانت النساء في بيوتهنّ المضاءة، يتحدّثن على الهاتف. هل للسوامي عينان وامضتان؟ هل سيكون قادرًا على الإجابة عن أسئلة الفتى التي أخفقتُ عنها، على تقديم تأكيدات

بدلًا من مماحكاتي وجدالاتي؟ ما مدى نهائيّة عصر الظلام؟ هل تعني الدمار المطلق، ليلًا يبتلع الوجود كلّيًّا بحيث أُعالج من موتي المنفرد؟ أنصتُّ إلى حديث النساء. كلّ الصوت، كلّ الأرواح.

حين عدت إلى المنزل وجدت بابيت ببيجامتها القطنيّة عند نافذة غرفة النوم، تحدّق بالليل.

بدأ المشاركون في مؤتمر هتلر بالتوافد. قرابة تسعين باحثًا في دراسات هتلر سيقضون أيّام المؤتمر الثلاثة في حضور المحاضرات، والمشاركة في جلسات الحوار، والذهاب إلى السينما. سيتجوّلون في الحرم الجامعيّ بأسمائهم المطبوعة ببنط طباعة قوطيّ على شارات مغلّفة تُثبَّت على سُتراتهم. سيتبادلون ثرثرات عن هتلر، وينشرون الشائعات الحسّيّة المعتادة عن الأيّام الأخيرة في ملجأ الفوهرر.

كان من المثير رؤية مدى تشابههم برغم التنوّع الواسع لخلفيّاتهم القوميّة والجغرافيّة. كانوا مبتهجين ومتحمّسين، يتطاير منهم البصاق حين يضحكون، يرتدون ثيابًا عتيقة الطراز، يميلون إلى البساطة ودقّة المواعيد. ويبدو أنّ لديهم شغفًا بالحلويّات.

رحّبت بهم في الكنيسة الحديثة البرّاقة. تحدّثت بالألمانيّة، من ورقة ملاحظات، لخمس دقائق. دارت الكلمة في أكثرها حول أمّ هتلر وأخيه وكلبه. كان اسم كلبه وولف. هذه الكلمة هي ذاتها بالألمانيّة والإنكليزيّة. معظم الكلمات التي استخدمتها في كلمتي كانت هي ذاتها أو متقاربة في كلتا اللغتين. كنت قد أمضيت أيّامًا مع القاموس، أكتب قوائم من كلمات كهذه. كانت ملاحظاتي غريبة وغير مترابطة طبعًا. قمت بكثير من الإحالات إلى وولف، وعددًا أكبر إلى أمّه وأخيه، وأخرى متفرّقة إلى الأحذية والجوارب، وعدد أقلّ إلى الجاز والبيرة والبيسبول. وبالطبع كان فيها هتلر نفسه. كنت أنطق الاسم كثيرًا، متأمّلًا أن يطغى على تراكيب جملي الركيكة.

وفي ما تبقّى من الوقت حاولت تجنّب الألمان من المشاركين. حتّى وأنا في ردائي الأسود ونظارتي الداكنة، وباسمي المكتوب ببنط الطباعة النازيّ عند قلبي، أحسست بالهشاشة في حضورهم، أوشك على الموت وأنا أنصت إلى نطقهم للأصوات الحَلْقيّة، كلماتهم، وأحاديثهم الهيقي ميتال. كانوا يلقون نكات عن هتلر ويلعبون البينوكل. وكلّ ما كان بوسعي فعله هو تمتمة كلمات روك عشوائيّة وحيدة المقطع مع ضحكات باهتة. قضيت وقتًا طويلًا في مكتبي، مختبئًا.

كلّما كنت أتذكّر المسدّس، مخبّأً في كومة من القمصان الداخليّة مثل حشرة مداريّة، كان يغمرني إحساس كثيف عابر. لم أكن واثقًا ما إذا كان باعثًا على اللذّة أو الخوف. ميّزته فقط في كونه لحظة طفولة. التحفّز العميق عند كتم الأسرار.

يا له من أداة ماكرة، المسدّس. الشديد الصّغَر تحديدًا. شيء حميميّ وخبيث، تاريخ سرّيّ للإنسان الذي يمتلكه. تذكّرت كيف أحسست منذ عدّة أيّام، وأنا أحاول إيجاد الديلار. مثل شخص يتجسّس على قمامة العائلة. هل كنت أُغرق نفسي، شيئًا فشيئًا، في حياة سرّيّة؟ هل فكّرت أنّه دفاعي الأخير في مواجهة الدمار الذي ينتظرني على نحو اعتياديّ بفعل القوّة أو اللاقوّة، المبدأ أو السلطة أو الفوضى التي تحدّد مثل هذه الأشياء؟ ربّما كنت قد بدأت أفهم زوجاتي السابقات وصلاتهنّ بالاستخبارات.

تجمّع باحثو هتلر، تجوّلوا، أكلوا بنهم، ضحكوا مظهرين أسنانًا ضخمة. جلست إلى مكتبي في الظلام، أفكّر بالأسرار. هل الأسرار نفق إلى عالم أحلام نتحكّم فيه بالأحداث؟

في المساء هرعت إلى المطار لأنتظر طائرة ابنتي. كانت تشعر بالإثارة والسعادة، وترتدي ثيابًا مكسيكيّة. قالت إنّ الناس الذين كانوا يرسلون إلى أمّها كتبًا لتراجعها لم يتركوها وشأنها. كانت دانا تتلقّى

روايات ضخمة كلّ يوم، تكتب مراجعات ثمّ تصوّرها بالميكروفيلم وترسلها إلى أرشيف سرّيّ. كانت تشكو من أعصابها التالفة، ومن فترات الإرهاق الروحيّ العميقة. قالت ستيفي إنّها تفكّر بالعودة إلى حياتها الطبيعيّة.

وفي الصباح هرعت إلى غلاسبورو لإجراء الفحوص الإضافيّة التي نصحني بها طبيبي، في أوتَمْ هارڤست فارمز. جدّيّةُ مثل هذه المناسبة تتناسب مباشرة مع عدد الإفرازات الجسديّة التي يُطلب منك تجهيزها للتحليل. حملت معي عدّة زجاجات عيّنات تضمّ كلّ منها نفاية أو إفرازًا كئيبًا. وحدها في درج القفّازات تقبع علبة بلاستيكيّة متجهّمة، كنت قد غلّفْتها مسبقًا في ثلاث علب كرتونيّة متداخلة، أغلقت كلًّا منها. هنا توجد عيّنة لزجة من أكثر النفايات أهمّيّة على الإطلاق، سأحرص على أن يتفحّصها التقنيّون الموجودون بمزيج الحرص والرهبة والخشوع الذي نُرفقه بديانات العالم الغرائبيّة.

ولكن بداية عليّ إيجاد المكان. وتبيّن أنّه بناء عمليّ من القرميد الفاتح، ذي طابق واحد، وأرضيّات مبلّطة وأضواء مبهرة. لم سمّوا مثل هذا المكان أوتم هارڤست فارمز؟ هل كانت محاولة لموازنة قسوة معدّاتهم الدقيقة البرّاقة؟ هل سيخدعنا الاسم الجذّاب بحيث نظنّ أنّنا نعيش في أزمنة ما قبل السرطان؟ والسعال الديكيّ، والخنّاق؟ وشيء من الإنفلونزا؟ والأمراض الريفيّة القديمة المألوفة التي تتطلّب راحة في السرير، ومسّاجًا صدريًّا عميقًا ودهان ڤكس فاپورَبْ. هل سيقرأ أحد لنا من رواية ديڤيد كوپرفيلد؟

انتابتني شكوك. أخذوا العيّنات، وأجلسوني إلى طاولة عليها كمبيوتر. ردًّا على الأسئلة الظاهرة على الشاشة، ضغطت المفاتيح أكتب قصّة حياتي وموتي، شيئًا فشيئًا، حيث تولّد كلّ إجابة أسئلة أخرى في تعاقب لا يرحم من المجموعات والمجموعات الفرعيّة. كذبت ثلاث

مرّات. أعطوني ثوبًا فضفاضًا وبطاقة تعريف على المعصم. أرسلوني عبر ممرّات ضيّقة لقياس أبعاد جسمي ووزني، لفحص الدم، وتخطيط الدماغ، وتسجيل التيّارات التي تعبر قلبي. تفحّصوا ودرسوا غرفة إثر أخرى، بحيث بدت كلّ حجرة أصغر قليلًا من سابقتها، وأقسى إضاءة، وأشدّ خلوًّا من الأثاث. ودائمًا هناك تقنيّ جديد. دائمًا رفاق مرضى جامدو الوجوه في ردهات أشبه بالمتاهة، يعبرون من غرفة إلى أخرى، مرتدين الثوب الموحّد ذاته. لم ينطق أحد بكلمة ولو ترحيبًا. وصلوني بجهاز قلّاب، ثمّ قلبوا جسدي وتركوني معلّقًا ستّين ثانية. ظهرت ورقة نتائج من جهاز قريب. وضعوني على جهاز مشي وطلبوا منّي أن أركض عليه، وأركض. أُدخلت أدوات في فخذي، وأُلصقت مجسّات على صدري. أدخلوني في جهاز تصوير، يبدو نوعًا من شاشة كمبيوتر. وجلس أحدهم يضغط على المفاتيح، ناقلًا رسالة إلى الآلة التي ستجعل جسمي شفّافًا. سمعت صوت تيّارات مغناطيسيّة، ورأيت التماعات ضوء شماليّ. كان الناس يعبرون الردهة مثل أرواح هائمة، رافعين بولهم في أنابيب شفّافة. وقفت في غرفة بحجم خزانة. طلبوا منّي رفع إصبع أمام وجهي، وإغلاق عيني اليسرى. انغلقت اللوحة، وبرق لون أبيض. كانوا يحاولون مساعدتي، إنقاذي.

في نهاية الأمر، وبعد أن ارتديت ملابسي مجدّدًا، جلست إلى مكتب في مواجة شابّ متوتّرٍ يرتدي مريولًا أبيض. درس ملفّي، متمتمًا شيئًا بشأن كونه جديدًا على هذا. فوجئت حين وجدت أنّ هذا الاعتراف لم يزعجني. بل أظنّ أنّني شعرت بالارتياح.

– «كم سيستغرق وصول النتائج؟»

– «النتائج وصلت».

– «ظننت أنّنا هنا من أجل نقاش عموميّ. الجزء الإنسانيّ عن العمليّة. ما تعجز الآلات عن قيامه. وخلال يومين أو ثلاثة تكون الأرقام قد جهزت».

- «الأرقام جاهزة».

- «لست واثقًا من أنّني جاهز. كلّ هذه الأجهزة البرّاقة مربكة قليلًا. بإمكاني بسهولة تخيّل إنسان بصحّة تامّة يُصاب بالمرض لمجرّد خضوعه لكلّ هذه الفحوصات».

- «لم قد يصاب أيّ شخص بالمرض؟ هذه هي أكثر آلات الفحوص الطبّيّة المتوافرة دقّة. لدينا كمبيوترات متطوّرة تحلّل البيانات. هذه المعدّات تنقذ الأرواح. صدّقني، لقد رأيت هذا يحدث. لدينا معدّات تعمل أفضل من أحدث آلات الأشعّة السينيّة أو التصوير المقطعيّ. قادرون على الرؤية أعمق وأدقّ».

بدا أنّه يكتسب الثقة. كانت عيناه مطفأتين وبشرته شاحبة وذكّرني بالأولاد في السوپرماركت الذين يقفون عند نهاية طابور الدفع ليضعوا المشتريات في أكياس.

قال: «هكذا نبدأ عادة. أطرح أسئلة بناء على ورقة النتائج ثمّ تجيب بأفضل ما بإمكانك. وحين ننتهي كلانا، أعطيك النتائج في مغلّف مغلق لتأخذه إلى طبيبك في مراجعتك المدفوعة».

- «جيّد».

- «جيّد. نبدأ عادة بالسؤال كيف تشعر».

- «بناء على ورقة النتائج؟»

قال بصوت جامد: «كيف تشعر فقط».

- «بحسب رأيي، وبناء على ما أحسّ به. أشعر بأنّني بحال جيّدة، بانتظار تأكيد هذا».

- «ننتقل عادة إلى التعب. هل شعرت بالتعب أخيرًا؟»

- «ما الذي يقوله الناس عادة؟»

- «إرهاق معتاد، هذه إجابة سائدة».

- «بإمكاني قول هذا بالضبط وأكون مقتنعًا في عقلي بأنّه وصف كافٍ ودقيق».

بدا راضيًا بالإجابة ورسم إشارة غامقة في الصفحة التي أمامه.

- «ماذا عن الشهيّة؟»

- «بإمكاني الإجابة باحتمالين على هذا».

- «وهذا ما استنتجته بهذا القدر أو ذاك بناء على ورقة النتائج».

- «بمعنى آخر أنت تقول إنّ شهيّتي تنقطع أحيانًا، وأحيانًا لا».

- «هل تخبرني بهذا أم تسأل؟»

- «هذا يعتمد على ما تشير إليه الأرقام».

- «نحن متّفقان إذًا».

- «جيّد».

ردّ: «جيّد. الآن ماذا عن النوم؟ ننتقل إلى النوم عادة قبل أن نسأل الشخص ما إذا كان يريد قهوة بلا كافيين أو شايًا. لا نقدّم السكر».

- «هل يأتيكم الكثير من الذين يعانون من مشكلات في النوم؟»

- «في المراحل الأخيرة فقط».

- «المراحل الأخيرة من النوم؟ هل تعني أنّهم يستيقظون باكرًا ويعجزون عن العودة إلى النوم؟»

- «المراحل الأخيرة من الحياة».

- «هذا ما ظننته. جيّد. كلّ ما أعاني منه هو بعض النشاط الخفيف».

- «جيّد».

- «أعاني من اضطراب قليل في النوم. ومن لا يعاني؟»

- «قلق وتقلّب؟»

- «قلق»، قلت.

- «جيّد».

- «جيّد».

دوّنَ عدّة ملاحظات. بدا الأمر يمضي على ما يرام. كنت توّاقًا لمعرفة كيف ستمضي الأمور. اعتذرت عن عرض الشاي، ما بدا أنّ هذا يسعده. فواصلنا حديثنا مباشرة. - «هنا نسأل عن التدخين».

- «هذا سهل. الإجابة هي لا. وهذا لا يعني أنّي توقّفت قبل خمس أو عشر سنوات. لم أدخّن في حياتي على الإطلاق. حتّى حين كنت مراهقًا، لم أجرّبه أبدًا. لم أشعر بحاجة إلى هذا».

- «هذا عامل إيجابيّ دومًا».

أحسست بطمأنينة وامتنان هائلين.

- «سنتابع حتّى النهاية، أليس كذلك؟»

- «بعض الناس يحبّون مجّ السيجارة ونفث الدخان فقط. يستمتعون بهذا. يصبح مثل هواية تقريبًا».

- «من يحتاج النيكوتين؟ ليس هذا فحسب، نادرًا ما أشرب القهوة وبالطبع دون كافيين دائمًا. أعجز عن فهم ما يعجب الناس في كلّ هذا التحفيز الزائف. أنا أنتشي بمجرّد المشي في الغابة».

- «دون كافيين عامل مساعد دومًا».

أيوه، فكّرتُ. امدح فضائلي. امنحني آمالًا.

قلت: «وهناك الحليب. لا يكتفي الناس بالكافيين والسكّر. يريدون الحليب أيضًا. كلّ هذه الحموض الدهنيّة. لم ألمس الحليب منذ كنت طفلًا. ولم ألمس الكريما الثقيلة. آكل طعامًا دون منكّهات. ونادرًا ما أشرب مشروبات كحوليّة ثقيلة. لم أفهم أبدًا سرّ هذه الجلبة حيال كلّ هذا. الماء. هذا هو مشروبي. يمكن للإنسان أن يثق بكأس ماء».

انتظرت أن يقول لي إنّني أضيف سنوات إلى حياتي.

قال: «بمناسبة الحديث عن الماء. هل سبق أن تعرّضت إلى ملوّثات صناعيّة؟»

- «ماذا؟»

- «مادّة سامّة في الهواء أو الماء».

- «هل هذا ما تسأله عادة بعد السجائر؟»

- «ليس سؤالًا مُدرَجًا».

- «تعني سؤالي ما إذا كنت أتعامل مع موادّ مثل الأسبستوس؟ لا قطعًا. أنا أستاذ. التدريس هو حياتي. قضيت حياتي في حرم جامعيّ. أين يمكن أن نجد الأسبستوس هنا؟»

- «هل سبق أن سمعت بمشتقّ النيودين؟»

- «هل ينبغي لي هذا، بناء على ورقة النتائج؟»

- «هناك آثار في مجرى دمك».

- «كيف يعقل هذا وأنا لم أسمع به أبدًا؟»

- «الماسح المغناطيسيّ يؤكّد وجوده. أنا أنظر إلى أرقام ضمن أقواس مع نجوم صغيرة».

- «هل تقول إنّ ورقة النتائج تظهر الإشارات الغامضة الأولى لوضع لا يمكن إدراك ماهيته بسهولة ناتج عن تعرّض لتسرّب كيميائيّ في حدّه الأدنى المقبول؟»

لم كنت أتحدّث بهذه الطريقة المتخبّطة؟

قال: «الماسح المغناطيسيّ واضح جدًّا».

ما الذي حدث لاتّفاقنا الواضح بشأن التقدّم بذكاء في البرنامج من دون تضييع وقت وإسهاب جدليّ؟

- «ما الذي يحدث حين تكون لدى المرء آثار من هذه المادّة في دمه؟»

أجاب: «تتشكّل لديه كتلة غامضة».

- «ولكنّني ظننت أن لا أحد يعرف تمامًا ما يسبّبه نيودين دي للبشر. الجرذان نعم».

- «أخبرتَني للتو أنّك لم تسمع به من قبل. كيف تعرف ما يسبّبه وما لا يسبّبه؟»

كشفني هنا. أحسست انّني قد خُدعت، سيق بي في المكيدة، ظهرت بمظهر الأحمق.

قال: «المعرفة تتغيّر كلّ يوم. لدينا بعض البيانات المتقاطعة التي تقول إنّ التعرّض لهذه المادّة يمكن أن يتسبّب بكتلة حتمًا».

كانت ثقته قد تورّمت.

- «جيّد. لننتقل إلى الموضوع التالي. أنا مستعجل قليلًا».

- «هنا أسلّمك المغلّف المغلق».

- «هل التمارين تأتي بعد هذا؟ الإجابة هي لا. أكرهها، أرفض ممارستها».

- «جيّد. سأسلّمك المغلّف».

- «ما الكتلة الغامضة، فقط بدافع الفضول المحض؟»

- «احتمال وجود انتفاخ داخليّ في جسدك».

- «وتُعتبر غامضة لأنّك تعجز عن التقاط صورة واضحة لها».

- «نلتقط صورًا شديدة الوضوح. جهاز التصوير يلتقط أوضح الصور وفقًا للقدرات البشريّة اليوم. تسمّى كتلة غامضة لأنّها لا تملك شكلًا محدّدًا، أو نمطًا أو أبعادًا».

- «ما الذي يمكن أن تسبّبه في حال أشدّ السيناريوهات سوءًا؟»

- «تُسبّب موت الشخص».

- «تحدّث الإنكليزيّة بحقّ الله. أبغض المصطلحات الحديثة».

يستقبل الإهانات بشكل جيّد. كلّما تزايد غضبي، بدا أنّه يحبّ الأمر أكثر. كان يشعّ طاقة وصحّة.

- «الآن أخبرك أنّ عليك الدفع في المكتب الخارجيّ».

- «ماذا عن البوتاسيوم؟ جئت إلى هنا أساسًا لأنّ البوتاسيوم لديّ كان أعلى من المعدّلات الطبيعيّة بكثير».

- «لا نجري فحوصات بوتاسيوم».

- «جيّد».

- «جيّد. آخر ما ينبغي عليّ قوله هو وجوب تسليم المغلّف إلى طبيبك. طبيبك يعرف الرموز».

- «إذًا انتهينا. جيّد».

- «جيّد».

وجدت نفسي أصافحه بحرارة. بعد عدّة دقائق أصبحت في الشارع. صبيّ يمشي بخطوات خرقاء في مرج عموميّ، يركل كرة قدم أمامه. ولد آخر يجلس على العشب، يخلع جوربيه عبر إمساكهما من الكعبين ثمّ انتزاعهما بقوّة. يا لبراعته، فكّرت بنكد. الشوارع تغصّ بتفاصيل الحياة النابضة كما حين يتأمّل البطل المرحلة الأخيرة من احتضاره. كان نهارًا غائمًا جزئيًّا والرياح تتلاشى مع حلول الغروب.

تلك الليلة مشيتُ في شوارع بلاكسمث. وهج العيون الزرقاء لأجهزة التلفزيون. الأصوات على هواتف الأزرار الناعمة. بعيدًا يجلس الأجداد في كراسيّهم، يمسكون السمّاعة فيما الأمواج المحمولة تتحوّل إلى إشارات مسموعة. إنّه صوت حفيدهم، الفتى الذي يكبر ونجد وجهه في صور تحيط بالهاتف. تندفع البهجة إلى عيونهم، ولكنّها تستحيل ضبابيّة بعد أن تنصهر مع حكمة حزينة ومعقّدة. ما الذي يقوله لهم

الصغار؟ بشرته البائسة تحزنه؟ يريد ترك الدراسة والعمل بوظيفة كاملة في أرض الطعام، يعبّئ المشتريات في أكياس. يقول لهم إنّه يحبّ تعبئة المشتريات. هذا هو الأمر الوحيد في الحياة الذي يرضيه. يضع الأباريق ذات سعة الغالون أوّلًا، يتعامل مع العلب الستّة المجموعة معًا، ويضع البضاعة الثقيلة في كيسين. يقوم بهذا على نحو ممتاز، يمتلك البراعة، يتخيّل الموادّ مرتّبة داخل الكيس قبل أن يلمس شيئًا. هذا يشبه الزّن، يا جدّي. أسحب كيسين، أضع أحدهما ضمن الآخر. لا تمعس الفاكهة، انتبه للبيض، ضع البوظة في كيس التجميد. ألف شخص يمرّ بي يوميًّا ولكن لا أحد يراني أبدًا. أحبّ هذا يا جدّتي، هذا آمن تمامًا، هكذا أريد إمضاء حياتي. وهكذا يستمعان إليه بحزن، ويحبّانه أكثر، ووجهيهما ينضغطان على حافّة سمّاعة هاتف التريملاين، هاتف پرنسيس الأبيض في غرفة النوم، وهاتف القرص البنّيّ البسيط في معتزل الجدّ في القبو. يمرّر المسنّ يده على شعره الأبيض، وتلمس العجوز وجهها بنظارتها المطويّة. تخترق السُّحب القمر المتموضع غربًا، تتغيّر الفصول بمونتاج كئيب، لتغرق أكثر في سكون شتائيّ، مشهد من الصمت والجليد.

طبيبك يعرف الرموز.

37

بدأت نزهة المشي الطويلة في الظهيرة. لم أكن أعلم أنّها ستصبح طويلة. ظننت أنّها ستكون تأمّلًا متنوّعًا، مري وجاك، نصف ساعة من التجوّل في الحرم الجامعيّ، ولكنّها أصبحت ظهيرة مهمّة، مشيًا سقراطيًّا جادًّا على شكل قوس، بنتائج عمليّة.

التقيت مري بعد انتهاء سينما حوادث السيّارات، وتجوّلنا بين حدود الحرم الجامعيّ عابرين الأبنية المؤطّرة بأشجار الأرز، المشيّدة بين الأشجار بوضعيّتها الدفاعيّة المألوفة - مجموعة أبنية مندمجة على نحو أمثل مع البيئة بحيث واصلت الطيور ارتطامها بزجاج النوافذ.

قلت: «أنت تدخّن الغليون».

ابتسم مري بخبث.

- «يبدو جيّدًا. أحببته. إنّه يعمل».

أخفض عينيه مبتسمًا. كان للغليون ساقٌ طويلةٌ ضيّقةٌ وقعر مكعّب. كان بنّيًّا فاتحًا ويشبه أداة في منزل شديد الانضباط. ربّما مثل قطعة ديكور من أميش(*) أو شاكر(**). تساءلت ما إذا كان قد اختاره ليتلاءم مع شعر لحيته القاسي إلى حدّ ما. بدا أنّ ثمّة عُرفًا من الفضيلة الصارمة يحوم في إيماءاته وتعبيراته.

قلت: «لمَ نعجز عن أن نكون عقلانيّين بشأن الموت؟»

- «هذا واضح».

- «وهو؟»

- «بقي إيفان إيليتش يصرخ ثلاثة أيّام. هذا هو مقدار العقلانيّة الذي نصل إليه. حتّى تولستوي بذاته عانى في الفهم. كان يخاف منه إلى درجة رهيبة».

- «يبدو تقريبًا كما لو أنّ خوفنا هو ما يجلب الموت. لو تعلّمنا عدم الخوف، بوسعنا العيش إلى الأبد».

- «نناقشه مع أنفسنا. هل هذا ما تعنيه؟»

- «لا أعرف ما أعنيه. كلّ ما أعرفه هو أنّني أتخطّى حركات العيش. أنا ميت عمليًّا. تنمو كتلة غامضة في جسدي. يقتفون حركات هذه الأشياء كالأقمار الصناعيّة. وكلّ هذا هو حصيلة ناتج ثانويّ أو مبيد حشريّ. هناك ما هو صناعيّ في موتي. إنّه ضحل، غير مُرْضٍ. لا أنتمي إلى الأرض أو السماء. يجب أن ينقشوا علبة مبيد حشريّ على قبري».

(*) Amish أتباع كنيسة تقليدية، يعيشون في ولايات عديدة في أمريكا وكندا، منعزلين عن العالم الخارجي، ويحرمون قيادة السيارات واستخدام الكهرباء.
(**) Shakers أتباع كنيسة تقليدية أخرى.

- «أحسنت القول».

ما الذي عناه؟ أحسَنت القول! أردت منه أن يجادلني، يرفع موتي إلى مستوى أعلى، يجعلني أشعر بتحسّن.

قال: «هل تظنّ أنّ الأمر ظالم؟»

- «بالطبع أظنّ هذا. أم أنّ هذه إجابة مبتذلة؟»

بدا وكأنّه هزّ كتفيه استخفافًا.

- «انظر كيف عشت. هل كانت حياتي اندفاعًا جنونيًّا إلى اللذّة؟ هل كنت شديد العزم في تدمير ذاتي، أتعاطى مخدّرات، أقود سيّارات سريعة، أشرب على نحو مفرط؟. قليل من نبيذ الشيري في حفلات الكلّيّة. آكل طعامًا من دون منكّهات».

- «لا لم تكن».

سحب دخانًا من الغليون بقوّة بحيث غارت وجنتاه. ومشينا بصمتٍ برهة.

قال: «هل تعتبر موتك سابقًا لأوانه؟»

- «كلّ موت هو سابق لأوانه. ليس ثمّة سبب علميّ لعجزنا عن العيش مئة وخمسين سنة. بعض الناس فعلوها حقًّا، بحسب منشور رأيته في السوپرماركت».

- «هل تظنّ أنّ الإحساس بعدم الاكتمال هو الذي يتسبّب بتحسّرك الأكبر؟ لا تزال هناك أشياء تأمل تحقيقها. عمل يجب أن يُنجَز، تحدّيات فكريّة لتواجهها».

- «أعظم تحسّر هو الموت. الأمر الوحيد الذي تجب مواجهته هو الموت. هذا كلّ ما أفكّر به. هنا قضيّة واحدة فقط. أريد أن أحيا».

- «من فيلم روبرت وايز بالعنوان نفسه، حيث سوزان هيوارد في دور باربرا غراهام، قاتلة مدانة. موسيقا الجاز العنيفة لجوني ماندل».

نظرت إليه.

- «إذًا أنت تقول يا جاك إنّ الموت سيكون تهديدًا بالقدر ذاته حتّى لو حقّقت كلّ ما تمنّيت تحقيقه في حياتك وعملك».

- «هل أنت مجنون؟ بالطبع. هذه فكرة نخبويّة. هل سنسأل شخصًا يعبّئ المشتريات في أكياس ما إذا كان يخاف الموت لا لكونه الموت بل لأنّ ثمّة مشتريات مثيرة للاهتمام يحبّ تعبئتها؟»

- «أحسنت القول».

- «هذا هو الموت. لا أريده أن يتلكّأ قليلًا بحيث أتمكّن من كتابة دراسة أكاديميّة. أريده أن يبتعد سبعين أو ثمانين سنة».

- «وضعك كشخص محكوم عليه بالموت يمنح كلماتك قيمة وسلطة. أحبّ هذا. مع اقتراب الموعد، أظنّ أنّك ستجد الناس متحمّسين لسماع ما عليك قوله. سيسعون إليك».

- «هل تقول إنّ هذه فرصة رائعة لي كي أكسب أصدقاء؟»

- «أقول لا ينبغي لك أن تُحبط الأحياء بفعل الانزلاق إلى الرثاء الذاتيّ واليأس. سيعوّل الناس عليك كي تكون شجاعًا. ما يبحث عنه الناس لدى صديق محتضر هو نوع عنيد من النبل الصارم، رفض للاستسلام، مع لحظات من الفكاهة الساحقة. تتزايد قيمتك أثناء حديثنا. أنت تخلق نورًا سديميًّا حول جسدك. لابدّ أن أحبّ هذا».

مشى إلى منتصف شارع لولبيّ منحدر. لم يكن هناك أحد في الجوار. كانت البيوت هنا قديمة وتكاد تتداعى، مبنيّة على أدراج حجريّة ضيّقة تحتاج إلى ترميم جزئيّ.

- «هل تؤمن أنّ الحبّ أقوى من الموت؟»

- «ولا بعد مليون سنة».

- «جيّد. لا شيء أقوى من الموت. هل تؤمن أنّ الناس الوحيدين الذين يخافون من الموت هم الذين يخافون من الحياة؟»

- «هذا جنون. غباء تامّ».

- «صحيح. جميعنا نخاف الموت إلى حدّ معيّن. أمّا من يدّعون غير هذا فهم يكذبون على أنفسهم. أناس ضحلون».

- «أناس يكتبون اسم الدلع على لوحة أرقام سيّارتهم».

- «ممتاز يا جاك. هل تؤمن أنّ الحياة بلا موت غير مكتملة إلى حدّ ما؟»

- «كيف تكون غير مكتملة؟ الموت هو ما يجعلها غير مكتملة».

- «ألا تُسهم معرفتنا بقدوم الموت بجعل الحياة نفيسة أكثر؟»

- «ما نفع النفيس المستند إلى الخوف والقلق؟ إنّه شيء قلق مُرعِش».

- «صحيح. أكثر الأشياء قيمة هي تلك التي نحسّ بالأمان بوجودها. زوجة، طفل. هل طيف الموت يجعل الطفل نفيسًا أكثر؟»

- «لا».

- «لا. ليس هناك سبب للإيمان بأنّ الحياة أكثر قيمة لأنّها تتلاشى. هاك عبارة. يجب أن يُقال للمرء إنّه سيموت قبل أن يمكنه البدء بعيش الحياة إلى أقصاها. صح أم خطأ؟»

- «خطأ. حالما يتكرّس موتك، سيصبح من المستحيل عيش حياة مُرْضية».

- «هل تفضّل معرفة التاريخ والوقت الدقيقين لموتك؟»

- «بالطبع لا. أن تخاف المجهول هو سيّء بما يكفي. حين نواجه المجهول، بإمكاننا التظاهر بأنّه غير موجود. المواعيد المحدّدة ستدفع كثيرين إلى الانتحار، حتّى ولو لمجرّد هزيمة المنظومة».

قطعنا جسرًا قديمًا، مغلقًا، مفروشًا بأشياء حزينة باهتة. اتّبعنا طريقًا عند جدول، واقتربنا من حافّة ملعب المدرسة الثانويّة. أحضرت النساء أطفالهنّ الصغار ليلعبوا في قسم القفز الطويل.

قلت: «كيف أراوغه؟»

- «بإمكانك وضع ثقتك في التكنولوجيا. لقد أَدْخَلَتْك إلى هنا، وبوسعها إخراجك. هذا هو جوهر مغزى التكنولوجيا. إنّها تخلق شهيّة للخلود من جهة. وتهدّد بالانقراض الشامل من جهة أخرى. التكنولوجيا هي الشهوة المُزالة من الطبيعة».

- «حقًّا؟»

- «إنّها ما ابتكرناه لإخفاء السرّ الرهيب بشأن أجسادنا المتداعية. ولكنّها حياة أيضًا، أليس كذلك؟ إنّها تطيل الحياة، تمنح أعضاء جديدة بدلًا من البالية. أجهزة جديدة، تقنيّات جديدة كلّ يوم. الليزر، الميزر، ما فوق السمعيّ. امنح نفسك لها يا جاك. آمن بها. سيدخلونك في أنبوب متوهّج، يشعّون جسدك بمادّة الكون الأوليّة، الضوء، الطاقة، الأحلام، خير الله».

- «لا أظنّ أنّني أريد مراجعة أطبّاء حاليًّا يا مري، شكرًا».

- «في هذه الحالة بإمكانك دومًا مراوغة الموت عبر التركيز على الحياة الأخرى».

- «وكيف أفعل هذا؟»

- «هذا واضح. ركّز قراءاتك في التجسّد، التقمّص، الفضاء الفائق، بعث الأموات وما إلى ذلك. لقد نشأت منظومات مدهشة من هذه المعتقدات. ادرسها».

- «هل تؤمن بأيّ من هذه الأمور؟»

- «ملايين الناس آمنوا طوال آلاف السنين. انضمّ إليهم. الإيمان بميلاد ثانٍ، حياة ثانية، أمرٌ كونيٌّ عمليًّا. لا بدّ أن يعني هذا شيئًا».

- «ولكن هذه المنظومات المدهشة شديدة التباين».

- «اختر ما يعجبك منها».

- «ولكنّك جعلت الأمر يبدو مثل فانتازيا ملائمة، وهذا أسوأ أنواع خداع الذات».

بدا مرّة أخرى وكأنّه رفع كتفيه استخفافًا: «فكّر بالشعر العظيم، بالموسيقا والرقص والطقوس التي تنبع من تطلّعنا إلى حياة بعد الموت. ربّما كانت هذه الأشياء تبريرًا كافيًا لآمالنا وأحلامنا، مع أنّني لن أقول هذا الرجل يحتضر».

نكزني بمرفقه. مشينا باتّجاه القسم التجاريّ من البلدة. توقّف مري، رفع قدمًا خلفه، واستدار منحنيًا ليخرج الرماد من الغليون. ثمّ وضعه في جيبه بحرص، مدخلًا القعر أوّلًا في جاكيته القماشيّ المضلّع.

- «جدّيًّا، يمكن أن تجد سكينة عميقة في فكرة وجود حياة أخرى».

- «ولكن ألا يجب أن أؤمن؟ ألا يجب أن أشعر في قلبي أنّ ثمّة ما هو موجود، فعليًّا، بعد هذه الحياة، هناك، كامنًا في الظلام؟»

- «ما الذي تظنّه حياة آخرة، مجموعة وقائع تنتظر من يكشفها؟ هل تظنّ أنّ سلاح الجو الأميركيّ يجمع سرًّا بيانات عن الحياة الآخرة ويبقيها مخفيّة لأنّنا لسنا ناضجين بما يكفي لتقبّل النتائج؟ أنّ النتائج ستسبّب هلعًا؟ لا. سأخبرك ما الحياة الآخرة. إنّها فكرة جميلة وآسرة إلى حدّ رهيب. بإمكانك تقبّلها أو رفضها. وفي الوقت الحالي كلّ ما عليك فعله هو النجاة من محاولة اغتيال. سيكون هذا شرابًا منعشًا عاجلًا. ستحسّ أنّك مفضَّل على نحو خاصّ، ستكبر الكاريزما عندك».

- «قلت سابقًا إنّ الموت يكبّر الكاريزما عندي. وثمّ، من يريد قتلي؟»

مرّة أخرى رفع كتفيه: «انجُ من حادث قطار يموت فيه مئة. اخرج سالمًا حين تتحطّم طائرتك السيسنا ذات المحرّك الواحد في ملعب غولف بعد الارتطام بشريط كهربائيّ في مطر غزير بعد دقائق من إقلاعك. لا يشترط أن يكون اغتيالًا حرفيًّا. المغزى هو أنّك تقف على

حافّة دمار كامن بينما الآخرون يقبعون خاملين بليدين. يمكن لهذا أن يقاوم أثر أيّ عدد من الكتل الغامضة، لفترة على الأقلّ».

تفرّجنا على الواجهات برهة، ثمّ دخلنا إلى محلّ أحذية. نظر مري إلى أحذية ويجنز ووالابيز وهَشْ پاپيز. مشينا باتّجاه الشمس. نظر الأطفال في عرباتهم نحونا، وبدوا كأنّهم يفكّرون أنّنا شيء غريب.

- «هل ساعدتك الألمانيّة؟»

- «لا أستطيع القول إنّها فعلت».

- «هل ساعدتك من قبل؟»

- «لا أستطيع التحديد. لا أعرف. من يعرف هذه الأشياء؟»

- «ما الذي كنت تحاول فعله طوال هذه السنوات؟»

- «أضع نفسي تحت تأثير تعويذة، كما أظنّ».

- «صحيح. لا شيء يستدعي الخجل يا جاك. إنّ خوفك فقط هو الذي يجعلك تتصرّف على هذا النحو؟»

- «خوفي فقط؟ موتي فقط؟»

- «لا ينبغي أن نتفاجأ بافتقارك إلى النجاح. ما المدى الذي تكشّفت عنه قوّة الألمان، لقد خسروا الحرب في نهاية المطاف».

- «هذا ما قالته دينيز».

- «ناقشتَ هذا مع الأطفال».

- «بشكل سطحيّ».

- «ينجذب الناس العاجزون والخائفون إلى شخصيّات سحريّة، شخصيّات أسطوريّة، رجال ملاحم يُرعبون ويهدّدون بحضورهم».

- «أنت تتحدّث عن هتلر، فهمت عليك».

- «بعض الناس أكبر من الحياة. هتلر أكبر من الموت. ظننتَ أنّه سيحميك. أفهمك كلّيًّا».

- «هل تفهمني حقًّا؟ لأنّني أتمنّى أن تكون كذلك».

- «هذا واضح جدًّا. أردتَ أن تتمّ مساعدتك وحمايتك. الرعب الطاغي قد لا يترك مجالًا لموتك. تقول ´احجبني. امتصّ خوفي`. على مستوى ما أردت إخفاء نفسك داخل هتلر وأعماله. وعلى مستوى آخر أردت استغلاله لتكبر أهمّيتك وقوّتك. أحسّ بخلط في الوسائل. أنا لا أنتقدك. لقد قمت بعمل جريء، اندفاع جريء. أن تستغلّه. بوسعي احترام المحاولة حتّى وأنا أرى مدى حماقتها الكلّيّ، مع أنّها ليست أكثر حماقة من ارتداء تعويذة أو قرع الخشب. ستّة ملايين هندوسيّ يبقون في منازلهم ولا يذهبون إلى العمل لو لم تكن الإشارات مبشّرة في الصباح. لذا أنا لا أستثنيك».

- «العمق الهائل والرهيب».

- «طبعًا».

- «لا ينضب».

- «أفهم».

- «الشيء الضخم الكامل الذي لا اسم له».

- «نعم، حتمًا».

- «الظلام الكثيف».

- «أكيد، أكيد».

- «الضخامة الرهيبة التامّة اللانهائيّة».

- «أعلم ما تعنيه بالضبط».

قَرَعَ على إطار سيّارة مركونة على نحو منحرف، نصف مبتسم.

- «لم أخفقتَ يا جاك؟»

- «خلط في الوسائل».

- «صحيح. هناك وسائل كثيرة لمراوغة الموت. أنت حاولت تفعيل اثنتين معًا. وقفت للمواجهة من جهة وحاولت الاختباء من جهة أخرى. ما الاسم الذي نطلقه على هذه المحاولة؟»

- «حماقة».

تبعته إلى داخل السوپرماركت. تفجّر في الألوان، طبقات من صوت المحيط. مشينا تحت راية برّاقة تعلن عن سحب يانصيب لجمع أموال لمرض عضال. بدا ترتيب الكلمات وكأنّه يوحي أنّ الفائز سينال المرض. شبّه مري الراية بعَلَم صلاة في التيبت.

- «لم عانيتُ هذا الخوف لوقت طويل، بهذا الاستمرار؟»

- «هذا واضح. أنت لا تعرف كيف تكبت. ندرك جميعنا أن لا مفرّ من الموت. كيف نتعامل مع هذه المعلومة الصاعقة؟ نكبت، نخفي، ندفن، نُقصي. بعض الناس يفعلونها أفضل من الآخرين، هذا كلّ شيء».

- «كيف يمكن أن أتحسّن؟»

- «لا يمكنك. بعض الناس لا يمتلكون الأدوات اللاواعية لأداء عمليّات الإخفاء اللازمة».

- «كيف تعلم أنّ الكبت موجود إن كانت الأدوات لاواعية والشيء الذي نكبته متخفٍّ بذكاء شديد؟»

- «فرويد قال هذا. بمناسبة الحديث عن الأشخاص القابعين المرعبين».

أمسكَ علبة أوراق التغليف النايلونيّة هاندي-راپ ليقرأ الاسم المطبوع، ويتمعّن في الألوان. اشتمّ علبة بودرة شوربة. كانت البيانات قويّة اليوم.

- «هل تظنّ أنّني أكثر صحّة بدرجة ما لأنّني لا أعرف كيف أكبت؟ هل من الممكن أنّ الخوف المتواصل هو الحالة الطبيعيّة لدى الإنسان وأنّ معايشتي القريبة لخوفي تعني أنّني أقوم بأمر بطوليّ حقًّا، يا مري؟»

- «هل تشعر أنّك بطوليّ؟»

- «لا».

- «إذًا على الأرجح أنّك لست كذلك».

- «ولكن أليس الكبت غير طبيعيّ؟»

- «الخوف غير طبيعيّ. البرق والرعد غير طبيعيّين. الألم، الموت، الواقع، كلّها غير طبيعيّة. لا يمكننا تحمّل هذه الأشياء كما هي عليها. إنّنا نعرف الكثير لذا نلجأ إلى الكبت، التسوية، والإخفاء. هكذا ننجو في الكون. هذه هي اللغة الطبيعيّة للجنس البشريّ».

نظرت إليه بحرص.

- «أمارس تمارينَ رياضيّة. أعتني بجسدي».

- «لا، أنت لا تفعل».

ساعدَ مسنًّا في قراءة البيانات المكتوبة على رغيف من خبز الزبيب. اندفع الأطفال أمامنا بعربات فضّيّة.

- «تيغرين، دينوركس، سِلْصَنْ بلو».

دوّن مري شيئًا في دفتره الصغير. راقبته يخطو برشاقة حول بركة صفار بيض سالت على الأرض سقطت من علبة.

قلت: «لمَ أشعر بتحسّن كبير حين أكون مع وايلدر؟ ولا يكون هذا مع الأطفال الآخرين».

- «تحسّ بأناه الكلّيّة، تحرّره من القيود».

- «بأيّ معنى هو متحرّر من القيود؟»

- «هو لا يعرف أنّه سيموت. هو لا يعرف الموت على الإطلاق. وأنت تقدّر نعمته الساذجة هذه، حصانته من الأذى. تريد أن تقترب منه، تلمسه، تتنفّسه. يا لحظّه. سحابة من اللامعرفة، شخص صغير كلّيّ القدرة. الطفل هو كلّ شيء، بينما البالغ لا شيء. فكّر بهذا. حياة

المرء بأسرها هي حلّ هذا التناقض. لا عجب أنّنا مذهولون، مترنّحون، متشظّون».

- «ألا تشطّ كثيرًا هنا؟»

- «أنا من نيويورك».

- «نخلق أشياء جميلة باقية، نبني حضارات هائلة».

- «مراوغات رائعة، تملّصات عظيمة».

انفتح الباب إلكترونيًّا. خرجنا، نمشي قرب متاجر مصبغة الملابس، مصفّف الشعر، البصريّات. أشعل مري الغليون، وهو يمصّ بقوّة من الفتحة.

ثمّ قال: «لقد تحدّثنا عن وسائل مراوغة الموت. لقد ناقشنا كيف أنّك جرّبت وسيلتين منها، كلٌّ منها تلغي الأخرى. لقد ذكرنا التكنولوجيا، حوادث القطارات، الإيمان بالحياة الآخرة. هناك مناهج أخرى كذلك، أودّ التحدّث عن مقاربة بعينها».

قطعنا الشارع.

- «أظنّ يا جاك أنّ هناك نوعين من الناس في العالم. قتلة ومُسْتَمْوِتون. معظمنا مستموِتون. لا نملك النزعة، أو الغضب أو أيًّا يكن الأمر الذي يجعلك قاتلًا. نترك الموت يحدث. ولكن فكّر بمعنى أن تكون قاتلًا. فكّر بمدى الإثارة، نظريًّا، في قتل شخص بمواجهة مباشرة. لو مات، لن يكون بإمكانك الاستمرار. أن تقتله يعني اكتساب استحقاق الحياة. كلّما قتلت أكثر، تعاظم مخزون استحقاقك. وهذا يفسّر أيّ عدد من المجازر، والحروب، والإعدامات».

- «هل تقول إنّ الناس حاولوا عبر التاريخ شفاء أنفسهم من الموت عبر قتل الآخرين؟»

- «هذا واضح».

- «وتعتبر هذا مثيرًا؟»

- «أنا أتحدّث نظريًّا. نظريًّا، العنف أحد أشكال إعادة الولادة. الموّات يخضع بسلبيّة. القاتل يعيش. يا لها من معادلة رائعة. عندما تقوم عصابة نهب بتكديس الجثث، فإنّها ستكدّس قوّة. القوّة تتراكم مثل نعمة من الآلهة».

- «وما علاقة هذا بي؟»

- «هذا كلام نظريّ. نحن أكاديميّان نتسكّع مشيًا. ولكن تخيّل الرجّة العميقة، أن ترى خصمك ينزف على التراب».

- «أنت تعتبر أنّ هذا يُضاف إلى مخزون استحقاق المرء، مثل التعاملات المصرفيّة».

- «العدم يحدّق في وجهك. النسيان الدائم التامّ. ستختفي من الوجود. من **الوجود**، يا جاك. المستَمْوِت يتقبّل هذا ويموت. أمّا القاتل، نظريًّا، يحاول هزيمة موته عبر قتل الآخرين. إنّه يشتري الوقت، يشتري الحياة. شاهد الآخرين يتلوّون. انظر إلى الدم كيف يسيل في التراب».

نظرت إليه، مذهولًا. عاد إلى الغليون برضا، مطلقًا أصوات امتصاص ونفخ.

- «إنّها وسيلة للتحكّم بالموت. وسيلة لاكتساب اليد الطولى المطلقة. كن القاتل على سبيل التغيير. دعه يحلّ محلّك في ذلك الدور نظريًّا. لن تموت لو مات هو. هو يموت، أنت تحيا. انظر إلى هذه البساطة الرائعة».

- «تقول إنّ هذا ما كان يفعله الناس طوال عقود؟»

- «ولا يزالون يفعلونه. يفعلونه على نطاق حميميّ صغير، يفعلونه ضمن جماعات وحشود وجماهير. اقتل لتحيا».

- «يبدو الأمر رهيبًا جدًّا».

بدا مستخفًّا: «القتل ليس عشوائيًّا أبدًا. كلّما ازداد عدد من تقتلهم، تعاظمت السلطة التي ستكتسبها على موتك. ثمّة دقّة خفيّة تعمل في أكثر حوادث القتل وحشيّة وبطشًا. التحدّث عن هذا لا يعني منح علاقات عامّة للقتل. إنّنا أكاديميّان ضمن بيئة فكريّة، من واجبنا تمحيص تيّارات الفكر، استقصاء معنى السلوك البشريّ. ولكن فكّر بمدى الإثارة حين تخرج منتصرًا في قتال مميت. حين تشاهد الوغد ينزف».

- «تحبك جريمة قتل، هذا ما تقوله. ولكن كلّ حبكة هي مقتلة فعليًّا. الحبكة تعني الموت، سواء عرفنا هذا أم لا».

قال: «الحبكة تعني الحياة».

نظرت إليه. تمعّنت في وجهه، يديه.

- «نبدأ حياتنا بالفوضى، بالهذيان. وحالما تنخرط في العالم ستحاول ابتكار شكل، خطّة. ثمّة كرامة في هذا. حياتك بأسرها هي حبكة، مخطّط، رسم بيانيّ. إنّها مخطّط فاشل ولكن ليس هذا هو المغزى. الحبكة تعني تأكيد الحياة، السعي إلى الشكل والسيطرة. حتّى بعد الموت، وتحديدًا بعد الموت، سيستمرّ البحث. طقوس الدفن هي محاولة لإكمال المخطّط، في الطقوس. تخيّل جنازة رسمية يا جاك. كلّها دقّة، تفاصيل، ترتيب، تصميم. تحبس الأمّة أنفاسها. يُبذل جهد لتشكيل حكومة كبيرة وقويّة لتُدير المراسم التي ستزيل آخر آثار الفوضى. لو جرت الأمور على ما يرام، لو أنجزوا المهمّة، سيتمّ الامتثال لقانون طبيعيّ للكمال. انبثقت الأمّة من رحم القلق، حياة المتوفّى استعيدت، الحياة بذاتها تقوّت، أعيد تأكيدها».

قلت: «هل أنت واثق؟»

- «الحبكة، وضع أمر كهدف، صياغة الزمان والمكان. هكذا نُقارب فنّ الوعي البشريّ».

مشينا في قوس واسع عائدَيْن إلى الحرم الجامعيّ. الشوارع غارقة في فيء عميق ساكن، أكياس القمامة وُضعت خارجًا تمهيدًا لجمعها.

قطعنا جسر الغروب، متوقّفين لحظات نراقب السيّارات في اندفاعها. ضوء الشمس يتطاير على الزجاج والكْروم.

- «هل أنت قاتل أم مستمْوِت يا جاك؟»

- «تعرف الإجابة عن هذا السؤال، لقد كنت مستمْوِتًا طوال حياتي».

- «ما الذي تستطيع فعله بشأن هذا؟»

- «ما الذي يستطيع أيّ مستموِت فعله؟ أليس كامنًا وراء ماكياجه أنّه يعجز عن العبور؟»

- «لنفكّر بهذا. فلندرس طبيعة الوحش، لو جاز القول. الحيوان الذكر. أليس ثمّة صندوق، حوض، خزّان للعنف المحتمل داخل النفس الذكوريّة؟»

- «أفترض هذا نظريًّا».

- «إنّنا **نتحدّث** نظريًّا. هذا **بالضبط** ما نتحدّث فيه. صديقان في شارع تظلّله الأشجار. ماذا لدينا غير النظريّ؟ أليس هناك حقل عميق، نوع من خزّان نفط خام يضربه المرء حين تستلزم المناسبة فقط؟ بحيرة مظلمة عظيمة من الغضب الذكوريّ».

- «هذا ما تقوله بابيت. غضب مفضٍ إلى القتل. أنت تشبهها».

- «سيّدة مذهلة. هل هي محقّة أم مخطئة؟»

- «نظريًّا؟ هي محقّة على الأرجح».

- «أليس هناك منطقة موحلة تفضّل أن لا تعرف بوجودها؟ بقايا حقبة ما قبل التاريخ حين كانت الديناصورات تجوب الأرض ويتقاتل البشر بأدوات حجريّة؟ حين كان القتل كي تحيا؟»

- «تتحدّث بابيت عن البيولوجيا الذكريّة. هل هذا بيولوجيا أم جيولوجيا؟»

- «هل هذا مهمّ يا جاك؟ كلّ ما نودّ معرفته هو ما إذا كانت هناك، مدفونة في الروح الأشدّ تعقّلًا وتواضعًا؟»

– «أفترض هذا. قد تكون. هذا يعتمد».

– «هل هي موجودة أم لا؟»

– «إنّها موجودة يا مري. وليكن؟»

– «أريد فقط سماعك تنطقها. هذا كلّ شيء. أريد فقط استخراج الحقائق التي تمتلكها أساسًا، الحقائق التي عرفتَها دومًا في مستوى أوَّليّ».

– «هل تقول إنّ بمقدور المستموِت أن يصبح قاتلًا؟»

– «أنا مجرّد محاضر زائر. أنظّر، أتسكّع مشيًا، أُجلّ الأشجار والبيوت. لديّ طلابي، غرفتي المستأجَرة، وجهاز التلفزيون. ألتقط كلمة هنا، وصورة هناك. أُجلّ المروج، والأروقة. يا لروعة الرواق. كيف عشت حياة بلا رواق أجلس فيه، حتّى الآن؟ أتأمّل، أتفكّر، أدوّن ملاحظات متواصلة. أنا هنا كي أفكّر، كي أرى. دعني أحذّرك يا جاك. لن أتوقّف عن الكلام».

مررنا بشارعنا وتابعنا صاعدين التلّ إلى الحرم الجامعيّ.

– «من هو طبيبك؟»

قلت: «تشاكراڤارتي».

– «هل هو جيّد؟»

– «وكيف لي أن أعرف؟»

– «كتفي تنفصل. إصابة جنسيّة قديمة».

– «أخشى مراجعته. أبقيت ورقة نتائج موتي في الدرج السفليّ من كومودينو».

– «أعرف كيف تحسّ. ولكن الجزء القاسي قادم. لقد ودّعتَ الجميع ما عداك. كيف يودّع المرء نفسه؟ هذه معضلة وجوديّة دسمة».

– «إنّها كذلك حقًّا».

مررنا ببناء الإدارة.

- «أكره أن أكون الشخص الذي سيقول هذا يا جاك، ولكن هناك شيء لا بدّ من قوله».

- «ماذا؟»

- «من الأفضل أن تكون أنت لا أنا».

هززت رأسي موافقًا بوقار: «لمَ يتوجّبُ قول هذا؟»

- «لأنّ على الأصدقاء أن يكونوا صريحين بقسوة في ما بينهم. سينتابني شعور رهيب لو لم أخبرك ما أفكّر به، خاصّة في وقت كهذا».

- «أقدّر هذا يا مري. أقدّره حقًّا».

- «وكذلك، هذا جزء من تجربة الموت الكونيّة. سواء فكّرت بها على نحو واعٍ أم لا، ستدرك في مرحلة ما أنّ الناس يجولون وهم يقولون لأنفسهم، 'مَن الأفضل أن يكون هو لا أنا'. هذا طبيعيّ تمامًا. لا يمكنك لومهم أو تمنّي السوء لهم».

- «الكلّ باستثناء زوجتي. تريد أن تموت هي أوّلًا».

«لا تكن واثقًا جدًّا»، قال.

تصافحنا أمام المكتبة. وشكرته على صراحته.

قال: «هذا كلّ ما يتبقّى في النهاية. يقضي المرء حياته في توديع الآخرين. كيف يودّع نفسه؟»

رميت إطارات صور سلكيّة، ومساند كتب معدنيّة، وفتّاحات زجاجات، ورقاقات مفاتيح بلاستيكيّة، وزجاجات مغبرة من الميركوركروم والفازلين، وفراشي دهان متقشّرة، وفراشي أحذية متكتّلة، وسائل تصحيح متجمّد. رميت أعقاب شمع، ومفارش ملوّنة، وحاملات أوعية بالية. تخلّصت من علّاقات الملابس الخربة، ورقاقات الملاحظات المغناطيسيّة. كنت في حالة حقد أقرب إلى

الوحشيّة. صببت نقمة شخصيّة على هذه الأشياء. إنّها ما دفعتني إلى هذه الحالة إلى حدّ ما. لقد أغرقتني، جعلت التملّص مستحيلًا. كانت الفتاتان تلاحقانني، محافظتين على صمت مُحترِم. رميت حافظة الماء الكاكيّة المهترئة، وجزمتي المطاطيّة الطويلة السخيفة. رميت دپلومات، وشهادات، وجوائز، وإشادات. عندما أوقفتني الفتاتان، كنت قد وصلت إلى الحمّامات، أتخلّص من ألواح الصابون المستعملة، مناشف مبلّلة، علب شامپو ذات ملصقات مخدوشة ومقطعة، وأغطية ضائعة.

انتبه رجاء. بعد عدّة أيّام، ستصل بطاقتك البنكيّة المؤتمتة الجديدة بالبريد. إنْ كانت بطاقة حمراء بخطّ فضّيّ، سيكون رقمك السرّيّ هو الرقم نفسه الذي تستخدمه الآن. إنْ كانت بطاقة خضراء بخطّ رماديّ، يجب أن تراجع فرعك، مع بطاقتك، لتضع رقمًا سرّيًّا جديدًا. الأرقام المعتمدة على أعياد الميلاد خيار شائع. **تحذير** لا تدوّن رقمك السرّيّ. لا تحمل رقمك السرّيّ معك. تذكّرْ لا يمكنك الدخول إلى حسابك ما لم تُدخِل الرقم السرّيّ بشكل صحيح. اعرف رقمك. لا تكشف رقمك لأحد. وحده رقمك ما يسمح لك بدخول النظام.

38

كان رأسي بين نهديها، حيث بدا أنّه يمضي كثيرًا من الوقت هناك مؤخّرًا. وكانت تدلّك كتفي.

- «يقول مري إنّ المشكلة هي أنّنا لا نكبت خوفنا».

- «نكبته؟»

- «يمتلك بعض الناس موهبة الكبت، في حين لا يمتلكها الآخرون».

- «الموهبة؟ ظننت أنّ الكبت موضوع قديم. كانوا يخبروننا لسنوات أن لا نكبت مخاوفنا ورغباتنا. فالكبت يُسبّب القلق، والتعاسة،

ومئة مرض ومصيبة. كنت أظنّ أنّ آخر ما يفترض بنا فعله هو كبت أيّ شيء. كانوا يطلبون منّا المجاهرة بمخاوفنا، والتواصل مع مشاعرنا».

- «لم يكن التواصل مع الموت ما يقصدونه. الموت قويّ جدًّا بحيث نضطرّ إلى كبته، أعني أولئك القادرين على هذا».

- «ولكن الكبت زائف وميكانيكيّ كلّيًّا. الجميع يعرف هذا. لا يفترض بنا إنكار طبيعتنا».

- «من الطبيعيّ إنكار الطبيعة، بحسب مري. هذا ما يشكّل الفارق الجوهريّ عن الحيوانات».

- «ولكن هذا جنون».

قلت من بين نهديها: «تلك هي الطريقة الوحيدة للنجاة».

دلّكتْ كتفي وهي تفكّر بهذا. فلاشات رماديّة لرجل ساكن يقف قرب سرير مزدوج. جسده مشوّه، متموّج، ناقص. لم أكن مضطرًّا لتخيّل رفيقته في الموتيل. جسدانا كانا سطحًا واحدًا، جسدها، جسدي، ولكن مباهج اللمس كانت للسيّد غراي. كانت لذّته كما أحسست، سيطرته على بابيت، سلطته الرضيعة الوضيعة. عبر البهو صوت متحمّس يقول: «لو كنت تضيّعين كرة الخيطان باستمرار، ضعيها في سلّة بارني، ضعي عدّة مشابك صغيرة على لوح الفلّين في مطبخك، وثبّتي السلّة إلى المشابك. بسيطة!»

في اليوم التالي بدأت أحمل التسومقالت الأوتوماتيكيّ إلى الكلّيّة. يبقى في الجيب الداخليّ للجاكيت أثناء إلقائي المحاضرات، وفي الدرج العلويّ من مكتبي حين أستقبل زوّارًا في المكتب. خلق المسدّس واقعًا ثانيًا لي أسكن فيه. كان الهواء منعشًا، يحوم حول رأسي، مشاعر لا اسم لها تضغط بإثارة على صدري. كان واقعًا بوسعي التحكّم به، أهيمن عليه خفية. يا لغباء هؤلاء الناس، حين يأتون إلى مكتبي بلا سلاح.

في وقت متأخّر من إحدى الظهيرات، أخرجت المسدّس من

الدرج وتمعّنت فيه بدقّة. ثلاث رصاصات فقط في المخزن. تساءلت أين استخدم ڤيرنن ديكي الذخيرة الناقصة (أو أيًّا يكن الاسم الذي يطلقه الخبيرون بالأسلحة على الرصاصات). أربعة أقراص ديلار، ثلاث رصاصات تسومڤالت. لم كنت متفاجئًا حين رأيت أنّ الرصاصات تشبه الرصاصات حقًّا؟ أظنّ أنّني اعتقدت أنّ أسماء وأشكالًا جديدة باتت تُمنَح لكلّ شيء تقريبًا على امتداد عقود منذ أدركت للمرّة الأولى الأشياء ووظائفها. كان السلاح يشبه المسدّس، والمقذوفات الصغيرة المنقَّطة تشبه الرصاصات حقًّا. كانت مثل أشياء الطفولة التي تصادفها بعد أربعين عامًا، لتكتشف عبقريّتها للمرّة الأولى.

في ذلك المساء سمعت هاينرش يغنّي في غرفته بمزاج عال: «شوارع لاريدو». دخلت لأسأله ما إذا كان أورست قد دخل إلى القفص.

- «قالوا إنّ هذا ليس إنسانيًّا. لم يُسمح له إجراء العرض في أيّ مكان بشكل رسميّ. اضطرّ لفعلها خفية».

- «خفية أين؟»

- «ووتر تاون. أورست ومدرّبه، وجدوا كاتبًا بالعدل هناك قال إنّه سيصدّق وثيقة تقول إنّ أورست ميركاتر قضى هذا العدد من الأيّام محبوسًا مع هذه الأفاعي السامّة إلخ إلخ إلخ».

- «وأين سيجدون قفصًا زجاجيًّا كبيرًا في ووترتاون؟»

- «لن يفعلوا».

- «عمّ يبحثون؟»

- «غرفة في الفندق الوحيد الذي هناك. وكذلك لم يكن هناك إلا ثلاث أفاعٍ. وقد لُدغ بعد أربع دقائق».

- «تعني أنّ الفندق سمح لهم بإدخال أفاعٍ سامّة إلى الغرفة؟»

- «لم يكن الفندق يعرف هذا. الرجل الذي تدبّر أمر الأفاعي حملها

معه في كيس شركة طيران. كانت ستصبح عمليّة خداع هائلة باستثناء أنّ الرجل جاء ومعه ثلاث أفاع فقط بدلًا من السبع والعشرين المتّفق عليها».

- «بمعنى آخر هو قال لهم إنّه يستطيع تأمين سبع وعشرين أفعى».

- «سامّة. ولكنّها لم تكن كذلك. إذًا لُدغ أورست من أجل لا شيء. الحقير».

- «فجأة أصبح حقيرًا».

- «كان لديهم كلّ مضادّ السمّ الذي لم يستخدموه أصلًا. أوّل أربع دقائق».

- «وكيف يشعر الآن؟»

- «كيف ستشعر لو كنت حقيرًا؟»

- «سعيدًا أنّني على قيد الحياة»، قلت.

- «ليس أورست. لقد اختفى عن الأنظار. صار في عزلة تامّة. لم يره أحد منذ الحادثة. لا يفتح الباب، لا يردّ على الهاتف، لا يأتي إلى المدرسة. كلّ هذا».

قرّرت الذهاب إلى مكتبي لألقي نظرة على عدّة امتحانات نهائيّة. معظم الطلاب كانوا قد غادروا، متحمّسين للانغماس في المُتع الروتينيّة في صيف عريٍّ آخر. كان الحَرَم مظلمًا ومقفرًا. ثمّة ضباب مرتعش. مع عبوري صفًّا من الأشجار، ظننت أنّني أحسست بشخص يتبعني، ربّما على بعد ثلاثين ياردة. حين التفتُّ، كان الدرب فارغًا. هل كان المسدّس هو ما يجعلني شديد التحفّز؟ هل يجتذب المسدّس العنف إليه، يجتذب الأسلحة الأخرى إلى حقول قوّته؟ سرّعت خطوتي باتّجاه القاعة المئويّة. سمعت وقع أقدام على الحصى، صوت سحق واضح. كان شخص هناك، عند طرف موقف السيّارات، بين الأشجار في الضباب.

طالما أنّ لديّ مسدّسًا، لم كنت خائفًا؟ ولو كنت خائفًا، لمَ لمْ أركض؟ عددتُ خمس خطوات، التفتُّ إلى اليسار بسرعة، ورأيت شخصًا يمشي على التوازي مع الدرب، لا يبدو منه غير ظلّ كثيف. انطلقت بهرولة متثاقلة، أتشبّث بالمسدّس الأوتوماتيكيّ في جيبي. حين نظرت مرّة أخرى، لم يكن هناك. أبطأت خطواتي بحذر، وقطعت مرجًا واسعًا، وسمعت صوت ركض، إيقاع قدمين تقفزان. كان يندفع من اليمين هذه المرّة، بقوّة، مقتربًا بسرعة. اندفعت في ركض متعرّج، آملًا أنّني سأكون هدفًا مراوغًا لأيّ شخص يحاول إطلاق الرصاص على ظهري. لم أركض متعرّجًا من قبل أبدًا. أبقيت رأسي منخفضًا، متعرّجًا بزوايا حادة غير متوقّعة. كانت طريقة ركض مثيرة. فوجئت بمجال الاحتمالات، عدد التوافقات التي يمكن تشكيلها ضمن إطار من الانحرافات إلى اليمين واليسار. قمت بانحرافٍ حادّ إلى اليسار، ثمّ وسّعت الخطوة، انحراف حادّ إلى اليمين، خطف إلى اليسار، يسار آخر، خطوة واسعة إلى اليمين. بعد قرابة عشرين ياردة من نهاية المنطقة المكشوفة، أوقفت الركض المتعرّج واندفعت بأقصى سرعة إلى الأمام مباشرة نحو شجرة سنديان أحمر. استندت إليها بذراعي اليسرى، وانسللتُ خلف الشجرة بحركة سريعة مائلة مباشرة، مادًّا يدي اليمنى في اللحظة ذاتها لأنتزع التسومقالت من جيب الجاكيت، بحيث أواجه الآن الشخص الذي كنت أهرب منه، محتميًا بجذع شجرة، ومسدّس على أهبة الاستعداد.

ربّما كانت تلك أكثر حركاتي رشاقة خلال حياتي كلها. حدّقت في الضباب الكثيف حيث يقترب مهاجمي بخطوات مكتومة صغيرة. حين رأيت المشية السريعة المتبخترة الغريبة المألوفة، أعدت المسدّس إلى جيبي. كانت ويني رتشاردز طبعًا.

– «مرحبا جاك. بداية لم أعرف الشخص الذي كان يمشي، لذا استخدمت تكتيكات مراوغة. وحين أدركت أنّه أنت، قلت لنفسي هذا هو الشخص الذي أريد رؤيته».

- «لماذا؟»

- «تتذكّر المرّة الماضية حين سألتني عن جماعة أبحاث سرّيّة؟ تعمل على موضوع الخوف من الموت؟ يحاولون تطوير دواء؟»

- «أكيد... ديلار».

- «كانت هناك دوريّــة ملقاة في مكتبي البارحة **أميركان سايكوبيولوجست**. منشور فيها قصّة غريبة. مثل هذه الجماعة موجودة فعلًا. تدعمها شركة عملاقة متعدّدة الجنسيّات. تعمل في سرّيّة تامّة في بناء غير محدّد خارج آيرن سيتي».

- «لم السرّيّة التامّة؟»

- «هذا واضح. لمنع تجسّس الشركات العملاقة المنافسة. المهمّ هو أنّهم اقتربوا كثيرًا من تحقيق هدفهم».

- «ماذا حدث؟»

- «أشياء كثيرة. العبقريّ المنظّم المحليّ، أحد القوى الداعمة للمشروع بأسره، كان شخصًا اسمه ويلي مِنْك. تبيّن أنّه شخص إشكاليّ. يقوم بعدّة أمور إشكاليّة جدًّا جدًّا».

- «أراهن أنّني أعرف أوّل هذه الأمور. ينشر إعلانًا في جريدة صفراء يطلب متطوّعين من أجل تجربة غامضة. **الخوف من الموت**، يكون العنوان».

- «أحسنت يا جاك. إعلان صغير في جريدة مبتذلة. يقابل من استجابوا للإعلان في غرفة موتيل، ويفحصهم بشأن الاتّساق العاطفيّ ودزّينة من الأشياء الأخرى في محاولة لرسم صورة موت كلّ منهم. مقابلات في موتيل. وحين اكتشف العلماء والمحامون هذا الأمر، جنّ جنونهم، وأنّبوا مِنْك بقسوة، وأخضعوا كلّ مواردهم لإشراف كمبيوتر. ردّة فعل رسميّة مهتاجة».

- «ولكن ليست هذه هي نهاية الأمر».

- «يا لصحّة كلامك. برغم حقيقة أنّ مِنْك الآن أصبح شخصًا مُراقَبًا بدقّة، استطاع أحد المتطوّعين التملّص من برنامج المراقبة وبدأ برنامجًا تجريبيًّا من دون إشراف تامّ، مستخدمًا عقارًا مجهولًا تمامًا، غير مجرَّب وغير موافق عليه، مع آثار جانبيّة يمكن أن تدمّر حوتًا. شخص كامل غير مراقب».

قلت: «أنثى».

- «صحيح جدًّا. القذرة تُعلِم مِنْك بالنتائج كلّ فترة في ذلك الموتيل نفسه الذي بدأ منه مقابلاته، تأتي بتكسي أحيانًا، ومشيًا أحيانًا من محطّة الحافلات القذرة الكئيبة. ما الذي ترتديه يا جاك؟»

- «لا أعرف».

- «قناع تزلّج. إنّها المرأة ذات قناع التزلّج. وعندما اكتشف الآخرون حيلة مِنْك الأخيرة، كان ثمّة فترة من الجدل المديد، والحقد، والدعاوى والخزي. شركات الدواء العملاقة لها دستور أخلاقيّ، مثلك ومثلي. طُرد مدير المشروع، واستمرّ العمل من دونه».

- «هل ذكرت المقالة شيئًا عمّا حصل له؟»

- «تتبّع المراسل حركاته. إنّه يعيش في الموتيل ذاته حيث جرت كلّ تلك الإشكاليّات».

- «أين الموتيل؟»

«في جيرمان تاون [الحيّ الألمانيّ]».

قلت: «وأين يقع هذا؟»

- «آيرن سيتي. إنّه القسم الألمانيّ القديم. خلف منشأة سبك المعادن».

- «لم أكن أعلم أنّ هناك قسمًا في آيرن سيتي اسمه جيرمان تاون».

- «لقد رحل الألمان طبعًا».

عدت إلى المنزل مباشرة. كانت دينيز تضع إشارات في كتاب بغلاف ورقيّ عنوانه **دليل الأرقام المجّانيّة**. وجدت بابيت جالسة قرب سرير وايلدر، تقرأ له قصّة.

قلت: «ليس لديّ مشكلة بملابس الركض هذه. البيجاما القطنيّة ملابس عمليّة أحيانًا. ولكن أتمنّى لو لم تكوني ترتدينها حين تقرأين قصص النوم لوايلدر أو تضفرين شعر ستيفي. هناك شيء آسر في مثل هذه اللحظات لا ينبغي تبديده بملابس الركض».

- «ربّما كنت أرتدي ملابس الركض لسبب».

- «مثل ماذا؟»

قالت: «أريد أن أركض».

- «هل هذه فكرة جيّدة؟ ليلًا؟»

- «ماذا يعني الليل؟ هذا يحدث سبع مرّات في الأسبوع. أين الفريد في هذا؟»

- «إنّه مظلم. إنّه ممطر».

- «هل نعيش في وهج صحراء يُعمي؟ ماذا يعني البلل؟ نعيش مع البلل».

- «بابيت لا تتحدّث بهذه الطريقة».

- «هل يجب أن تتوقّف الحياة لأنّ نصف الأرض مظلم؟ هل هناك شيء في الليل يمنع الراكض من الركض؟ أريد أن أزفر وأشهق. ماذا يعني الظلام؟ إنّه مجرّد اسم آخر للضوء».

- «لن يكون هناك من يقنعني أنّ المرأة التي أعرفها بكونها بابيت تريد حقًّا صعود درجات الملعب راكضة الساعة العاشرة ليلًا».

- «ليس هذا ما أريده، بل هذا ما أحتاج إليه. لم تعد حياتي أبدًا في

مجال ما أريد. أفعل ما يجب عليّ فعله. أزفر. أشهق. كلّ راكض يفهم الحاجة إلى هذا».

- «لم يجب عليك صعود الدرجات ركضًا؟ لستِ رياضيّة محترفة تحاول إعادة تشكيل ركبة مكسورة. اركضي على أرض منبسطة. لا تجعلي من الموضوع التزامًا كبيرًا. كلّ شيء التزام كبير اليوم».

- «هذه حياتي. لابدّ أن أكون ملتزمة».

- «ليست هذه حياتك. إنّه مجرّد تمرين».

قالت: «الراكض يحتاج.»..

- «وأنا أحتاج أيضًا. والليلة أحتاج إلى السيّارة. لا تنتظريني. من يعلم متى سأعود».

انتظرتُ منها أن تسألني عن المهمّة الغامضة التي تستلزم منّي ركوب السيّارة والقيادة في ليل غارق بالمطر، مع موعد عودة مجهول.

قالت: «لا يمكنني أن أمشي إلى الملعب، أركض الدرجات خمس أو ستّ مرات ثمّ أمشي طوال الطريق إلى هنا. بإمكانك إيصالي إلى هناك، وانتظاري، ثمّ إيصالي إلى هنا. ثمّ تكون السيّارة تحت تصرّفك».

- «لا أريدها. ما رأيك بهذا؟ تريدين السيّارة، خذيها. الشوارع زلقة، تعرفين معنى هذا، أليس كذلك؟»

- «ما الذي يعنيه؟»

- «اربطي حزام الأمان. كما أنّ هناك لسعة هواء باردة، تعرفين ما تعنيه لسعة البرد».

- «ما الذي تعنيه؟»

أخبرتها: «ارتدي قناع التزلّج».

بدأ منظّم الحرارة يئزّ.

ارتديت الجاكيت وخرجت. منذ الحدث السامّ الهوائيّ، بدأ

جيراننا، آل ستوفر، يبقون سيّارتهم في الممشى بدلًا من الكاراج، يتركون مقدّمتها باتّجاه الشارع، والمفتاح في السيّارة. اتّجهت إلى الممشى ودخلت إلى السيّارة. كانت هناك علب قمامة صغيرة مثبّتة على اللوحة الأماميّة وظهور المقاعد، وأكياس بلاستيكيّة معلّقة مليئة بأغلفة العلكة، أعقاب بطاقات، مناديل ورقيّة ملطّخة بأحمر شفاه، علب صودا مسحوقة، نشرات وإيصالات مكرمشة، ركام وسخ المنفضة، عصيّ بوظة وأصابع بطاطا مقليّة، مناديل وكوبونات ممزّقة، أمشاط جيب بأسنان مكسورة. وبعد أن تآلفت مع المشهد، شغّلتُ المحرّك وأضأت المصابيح وانطلقت.

خالفت إشارة حمراء بعد أن قطعت مدلبروك. وعندما وصلت نهاية منحدر الطريق السريعة، لم أتوقّف. طوال الطريق إلى آيرن سيتي، غمرني إحساس حالم، مستغرق، خيالي. أبطأت عند بوّابة الدفع ولكنّني لم أكلّف نفسي عبء رمي ربع دولار في السلّة. انطلق رنين إنذار ولكن لم يظهر أحد. ما قيمة ربع آخر لدى دولة غارقة في ديون بالمليارات؟ ما قيمة خمسة وعشرين سنتًا عندما نتحدّث عن سيّارة مسروقة بقيمة تسعة آلاف دولار؟ لا بدّ أنّ هذه هي الطريقة التي يتملّص فيها الناس من قبضة الأرض، قوّة الجاذبيّة التي تقرّبنا كلّ ساعة من الموت. أوقف الطاعة ببساطة. اسرق بدل أن تشتري، أطلق النار بدل أن تتحدّث. خالفت إشارتين أخريين على الطرق الممطرة المفضية إلى آيرن سيتي. كانت الأبنية المحيطة عالية وقديمة، أسواق سمك، متاجر لحم بمظلات خشبيّة قديمة. دخلت المدينة وشغّلت الراديو، أحتاج إلى رفقة لا في الأوتوستراد المقفر بل هنا في الشوارع المرصوفة، في الأضواء المغمورة بدخان الصوديوم، حيث يخيّم الخواء. لكلّ مدينة مناطقها. مشيتُ قرب منطقة السيّارات المهجورة، منطقة القمامة غير المجموعة، منطقة مكشوفة، مناطق الأثاث المحروق والزجاج المهشّم. فُتات الزجاج يُسحق تحت إطارات السيّارة. اتّجهت إلى منشأة سبك المعادن.

ذاكرة الوصول العشوائيّ، متلازمة نقص المناعة المكتسبة، دمار محتّم للطرفين.

كنت لا أزال أحسّ بخفّة فائقة - أخفّ من الهواء، لا لون، لا رائحة، خفيًّا. ولكن حول الخفّة والحُلُميّة، كان ثمّة أمر ينمو، عاطفة من مستوى مختلف. جيشان، إرادة، تهيّج في المشاعر. مددت يدي إلى جيبي، فركتُ سلاميّات أصابعي بالستانلس ستيل الخشن لماسورة التسومڤالت. قال الرجل على الراديو: «لاغٍ حيث يكون محظورًا».

39

درت بالسيّارة مرّتين حول منشأة سبك المعادن، باحثًا عن علامات على أيّ حضور ألمانيّ سابق. مررت بصفّ البيوت في الشارع. كانت مبنيّة على تلّ مرتفعة منحدرة، بيوت بواجهات ضيّقة، خطّ صاعد من الأسقف المائلة. مررت بمحطّة الحافلات، تحت وابل الأمطار. استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن أجد الموتيل، بناء بطابق واحد، مبنيّ على الدعامة الخرسانيّة لطريق مرتفعة. كان اسمه رودواي موتيل.

لذائذ عابرة، معايير صارمة.

كانت المنطقة مقفرة، منطقة مستودعات وصناعة خفيفة مليئة بكتابات جداريّة. كان في الموتيل تسع أو عشر غرف، جميعها مظلمة، ولا سيّارات مركونة. مررت به ثلاث مرّات، أدرس المنطقة، وركنت السيّارة على مسافة تعادل نصف مجمّع سكنيّ قرب الأنقاض تحت الطريق. ثمّ عدت مشيًا إلى الموتيل. كانت تلك العناصر الثلاثة الأولى في خطّتي.

ها هي خطّتي. قد السيّارة حول المنطقة عدّة مرّات، اركن السيّارة على مسافة معقولة من الموقع، عد مشيًا، اعرف مكان السيّد غراي أكان ينزل باسمه الحقيقيّ أو اسم مستعار، أطلق عليه النار ثلاث مرّات في

أمعائه ليعاني أقصى حدّ من الألم، امسح البصمات عن السلاح، ضع السلاح في يد الضحيّة الساكنة، جد قلم تلوين أو أحمر شفاه وخربش رسالة انتحار سريعة على المرآة التي بطول الجسد، خذ مخزون الضحيّة من أقراص ديلار، وتسلّل عائدًا إلى السيّارة، تابع إلى مدخل الطريق السريعة، اتّجه شرقًا إلى بلاكسمث، توقّف عند طريق النهر القديمة، اركن سيّارة آل ستوڤر في كراج العجوز تريدول، أغلق باب الكراج، عد إلى المنزل مشيًا تحت المطر والضباب.

رائعة. مزاجي المرح عاد. كنت أتوغّل في الوعي. شاهدت نفسي أقوم بكلّ خطوة على حدة. ومع كلّ خطوة، كنت أتنبّه للعمليّات، والمكوّنات، والأشياء المرتبطة بأشياء أخرى. الماء يسقط على الأرض على شكل قطرات. كنت أرى الأشياء جديدة.

كان ثمّة مظلّة من الألمنيوم فوق باب المكتب. وعلى الباب نفسه ثمّة أحرف بلاستيكيّة صغيرة مرتّبة في مجموعات بحيث تشكّل رسالة: .NU MISH BOOT ZUP KO

جملة غير مفهومة ولكنّها ذات جودة عالية. مشيتُ بمحاذاة الجدار، أنظر عبر النوافذ. كانت خطّتي هي هذه. أقف عند حوافّ النوافذ، أسند ظهري إلى الجدار، أُميل رأسي لأتلصّص على الغرف. بعض النوافذ كانت مكشوفة، وبعضها ذات ستائر أو أغطية مغبرة. كان بإمكاني تمييز الحدود البارزة للكراسي أو الأسرّة في الغرف المظلمة. الشاحنات تهدر من بعيد. في الوحدة قبل الأخيرة، كان ثمّة وميض ضوء خافت. وقفت عند حافّة النافذة، أُنصت. أملت رأسي ونظرت إلى الغرفة بزاوية عيني اليمنى. شخص يجلس على كنبة واطئة ينظر إلى الضوء الوامض فوقه. أحسست أنّني كنت جزءًا من شبكة من البنى والمسارات. عرفت الطبيعة الدقيقة للأحداث. كنت أقترب من الأشياء في حالتها الفعليّة كما أقارب عنفًا، كثافة ساحقة. يسقط الماء قطرات، تتوهّج السطوح.

خطر لي أنّني غير مضطرّ للقرع. سيكون الباب مفتوحًا. جذبت المقبض، وفتحت الباب، وانسللت إلى الغرفة. تسلّل. كان هذا سهلًا. سيكون كلّ شيء سهلًا. وقفت داخل الغرفة، أحسّ بالأشياء، أستشعر إيقاع الغرفة، الهواء الكثيف. اندفعت المعلومات إليّ، اندفعت ببطء، على نحو متزايد. كان الشخص ذكرًا، طبعًا، ويجلس فاردًا ذراعيه وساقيه في الكنبة الواطئة. يرتدي قميص هاواي وشورتًا عليه دعاية بيرة بودوايزر. صندل بلاستيكيّ يتدلّى من قدميه. الكنبة الرثّة، السرير الفوضويّ، السجّادة الصناعيّة، الكومودينو البالية، الجدران الخضراء الكئيبة، شقوق السقف. التلفزيون يطفو في الهواء، في إطار معدنيّ، شاشته إلى الأسفل نحوه.

تحدّث هو أوّلًا، من دون أن يرفع عينيه عن الشاشة الوامضة.

- «تعاني وجع قلب أم وجع روح؟»

وقفت مسندًا ظهري إلى الباب.

قلت: «أنت مِنْك؟»

نظر إليّ الآن، نظر إلى الشخص الضخم الودود بالكتفين المتهدّلتين والوجه القابل للنسيان بسهولة.

قلت: «أيّ اسم هو هذا، ويلي مِنْك؟»

- «إنّه اسم أوّل وكنية. مثل أيّ شخص آخر».

هل كان يتحدّث بلكنة غريبة؟ كان وجهه غريبًا، مقعّرًا، مع جبين وذقن ناتئين. كان يشاهد التلفزيون كاتمًا الصوت.

كان بإمكاني أن أحسّ بضغط وكثافة الأشياء. كثير جدًّا كان يحدث ذلك. أحسست بأنّ جزيئات دماغي نشيطة، تتحرّك في المسارات العصبيّة.

- «أنت هنا من أجل بعض الديلار طبعًا».

- «طبعًا. ماذا غير هذا؟»

- «ماذا غير هذا؟ التخلّص من الخوف».

- «التخلّص من الخوف. تنظيف الشبكة».

- «تنظيف الشبكة. هذا سبب قدومهم إليّ».

تلك كانت خطّتي. أن أدخل بهدوء، أكتسب ثقته، أنتظر لحظة غفلة، أُخرج المسدّس، أطلق عليه النار ثلاث مرّات في أحشائه كي يعاني الألم بأقصى بطء ممكن، أضع المسدّس في يده لأوحي بانتحار رجل وحيد، أكتب أشياء شبه غامضة على المرآة، أترك سيّارة ستوفر في كراج تريدول.

قال مِنْك: «بمجيئك إلى هنا، أنت توافق على سلوك معيّن».

- «أيّ سلوك؟»

- «سلوك الغرفة. مغزى الغرف هي أنّها أماكن داخليّة. لا ينبغي لأحد أن يدخل إلى غرفة ما لم يكن يفهم هذا. يتصرّف الناس بطريقة واحدة في الغرف، وبطريقة أخرى في الشوارع، والحدائق والمطارات. أن تدخل إلى غرفة يعني الموافقة على نمط سلوك محدّد. وهذا يستتبع أنّ هذا هو نمط السلوك الذي يحدث في الغرف. هذا هو المتعارف عليه، بالتعارض مع مراكن السيّارات والشواطئ. هذا هو مغزى الغرف. لا ينبغي لأحد الدخول إلى غرفة من دون معرفة المغزى. هناك اتّفاق غير مكتوب بين الشخص الذي يدخل إلى غرفة والشخص الموجود في الغرفة، بالتعارض مع مسارح الفضاء المفتوح، وأحواض السباحة الخارجيّة. تنبع غاية الغرفة من الطبيعة الخاصّة لتلك الغرفة. الغرفة مكان داخليّ. هذا ما يجب على الناس التوافق عليه، بخلاف المروج، والمستنقعات، والحقول، والبساتين».

وافقت كلّيًّا. هذا معقول تمامًا. لم أنا موجود هنا إن لم يكن للتحديد، وضبط مجال إدراكـيّ، وإيجاد هدف؟ سمعت ضوضاء، خافتة، رتيبة، بيضاء.

قال: «كي تبدأ مشروع كنزتك، اسأل نفسك أوّلًا ما نوع الكمّ الذي سيلبّي حاجاتك؟»

كان أنفه مسطّحًا، وبشرته بلون الفستق. ما تضاريس وجه يشبه الملعقة؟ هل كان ميلانيزيًّا، بولينيزيًّا، إندونيسيًّا، نيباليًّا، سوريناميًّا، صينيًّا-هولنديًّا؟ هل كان خليطًا؟ ما عدد الناس الذين جاؤوا إلى هنا من أجل ديلار؟ أين كانت تقع سورينام؟ كيف كان تقدّم خطّتي؟

تمعّنتُ في رسمة أشجار النخيل المتناثرة على قميصه الفضفاض، واسم بودوايزر المتكرّر على شورته البرمودا، كان الشورت كبيرًا جدًّا. العينان نصف مغمضتين. الشعر طويل شوكيّ. كان يفرد ذراعيه وساقيه مثل مسافر جويّ مقطوع، شخص مهزوم منذئذ بفعل الانتظار المرهق، وضوضاء المطار. بدأت أحسّ بالأسف بشأن بابيت. لقد كان هذا أملها الأخير للملاذ والسكون، التعاطف الغريب مع رجل، أصبح تاجرًا للمخدّرات الآن، ذا شعر شوكيّ، ينزلق إلى الجنون في موتيل ساكن كالموت.

فُتات سمعيّ، شذرات، لطخات تحوم. واقع أكثر بروزًا. كثافة هي في الوقت ذاته شفافيّة. تتوهّج السطوح. الماء يضرب السطح بكتل كرويّة، مستديرة، قطرات تطرطش. أقرب إلى عنف، أقرب إلى موت.

قال: «الحيوان الأليف الذي يقاسي ضغطًا قد يحتاج إلى حمية موصوفة».

بالطبع لم يكن على هذا النحو دائمًا. لقد كان مدير مشروع، ديناميكيًّا، صلبًا. حتّى الآن لا أزال قادرًا على أن أرى في وجهه وعينيه الآثار المرتعشة لمكر وذكاء الإقدام. مدّ يده إلى جيبه، أخذ حفنة من الأقراص البيضاء، قذفها نحو فمه. بعضها دخل، وبعضها تناثر. الحبوب التي تشبه الصحن الطائر. نهاية الخوف.

- «من أين أنت أصلًا.. إن كان بإمكاني مخاطبتك ويلي؟»

غرق في التفكير، يحاول التذكّر. أردت أن أزيل توتّره، أدفعه إلى التحدّث عن نفسه، عن ديلار. هذا هو جوهر خطّتي. كانت هذه هي خطّتي. أتلصّص برأسي لأنظر في الغرف، أزيل توتّره، أنتظر لحظة غفلة، أطلق الرصاص على أحشائه كي يأخذ الألم أقصاه، آخذ ديلار، أنزل عن طريق النهر، أغلق باب الكراج، أعود مشيًا إلى البيت تحت المطر والضباب.

- «لم أكن دائمًا على الحال التي تراني فيها الآن».

- «هذا بالضبط ما كنت أفكّر به».

- «كنت أقوم بعمل مهمّ. حسدت نفسي. كنت غارقًا في عملي حرفيًّا. الموت بلا خوف أمر عاديّ. بإمكانك التعايش معه. تعلّمت الإنكليزيّة من مشاهدتي التلفزيون الأميركيّ. كانت تجربتي الجنسيّة الأولى في پورتوسان، تكساس. كلّ ما قالوه كان صحيحًا. أتمنّى لو أنّني تذكّرت هذا».

- «تقول إنّه ليس ثمّة موت كما نعرفه بلا عنصر الخوف. يمكن للناس التأقلم معه، تقبّل حتميّته».

- «ديلار فشل، على مضض. ولكنّه سيصل حتمًا. ربّما الآن، ربّما لن يأتي أبدًا. الحرارة المنبعثة من يدك ستجعل ورق الذهب يلتصق بالورق الشمعيّ».

- «سيكون هناك في نهاية المطاف دواء فعّال، كما تقول. علاج للخوف».

- «يتبعه موت أكبر. أقوى، أذكى. هذا ما لا يفهمه العلماء وهم يفركون أرديتهم البيضاء بكراسيهم الصغيرة. ليس لأنّ لديّ أيّ شيء شخصيّ ضدّ الموت من وجهة نظرنا القديمة من فوق استاد مترو پوليتان كاونتي».

- «هل تقول إنّ الموت يتكيّف؟ يتملّص من محاولاتنا للتأقلم معه؟»

كان هذا مماثلًا لشيء كان قد قاله مري مرّة. وكان مري قد قال أيضًا: «تخيّل أحشاءك ترتعش، وأنت تشاهد خصمك ينزف على التراب. هو يموت، وأنت تحيا».

أقرب إلى موت، أقرب إلى ضربة قذائف معدنيّة على اللحم، الأحشاء ترتعش. راقبت مِنْك يتناول عدّة حبّات، يقذفها إلى وجهه، يمصّها ككراميل، عيناه على الشاشة الوامضة. أمواج، أشعّة، أعمدة متناغمة. رأيت الأشياء جديدة.

قال: «بيني وبينك، آكل هذا الشيء مثل قطع الكراميل».

- «كنت أفكّر بهذا للتوّ».

- «كم تريد أن تشتري؟»

- «كم أحتاج؟»

- «أراك رجلًا أبيض ضخمًا في الخمسين تقريبًا. هل هذا يصف ألمك؟ أراك شخصًا بجاكيت رماديّ وبنطال بنّيّ فاتح. قل لي مدى صحّة كلامي. تحولّ درجات الحرارة من الفهرنهايت إلى مئوية، هذا ما تقوم به».

خيّم صمت. بدأت الأشياء تتّقد. الكنبة الرثّة، الكومودينو البالية، السرير الفوضويّ. هذا السرير مجهّز بعجلات صغيرة. فكّرت. هذا هو الشخص الرماديّ المسؤول عن عذابي، الرجل الذي أخذ زوجتي. هل كانت تدور به في الغرفة وهو يجلس على السرير ذي العجلات يبتلع الحبوب؟ هل كان كلّ منهما يستلقي عند طرف من السرير، ويدلي ذراعه ليجذّف؟ هل كانا يسبّبان دوران السرير أثناء مضاجعتهما، يملآن الوسادات والملاءات بالزبد فوق العجلات الصغيرة على المحاور؟ انظر إليه الآن، يبرق في الظلام، راسمًا ابتسامة خرقة.

قال: «بالكاد أنسى الأوقات التي أمضيتها في هذه الغرفة قبل أن يصيبني هذا الاضطراب. كان ثمّة امرأة بقناع تزلّج، يتملّص منّي اسمها

في هذه اللحظة. الجنس الأميركيّ، دعني أقل لك، هكذا تعلّمت إنكليزيّتي».

كان الجو غنيًّا بموادّ وراء حسّيّة. أقرب إلى الموت، أقرب إلى رؤية ثانية. كثافة صاعقة. تقدّمت خطوتين باتّجاه منتصف الغرفة. كانت خطّتي رائعة. تقدَّم تدريجيًّا، اكسب ثقته، أخرج التسومڤالت، أطلق ثلاث رصاصات على منتصف جسده ليظفر بأقصى ألم أحشاء، أنظّف السلاح من البصمات، أكتب رسائل انتحار غريبة على المرايا والجدران، خذ مخزونه من الديلار، عد إلى السيّارة، قُدْها إلى مدخل الطريق السريعة، اتّجه شرقًا نحو بلاكسمث، اترك سيّارة ستوڤر في كراج تريدول، امشِ إلى المنزل تحت المطر والضباب.

ابتلَعَ حبوبًا أخرى، ونثر غيرها على مقدّمة شورت بودوايزر. تقدّمت خطوة. كانت هناك أقراص ديلار مكسورة في جميع زوايا السجّادة المضادّة للاشتعال. مسحوقةً بعد وطئها، مُداسة. قذف بعض الأقراص على الشاشة. كانت قشرة الجهاز الخارجيّة من خشب الجوز والقطع الباقية فضّيّة. الصورة مشوّشة جدًّا.

قال: «والآن أنا ألتقط علبة اللون الذهبيّ المعدنيّ مستخدمًا سكّين الرسم والزيت عديم الرائحة، سأضيف مزيدًا من اللون على لوح الألوان».

تذكّرت ملاحظة بابيت عن الآثار الجانبيّة للدواء. قلت، كتجربة: «طائرة تسقط».

نظر إليّ، متشبّثًا بمسندَيْ الكنبة، وعلامات الهلع الأولى ترتسم في عينيه.

«طائرة تغرق». قلت، ناطقًا الكلام بوضوح، ونبرة سلطويّة.

نزع الصندل، وطوى جسده بوضعيّة التحطّم الموصى بها، الرأس إلى الأمام، واليدان متعانقتان خلف ركبتيه. نفّذ التمرين أوتوماتيكيًّا،

برشاقة جسد مذهلة في طيّ المفاصل، منغمسًا فيه، مثل طفل أو ممثّل إيمائيّ. لا يتسبّب الدواء بخلط الإنسان بين الكلمات والأشياء فقط؛ إنّه يجعله يتصرّف بطريقة آليّة إلى حدّ ما. راقبته مستلقيًا هناك، يرتعش. كانت تلك خطّتي. أختلس النظر إلى الغرف، أدخل بهدوء، أدفعه إلى الارتعاش، أطلق الرصاص على أحشائه ثلاث مرّات كاملة، أتوقّف عند طريق النهر، أغلق باب الكراج.

تقدّمت خطوة أخرى نحو منتصف الغرفة. مع تزايد تقلّب صورة التلفزيون، تذبذبها، تشابكها، بدا أنّ مِنْك يصبح أشدّ نشاطًا. الطبيعة الدقيقة للأحداث. الأشياء في حالتها الفعليّة. أخيرًا خلّص نفسه من وضعيّة التكوّر، منتصبًا برشاقة، مبرزًا جسده بحدّة في الجو المشحون. ضوضاء بيضاء في كلّ مكان.

– «يحتوي على الحديد، والنياسين، والريبوفلاڤين. تعلّمت إنكليزيّتي في الطائرات. إنّها اللغة العالميّة في الطيران. لم أنت هنا أيّها الرجل الأبيض؟»

– «كي أشتري».

– «أنت شديد البياض، تعرف هذا؟»

– «هذا لأنّني أحتضر».

– «هذا الشيء سيحسّن وضعك».

– «سأموت برغم هذا».

– «ولكن لن يهمّ الأمر، ما يفضي إلى الأمر ذاته. بعض هذه الدلافين العابثة جُهّزت بنواقل راديو. قد تخبرنا تجوالاتهم النائية بأشياء».

واصلت انغماسي في الوعي. الأشياء تتّقد، حياة خفيّة تنبعث منها. الماء يضرب السقف بكرات ممتدّة، قطرات تطرطش. عرفت للمرّة الأولى ماهية المطر حقًّا. عرفت ماهية البلل. فهمت الكيمياء العصبيّة

لدماغي، معنى الأحلام (المادّة الخربة من الهواجس). أشياء عظيمة في كلّ مكان، تندفع في الغرفة، تندفع ببطء. غنى، كثافة. صدّقتُ كلّ شيء. كنت بوذيًّا، يانيًّا، معمدانيًّا. مبعث حزني الوحيد كان بابيت، أن تضطرّ لتقبيل وجه يشبه المجرفة.

- «كانت ترتدي قناع تزلّج كيلا تقبّل وجهي، الذي كانت تقول إنّه غير أميركيّ. أخبرتها أنّ الغرفة مكان داخليّ. لا تدخلي إلى غرفة من دون الموافقة على هذا. هذا هو المغزى، بالتعارض مع السواحل المتشكّلة والصفيحات القاريّة. أو بإمكانك تناول الحبوب الطبيعيّة، الخضار، البيض، لا سمك، لا فاكهة. أو الفاكهة، الخضار، البروتينات الحيوانيّة، لا حبوب، لا حليب. أو الكثير من حليب الصويا من أجل ڤيتامين ب-12 والكثير من الخضار لتنظيم ضخّ الأنسولين، ولكن لا لحم، لا سمك، لا فاكهة. أو اللحم الأبيض ولكن لا لحم أحمر. أو ب-12 ولكن لا بيض. أو البيض ولكن لا حبوب. هناك احتمالات ممكنة لا نهائيّة».

كنت مستعدًّا لقتله الآن. ولكنّني لم أُرد العبث بالخطّة. كانت الخطّة واضحة بتفاصيلها. أقود السيّارة قرب المكان عدّة مرّات، أتّجه إلى الموتيل مشيًا، أميل برأسي لأتلصّص على الغرف، أجد مكان السيّد غراي باسمه الحقيقيّ، أدخل بهدوء، أكتسب ثقته، أتقدّم تدريجيًّا، أدفعه إلى الارتعاش، أنتظر لحظة غفلة، أخرج التسومڤالت الأوتوماتيكيّ عيار 25، أطلق ثلاث رصاصات إلى أحشائه من أجل أقصى بطء، وعمق وكثافة ألم، أنظّف السلاح من البصمات، أضع السلاح في يد الضحيّة لأوحي بانتحار متوقَّع ومبتذَل لرجل منعزل في موتيل، أخربش كلمات قاسية على الجدران بدم الضحيّة كدليل على جنونه الأخير المرتبط بطقوس، آخذ مخزونه من ديلار، أعود إلى السيّارة، آخذ الطريق السريعة إلى بلاكسمث، أترك سيّارة ستوفر في كراج تريدول، أغلق باب الكراج، أمشي إلى المنزل تحت المطر والضباب.

تقدّمت إلى منطقة الضوء الوامض، خارجًا من الظلال، أحاول أن أكمن وأخيفه. وضعت يدي في جيبي، ممسكًا بالمسدّس. مِنْك يراقب الشاشة. قلت له بلطف: «وابل من الرصاص». مبقيًا يدي في جيبي.

قفز إلى الأرض، وبدأ يحبو باتّجاه الحمّام، يتلفّت خلفه من فوق كتفه، مثل الأطفال، إيماء، مستخدمًا مبادئ الحركات المتقنة ولكن مُظهرًا رعبًا حقيقيًّا، خوفًا انكماشيًّا رائعًا. تبعته إلى التواليت، مارًّا بالمرآة التي على طول الجسم حيث استعرض جسده مع بابيت بلا شكّ، وعضوه الخشن يتدلّى مثل عضو حيوان مجترّ.

همست: «وابل.»..

حاول التسلّل إلى خلف التواليت، وذراعاه فوق رأسه، وساقاه ملتصقتان بقوّة. كمنتُ عند الباب، مدركًا بأنّني أكمن، وأرى نفسي من وجهة نظر مِنْك، عظيمًا، مهدِّدًا. حان الوقت لأقول له من أنا. كان هذا جزءًا من خطّتي. كانت خطّتي على هذا النحو. أقول له من أكون، أتركه يعلم سبب موته المؤلم البطيء. كشفت له اسمي، وشرحت له علاقتي بالمرأة ذات قناع التزلّج.

وضع يديه على منفرج فخذيه، وأخرج أقراصًا أخرى من جيبه، وقذفها في فمه المفتوح. بدا وجهه في نهاية الغرفة البيضاء، أزيزًا أبيض، السطح الداخليّ من مجال. جلس، وقلب جيب قميصه بحثًا عن حبوب أخرى. كان خوفه جميلًا. قال لي: «هل تساءلت يومًا لماذا، من بين اثنين وثلاثين سنًّا، تتسبّب هذه الأربعة بالمشكلات الأكبر؟ سأعود بالإجابة بعد دقيقة».

أطلقت النار من المسدّس، السلاح، الفرد، السلاح اليدويّ، الأوتوماتيكيّ. تراكم الصوت في الغرفة البيضاء، مضيفًا إلى الأمواج المنعكسة. شاهدت الدم يتدفّق من منتصف جسد الضحيّة. قوس لطيف. ذهلت باللون الغنيّ، أحسست بالفعل اللونيّ للخلايا اللانوويّة.

التدفّق انكمش إلى تقطُّر، وانتشر على الأرضيّة القرميديّة. رأيت ما وراء الكلمات. عرفت ماهية الأحمر، رأيته بأطواله الموجيّة المهيمنة، إشراقه، صفائه. كان ألم مِنْك جميلًا، كثيفًا.

أطلقت رصاصة ثانية لمجرّد فعل الإطلاق، إعادة معايشة التجربة، سماع الأمـواج الصوتيّة تتراكب بطبقاتها عبر الغرفة، الإحساس بالارتعاش وهو ينفض ذراعي. أصابته الرصاصة في عظم الورك الأيمن. بقعة أرجوانيّة داكنة ظهرت على الشورت والقميص. توقّفت أراقبه. كان محشورًا بين حوض التواليت والجدار، وقد فقد إحدى فردتَيْ صندله، وعيناه بيضاوان بالكامل. حاولت رؤية نفسي من وجهة نظر مِنْك. كامن، مهيمن، أكتسب قوّة الحياة، أخزّن استحقاق الحياة. ولكنّه كان شديد الغياب بحيث يتعذّر عليه امتلاك وجهة نظر.

كان الأمر يجري على نحو ممتاز. كنت مسرورًا لرؤية المدى الممتاز الذي جرت عليه الأمور. الشاحنات تهدر بعيدًا. تفوح من ستارة الدشّ رائحة نايلون متعفّن. غنى، كثافة ساحقة. اقتربت من الجسد الجالس، محاذرًا أن لا أخطو في الدم، وأترك بصمات تدلّ عليّ. أخرجت منديلي، ألفّ بحرص أصابعه النحيلة، واحدًا إثر آخر، حول مقبض المسدّس، مُدخلًا إبهامه بدقّة في قوس الزناد. زبد قليل يسيل من فمه. خطوت إلى الخلف لأتمعّن في بقايا اللحظة المُرْهِقة، مشهد العنف القذر والموت وحيدًا في هوامش المجتمع الضبابيّة. كانت تلك خطّتي. خطوة إلى الخلف، تأمّل القذارة، التأكّد من أنّ كلّ الأشياء في مكانها الصحيح.

جحظت عينا مِنْك وبرزتا خارج جمجمته. برقتا، للحظة. رفع يده وشدّ الزناد، فأصابني في المعصم.

انهار العالم داخلي، كلّ تلك النسج والصلات المتّقدة المدفونة في ركام الحياة الاعتياديّة. كنت أشعر بالخيبة. مصابًا، مذهولًا، خائبًا. ما

الذي حدث للسطح الأعلى من الطاقة الذي رسمته في مخطّطي؟ كان الألم لافحًا. الدم يغطّي ساعدي ومعصمي وكفّي. ترنّحت إلى الخلف، أئنّ، أشاهد الدم يتقطّر من رؤوس أصابعي. كنت مشوّشًا ومضطربًا. ظهرت بقع ملوّنة في زاوية مجال رؤيتي. لطخات راقصة صغيرة مألوفة. الأبعاد الإضافيّة، الإدراكات الفائقة، اختزلت كلّها إلى ضوضاء بصريّة، مزيج متخبّط، لا معنى له.

قال مِنْك: «وهذا قد يمثّل الحدّ الأساسيّ لهواء أدفأ».

نظرت إليه. حيّ. حضنه بركة دماء. مع استعادة الترتيب الطبيعيّ للمادّة والإحساس، شعرت أنّني كنت أراه للمرّة الأولى كشخص. التخبّطات والالتواءات البشريّة القديمة عادت للتدفّق من جديد. التعاطف، الندم، الرحمة. ولكن قبل أن يكون بإمكاني مساعدة مِنْك، كان عليّ أن أقوم بإجراء إصلاح أوليّ على نفسي. مرّة أخرى أخرجت منديلي، وتمكّنت بيدي اليمنى وأسناني من ربطه بقوّة فوق ثقب الرصاصة في معصمي الأيسر، أو بين الجرح والقلب. ثمّ مصصتُ الجرح قليلًا، دون أن أعرف السبب تمامًا، وبصقت الدم والنزيز. كانت الرصاصة قد تسبّبت باختراق طفيف ثمّ انحرفت وخرجت. مستخدمًا يدي السليمة، أمسكت مِنْك من قدمه الحافية وجررته على القرميد الغارق في الدماء، والمسدّس لا يزال ملتصقًا بقبضته. كان ثمّة ما هو خلاصيّ هنا. جرّه من قدمه على القرميد، عبر السجّادة المُشبعة بالدواء، عبر الباب وإلى الليل، أمر كبير وعظيم ومشهديّ. هل من الأفضل اقتراف الشرّ ثمّ محاولة موازنته بفعل سامٍ بدلًا من عيش حياة حياديّة متعمّدة؟ أعلم أنّني كنت أشعر بالفضيلة، كُنت مبقّعًا بالدماء ومتوتّرًا، أجرّ الرجل المصاب بشدّة في الظلام والشارع المقفر.

كان المطر قد توقّف. صعقت بكمّيّة الدماء التي خلّفناها وراءنا. دمه، في معظمه. كان الرصيف مقلّمًا. راسب ثقافيّ مثير للاهتمام. رفع

رأسه بوهن، وقذف مزيدًا من الديلار في حلقه. اليد الممسكة بالمسدّس تُجرّ على الأرض.

وصلنا إلى السيّارة وأفلت جسد مِنْك، عن غير عمد، وبدأ يتقلّب ويدور، مثل سمكة. أصدر شهقات وأصوات اختناق، تناقص الأكسجين. قرّرت إجراء عملية تنفس صناعيّ، فمًا لفم. انحنيت فوقه، استخدمت إبهامي وسبّابتي لإغلاق أنفه ثمّ حاولت ضبط وضعيّة وجهي على وجهه. غرابة وحميميّة الفعل زادت من جلال الوضع بأسره في هذه الظروف. وكلّما كبر الوضع، تعاظم غناه. واصلت محاولة الوصول على فمه كي أنفث دفقات قويّة من الهواء إلى رئتيه. كانت شفتاي متقاربتين، جاهزتين لتأخذا شكل قمع. عيناه لاحقتاني نحو الأسفل. ربّما ظنّ أنّه على وشك تلقّي قبلة. استمتعت بالمفارقة.

كان فمه يسبح برغوة الديلار المتقيّأ، وأقراص نصف ممضوغة، وكسرات صغيرة من البوليمر. أحسست بالسمو واللاأنانيّة، متعاليًا على الضغينة، كان هذا هو مفتاح الإيثار، أو هذا ما بدا لي وأنا أنحني فوق الرجل المصاب، أزفر بإيقاع مضبوط في الشارع القذر تحت الطريق. تجاهل القرف. اغفر للجسد المخطئ. احتضنه تمامًا. بعد عدّة دقائق من تكرار هذا، أحسست أنّه قد عاد، يتنفّس على نحو طبيعيّ. بقيت فوقه، وفمانا يتلامسان تقريبًا.

قال: «من أطلق النار عليّ؟»

- «أنت».

- «ومن أطلق النار عليك؟»

- «أنت. المسدّس في يدك».

- «ما المغزى الذي كنت أحاول إثباته؟»

- «كنت فاقد السيطرة على نفسك. لم تكن مسؤولًا. أنا أسامحك».

- «من أنت حقًّا؟»

- «عابر. صديق. هذا ليس مهمًّا».

- «بعض الدود كثير الأرجل يمتلك عيونًا، وبعضه لا عيون له».

بكثير من الجهد، ومحاولات فاشلة كثيرة، أدخلته في المقعد الخلفيّ في السيّارة، حيث تكوّر على نفسه وهو يئنّ. لم يعد ممكنًا تبيُّن ما إذا كان الدم على يدي وملابسي هو دمه أم دمي. تورّمت إنسانيّتي. شغّلت السيّارة. الألم في ذراعي كان ينبض، أقلّ قوّة الآن. قدت السيّارة بيد واحدة عبر الشوارع المقفرة، باحثًا عن مستشفى. آيرن سيتي لاينغ إن. ماذر أوف ميرسي. كوميزيريشن أند رابورت. سأقبل بأيّ شيء موجود، حتّى جناح الطوارئ في أسوأ جزء من البلدة. هنا ننتمي في نهاية المطاف، مع الجروح النازفة المتعدّدة، جروح دخول الرصاصة وخروجها، الجروح بفعل الأشياء المثلّمة، الرضوض، الجرعات المفرطة، الهذيانات الحادّة. كلّ ما وجدناه من سيّارات في الشوارع كانت ڤان لنقل الحليب، ڤان مخبز، وعدّة شاحنات ثقيلة. بدأت السماء تُضاء. وصلنا إلى مكان يلوح فوق مدخله صليب مضاء بالنيون. كان بناءً من ثلاثة طوابق ربّما كان كنيسة خمسينيّة، روضة أطفال، المكاتب الرئيسيّة العالميّة لحركة كتائب شبابيّة.

كان هناك منحدر للكراسي المتحرّكة، وهذا يعني أنّ بإمكاني جرّ مِنْك إلى الباب الأماميّ من دون أن اضرب رأسه على الدرجات الخرسانيّة. أخرجته من السيّارة، أمسكت قدمه الملساء وجررته على المنحدر. أبقى إحدى يديه على منتصف جسده ليكبح التدفّق. يد المسدّس تُجرّ خلفه. الفجر. كانت ثمّة كثافة غنيّة في هذه اللحظة، شفقة وحنوّ ملحميّان. بعد أن أطلقت النار عليه، وبعد أن دفعته إلى تصديق أنّه أطلق النار على نفسه، أحسست أنّني كرّمت كلينا، جميعنا، عبر دمج حظوظنا، لأقوده إلى برّ الأمان بجسدي. مشيتُ خطوات طويلة بطيئة،

جارًّا جسده. لم يخطر لي أنّ محاولات المرء لبلوغ الخلاص قد تُطيل الابتهاج الذي أحسّ به حين اقترف الجريمة التي يسعى الآن إلى التكفير عنها. قرعت الجرس. وخلال ثوانٍ، ظهر شخص على الباب. كانت امرأة عجوزًا، راهبة، بثوب أسود، وحجاب أسود، تتّكئ على عكّاز.

قلت: «نحن مصابان برصاص». رافعًا معصمي في الهواء.

- «نرى الكثير من هذه الحوادث هنا». ردّت بهدوء، بصوت فيه لهجة غريبة، ثمّ استدارت لتعود إلى الداخل.

جررت مِنْك عبر المدخل. بدا المكان وكأنّه عيادة. كانت هناك غرف انتظار، حجرات مزوّدة بأجهزة، أبواب عليها إشارة الأشعّة السينيّة، وفحص العيون. تبعنا الراهبة العجوز إلى غرفة الرضوض. ظهر ممرّضان، رجلان قصيران ضخمان مثل مصارعي السومو. حملا مِنْك على طاولة ومزّقا ملابسه بحركات قصيرة أنيقة خبيرة.

قال: «الدخل الحقيقيّ المضبوط-المتضخّم».

وصلت راهبات أخريات، تحف أثوابهنّ، مسنّات، يتحدّثن الألمانيّة فيما بينهن. حملن معدّات نقل الدم، دفعن صواني أدوات تلمع على عربات بعجلات. اقتربت الراهبة الأصليّة من مِنْك لتأخذ المسدّس من يده. شاهدتها ترميه في درج فيه أكثر من عشرة مسدّسات أخرى وعدّة سكاكين. ثمّة صورة على الجدار لجاك كينيدي يصافح البابا يوحنّا الثالث والعشرين في الجنّة. الجنّة كانت مكانًا غائمًا جزئيًّا.

وصل الطبيب، رجل مسنّ ببزّة رثّة من ثلاث قطع. تحدّث بالألمانيّة مع الراهبات وتفحّص جسد مِنْك الذي كان مغطّى جزئيًّا بالملاءات.

قال ويلي: «لا أحد يعلم لمَ تأتي طيور البحر إلى سان ميغيل».

كنت قد بدأت أحبّه. أخذتني الراهبة الأولى إلى حجرة لترى جرحي. بدأت أبتكر لها قصّة إطلاق النار ولكنّها لم تبدِ اهتمامًا. قلت لها إنّ المسدّس قديم والرصاصات شبه تالفة.

- «يا له من بلد عنيف».

قلت: «هل تسكنين جيرمان تاون منذ وقت طويل؟»

- «نحن آخر الألمان».

- «من يعيش هنا الآن، في الغالب؟»

- «في الغالب لا أحد».

جاءت راهبات أخريات، سبحات ثقيلة تتدلّى من أحزمتهنّ. كنّ يشكّلن منظرًا جميلًا، ذلك النوع من الحضور المتجانس الذي يدفع الناس في المطارات إلى الابتسام.

سألت راهبتي عن اسمها. الأخت هرمان ماري. قلت لها إنّني أعرف بعض الألمانيّة، محاولًا كسب عطفها، كما أفعل دائمًا مع أيّ كادر طبّيّ من أيّ نوع، على الأقلّ في المراحل الأولى، قبل أن يتغلّب خوفي وارتيابي على أيّ أمل قد يتشكّل لديّ في التلاعب من أجل اكتساب ميزة.

قلت: «Gut، besser، best، [جيّد، أفضل، الأفضل]»

ارتسمت ابتسامة على وجهها المتغضّن. عدّدت لها الأرقام، أشرت إلى أشياء وقلت أسماءها. حنت رأسها بسعادة، وهي تنظّف الجرح وتلفّ المعصم بضمادات معقّمة. قالت إنّني لن أحتاج إلى جبيرة وأخبرتني أنّ الطبيب سيكتب لي وصفة من أجل مضادّات التهاب. ولكي نهدأ عددنا حتى عشرة معًا.

دخلت راهبتان أخريان، ذابلتان مسنّتان. قالت راهبتي لهما شيئًا وسرعان ما انخرطنا نحن الأربعة بسعادة في حوار مثل الأطفال. عددنا الألوان، قطع الملابس، أعضاء الجسم. شعرت براحة شديدة مع هذه الرفقة المتحدّثة بالألمانيّة أكثر ممّا حدث مع باحثي هتلر. هل ثمّة ما هو شديد البراءة في ترديد الأسماء التي تُسعد الله؟

أنهت الأخت هرمان ماري لمساتها الأخيرة على جرح الرصاصة. من كرسيّي كنت قادرًا بوضوح على رؤية صورة كنيدي والبابا في الجنّة. تملّكني احترام خفيّ للصورة. أشعرني بتحسّن، وبانتعاش عاطفيّ. لا يزال الرئيس قويًّا بعد الموت. ويبدو ابتعاد البابا عن التكلّف مثل إشعاع. لم لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ لم لا يمكن أن يلتقيا في مكان ما، في المستقبل، بمواجهة سحاب منفوش، ليتصافحا؟ لم لا ينبغي أن نلتقي جميعنا، كما في ملحمة من الآلهة المتبدّلين والناس العاديّين، فوق، بأفضل هيئاتنا، مشعّين؟

قلت لراهبتي: «ما الذي تقوله الكنيسة بشأن الجنّة اليوم؟ هل هي لا تزال الجنّة القديمة، مثل تلك في السماء؟»

نظرت إلى اللوحة. قالت: «هل تعتبرنا أغبياء؟»

فوجئت بقوّة ردّها.

- «إذًا ما الجنّة، وفقًا للكنيسة، إن لم تكن دار الله والملائكة وأرواح من نجوا؟»

- «نجوا؟ ما معنى نجوا؟ من سيأتي إلى هنا ليتحدّث عن الملائكة هو شخص أحمق. أرني ملاكًا. رجاءً. أريد أن أرى».

- «ولكنّك راهبة. الراهبات يؤمنّ بهذه الأمور. حين ترى راهبة، ستشعر بالبهجة، فهذا لطيف وممتع، أن تتذكّر أنّ ثمّة شخصًا لا يزال يؤمن بالملائكة، بالقدّيسين، بكلّ تلك الأمور التقليديّة».

- «لا بدّ أن يكون لديك رأس شديدة الحماقة كي تؤمن بهذا؟»

- «ليس مهمًّا ما أؤمن به أنا. بل المهمّ هو ما تؤمنين أنت به».

قالت: «هذا صحيح. غير المؤمنين يحتاجون إلى المؤمنين. يسعون بيأس ليجدوا شخصًا مؤمنًا. ولكن أرني قدّيسًا. أعطني شعرة واحدة من جسد قدّيس».

انحنت نحوي ووجهها الصارم مؤطّر بالحجاب الأسود. بدأت أشعر بالقلق.

- «نحن موجودون هنا لنعتني بالمرضى والمصابين. هذا فقط. لو أردت التحدّث عن الجنّة، عليك إيجاد مكان آخر».

قلت بتفكير: «الراهبات الأخريات يرتدين أثوابًا. أنت لا تزالين ترتدين اللباس الموحّد القديم. الرداء، والحجاب، والحذاء عالي الكعب. لا يبدو أنّك تؤمنين بالتراث. الجنّة والجحيم القديمان، والقُدّاس اللاتينيّ. البابا معصوم، الله خلق العالم في ستّة أيّام. المعتقدات القديمة العظيمة. الجحيم بحيرات مشتعلة، شياطين مجنّحة».

- «تأتيني نازفًا من الشارع لتخبرني أنّ الأمر استغرق ستّة أيّام لخلق كون؟»

- «واستراح في اليوم السابع».

- «تريد التحدّث عن الملائكة؟ هنا؟»

- «بالطبع هنا. أين إذًا؟»

كنت محبَطًا ومحتارًا، أوشك على الصياح.

- «لم لا تكون الجيوش هي من تحارب في السماء مع نهاية العالم؟»

- «لمَ لا؟ لمَ أصبحتِ راهبة أساسًا؟ لم تعلّقون تلك اللوحة على الجدار؟»

أرجعت جسدها، وامتلأت عيناها بسعادة ترشح ازدراءً.

- «إنّها من أجل الآخرين، ليست لنا».

- «ولكن هذا سخيف. أيّ آخرين؟»

- «جميع الآخرين. الآخرون الذين يمضون حياتهم يؤمنون بأنّنا لا نزال مؤمنين. إنّ واجبنا في العالم هو أن نؤمن بأشياء لا يأخذها أحد

على محمل الجدّ. عند هجران هذه المعتقدات كلّيًّا، سيموت العِرق البشريّ. لهذا السبب نحن هنا. أقلّيّة صغيرة. تجسّد الأشياء القديمة، المعتقدات القديمة. الشيطان، الملائكة، الجنّة، الجحيم. لو لم نتظاهر بالإيمان بهذه الأشياء، سينهار العالم».

- «تظاهر؟»

- «بالطبع تظاهر. هل تظنّ أنّنا أغبياء. لا يا رجل».

- «أنتِ لا تؤمنين بالجنّة؟ راهبة؟»

- «إن لم تكن أنت تؤمن، لم ينبغي أن أؤمن أنا؟»

- «لو آمنتِ، قد أؤمن».

- «لو فعلتُ، لن يتوجّب عليك هذا».

قلت: «كلّ التشوّشات والالتواءات القديمة. الإيمان، الدين، الحياة الأبديّة. كلّ السذاجات القديمة العظيمة. هل تقولين إنّك لا تأخذينها على محمل الجدّ؟ التزامك مجرّد تظاهر؟»

- «تظاهرنا التزام. لا بدّ أن يبدو شخص ما مؤمنًا. حيواتنا ليست أقلّ جدّيّة ممّا ستكون عليه لو جهرنا بإيمان حقيقيّ، اعتقاد حقيقيّ. مع انكماش الإيمان في العالم، يعتبر الناس أنّ من اللازم جدًّا أكثر من أيّ وقت مضى أن يوجد شخص مؤمن. رجال بعيون متوحّشة في الكهوف. راهبات يرتدين الأسود. رهبان لا يتكلّمون. لقد تُركنا كي نؤمن. حمقى، أطفال. ولا بدّ من أن يحافظ من هجروا إيمانهم على إيمانهم بنا. هم واثقون أنّهم محقّون في عدم الإيمان ولكنّهم يدركون أنّ الإيمان يجب أن يتلاشى تمامًا. الجحيم حيث لا يوجد مؤمنون، فلا بدّ دومًا من وجود مؤمنين. حمقى، أغبياء، من يسمعون أصواتًا، من يتحدّثون بلغات غريبة. نحن مجانينكم. نسلّم حياتنا كي نجعل عدم إيمانكم ممكنًا. أنت واثق أنّك على حقّ ولكنّك لا تريد أن يعتبرك الجميع هكذا. ليس ثمّة حقيقة بلا حمقى. نحن حمقاكم، مجانينكم، نستيقظ فجرًا كي نصلّي، نشعل الشموع، نطلب من تماثيل صحّة جيّدة، وحياة طويلة».

- «لقد عشتِ حياة طويلة. ربّما نجح الأمر».

أطلقتْ ضحكة صاخبة، مظهرة أسنانًا قديمة جدًّا بحيث كادت تكون شفّافة.

- «عاجلًا وليس آجلًا ستفقدون مؤمنيكم».

- «كنت تصلّين من أجل لا شيء طوال هذه السنوات؟»

- «من أجل العالم يا غبيّ».

- «ولا شيء يبقى؟ الموت هو النهاية؟»

- «هل تريد أن تعرف ما أؤمن به أم ما أدّعي إيمانه؟»

- «لا أريد الإنصات إلى هذا. هذا رهيب».

- «ولكنّه حقيقيّ».

- «أنت راهبة. تصرّفي كراهبة».

- «نحن نقطع عهودًا. الفقر، والعفّة، والطاعة. عهود جدّيّة. حياة جدّيّة. لم تكن أنت لتنجو من دوننا».

- «لا بدّ أنّ بعضًا منكم لا يتظاهر، يؤمنون حقًّا. أعلم أنّهم موجودون. قرون من الإيمان لن تتلاشى خلال عدّة سنوات. كانت هناك مجالات كاملة من الدراسة مكرّسة لهذه المواضيع. أنجيلولوجيا، فرع من اللاهوت مخصّص لدراسة الملائكة فقط. علم الملائكة. عقول عظيمة تجادلت بشأن هذه الأمور. وهناك عقول عظيمة اليوم. ولا يزالون يتجادلون. لا يزالون يؤمنون».

- «تأتي من الشارع تجرّ جثّة من قدمها ثمّ تتحدث عن الملائكة التي تعيش في السماء... لا يا رجل!»

قالت شيئًا بالألمانيّة. لم أتمكّن من فهمه. ثمّ تحدّثت مجدّدًا، بشيء من الإسهاب، ضاغطة وجهها باتّجاه وجهي، وباتت الكلمات أقسى، أرطب حلقيّة. وقد بان في عينيها بهجة زهيبة حيال عدم استيعابي. كانت ترشّني بالألمانيّة. عاصفة من الكلمات. أصبحت أكثر حيويّة

مع تقدّم الحديث. مرح متَّقِد تسلّل إلى صوتها. كانت تتحدّث أسرع، وأكثر تعبيرًا. نتأت الأوعية الدمويّة في عينيها ووجهها. بدأت ألمح إيقاعًا، نبضًا منتظمًا. كانت ترتّل شيئًا، كما خمّنت. ابتهالات، ترانيم، خلاصات. أسرار السبّحة ربّما. توبّخني بصلاة مزدرية.

الأمر الغريب هو أنّني وجدتها جميلة.

بعد أن ضعف صوتها، غادرت الحجرة وتجوّلت إلى أن وجدت الطبيب المسنّ. «Doktor ،Herr، [سيّدي الطبيب]» صحت، وكأنّني في فيلم. شغّل سمّاعة أذنه. أخذت الروشتة، وسألته ما إذا كان ويلي مِنْك سيتحسّن. لن يتحسّن، خلال هذه الفترة على الأقلّ. ولكنّه لن يموت أيضًا، ما أتاح له أفضليّة عليّ.

كانت رحلة العودة إلى المنزل هادئة. تركت السيّارة في ممشى ستوفر. المقعد الخلفيّ مغطّى بالدماء. وثمّة دماء على عجلة القيادة، ودم أكثر على لوحة السيّارة ومقابض الأبواب. الدراسة العلميّة للسلوك الثقافيّ وتطوّر الإنسان. الأنثروبولوجيا.

صعدت إلى الطابق العلويّ وراقبت الأطفال برهة. جميعهم نيام، يتلعثمون في أحلامهم، العيون تتحرّك بسرعة تحت الأجفان المغلقة. دخلت في السرير بجانب بابيت، بثيابي كاملة باستثناء الحذاء، عارفًا على نحو ما أنّها لن تجد هذا غريبًا ولكنّ ذهني واصل اندفاعه، فعجزت عن النوم. بعد وقت نزلت إلى المطبخ لأجلس مع فنجان قهوة، أحسّ بالألم في معصمي، والنبض المتسارع.

لم يكن هناك ما أفعله ما عدا انتظار الغروب القادم، حينما تبدو السماء مثل البرونز.

40

كان هذا هو اليوم الذي ركب فيه وايلدر على درّاجته الهوائيّة ثلاثيّة العجلات، دار بها حول المجمّع السكنيّ، انعطف إلى اليمين نحو شارع

بنهاية مغلقة وحرّك الدوّاسات بصخب إلى النهاية المغلقة. دار بالدرّاجة حول السياج الحديديّ ثمّ انطلق في ممشى مرصوف يتعرّج عند أراض شاسعة وصولًا إلى عشرين درجة خرسانيّة. العجلات البلاستيكيّة تقعقع وتصرّ. هنا يُخلي سردنا مكانه للوصف المرعب الذي عبّرت عنه عجوزان تراقبان من الشرفة الخلفيّة في الطابق الثاني لبناء عالٍ بين الأشجار. قاد الدرّاجة نزولًا على الدرج، يُديرها بيد مطيعة مستسلمة، تاركًا الدرّاجة ترتطم بالدرج، كما لو كانت أخًا أصغر غريب الشكل ليس مُبهجًا بالضرورة. ركبها مرّة أخرى وقادها على طول الرصيف وتابع إلى المنحدر المعشوشب الذي يشكّل زاوية الطريق السريعة. هنا بدأت المرأتان تناديان. هيه، هيه، قالتا، بتردّد بدايةً، كما لو أنّهما لم تكونا جاهزتين لتقبّل تبعات العمليّة التي تحدث أمامهما. حرّك الصبيّ الدوّاستين نزولًا على المنحدر، مخفّفًا زاوية الانحدار بذكاء، ثمّ توقّف عند نهاية المنحدر ليقود درّاجته الثلاثيّة إلى نقطة في الطرف المقابل بدت تمثّل المسافة الأقصر للعبور. هيه، يا بنيّ، لا. تلوّحان بأذرعهما، تبحثان بهياج عن عابر بالغ يظهر أمامهما. وايلدر، في هذه الأثناء، متجاهلًا صيحاتهما أو عاجزًا عن سماعها ضمن صخب السيّارات المغلقة والشاحنات المندفعة، بدأ يقود الدرّاجة عبر الطريق السريعة، مشحونًا بقوّة غامضة. عجزت المرأتان عن النظر، فغرتا فميهما، وإحدى ذراعَيْ كلّ منهما مرفوعة من الهواء، تناشدان المشهد أن ينعكس، أن يحرّك الطفل دعّاستي درّاجته الزرقاء والصفراء إلى الخلف مثل شخصيّة أفلام كرتون على تلفزيون صباحيّ. عجز السائقون عن استيعاب التلويحات تمامًا. في وضعيّتهم الثابتة، مثبّتين بالأحزمة، كانوا يعلمون أنّ هذه الصورة لا تنتمي إلى الوعي المندفع للطريق السريعة، التيّار الحداثيّ الصّارخ. في السرعة، ثمّة مغنى. في العلامات، في النماذج، في الحيوات التي تُحسب بأجزاء الثانية. ما الذي كانت تعنيه هذه الضبابيّة الماشية الصغيرة؟ قوّة ما في هذا العالم أصبحت غريبة.

انحرفوا بسيّاراتهم، ضغطوا المكابح، أطلقوا الزمامير في تلك الظهيرة، مثل عويل حيوانيّ. لم يكلّف الطفل نفسه عناء النظر إليهم، متابعًا تدوير الدعّاستين مباشرة نحو الشريط الذي يقطع الطريق إلى نصفَيْن، بقعة ضيّقة من العشب الباهت. كان مندفعًا، مفعمًا بالطاقة، ذراعاه تتحرّكان بمثل سرعة ساقيه، والرأس المستديرة تهتزّ بعزم مغفَّل. كان عليه أن يبطئ ليصل إلى الشريط المرتفع، رافعًا مقدّمة الدرّاجة ليتيح للعجلة الأماميّة أن تستقرّ على الشريط، شديد العناية بحركاته، متّبعًا خطّة مرقّمة ما، والسيّارات تندفع بقربه، أصداء الزمامير تزعق خلفه، وعيون السائقين مثبّتة على المرآة الأماميّة، جرّ الدرّاجة يقرّبه عبر العشب. المرأتان اللتان تراقبانه استعدن ثبات جلستهنّ على الكراسي. ابق، صاحتا، لا تذهب. لا، لا. مثل أجنبيّتين محكومتين بعبارات قصيرة بسيطة. واصلت السيّارات اندفاعها، تشقّ طريقها إلى الأمام وسط حركة مرور لا تهدأ. استعدّ لعبور المسارب الثلاثة الأخيرة، قافزًا من الشريط مثل كرة نطّاطة، ثمّ العجلة الأماميّة، فالعجلتان الخلفيّتان. ثمّ اندفاع الرأس المهتزّة إلى الطرف الآخر. السيّارات راوغت، انحرفت، صعدت على الرصيف، وبرزت وجوه مندهشة من النوافذ الجانبيّة. لم يكن الصبيّ الذي يحرّك دعّاستَيْ درّاجته باندفاع يعلم مدى بطء حركته من وجهة نظر المرأتين على الشرفة. المرأتان شلّهما الصمت الآن، وبدتا خارج الحدث، حلّ عليهما التعب فجأة. بطء حركته، مدى خطأ تقديره حين ظنّ أنّه يندفع بسرعة. كلّ هذا تسبّب لهما بالتعب. تابعت الزمامير زعيقها، الأمواج الصوتيّة تمتزج في الهواء، حادّة، صداها ينبعث من السيّارات المتلاشية، يسوط الهواء. وصل إلى الطرف الآخر، قاد الدرّاجة بالتوازي مع حركة المرور للحظات، وبدا بأنّه سيفقد توازنه، يقع، يسقط من الناصية إلى الفوضى متعدّدة الألوان. حين عاود ظهوره بعد ثانية، كان يجلس في أخدود مائيّ، يشكّل جزءًا من الجدول المائيّ المتقطّع المحاذي للأوتوستراد. مصدومًا، حسم أمره وبدأ يبكي. استغرق الأمر لحظة،

الطين والماء في كلّ مكان، والدرّاجة منقلبة على جانبها. بدأت المرأتان تصيحان مرّة أخرى، ترفع كلّ منهما ذراعها لتحريض الفعل. صبيّ في الماء، قالتا. انظروا، النجدة، غريق. وهو قد بدا، في جلوسه في الجدول، يبكي بتفجّع، بعد أن سمعهما للمرة الأولى، ينظر باتّجاه الرابية شرقًا ثمّ إلى الأشجار خلف الطريق السريعة. أرعبهما هذا أكثر. تصيحان وتلوّحان، تقتربان من مراحل الهلع الأولى العصيّة على السيطرة عندما مرّ سوّاق، كما يُسمّى هؤلاء الناس، وتوقّف بتحفّز، خرج من السيّارة، عبر الناصية ورفع الصبيّ من المياه الموحلة، رافعًا إيّاه إلى الأعلى كي تراه العجوزان الصارختان.

نذهب إلى الجسر على الدوام. بابيت، وايلدر، وأنا. نأخذ ترمس شاي مثلّج، نركن السيّارة. نشاهد الشمس الغاربة. السحب لا تُعيق النور. السحب تكثّف الدراما، تتقاطع مع الضوء وتشكّله. ليس للسحب الثقيلة إلا آثار طفيفة. يشعّ الضوء عبرها، في خطوط وأقواس دخانيّة. السماء الملبّدة بالغيوم تقوّي المزاج. لا نجد كلامًا كثيرًا نتبادله، تصل سيّارات أخرى، تركن في خطّ يمتدّ نزولًا إلى المناطق السكنيّة. يتسلّق الناس الرابية ومنها إلى الجسر، يحملون فاكهة ومكسّرات، مشروبات باردة، مَنْ هم في منتصف العمر في الغالب، والأكبر سنًّا، بعضهم مع كراسٍ شاطئيّة قابلة للطيّ يضعونها على الرصيف، ولكن الأزواج الشبابَ يأتون أيضًا، يتأبّط كلّ منهم ذراع الآخر عند السياج، ينظرون غربًا. تأخذ السماء مضمونًا، شعورًا، حياة سرديّة رفيعة. خيوط اللون ترتفع عاليًا، وتبدو أحيانًا أنّها تتحلّل إلى مكوّناتها. هناك سماوات متعدّدة الألوان، عواصف خفيفة، قصاصات تسقط بنعومة. من الصعب معرفة ما ينبغي أن نشعر به حيال هذا. بعض الناس يخافون الغروب، وبعضهم مصمّم على التسامي، ولكن معظمنا يعجز عن معرفة مشاعره، مستعدّون للميل إلى هذا الطرف أو ذاك. المطر ليس معيقًا. يولّد المطر مشاهد متداخلة، ألوانًا هاطلة رائعة. سيّارات أخرى تصل، يجهد الناس

في تسلّق الرابية. روح هذه الأمسيات الدافئة عصيّة على الوصف. ثمّة ترقّب في الجوّ ولكنّه ليس الهمهمة الصيفيّة المتوقّعة لحشد يقمصان قصيرة الأكمام، ألعاب الرمل، مع حوادث سابقة مماثلة متّسقة، تاريخ من الاستجابة الآمنة. هذا الترقّب منطوٍ على نفسه، متقطّع، يكاد يكون خجولًا متردّدًا، يميل نحو الصمت. ماذا تشعر أيضًا؟ بالطبع هناك لوعة، إنّها لوعة شاملة، تتجاوز كلّ تصنيفات اللوعة السابقة، ولكنّنا لا نعلم ما إذا كنّا نشاهد بدهشة أم رهبة، لا نعلم ما نشاهد أو ما يعنيه، لا نعلم ما إذا كان دائمًا، مستوى من التجربة سنتكيّف معه تدريجًا، حياله ستُمتصّ كلّ شكوكنا في النهاية، أم هو غرابة طقس سرعان ما تختفي. الكراسي القابلة للطيّ تُفتح، ويجلس المسنّون. ما الذي يجدر قوله؟ لحظات الغروب تتريّث وكذا نحن. السماء تحت تأثير تعويذة، قويّة وأسطوريّة. بين حين وآخر تعبر سيّارة وتتابع طريقها، تمشي ببطء، بإجلال. يتواصل توافد الناس على الرابية، بعضهم بكراسٍ متحرّكة، أقعدهم المرض، ومن يرافقونهم يحنون أجسادهم بشدّة ليدفعوا الكراسي صعودًا. لم أكن أعرف عدد المقعدين والعاجزين في البلدة إلى أن عملت الليالي الدافئة على اجتذاب الحشود إلى الجسر. السيّارات تمرّ مسرعةً تحتنا، قادمة من الغرب، من خلف أفق النور، ونراقبها كمن ينتظر إشارة، كما لو أنّها تحمل على سطوحها المظلّيّة بقايا الغروب، بريقًا يومض بالكاد، أو سديمًا من الغبار المخدّر. لا أحد يشغّل الراديو أو يتحدّث بصوت أعلى من الهمس. شيء ذهبيّ يهطل، نعومة تُنقَل إلى الهواء. هناك أناس ينزّهون كلابهم، هناك أطفال على الدرّاجات، رجل مع كاميرا بعدسة طويلة ينتظر لحظته. ليس قبل أن يخيّم الظلام بفترة، وتبدأ الحشرات أزيزها في الحرارة، حتّى تبدأ بالتفرّق ببطء، بخجل، بهدوء، سيّارة إثر أخرى، لنعود إلى ذواتنا المنفصلة المبرَّرة.

لا يزال الرجال ببزّات مايلكس في المنطقة، بخراطيمهم الصفراء، يجمعون بياناتهم الرهيبة، مصوّبين أجهزتهم التي تعمل بالأشعّة تحت الحمراء نحو الأرض والسماء.

يريد د. تشاكراڤارتي التحدّث إليّ ولكنّني أتحاشاه. إنّه متحمّس لرؤية مدى تقدّم موتي. حالة مثيرة للاهتمام ربّما. يريد أن يدخلني مرّة أخرى في جهاز التصوير، حيث تتصادم الجزيئات المشحونة، وتهبّ رياح عالية. ولكنّني خائف من جهاز التصوير. أخاف حقوله المغناطيسيّة، دفقه النوويّ المضبوط بالكمبيوتر. خائف من ما يعرفه عنّي.

لا أتّخذ أيّ قرار.

حدثت إعادة ترتيب لرفوف السوپرماركت. حدث هذا يومًا ما دون سابق إنذار. ثمّة توتّر وهلع في الممرّات، تيه في وجوه المتسوّقين المسنّين. يمشون بخطوات متقطّعة، يقفون ويتابعون، تجمّعات من الناس بكامل هندامهم يتجمّدون في الممرّات، يحاولون اكتشاف نموذج الترتيب، استنتاج المنطق الكامن، يحاولون تذكّر أين رأوا كريما القمح. لا يرون سببًا لهذا، لا يجدون معنى في هذا. أدوات التنظيف مع صابون الأيدي الآن، التوابل مشتّتة. كلّما تقدّم الرجل أو المرأة في العمر، تزايد اهتمامه وحرصه على هندامه. الرجال ببناطيل فضفاضة وقمصان زاهية من القماش. النساء بمكياجهنّ وبهرجتهنّ، في مزاج شديد الوعي بذواتهنّ، مهيّآت لحدث مقلق ما. ينعطفون في الممرّات الخاطئة، يتمعّنون في الرفوف، وأحيانًا يتوقّفون فجأة، فتصدمهم عربات الآخرين. وحده قسم الطعام العضويّ في مكانه، حيث العلب البيضاء واضحة التصنيف. يلجأ الرجال إلى اللوائح، على عكس النساء. ثمّة إحساس تعجّب الآن، مزاج تائه مشغول، أناس ذوو مزاج هادئ يُدفَعون إلى حدّ الغضب. يتمعّنون في الحروف الصغيرة على العلب، يخشون مستوى ثانيًا من الخيانة. يتفحّص الرجال تواريخ الصلاحيّة بينما تتفحّص النساء المكوّنات. ويلاقي كثيرون مشقّة في تبيّن الكلمات. طباعة ملطّخة، صور باهتة. في الرفوف المتبدّلة، الجليّة الصادحة، في

الحقيقة الواضحة والقاسية المتعلّقة بانهيارهم، يحاولون تلمّس طريقهم وسط الفوضى. ولكن في النهاية لا يهمّ ما يرونه أو يظنّون أنّهم رأوه. طاولات الحساب مجهّزة بماسح مسطّح، يفكّ السرّ المستغلق لكلّ مادّة، من دون أيّ مجال للخطأ. هذه هي لغة الأمواج والإشعاعات، أو كيف يتحدّث الموتى للأحياء. وهنا مكان انتظارنا جميعًا، بصرف النظر عن العمر، عرباتنا تغصّ بسلع ملوّنة برّاقة. طابور يتحرّك ببطء، على نحو مُرْضٍ، يمنحنا الوقت لتقليب جرائد التابلويد الموضوعة على الرفوف. كلّ ما نحتاج إليه وليس طعامًا أو حبًّا موجود هنا على رفوف التابلويد. حكايا الظواهر الخارقة للطبيعة والحياة خارج الأرض. الڤيتامينات المعجزة، علاجات السرطان، أدوية للسُّمنة. طوائف المعجبين بالمشاهير والموتى.

دون ديليلو (1936):

روائيّ أميركيّ يُعتبر أحد الأعمدة الكبار في الأدب الأميركيّ بعد الحرب العالميّة الثانية. ويكاد يكون تأثيره قد شمل جميع الأجيال الأدبيّة الأميركيّة حتى اليوم. عمل في المجال الإعلانيّ في الخمسينيّات قبل أن يتفرّغ للكتابة عام 1964، ويبدأ مسيرةً روائيّة مهمّة منذ عمله الأول أميركانا (1971)، ثم تلاحقت رواياته التي عادة يرافقها احتفاء نقديّ كبير لم يتوازَ بدايةً مع حضور جماهيريّ واسع. ومع صدور روايته الثامنة ضوضاء بيضاء (1985) النبي نالت جائزة الكتاب الوطنيّ، اشتُهر ديليلو وصار أحد أهم الكتّاب الأميركيين نقدًا وانتشارًا. نال عدة جوائز أخرى، على أعمالٍ مُفردة وعلى مجمل أعماله، خلال مسيرته الممتدة نصف قرن بين الرواية والمسرحيّة والمقال والسيناريو السينمائيّ. هو اسمٌ دائمٌ في لوائح الترشيحات لجائزة «نوبل» منذ سنوات. من أهم أعماله: ليبرا (1988)، ماو الثاني (1991)، العالم السفليّ (1997) [التي تُعتبَر من أهم 100 رواية في القرن العشرين]، الملاك إزميرالدا (2011)، زيرو كيه (2016).

المترجم، يزن الحاج (1985):

كاتب ومترجم سوريّ. أصدر مجموعة قصصيّة وترجم عددًا من الكتب، صدر منها عن دار التنوير: الفلسفة في الحاضر (آلان باديو & سلافوي جيجك، 2013)، الحرّية (إيزايا برلين، 2015)، سمكريّ خيّاط جنديّ جاسوس (جون لوكاريه، 2015)، وكتابان لآلان دو بوتون: عزاءات الفلسفة (2015)، وكيف يمكن لپروست أن يغيّر حياتك (2016).

"يكشف دون ديليلو في ضوضاء بيضاء توافه الوجود الأميركيّ المعاصر ... تقدّم الرواية كوميديا مذهلة، عن الموت أحيانًا، في لغتها الاستثنائيّة وتفاصيلها المنزليّة الغريبة." ديلي ميل

"لا يمكن لأحدٍ كان يبحث عن بهجةٍ صغيرةٍ في بداية العام أن يدّعي أنّ رواية ديليلو ليست فكاهيّة، مع أنّها تترك الأعصاب في حالةٍ أسوأ من الحالة التي كانت عليها ... أن تكون الرواية مُحفّزةً ومرعبةً وفكاهيّة في اللحظة نفسها هو إنجاز حقيقيّ، ويقدّم الحوارُ اللغةَ التقنيّةَ كنوع من الوباء." غارديان

"تحتلّ ضوضاء بيضاء المنطقة الحدوديّة الجينيّة الغريبة حيث تتلاقى الكوميديا الاجتماعيّة مع الخيال العلميّ والموت، حواراتها فكاهيّةٌ إلى درجةٍ رائعة وتحليلها للحياة اليوميّة دقيقٌ على نحو بارع. الزواج، العلاقات العائليّة، الحياة الجامعيّة، ثقافة البلدات الصغيرة، كلّها هدفٌ يتلوّى تحت نظرتها الساخرة. وفي الوقت ذاته نجد جو حياة أواسط الغرب المعاصرة معروضًا برهافة." صنداي تايمز.

"كتب دون ديليلو كتابًا طريفًا على نحو مذهل يتناول مواضيع جدّيّة، حيث يمزج بعفويّة بارعة الكوميديا الاجتماعيّة وأدب الكوارث والفلسفة. مزيج غريب، ولكنّه مضحك، وناجح جدًا." ديلي تلغراف

"ضوضاء بيضاء رواية مثيرة مذهلة لكاتبٍ أميركيٍّ في قمّة قوّته ... من جانب، الكتاب هجاء للحياة الجامعيّة غريبة الأطوار بأسلوب روايات العائلة. ولكنّ ديليلو يحاول أيضًا بلوغ طموح أكبر، وهو تحليل الوسائل التي تعمل من خلالها الثقافة الأميركيّة (أو ثقافة الميديا عمومًا) على تغريب البشر عن تجاربهم الحياتيّة الشخصيّة ... كتاب مُحفّزٌ وشديد الطّرافة." بوكس أند بوك مِنْ

"مزيجٌ أميركيّ فريد من البشريّة الحائرة والتكنولوجيا المتطوّرة يقدّم بعدًا هزليًا رائعًا لرواية ديليلو ضوضاء بيضاء ... الرواية مرعبة وطريفة في آن. كما أنّها إنسانيّة بعمق. كتاب مُقلقٌ وآسر، سيسكن المخيّلة طويلاً بعد انتهاء القراءة." نيو ستيتسمان

تصميم الغلاف نجاح طاهر

ISBN 978-977-6483-73-6

9 789776 483736

التنوير